كنز الدرر وجامع الغرر

الجزء السابع

الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب

تأليف

أبي بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري

تحقيق

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

القاهرة

١٣٩١هـ — ١٩٧٢م

الجزء السابع من تاريخ

كنز الدرر

تأليف

أبي بكر بن عبد الله بن ايبك

مُقدّمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

ربّ اختم بخير

الحمد لله الذى أنشأ الجنين فى الأحشاء ، ثم أبرزه فدبره ، إلى أن ترعرع ومشى ، ودبَّ ونشا . يفعل فى ملكه ما يريد ، ويحكم فى خلقه ما يشاء ، « قل اللهم مالك الملك تُؤْتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير »(١) .

وصلى الله على سيدنا محمد الذى نسخت ملته سائر الملل ، ورسخت هيبته فى قلوب تلك الملوك الأول ، من الأكاسرة والقياصرة ، أرباب الدول والحول . لم يزل صلى الله عليه منصوراً بالرعب والرهب ، حتى بلغ الإيمان أقصى نهاية الأرب ، وأصبحت نواصى ملوك الكفر من العجم بأيدى سادات الإسلام من العرب . صلى الله عليه وعلى آله ، الذين ما خاب من توسل بهم ، وأضحى بجنابهم مستجيرا ، وأنزل فى حقهم « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا »(٢) وعلى أصحابه خلفاء الدنيا ، سادات الآخرة الذين أنزل فى حقهم « وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة »(٣) .

وبعد ، فإن هذا الجزء السابع ، المشنف المسامع ، بدرره اللوامع ، المسمى « بالدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب » ، السادة الأعلام ، وقادة الإسلام ، ملوك مصر والشرق والشام ، الذين شفوا صدور أهل الإيمان ، من عبدة الأوثان

---

(١) سورة آل عمران ، ٢٦

(٢) سورة الأحزاب ، ٣٣

(٣) سورة القيامة ٢٢ ، ٢٣

والصلبان . وكفاهم بالسلطان صلاح الدين شرفاً إلى يوم الدين . فاتح الأمصار ، من أيدى الكفار ، بالصارم البتّار . السيد الفاضل ، والأسد الباسل ، السلطان الملك الناصر ، أبو المعالى والمفاخر ، الذى ليس له من قبله من الملوك الإسلامية مناظر ، المستمد النصر من الناصر الآخر ، الذى وُضع جميع هذا التاريخ توطئة لذكر بعض محاسن سيرته ، منبهاً على آثار مآثر علانيته وسريرته . الخاتم بمحاسنه محاسن سائر ملوك الدنيا ، كما ختم سميه صلى الله عليه جميع الأنبياء . لازالت معانيه من الخواطر مخترعة ، وأبكار أفكار محاسنه من القلوب مفترعة. فلذلك أسهرت ناظرى، وشغلت فكرى وخاطرى ، وأنشأت هذا التاريخ الغريب المثال ، الجامع نبذ الحكم إلى زبد الأمثال ، المشتمل على ما شئت من النوادر . وبان وغبر على ذلك تصاريف الأزمان ، فأحييت ذلك فى أيام دولته القاهرة ، بمدينة القاهرة ، فى سنين عشر الأربعين والسبعمائة، إلى أن بلغت فى ذلك إلى ذكر سيرته الشريفة، فكانت النهاية، وبالله أعتضد فيما أعتمد .

ذكر ابتداء دولة الملوك بنى أيوب
ونسبهم وبدء شأنهم

قال العبد الفقير ، المعترف بالتقصير ، واللسان القصير ، مؤلف هـــذا التاريخ وجامعه ، غفر الله له ولوالديه ولقارئه وسامعه : حدثنى الجناب العـالى المرحوم ناصر الدين محمد الملقب بالملك الـكامل ، من ولد الملك الصالح إسماعيل المعروف بأبى الجيش ، صاحب الشام ، رحمه الله تعالى ، وسائر ملوك المسلمين ، مع كافة أمة محمد أجمعين . وكان الحديث فى سنة عشرة وسبع مائة بمدينة دمشق المحروسة ، والملك الـكامل المذكور يومئذ بها أمير مائة فارس مقدم ألف . وكان حصل بينى وبينه من الصحبة ما كان يطلعنى على كثير من أسراره . وكان الملك الـكامل المذكور ملك النفس والـكرم والسماحة ، فاضل ، راو من كل فن حسن . وكان مع ذلك كثير المزح والخلاعة ، طيب المحاضرة ، لذيذ المفاكهة ، لا يُمل حديثه . لم يزل يروى المضاحكات والنوادر الحسنة ، كثير التنديب على نفسه وعلى أقاربه من أولاد الملوك من بنى أيوب ، حيهم وميتهم . وسيأتى طرف من ذكره وخلاعته وحكاياته فى تاريخه ، إن شاء الله تعالى .

سألت منه ــ رحمه الله ــ ذات يوم عن جدهم أيوب ، ابن من ؟ . فقال : أيوب بن شاذى ابن مروان ، أكراد من جبل نهاوند . قال : وكان مروان فى جيش السلجوقية ، وكان مشهوراً[1] بينهم بقوة وشجاعة ، حتى قيل إنه كان يركض الفرس ويدعه فى قوة جريه ، فيطبق عليه وركيه مع ساقيه ، فيقف الجواد من ساعته ، ولا يعود يتنفس . وكان يمسك ذنب الفرس ويقول[2] للراكب : « حرّك فرسك » فلا ينقل خطوة . وكان يركب ولده شاذى أعنى فرس عنده ، ويأمره أن يحرّك عليــه ، ويمارضه فى

(١) فى المتن : « مشهور » .
(٢) فى المتن : « ويقل » .

الميدان ، والفرس فى قوة جريه ، فيصدمه بصدره فيوقفه . وكان ستين رطلا[(١)] بالبغدادى رمحه . وكان إذا تقابلت الصفوف فى وقت المصافات يبرز إلى الميدان ويطلب المبارزة ، فلا يجسر أحد أن يخرج إليه . وله أحوال كثيرة لا يمكنى ذكرها ، تخامر العقول لا تصدق .

يقول هكذا الملك الكامل . ثم إن ولده شاذى كان يقاربه فى بعض شجاعته ، فصار فى جملة جيش أتابك زنكى أبو نور الدين محمود ، وتقرّب بشجاعته حتى صار أمير علم عند أتابك زنكى ، وحظى عنده ، وتربى أيوب ولده مع محمود بن أتابك .

قال ابن واصل[(٢)] صاحب تاريخ حماة فى نسب آل أيوب : لاخلاف فى أن الملك الأفضل نجم الدين أيوب ، والد الملوك الأيوبية ، وأخاه الملك المجاهد أسد الدين شيركوه ، هما ابنا شاذى بن مروان . ثم قيل إن مروان هو ابن محمد بن يعقوب . واختلف النـاس فى أصلهم ، فذكر عز الدين بن الأثير أن أصلهم من الأكراد الروادية وهم فخذ الهذبانية . وأنكر ذلك جماعة من بنى أيوب ، النسبة إلى الأكراد، وقالوا إنما نحن عرب ، نزلنا عند الأكراد ، وتزوجنا منهم . وادعى بعضهم النسب إلى بنى أمية . وكان الملك إسماعيل بن سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب ـ صاحب اليمن بعد أبيه [سيف الإسلام ظهير الدين] ـ يدعى ذلك ، ولقب نفسه المعز لدين الله ، وخطب لنفسه بالخلافة باليمن ، وذلك فى أيام عمه الملك العادل [سيف الدين أبى بكر] بن أيوب . فلما بلغه ذلك صعب عليه ، وقال : كذب والله ، ما نحن من بنى أمية أصلا .

والذين ادعوا هذا النسب قالوا : أيوب بن شاذى ، بن مروان ، بن الحكم ، ابن عبد الرحمن ، بن محمد ، بن عبد الله ، بن محمد ، [بن محمد] ، بن عبد الرحمن ،

---

(١) فى المتن : « رطل » .

(٢) بالعبارة التالية بعض أخطاء ونقص ، وقد صححناها وأكملناها من الأصل الذى أخذ المؤلف عنه ، انظر (ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٣ ــ ٦) .

ابن الحكم ، بن هشام ، [بن عبد الرحمن الداخل ، بن معاوية ، بن هشام ، بن عبد الملك ، بن مروان ، بن الحكم ، بن أبى العاص ، بن أمية ، بن عبد شمس ، ابن عبد مناف . وفى عبد مناف يجتمع نسب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونسب بنى أمية . فهذا قول من جعل نسبهم فى بنى أمية .

وجماعة آخرون أثبتوا نسبهم فى بنى مرة بن عوف . وممن أثبت نسبهم فى بنى مرة الحسن بن غريب الحرسى ، فإنه أوصل نسبهم إلى على بن أحمد المرِّى ، ممدوح المتنبى حين يقول :

شَرِق الجو بالغبار إذا سا ر على بن أحمد القمقامُ

وأحضر هذا النسب إلى الملك المعظم صاحب دمشق فسمع النسب عليه ، وأسمعه ولده الناصر داود فى سنة تسع عشرة وستمائة .

وكان فى أيوب تغفّل الأكراد وبلههم . وكان [نور الدين][1] محمود يحبه لا يكاد يفارقه ، ويستظرف حديثه . وكان ديناً خيرا صادقا . وكان محمود من صغره دينا فاضلا ورعا ، يحب الفقراء ويبر المساكين . وكان لا يُرى مُجالسا إلا فقيراً . وله دار برسم الورّاد من الفقراء المتجردين . وكان جميع ذلك فى تكريت ، قبل تمليك أتابك الشام . فلما كان نور الدين ملك الشام مع الشرق ، جعل أسد الدين شيركوه ـ وهو أخو أيوب ـ أميرا وحاجبا على الأكراد من جيشه ، وسلم لأيوب قصره ، فكان صاحب الإذن عليه .

قلت : هكذا يقول الملك الكامل ـ رحمه الله ـ ولعله كان كما قيل برددارا[2] لنور الدين ، فحسّن الملك الكامل العبارة فى ذلك. قال : وكان نور الدين ـ رحمه الله ـ له نصيب وافر من الفقراء جدا .

وكان قد صار لأيوب عدة أولاد ـ يوسف وأبو بكر ـ والباق تأتى أسماؤهم فى

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة لإيضاح المعنى .

(٢) البردار : هو الذى يكون فى خدمة مباشرى الديوان فى الجملة ، متحدثا على أعوانه والمتصرفين فيه (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٤٦٨) .

أما كنها . وكان يوسف يعوض لأبيه بباب القصر إذا عرض له عارض . وكان للملك العادل نور الدين ولده إسماعيل . قال أبو المظفر : كان لنور الدين محمود ، هذا الولد إسماعيل ، ولد له بتكريت ، وتوفى بدمشق فى حياة والده . وولده الذى ملك بعده ، ولد بدمشق ، وسماه باسم أخيه إسماعيل ، ولقبه الملك الصالح . وكان فيه لعب واستهتار بالفقراء ، وينكر على أبيه خفية ، إذا خلا بين ندمائه وأصحابه . وكان يوسف بن أيوب من أكبر الخصيصين بمنادمة إسماعيل الملك الصالح ، فكان يقول له: « يا خوند اشتهى منك لا تتعرض لهذا القول ، فالسلطان أخبر بأموره منا » . قال : وجاءت ليلة النصف من شعبان ، وكان الملك العادل [نور الدين محمود][1] يحتفل بمواسم المسلمين ، ويفعل فى كل موسم ماينبغى فيه . فخرج إلى باب القصر بعد عشاء الآخرة ، فطلب أيوب فلم يجده ، وكان قد حصل له وجع فى بطنه أعاقه تلك الليلة ، ووجد يوسف مكانه ، فقال : « يا يوسف خذ إسماعيل ـ يعنى ولده ـ واطلع أنت وهو ، ولا يكن معكما ثالث ، إلى مغارة الجوع وباتا على بابها ، وأحييا قيام هذه الليلة العظيمة القدر . فإذا كان وقت الفجر الأول اصنتا ، ومهما سمعتماه احفظاه وعرفانى به » . فطلعنا وقد أخذنى لكلام السلطان هيبة عظيمة أرعدتنى . يقول يوسف : فلما صرنا على باب المغارة المعروفة بمغارة الجوع بجبل الصالحية ، قال لى الملك الصالح « يايوسف ! افعل ما أمرك به السلطان من إحياء الليلة ، وأما أنا فإنى بانام[2] » ثم إنه انضجع على مافرش له ونام . قال يوسف: فقمت فأحييت تلك الليلة ، وقد داخلنى لكلام السلطان وجل عظيم . فلما كان أول الفجر عند شعشعة العمود ، سمعت حس هفيف كأجنحة طائر كبير ، وأسمع من تلقائه قائلا يقول : « الناصر للصليب كاسر ، وللفرنج خاسر ، وللقدس طاهر . الظاهر للشام طاهر ، وللكفر قاهر ، قاتل كل كافر عاهر . الناصر بالشرق ظافر ، يطؤها بالخف والحافر ، بعد ثلاث تواتر » .

قال الملك الكامل ـ رحمه الله ـ فكان من السلطان صلاح الدين رحمه الله

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة لإيضاح المعنى .

(٢) كذا فى الأصل .

ـ وهو الملك الناصر ـ أن فتح البلاد من الفرنج ، وطهر بيت المقدس منهم ، وكان من أمره ما كان . ثم إن صلاح الدين الملك الناصر لقب ولده بالظاهر ، طمعا أن يكون ذلك الظاهر ، فأبى الله إلا حيث يشاء ، فكان بيبرس البندقدارى صاحب ذلك الرمز المذكور . ثم لقب داود بالناصر ويوسف بالناصر ، طمعاً أن يكونا ذلك الناصر المذكور ، فأبى الله إلا أن يكون حيث يشاء ، وهو مولانا وسيدنا ومالك رقنا ، السلطان الأعظم الملك الناصر ، ناصر الدنيا والدين ، محمد بن مولانا السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاون الألفى الصالحى. وذلك أن بنى أيوب تحيروا فى قوله : « بعد ثلاث تواتر » ما هن ؟ . فلما تردد مولانا السلطان ـ عز نصره ـ إلى الملك ثلاث مرار ، علم أنه صاحب ذلك الرمز المقدم ذكره .

وأما منام أيوب فى حال صباه ، وهو يوم ذاك بتكريت ، فإنه من غريب ما يسمع ، وذلك أنه رأى كأنه قعد للبول ، فعادت إراقته تطلع من إحليله كالفوارة ، إلى أن تعلقت بالسحاب ، ثم انعقدت سحابة وكأنها على بيت المقدس ، ثم مطرت تلك السحابة مطرا عاما حتى غسلت القدس ، مع سائر تلك الأرض . ثم ظهر فى تلك السحابة قمر[1] مع نجوم كثيرة ، حتى أضاءت الأرض كلها من نوره . ثم نبتت تلك الأراضى أنواع الحشائش . وكان فى تلك الأراضى أبقار ترعى ، عدتهم دون المائة . ثم ظهرت من جهة البحر المالح خنازير حتى ملأت تلك الأرض . ثم عادوا يقتلون تلك الأبقار إلا بقرة واحدة ، هربت منهم إلى ناحية الشام. ثم ظهرت من جهة مصر أسود كالبخاتى ، فقتلوا جميع تلك الخنازير ، حتى لم يبق منهم إلا من هرب وقطع البحر . ثم عاد ذلك الحشيش ، وحسن نضارته .

هذا ما نقله الملك الكامل ـ رحمه الله ـ قال: وكان بتكريت فى ذلك الوقت إنسان يعرف بابن المرزبان يعبِّر الرؤيا ، موصوف بحذاقته ، فقص عليه أيوب تلك[2] الرؤيا ،

---

(١) فى المتن : « قمراً » .

(٢) فى المتن : « ذلك الرؤيا » .

فتعجب لذلك ، وقال : ما يجب أن تـكون هذه الرؤيا إلا لملك ، ولـكن الله يعطى ملـكه من يشاء . ثم قال : « سيكون من نسلك أيها الرجل ملوك بعدد تلك النجوم ، ويكون منهم ملك عظيم يظهر على الفرنج ، ويطهر بيت المقـــدس من أرجاسهم وأنجاسهم ، وتشرق الدنيا بملـكه ، ثم يكون مدة تمليك تلك الملوك بعدة تلك الأبقار سنين . ثم يخرج عليهم الفرنج ـ وهم الخنازير ـ فيظهرون عليهم ، حتى يخرج من جهة مصر جيش كالسباع ، فيكون هلاك الخنازير على أيديهم . فهذا تأويل رؤياك ، والله أعلم » .

قلت : وإنمـا قدمت هذه المقدمة لفوائد فيها . أحدها أن يُعلم أصول بنى أيوب على الصحيح . والأخرى لما فيها من البشارة لـكافة المسلمين بما هو مخبأ فى الغيب من ملك مولانا السلطان الملك الناصر ـ عز نصره ـ لبلاد الشرق إن شاء الله تعالى . والثالثة لغروبة هذا المنام الذى ما أخرم دقة . فلله الأمر من قبل ومن بعد .

ولنعود إلى سياقة التاريخ بعون الله وحسن توفيقه . وذلك لما انتهى القول من العبد فى آخر الجزء السادس[1] إلى آخر سنة أربع وخمسين وخمسمائة . وذكرنا جميع ما وصلت إليـه القدرة جهد الطاقة وحد الاستطاعة ، ما كان فى جميع تلك السنين الماضية من أخبار الأمم الخالية ، والرمم البالية . فلنستفتح الآن هذا الجزء بذكر سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، موفقا لذلك ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى المتن : « الخامس » .

ذكر سنة خمس وخمسين وخمسمائة[١]

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم سبعة أذرع وخمسة عشر إصبعا ، مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعا واثنى عشر إصبعا[٢] .

ما لخص من الحوادث

الخليفة المقتفى لأمر الله أمير المؤمنين ، إلى أن توفى ثانى ربيع الأول من هذه السنة ، وله ست وستون سنة ، مدة خلافته أربع وعشرون سنة . وزيره شرف الدين على ، ثم كان شديد الدولة إلى أن توفى .

صفته	نقش خاتمه
ربع القامة ، مدور الوجه واللحية ، معتدل الجسم .	نقش خاتمه لقبه ، والله أعلم .

ذكر خلافة المستنجد بالله بن المقتفى لأمر الله وما لخص من سيرته

هو أبو المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفى لأمر الله محمد ، وباقى نسبه تقدم وقد علم . أمه أم ولد ، تسمى طاووس . مولده فى ربيع الأول سنة ثمان عشرة وخمسمائة . بويع يوم وفاة والده ، فأقام خليفة إحدى عشرة سنة . قتل ثامن ربيع الأول سنة ست وستين وخمسمائة[٣] ، وله ثمان وأربعون سنة . كان حسن السيرة قطع

(١) فى المتن : « سنة خمس وخمسين وأربعمائة » .

(٢) هذا الوصف لأمر النيل ينطبق على سنة ٤٥٥ هـ (النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ج ٥ ص ٧٤) ، أما حال النيل سنة ٥٥٥ هـ فهو « الماء القديم خمس أذرع وعشر أصابع ، مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعا وعشر أصابع » (النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٣٣) .

(٣) ذكر ابن الأثير أن الخليفة المستنجد بالله توفى تاسع ربيع الآخر سنة ٥٦٦ هـ (الكامل ، ج ١١ ص ١٤٥) وذكر أبو المحاسن أن وفاته كانت ثامن شهر ربيع الآخر (النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٣٨٦) .

المكوس ببغداد ، ونظر فى المظالم وأزاحها . وقيل إنه مات بالنقرس ، والله أعلم .

وفيها توفى الفائز بالله ، وهو أبو القسم عيسى الفائز بنصر الله ، ابن الظافر ، ابن الحافظ ، المقدم ذكره فى الجزء الذى قبله . وكان له من العمر يوم توفى عشر سنين . وكانت ولايته عند قَتْلة أبيه الظافر ، حسبما سقناه من ذكر ذلك . وكان الفائز طفلا هلما لما عاين من قتل أعمامه ، فكان ربما يقع ويخبط ، فلم يزل كذلك حتى توفى فى هذه السنة :

ودخل الصالح بن رُزِّيك ـ واسمه طلائع ـ القاهرة ، يوم خروج تابوت الظافر من دار نصر بن إمرأة[1] عباس المقدم ذكره ، فمشى الصالح بن رزيك تحت التابوت حافيا ، ثم خلع عليه الفائز خلع الوزارة . واستقل الصالح بن رزيك ـ حسبما سقنا[2] من أمره ـ فى الجزء الذى قبله ، إلى أن قتل ، حسبما يأتى من ذكره فى تاريخه إن شاء الله .

قضاة الفائز بنصر الله فى مدة أيامه : الفقيه مجلّى ؛ القاضى يونس الأطفيحى ، الولاية الثانية ؛ المفضل ضياء الدين أبو القاسم هبة الله بن كامل .

وتولى الخلافة العاضد لدين الله ، وهو آخر العبيديين ، والله أعلم .

ذكر خلافة العاضد لدين الله ـ آخرهم ـ وما لخص من سيرته

هو أبو محمد عبدالله بن الأمير أبى الحجاج يوسف بن الحافظ أبى الميمون عبدالمجيد . وباقى نسبه قد تقدم فيما قبله . أمه أم ولد ، تدعى ست المُنى[3] .

بويع بخلافة مصر والشام وما معهما فى تاريخ موت الفائز بنصر الله ، وذلك لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رجب الفرد من هذه السنة . مولده سنة أربع

(١) فى المتن : « ابن مرة عباس » .؟

(٢) فى المتن : « سقنى » .

(٣) فى المتن : « المنا » .

وأربعين وخمس مائة . وجلس للأمر وله يوم ذاك عشرة سنين وأشهر . وكانت خلافته إسماً له ، وجسما ورسما للصالح بن رزيك . ثم إنه أخرج المسجونين ، وسامح بالأموال والبواقى، فكانت[1] جملة ذلك أحد عشر ألف ألف وستمائة ألف وثمانين ألف وأربعة عشر ديناراً . واستمر الصالح ، وقويت حرمته ، وزادت هيبته ، وعظم ، وتزوج العاضد ابنته ، فاغتر بطول السلامة . وكان العاضد تحت قبضته وفى أسره ، فلما طال عليه ذلك عمل على قتله ، فقتل كما يأتى ذكر ذلك فى تاريخه إن شاء الله تعالى.

نكتة

قيل إن هؤلاء القوم[2] فى أوائل دولتهم ، قالوا لبعض العلماء فى ذلك الوقت : « اكتب لنا ورقة تذكر فيها ألقاباً تصلح لألقاب الخلفاء ، حتى إذا ولى منا أحد لُقب ببعض تلك الألقاب » . فكتب لهم ألقاباً كثيرة ، وآخر ما كتب فى الورقة « العاضد » ، فاتفق أن آخر من وُلى منهم الملقب بالعاضد . وهذا من عجيب الاتفاق .

والعاضد فى اللغة القاطع ، يقال عضدت الشىء فأنا عاضد له إذا قطعته ، فكأنه قاطع لدولتهم .

وكان العاضد شديد الرفض ، متغاليا فى سب الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين ، وإذا رأى سنيا[3] أو سمع به أراق دمه .

نكتة أخرى

روى أن العاضد فى آخر دولته رأى فى منامه أن قد خرجت عليه عقرب[4] من مسجد من مساجد مصر معروفا ، فلدغته . فلما استيقظ ــ وهو مرتاع لذلك ــ فطاب

(١) فى المتن : « فكان » .

(٢) يقصد العبيديين .

(٣) فى المتن : « شنيا » ولعل الصيغة الصحيحة هى المثبتة .

(٤) فى المتن : « عقربا » .

معبرى الرؤيا ، وقص عليهم المنام، فقيل: « ينالك مكروها من شخص هو مقيم فى هذا المسجد » . وطلب متولى مصر فقال: « يكشف عن من هو مقيم بمسجد كذا وكذا ــ وكان العاضد يعرف كل مسجد بمصر ــ فإذا رأيت به أحد(١) فاحضره إلى عندى». فمضى الوالى وأحضر رجلا صوفيا . فلما رآه العاضد سأله ، من أين هو ومتى قدم . وهو يجيب عن كل سؤال . فلما ظهر له منـه الضعف والصدق والعجز عن إيصال مكروه(٢) إليه ، أطلق سراحه ، وعاد الرجل إلى مسجده . فلما استولى السلطان صلاح الدين ، وعزم على القبض على العاضد ، واستفتى فيه الفقهاء ، وأفتوه بجواز ذلك ، لما كان عليه من انحلال العقيدة ، وفساد الاعتقاد ، وكثرة الوقوع فى حق الصحابة ، والإشهار بذلك ، فكان أكثرهم مبالغة فى الفتيا والتصميم على زوال أمر العاضد ذلك الشخص الصوفى الذى كان فى ذلك المسجد ، وهو الشيخ نجم الدين الخبوشانى ، فإنه عدد مساوئ القوم ، وسلب عنهم الإيمان جملة ، وأطال فى ذلك . وبُنى الأمر على قوله وفتياه . فصحت بذلك رؤيا العاضد ، والله أعلم .

---

(١) كذا فى الأصل بدون إعراب .

(٢) فى المتن : « مكروها » .

ذكر سنة ست وخمسين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

المـــاء القديم خمسة أذرع وعشرة أصابع . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا وخمسة أصابع .

ما لخص من الحوادث

الخليفة المستنجد بالله أمير المؤمنين . والعاضد خليفة مصر اسماً ، والأمور راجعة إلى تصرف الصالح بن رزيك .

وفيها خرج الإفرنج ، ووصلوا إلى فاقوس . وحشد الصالح لهم سائر الأجناد ، وخرج إلى ظاهر بلبيس ، فعادوا إلى بلادهم .

وفيها هلك أبو الطاهر متولى ديوان الجيوش المنصورة ، وقلد مكانه ابن جراح .

وفيها أُخذ طرخان ــ المنعوت بعز الدين ــ لما خرج بالإسكندرية طالبا للوزارة ، وأحضر إلى القاهرة ، وطيف به على جمل ، وعلى رأسه طرطور من رصاص . ثم سُمر بظاهر باب زويلة . وقُتل أخوه فى اليوم الثانى وصُلب . وقَبض الصالح ، على ، ابن شاهان شاه ، وعلى الأسد غازى والحلواص ، وسجنهم فى داره .

ذكر سنة سبع وخمسين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم أربعة أذرع ، وعشرة أصابع . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا ، وثمانية عشر أصبعا .

ماخص من الحوادث

الخليفة المستنجد بالله أمير المؤمنين . والعاضد خليفة مصر .

وفيها قتل الصالح بن رزيك . وسبب ذلك أنه لما طال الحجر على العاضد من جهته ، اتفق مع قوم يقال لهم أولاد الراعى على قتله ، وتقرر بينهم ذلك ، وعين لهم موضعا فى القصر يجلسون فيه مستخفين ، فإذا مرّ بهم الصالح ليلا أو نهارا قفزوا عليه فقتلوه . فقعدوا له ليلة ، وخرج من القصر ، فقاموا ليخرجوا إليه ، فأراد أحدهم أن يفتح القفل ، فغلقه ، ولم يعلم . فلم يحصل لهم تلك الليلة مقصودهم ، لأمر أراده الله، لتأخير الأجل . ثم إنهم جلسوا له(١) يوما آخر ، فدخل القصر نهارا ، فوثبوا عليه ، وجرحوه جراحات عدة ، ووقع الصوت . وعاد(٢) أصحابه إليه ، فقتلوا الذين جرحوه، وحُمل إلى داره مجروحا ، فأقام بعض يوم ، ومات يوم الاثنين تاسع عشر رمضان من هذه السنة ، رحمه الله تعالى .

ذكر نبذ من أخباره وزبد من أشعاره

كان الصالح بن رزيك ــ رحمه الله ــ رجلا ملكاً جوادًا، فاضلا، سمحا فى العطاء ، سهلا فى اللقاء ، محبا لأهل العلم ، مقرِّباً لأرباب الفضل . وكان جيد الشعر ، وقفت على شىء من شعره ، فمن ذلك قوله :

---

(١) فى المتن : « لهم » .

(٢) فى المتن : « وعادوا » .

كم دابر بنا الدهر من أحداثه عبرًا وفينا الصّد والإعراض
ننسى الممات وليس نجرى ذكره فينا فتذكرنا به الأمراض

ومن قوله فى الغزل :

ومهفهف ثمل القوام سرت إلى أعطافه النشوات من عينيه
ماضى اللحاظ كأنما سلت يدى سيفى غداة الروع من جفنيه
قد قلت إذ خط العذار بمسكه فى خده ألفيه لا لاميه
ما الشعر دب بعارضيه وإنما أصداغه نفضت على خديه
الناس طوع يدى وأمرى نافذ فيهم وقلبى الآن طوع يديه
فاعجب لسلطان يعم بعدله ويجور سلطان الغرام عليه
والله لولا اسم الفرار وأنه مستقبح لفررت منه إليه

ومن شعره أيضا ما رواه القاضى ابن خلكان ـ فى تاريخه ـ من رواية ابن نجية الواعظ الدمشقى ، قال : أنشدنى الصالح لنفسه يقول :

مشيبك قد نضى صبغ الشباب وحل الباز فى وكر الغراب
تنام ومقلة الحدثان تقضى وما ناب النوائب عنك ناب
وكيف بقاء عمرك وهو كنز وقد أنفقت منه بلا حساب

قلت : لو قال مكان « أنفقت » « أسرفت » لكان أحسن فى باب التورية .

وكان المهذب عبد الله بن أسعد الموصلى المعروف بنزيل حمص قد قصد الصالح ومدحه بقصيدة حسنة ، وهى الكافية التى أولها يقول : .

أما كفاك تلافى فى تلاقيكا ولست تنقم إلا فرط حبيكا

وهى من نخب القصائد ، وفيها طول ، ولذلك لم أثبتها بجملتها ، ومخلصها يقول:

وفيم تغضب إن قال الوشاة سلا وأنت تعلم أنى لست أسلوكا
لا نلت وصلك إن كان الذى نقلوا ولا شفى ظمئى جود ابن رزيكا

ولما مات رثاه الفقيه عمارة اليمنى بقصيدته اللامية التى أولها يقول :

أفى أهل ذا النادى عليم أسائله فإنى لما بى ذاهب اللب ذاهله
دعونى فما هـــذا أوان بكائه سيأتيكمُ طل البـكاء ووابله
فلا تنكروا حزنى عليه فإننى تقشّع عنى وابل كنت آمله
ولم لا نبـكيه ونندب فقده وأولادنا أيتامه وأرامله
فيا ليت شعرى بعد حسن فعاله وقد غاب عنا ما بنا الله فاعله

ولما حمل على نعشه قال فيه الفقيه عمارة أيضا :

وكأنه تابوت موسى أودعت فى جانبيه سكينة ووقار

وله فيه مراث كثيرة ، أضربت عنها .

وهذا الصالح الذى بنى هـذا الجامع[١] الذى ظاهر باب زويلة ، وقد ذكرته فى كتابى المسمى « اللفظ الباهرة ، فى خطط القاهرة » .

ثم إن الخلع خرجت لولده رزيك بن طلائع بن رزيك ، ولقب بالعادل . واستقر بما كان لأبيه من ولاية الأمر ، لـكن الأمور راجعة للعاضد[٢] ، بخلاف ما كان فى أيام الصالح من استبداده بالأمر .

ذكر شاور ونسبه وبدء شأنه

كان الصالح بن رزيك قد ولّى فى أيام وزارته أبا[٣] شجاع شاور الصعيد بكماله . وهو شاور بن مجير بن نزار بن عشائر بن شاس بن مغيث بن حبيب بن الحارث ابن ربيعة بن مخيس[٤] بن أبى ذؤيب ، وهو الحارث بن عبد الله بن شحنة بن جابر

(١) عن جامع الصالح طلائع بن رزيك انظر : المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢٩٣.
(٢) فى المتن : « المعتضد » .
(٣) فى المتن : « أبو » .
(٤) فى المتن « محمس » دون تنقيط ، واعتمدنا فى ضبط الاسم على ترجمته فى وفيات الأعيان لابن خلـكان ج ١ ص ٢٢٠ .

ابن ناصرة ، [وهو والد حليمة مرضع رسول الله صلى الله عليه وسلم][1] أرضعته بلبن ابنتها الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى بن رفاعة بن ملان ، وهى التى حضنت[2] سيدنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لما كان عند حليمة السعدية، ظئر[3] النبي صلى الله عليه وسلم . والشيماء المذكورة كانت تحمل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيعضها حين تحمله . فلما وفدت عليه صلى الله عليه وسلم ، أرته الأثر ، فعرفها وأكرمها .

فلما ولاه الصعيد عاد ندم على ذلك . وكان الصالح يعد لنفسه — وهو فى جراحه — ثلاث غلطات ، أحدها استهتاره بأمر العاضد ، وقلة اكتراثه به ، حتى حصل له ما حصل . والأخرى الذى ما كان قبض عليه ، وعلى جميع الفاطميين ، ورد الدعوة عباسية ، إذ كان قادراً على ذلك . والثالثة توليته شاور المذكور الصعيد .

وكان شاور ذا شهامة ، ونجابة ، وفروسية ، وشجاعة . وكان الصالح قد أوصى ولده العادل رزيك أن لا يتعرض لشاور بمساءة قط ، ولا يغير عليه ، وأن يتلافاه جهده ، فإنه لا يأمن عصيانه وخروجه . وكان الأمر كذلك كما يأتى فى تاريخه .

وفيها قتل العادل رزيك أخته زوجة العاضد — وقيل عمته — لما توهم أنها باطنت على قتل أبيه . وقتل الأستاذ سعيد السعداء صاحب هذه الخانقاه التى بالقاهرة المعروفة به[4] . وقتل رفيقه الوجيه ، وابن قوام الدولة ؛ وقيل إن هؤلاء الذين كانوا متفقين على قتل أبيه . وأخرج ابن شاهان شاه ، وأسد الغازى ، والخلواص ، وأعادهم مكانهم .

---

(١) ما بين حاصرتين تكملة من وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٢٢٠ .

(٢) فى المتن « وهو الذى حضن » والصيغة المثبتة من وفيات الأعيان لابن خلكان (ج ١ ص ٢٢٠) .

(٣) فى المتن « ضيزى النبى » وهو تحريف . والظئر : المرضعة لغير ولدها (القاموس المحيط) وقد أطلق على حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية ظئر النبى عليه الصلاة والسلام عندما أخذته إلى البادية وهو طفل يتيم ، وأقام فى البادية سنتين ترضعه حليمة وتحضنه ابنتها الشيماء ، حتى آن فصاله ، عادت به حليمة إلى أمه فى مكة . (انظر سيرة ابن هشام — طبعة جتنجن) .

(٤) هو الأستاذ قنبر — ويقال عنبر — أحد الأستاذين المحنكين خدام القصر ، عتيق الخليفة المستنصر الفاطمى . عن هذه الخانقاه انظر المقريزى : المواعظ ، ج ٢ ص ٤١٥ .

ذكر سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم خمسة أذرع وثلاثة عشر أصبعا . مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا وعشرة أصابع .

ما لخص من الحوادث

الخليفة المستنجد بالله أمير المؤمنين نافذ الحكم . وقد كانت الأمور راجعة لبنى سلجوق ، فإنهم كانوا استولوا[(١)] على جميع ممالك الشرق ، وعلت[(٢)] كلمتهم على كلمة الخلفاء ، كأعظم مما كان بنو[(٣)] بويه .

ذكر طرف من أخبار السلجوقية وملوكهم

أعظم هؤلاء القوم تاريخا ، وأشدهم سلطانا ، وأول من ظهرت كلمته على كلمة الخلفاء العباسيين ، عضد الدولة أبو شجاع ألب رسلان ، فإنه فتح البلاد ، واستولى على العجم والشرق كله مع العراق ، ووصل ملكه إلى الصين والترك ، وإلى بلاد بلغار والروس واللَّكْز[(٤)] واللان[(٥)] ، وكذلك إلى بلاد الخُطا[(٦)] ، وهما المدينتان العظيمتان[(٧)] كاشغور وبلاصغون[(٨)] وهما بالسند الأعلى . وملك إلى ما وراء النهر ،

---

(١) فى المتن: « كانوا استولى » .

(٢) فى المتن : « وعادت كلمتهم » .

(٣) فى المتن : « بنى بويه » .

(٤) اللكز بالفتح والسكون ، بليدة خلف الدربند تتاخم خزران ، أهلها مسلمون لهم قوة وشوكة ، وفيها نصارى أيضا ؛ والنسبة إليها اللكزى . (ياقوت : معجم البلدان) .

(٥) اللان : بلاد واسعة فى طرف أرمينية، قرب باب الأبواب ،مجاورون للخزر، وأهلها نصارى . (ياقوت : معجم البلدان) .

(٦) ذكر المقريزى أن الخطا « بنواحى بلاد الصين » (المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٢) .

(٧) فى المتن « وهى المدينتين العظيمتين » .

(٨) كاشغور أو كاشغر «هى مدينة وقرى ورساتيق يسافر إليها من سمرقند وتلك النواحى، وهى فى وسط بلاد الترك وأهلها مسلمون » . أما بلاصغون أو بلاساغون فهو بلد عظيم فى ثغور الترك وراء نهر سيحون قريب من كاشغر ، (ياقوت : معجم البلدان) .

واستولى على الخلفاء العباسيين ، وعمل له ببغداد دار سلطنة ، ونقض كلمة الخلفاء .

وهؤلاء القوم نسبهم فيه قولان[١] ، وإن كان تقدم من ذكرهم طرف[٢] . فمن الناس من يدعى أنهم تركمان، وأن سلجوق جَدَّهم كان فى جملة عسكر بنى بويه الديالمة. والصحيح أنهم من السامانية ، أصلهم يرجعون إلى الفرس من ملوك العجم . ولهم تاريخ مستقل[٣] بذاته ، إذ لو شرحناه لكان جزءا كاملا ، وإنما نذكر عدة ملوكهم الذين ملكوا الدنيا ، ونؤخر[٤] من ذلك كلاما يأتى فى موضعه ، إن شاء الله تعالى .

ذكر عدة ملوك بنى سلجوق

أولهم ميكائيل بن سلجوق وهو أجل ملوك السلجوقية ، كما كان إسماعيل أجل ملوك السامانية . ثم محمد بن ميكائيل بن سلجوق ، ثم أبو الحرب سنجر سلطان ، ثم أبو القاسم محمد طبر ، ثم أبو عبد الله بن محمد بن محمد طبر ، ثم طغريل ملكشاه ، ثم غياث الدين أبو الفتح ، ثم السلطان مسعود بن محمد طبر ، ثم ملكشاه ابن محمد بن محمد طبر ، ثم عضد الدولة أبو شجاع ألب رسلان صاحب دار الملك والسلطنة ببغداد . ثم كان السلطان علاء الدين بن تكش خوارزم شاه، وهو ابن مملوك طغريل بك السلجوقى ، ثم ولده السلطان جلال الدين منكبرتى خوارزم شاه ، وسيأتى ذكر هذين الملكين وأخبارهم مع التتار فى تاريخهم إن شاء الله تعالى .

فهؤلاء عدة ملوك بنى سلجوق رحمهم الله . وهم الذين فتحوا البلاد ، وقادوا الجيوش ، ونصروا الملة المحمدية لما ظهروا ، وامتحنت بدولتهم سائر الدول ، وأعلوا منار هذه الملة المحمدية على جميع الملل . وعلى ما كانوا عليه من اللغة التركية

(١) فى المتن : « قولين » .

(٢) فى المتن : « طرفا » .

(٣) فى المتن : « تاريخا مستقلا » .

(٤) فى المتن : « نأخر » .

والألسنة الأعجمية كانوا فضلاء ، عقلاء ، أدباء ، نجباء ، يحبون أهل العلم والفضل ، ويسمعون المديح ، ويجيزون عليـــه الجوائز السنية . وكانت تلك الأيام مدة كالأحلام لذة .

فى هذه السنة توفى عبد المؤمن سلطان المغرب . ولنذكر هاهنا لمعاً من أخباره ، ونسبه ، وآثاره .

ذكر عبد المؤمن ونسبه وبدء شأنه

هو أبو محمد عبد المؤمن بن على القيسى الـكومى ، ليس من أهل بيت ملك . كان أبوه وسطاً فى قومه ، وكان صانعا فى الطين ، يعمل منه الآنية ، فيبيعها . وكان عاقلًا ، وقوراً فى أهل بيته ، دينا صالحا . فيحكى أن عبد المؤمن فى صناعة أبيـه إذ كان صبيا ، فنام إلى جانب أبيه ذات يوم ، وأبوه مشتغل بعمله فى الطين ، فسمع أبوه حسًّا له دوى[١] ، نازلا من السماء إلى أعلى الدار ، فرفع رأسه ، فرأى سحابة سوداء من النحل قد هوت مطبقة على الدار ، فنزلت مجتمعة على عبد المؤمن وهو نائم ، فغطته حتى لم يظهر منه شىء[٢] ، ولا استيقظ لها . فلما رأته أمه على ذلك الحال صاحت خوفا على ولدها ، فسكتها أبوه . ثم إنه غسل يده ، ولبس أثوابه ، ووقف ينظر إليه ، وإلى ما يكون من ذلك النحل معه . ثم إن النحل طار عنه بأجمعه ، واستيقظ الفتى فرأته أمه وليس به أثر . وكان بالقرب منهم رجل معروف بالزجر ، فمضى أبوه إليه ، فأخبره بما رآه من النحل مع ولده ، فقال الزاجر: « يوشك أن يكون له شأن ، تجتمع على طاعته خلق عظيم » . فـكان من أمره ما كان .

ويقال إن محمد بن تومرت ــ المعروف بالمهدى ــ كان قد ظفر بكتاب الجفر[٣] ،

---

(١) فى المتن : « دويا » .

(٢) فى المتن : « شيئا » .

(٣) علم الجفر هو العلم الإجمالى بلوح القضاء والقدر ، المحتوى على ما كان وما يكون كليا وجزئيا . والجفر عبارة عن لوح القضاء الذى هو عقل الـكل . وقد ادعى طائفة أن الإمام على =

ووجد فيه ما يكون على يده ، وقصة عبد المؤمن وحليته واسمه . وأن ابن تومرت أقام مدة يتطلبه ، حتى وجده وصحبه ، وهو إذ ذاك غلام . وكان يكرمه ويقدمه على أصحابه ، وأفضى إليه بسرّه ، وانتهى به إلى مراكش – وصاحبها يومئذ أبو الحسن على بن يوسف بن تاشفين ملك الملثمين – وجرى له معه فصول يطول شرحها . وأخرجه منها ، وتوجه إلى الجبال ، وحشدوا واستمال المصامدة فى حديث طويل ، آخره أنه لم يملك شيئا من البلاد فى حياة ابن تومرت ، بل عبد المؤمن ملك بعده بالجيوش التى جهزها ابن تومرت ، والترتيب الذى رتبه له . وكان ابن تومرت أبداً يتفرس فيه النجابة ، وينشد إذا أبصره دائما :

تكاملت فيك أوصاف خصصت بها ... فكلنا بك مسرور ومغتبط
فالسنُّ ضاحكة ، والكف مانحة ... والنفس ساحة ، والوجه منبسط

وكان يقول : « صاحبكم هذا غلاب الدول » . ولم يصح عنه أنه استخلفه ، بل راعى أصحابه فى تقديمه إشارته لهم فيه ، فتم له الأمر وكمل .

وأول ما أخذ من البلاد وهران وتلمسان ثم فاس ثم سبتة . وانتقل بعد ذلك إلى مراكش وحاصرها أحد عشر شهرا ، ثم ملكها . وكان أخذه لها فى أوائل سنة اثنين وأربعين وخمسمائة . واستوثق له الأمر ، وامتد ملكه إلى المغرب الأقصى والأدنى ، وبلاد إفريقية ، وكثير من جزيرة الأندلس . وتسمى أمير المؤمنين ، وقصدته الشعراء وامتدحوه بأحسن المدائح . ذكر العماد الأصفهانى فى الخريدة ، أن الفقيه أبا عبد الله محمد بن أبى العباس التيفاشى لما أنشده يقول :

ما هزّ عطفيه بين البيض والأسل ... مثل الخليفة عبد المؤمن بن على

= ابن أبى طالب – رضى الله عنه – وضع الحروف الثمانية والعشرين على طريق البسط الأعظم فى جلد الجفر ، يستخرج منها بطرق مخصوصة وشرائط معينة ألفاظ مخصوصة ، ويستخرج منها ما فى لوح القضاء والقدر . وهذا علم يتوارثه أهل البيت ومن ينتمى إليهم . ومن الكتب التى ألفت فى علم الجفر كتاب «الجفر الجامع والنور اللامع» للشيخ كمال الدين أبى سالم محمد بن طلحة النصيبينى المتوفى سنة ٦٥٢ ﻫ . انظر حاجى خليفة : كشف الظنون ، ج ١ ص ٥٩١ – ٥٩٢ .

فأشار إليه أن اقتصر على هذا البيت ، وأمر له بألف دينار .

ولما تمهدت له القواعد وانتهت أيامه ، خرج من مدينة مراكش إلى مدينة سلا[١] ، فأصابه بها مرض شديد ، وتوفى فى العشر الأخير من جمادى الآخرة من هذه السنة ، وهى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة . وقيل : بل كانت وفاته سنة ستين وخمسمائة ، والله أعلم .

وقيل : كانت ولادته سنة تسعين وأربعمائة ، وقيل غير ذلك . وإنما نسبته بالكومى ، فهى نسبة إلى كومية وهى قبيلة صغيرة تنزل البحر من أعمال تلمسان . ومولده بقرية هناك يقال لها تاجرة[٢] . هذا ما ذكره القاضى شمس الدين بن خلكان فى تاريخه من نسبة عبد المؤمن . وذكر كتاب الجفر فقال : ذكره ابن قتيبة فى أوائل كتاب الاختلاف فى الحديث ، فقال بعد كلام طويل : وأعجب من هذا التفسير تفسير الروافض القرآن الكريم ، وما يدعونه من علم باطنه بما وقع إليهم من كتاب الجفر الذى ذكره سعد بن هارون العجلى ، وكان رأس الزيدية ، فقال :

ألم تر أن الرافضين تفرقوا　　فكلهم فى جعفر قال منكرا
فطائفة قالوا إمام ومنهم　　طوائف سمته النبى المطهرا
ومن عجب لم أقضه جلد جفرهم　　بريب إلى الرحمن ممن تجفرا

والأبيات كثيرة ، وإنما المقصود ذكر كتاب الجفر . قال القاضى ابن خلكان : قال ابن قتيبة ، وهو جلد جفر ، ادّعوا أنه كتب لهم فيه الإمام كل ما يحتاجون إليه وإلى علمه إلى يوم القيامة . قال : وقولهم الإمام يريدون به جعفر الصادق، رضى [الله] عنه . وإلى هذا الجفر أشار أبو العلاء المعرى أيضا فى قوله :

---

(١) سلا : مدينة بأقصى المغرب (ياقوت : معجم البلدان) .

(٢) تاجرة ، بفتح الجيم والراء بلدة صغيرة بالمغرب من ناحية هنين من سواحل تلمسان . (ياقوت : معجم البلدان) .

لقد عجبوا لأهل البيت لمـا أتاهم علمهم فى مسك جفر
ومرآة المنجم وهى صغرى أرته كل عامرة وقفر

ومَسك جَفر تقال بفتح الميم من مَسك ، وفتح الجيم من جَفر ، وهو من أولاد المعز ، ما بلغ أربعة أشهر وجفر جنباه ، وفصل عن أمه . وكانت[١] عادتهم ـ فى ذلك الزمان ـ يكتبون فى الجلود والعظام والخرق وما شا كل ذلك ، والله أعلم .

* * *

ولنعود إلى سياقة التاريخ بمعونة الله وحسن توفيقه .

وفى هذه السنة وهى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، خرج شاور المقدم ذكره من الصعيد بجموع كثيرة ، فعبر واحات ، واخترق تلك البرارى ، إلى أن خرج من عند تروجه[٢] ، وتوجه إلى القاهرة فى شرح طويل آخره أنه قهر العادل رزيك بن الصالح طلائع ، وقتله فى العشر الأول من صفر من هذه السنة ، وأخذ موضعه من الوزارة ، واستولى على الأمر ، ونعت نفسه بأمير الجيوش ، وقتل عليا[٣] زمام القصر ، وولى لؤلؤ الصقلبى عوضه ، وأعاد الحكم إلى يونس القاضى . واحتوى على أموال بنى رزيك . ولم يزل أمره مستقرا إلى العشر الأخير من رمضان من هذه السنة ، فخرج عليه أبو الأشبال ضرغام بن عامر بن سوار ، الملقب فارس المسلمين ، اللخمى المنذرى، نائب الباب، بجموع كثيرة ، وغلبه ، وأخرجه من القاهرة . وقتل ولده طيا ، ووَلِي الوزارة ، كعادة المصريين . وتوجه شاور طالبا للشام ، مستجيرا بنور الدين الملك العادل محمود بن أتابك زنكى . وأقام ضرغام وزيراً بالديار المصرية ، ولقب بالمنصور إلى جمادى الآخرة من سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، حسبما يأتى من ذلك .

---

(١) فى المتن : « وكان » .
(٢) تروجه ، قرية بمصر من كورة البحيرة (ياقوت : معجم البلدان) .
(٣) فى المتن : « على » .

ذكر سنة تسع وخمسين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم ثمانية أذرع وسبعة عشر أصبعا، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا وثمانية أصابع .

ما لخص من الحوادث

الخليفة المستنجد بالله أمير المؤمنين . والسلطان ببغداد عضد الدولة ألب رسلان السلجوقى .

والعاضد بمصر، وضرغام الوزير بها، إلى شهر جمادى الآخرة ، قدم شاور بجيوش الشام يقدمهم أسد الدين شيركوه ، وابن أخيه صلاح الدين يوسف ، من قبل الملك العادل نور الدين محمود بن أتابك زنكى . وخرج إليهم همام بن سوار أخو[1] ضرغام — الملقب ناصر المسلمين[2] — فى جيوش كثيرة ، فكانت الوقعة بينهما على بلبيس ، فانكسرت جيوش همام ، وقتل همام ومعه أخوين له ، وقتل أيضا ضرغام . وكان مقتله عند مشهد السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب ، صلوات الله عليهم ، فكانت مدة وزارة ضرغام مصر تسعة أشهر وعشرة أيام . وعاد شاور إلى وزارته الثانية سلخ جمادى الآخرة من هذه السنة . ودخل أسد الدين شيركوه وصلاح الدين يوسف ، وأنزلوهما ظاهر القاهرة فى الخيم . وخرجت لهما الإقامات ، والعلوفات ، والخلع . وتأخر عنهما ما كان أشرطه لهما شاور من الأموال ونفقات الجيوش ، فسير إليه أسد الدين يحثه على المال وإنفاذه ، فسوّف وماطل . ثم إنه نكث جميع ما كان بينه وبين أسد الدين من العهود والمواثيق .

---

(١) فى المتن : « أخى » .

(٢) ذكره ابن واصل (مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٣٩) وابن الأثير (الكامل ، ج ١١ حوادث سنة ٥٥٩ هـ) باسم « ناصر الدين » .

وأنفذ شاور إلى ملك الروم[١] بالشام مستنصراً به على أسد الدين ، وطمّعه فى أخذه ، فجاءه الملك مرى[٢] ــ لعنه الله ــ فى عالم عظيم . ولما تحقق أسد الدين ذلك من غدر شاور ، انتقل إلى بلبيس وتحصن بها .

واجتمع شاور وملك الروم على قتال أسد الدين ، وكانت بينهما وقائع عظيمة . وبنى[٣] الفرنج خذلهم الله برجا عظيما . وعاد أسدالدين فى قبضتهم لولا لطف[الله] تعالى وحسن سياسة أسد الدين ، فإنه كتب إلى مرى ملك الروم يقول له : « ليس لك فينا غرض ، ولا معنا مال يقنعك ، فإن شاور غدر بنا ، ولم يوفنا ما شرطه لنا من المال . ونحن قوم غرباء من هذه الديار ، أتينا لنصرة هذا الغادر ، والبَغْى له مَصْرع . وأنت تعلم أن وراءنا مثل الملك العادل نور الدين . وكأنك به وقد أطل عليك بجيوش تعرفها ولا تنكرها . وأنت قصدك مال ، ومصر قدامك ، وهى أحب إليك من مطاولتنا بغير فائدة لك . وليس بمصر مانع يمنعك عنها . فإن تركت البغى ، وقنعت بما فى أيدينا من فضلات نفقاتنا نفذناها إليك ، وتدعنا نرجع إلى بلادنا . وإن أبيت فنحن والله ما يقتل الواحد منا حتى يقتل عدة منكم . وبعد ذلك ، المدد واصل إلينا ، والسلام » .

قال ابن واصل رحمه الله : بينما الفرنج يجدون فى حصار أسد الدين ببلبيس ، إذ ورد عليهم الخبر بكسرة الفرنج من نور الدين على حارم ، فخافوا على بلادهم ، فهذا كان سبب صلحهم مع أسد الدين . ولما خرج من بلبيس ، جعلوا له فى الطريق من يعارضه ليأخذوه ، فعرج عن الطريق إلى طريق المدرية[٤] ، وفى ذلك يقول عمارة

---

(١) المعروف أن شاور أرسل يستنجد بالصليبيين (الفرنج) لا بملك الروم ، انظر (مفرج الكروب ، لابن واصل ج١ ص١٣٩ ؛ الكامل ، لابن الأثير، ج ١١ حوادث سنة ٥٥٩ هـ) . ويشير ابن أيبك بعد ذلك إلى ملك الصليبيين بملك « الروم » .

(٢) يقصد الملك عمورى الأول ملك مملكة بيت المقدس الصليبية (١١٦٢ ــ ١١٧٤ م) .

(٣) فى المتن : « وبنو » .

(٤) أرض مدراء ــ من المدر ــ وهو قطع الطين اليابس . ويبدو أن الطريق المدرية أحد الطرق المسلوكة بين مصر والشام ، وربما كانت بعض أجزائه من الطين اليابس لقربها من وادى النيل .

اليمنى[١] يمتدح أسد الدين من قصيدة منها :

أَخَذْتم على الإفرنج كل ثَنيَّة وقلتم لأيدى الخيل مُرِّى على مُرى
لئن نصبوا فى البر جسرا فإنكم عبرتم بجسر من حديد على الجسْر

ثم اتفقا على مال أَخَذه ملك الروم من أسد الدين ، وفسّح لهم الطريق، فتوجهوا إلى الشام ، وفى قلب أسد الدين نار[٢] لا تطفىء من فعل شاور .

ثم إنه قص على نورالدين جميع ما جرى[٣]، وعرفه أن مصر ليس بها من يمنع عنها.

ثم جهزه نور الدين بالجيوش، وعاد ودخل الديار المصريةمن الطريق البدرية[٤]، فلم يعلم به إلا وهو بناحية أطفيح . ثم عدى[٥] إلى بر الجيزة ، وأقام بها ، وغاراته تضرب فى سائر تلك النواحى . فلما علم شاور أن لا قبل له بأسد الدين ، أنفذ إلى الملك مرى ـ لعنه الله ـ وأبذل له الأموال ، فوافاه الملعون بخيله ورجله ، وجرت بينهم وقائع وأهوال تشيّب الرءوس . واندفع أسد الدين إلى نحو الصعيد ، فلحقوه [عند][٦] منية بنى خصيب ، بمكان يعرف بالبابين ، فوقعت أيضا بينهما هناك وقائع عظيمة ثلاثة أيام . فلما كان ثالث يوم ، كان أول النهار لشاور وملك الروم على أسد الدين ، حتى ظن أنه سيؤخذ . ثم أتاه النصر من عند الله آخر ذلك اليوم ،

---

(١) هو الشاعر عمارة اليمنى (ت ٥٦٩ هـ = ١١٧٤ م) .

(٢) فى المتن : « نارا » .

(٣) فى المتن : « جرا » .

(٤) كانت الطريق البدرية ـ وتسمى أيضا الطريق الفوقانية ـ إحدى الطرق الصحراوية بين مصر والشام ، والتى تسلك جوف الصحراء بعيدا عن طريق الساحل المألوف . وقد غدت هذه الطريق المسلك الرئيسى من الشام إلى الديار المصرية بعد أن استولى الصليبيون على بلاد الساحل؛ فصارت القوافل تقطع هذا الطريق فى ثمانية أيام فى صحراء سيناء ، بعيدا عن تهديد الصليبيين . وبعد انتصارات صلاح الدين وانحسار النفوذ الصليبى فى جنوب فلسطين ، أعيد استخدام الطريق الساحلى القديم المألوف، ولم يعد يسلك الطريق البدرية سوى التجار الذين أرادوا التهرب من دفع الحقوق السلطانية الواجب أداؤها فى قطيا ـ قرب الفرما . انظر ابن أيبك الدوادارى: كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٩ (الدر الفاخر) ص ١١٤، ١٩٨، ٣١٠ .

(٥) فى المتن : « عدا » .

(٦) مابين حاصرتين إضافة لسياق المعنى .

بقوم وافوه من عرب الصعيد ، كان قد نفذ إليهم أموالا ، فأتوه فى تلك الساعة . فانهزم الروم وشاور ، وكسرهم أسد الدين كسرة عظيمة ، وأخذ صاحب قيسارية أسيرًا مع جماعة من أصحابهم. وعاد شاور والملك مرى إلى القاهرة فى أنحس الأحوال.

وسار أسد الدين إلى إسكندرية ، فأقام بها مدة يسيرة . فجيَّشَ الملعون مرى الجيوش ، وحزّب الأحزاب ، وجاءوا إلى الإسكندرية . وكان أسد الدين قد ترك صلاح الدين بإسكندرية ، فى شرذمة يسيرة من الجيش ، وأصعد هو وعساكره إلى الصعيد الأعلى ، فجبى منه الأموال ، واستخدم الرجال ، واستجلب العربان .

وحضر شاور والملك مرى بجيوشهما ، فنزلا على حصار صلاح الدين بالإسكندرية برًّا وبحراً . وضيقوا عليه ضيقة عظيمة ، وأقاموا محاصرينه سبعة وخمسين يوما . وأعان الله صلاح الدين ومن معه على تلك الجموع العظيمة ، وصبروا لهم مع ما كان البلد فيه من قلة القوت والسلاح .

فلما كان بعد ذلك ، وصل أسد الدين من الصعيد ، ونازل القاهرة وحاصرها ، وضيق على من بها وعلى العاضد صاحب القصر. فاتفق رأى كبار البلد مع رأى العاضد أن يصالحوه ، على أن يسلم لهم صاحب قيسارية المأسور معه وجميع الأسارى الذين معه ، ويرجع عن حصارهم وقتالهم ، ويأخذ ابن أخيه صلاح الدين ويتوجه إلى بلاده بدمشق ، ويرتفع شاور والملك مرى عنهم . فاتفق الحال على ذلك ، وعاد كل أحد إلى بلاده ، وأقام شاور بعد ذلك أياما[1] يسيرة .

فما كان بعد قليل حتى عاد الملك مرّى ــ لعنه الله ــ على بدء ، لما حدثته نفسه بأخذ ديار مصر ، وصحبته الإسبتار، فنزل على بلبيس وفتحها ، وقتل جميع من كان بها، وسبى[2] النساء والأطفال ، وأبدع كل الإبداع . فلما سمع شاور ذلك نهب مصر لنفسه ، وهتك أهلها ، وجمع أموالا عظيمة من أموال الناس ، وقتل عدة من أهلها،

(١) فى المتن : « أيام » .

(٢) فى المتن : « سبا » .

ممن منع عن نفسه وماله . ووصل الملك مرّى ــ لعنه الله ــ وجيوشه إلى باب القاهرة، وعوّل على فتحها، فبذل[١] له أهلها مالا جزيلا. وقويت شوكة الفرنج ــ خذلهم الله ــ بالقاهرة ، وعادوا يعدوا أيديهم ، ويأخذون الحريم والأولاد والأموال ، لايمنعهم من ذلك مانع . وجرت على أهل مصر من الفرنج العظائم ، وحوصر[٢] الناس فى بيوتهم ، ولا عاد أحد يقدر على الخروج من بيته . وتمت أحوال تقشعر لسماعها الأبدان ، وانتشر[٣] الملاعين فى سائر الأعمال ، وعادوا يأخذون حريم أهل مصر ، وينزلون فى الزوارق ما بين مصر والجزيرة، ويشربون عليهم الخمور، ويفسقون فيهم . وقُتلت عالم كثير من كبار البيوت ، ونُهبت أموالهم . هذا كله يجرى[٤] وشاور يصانعهم ، ويركب إلى كبارهم وملوكهم ، وأظهر النصيحة لهم .

فلما علم[٥] الفرنج أن لا دافع لهم عن تمليكهم مصر ، كتبوا إلى ملكهم الكبير يحثونه على الحضور لملك مصر . فلما علم العاضد ذلك أيقن الهلاك ، وكذلك كبار البلد ، فأجمعوا رأيهم ، وكتب العاضد إلى نور الدين الشهيد ، الملك العادل صاحب الشام ، وهو يخبره فيه بما جرى على الإسلام. ثم قال فى كتابه: « متى أنجدتنا وخلصت الإسلام ، كان لك مع ثواب الله ــ عز وجل ــ ثلث خراج مصر ، يحمل إلى خزائنك فى كل سنة ، بعهد من الله وميثاقه ، خارجا عن نفقة جيوشك فى هــــذه الكرة » . ثم إن العاضد دخل إلى قصره ، وقطع شعور النساء والبنات والصبيان ، وحمله فى مخالى ، وسيره إلى نور الدين الشهيد ، وذلك لعظم ما جرى على الإسلام من الملاعين الفرنج . ثم كتب فى أثناء كتابه يقول : « واغوثاه ! واغوثاه ! واغوثاه ! إلحق دين الإسلام ! أدرك أمة محمد عليه السلام ! يا نور الدين ! يا نور الدين ! يانور الدين ! » قلت : هكذا رأيت نسخة هذا الكتاب إلى نور الدين ، لم أزد فيه حرفا .

(١) فى المتن : « فبذلوا » .
(٢) فى المتن : « وحوصروا » .
(٣) فى المتن : « وانتشروا » .
(٤) فى المتن : « يجرا » .
(٥) فى المتن : « علموا » .

فلما وصل الكتاب إلى نور الدين بكى ، وكان عظيم النخوة للإسلام ، رحمه الله . وأرسل إلى أسد الدين شيركوه ـ وكان مقيما بحمص ـ وفتح له الخزائن ، وأطلق له الأموال ، وأمره بسرعة المسير . وتوجه [أسد الدين] إلى الديار المصرية ، وعبر من البرية على طريق البدرية إلى مصر ، وعدة جيشه عشرة آلاف فارس شجعان ، أقيال ، معتادين للحرب والطعن والنزال .

قال صاحب التاريخ : وأمره نور الدين أن يصحب معه صلاح الدين ، فكره صلاح الدين التوجه . قال صاحب التاريخ : قال صلاح الدين « لقد كان أمرنى نور الدين بالمسير إلى الديار المصرية ، وكنت كارها لذلك . فلما فتح الله علىّ بالبلاد ، قلت صدق الله العظيم (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم[١]) » .

فلما قرب أسد الدين السويس ، بلغ الفرنج مجيئهم ، فرحلوا عن القاهرة . وقيل بل كانوا على بلبيس ، فرحل الملك مرّى ، ونزل على سمنود . وكانت ليلة رحيله ليلة وصول أسد الدين شيركوه إلى القاهرة ، فدقت لهم البشائر . وكان عند المسلمين يوما عظيما[٢] كونهم فكوا من الأسر .

وأما الملك مرى ـ لعنه الله ـ فإنه جهز مائتى قنطارية[٣] وخمسين قنطارية ، وألفى رجل ، ليأخذ قليوب ، فحشد المسلمون ، وخرجوا إليهم ، والتقوا بهم على دجوة[٤] ، فكسروهم من غير أن يجرى بينهم قتال . ثم إن الملعون جرد ثلاثمائة قنطارية وثلاثة آلاف رجل إلى جزيرة إبيار[٥] ، فنهبوا وسبوا وقتلوا . وجاءت

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٦ .

(٢) فى المتن : « يوم عظيم » .

(٣) القنطارية : عصا الرمح أو الحربة .

(٤) ذكر ابن دقماق أن دجوى بلدة من أعمال القليوبية (الانتصار ، ج ٥ ص ٤٨) .

(٥) إبيار ، قرية بجزيرة بنى نصر بين مصر والاسكندرية وكانت هذه الجزيرة تشغل القسم الغربى من مراكز كفر الزيات وتلا ومنوف . (محمد رمزى : القاموس الجغرافى ق٢ ، ج ٢ ص ١١٩ ، ٣٣٢) .

المسلمون إلى الطرانة(١) ، وعملوا جسراً من الطرانة إلى الجزيرة ، وعدوا إليهم ، فانكسرت المسلمون . فلما كان بعد الظهر جاءت عرب من البحيرة وجماعة من القبائل وعرب من الفيوم ، ومن الصعيد ، وقالوا : « واإسلاماه » وحملوا حملة واحدة ، فانكسرت الملاعين ، وأخذهم السيف من الظهر إلى ثانى يوم الظهر ، وقتلت سائر خيالاتهم . ولم يعد منهم إلى الملك مرّى غير اثنى عشر نفرا من الخيالة ؛ والرجالة قتلوا عن بكرة أبيهم . ثم إن الملعون مرّى رحل من على سمنود ، ونزل اسكندرية ، وقال لأهلها: « سلموا إلىّ هذا البلد وأنا أحط عنكم المكوس،وأوسعكم عدلا » . فقالوا : « معاذ الله أن نسلم الإسلام للكفر » .

هذا وشاور يراسل مرّى ويهاديه ، ويظهر له الود والنصح ، ويقول : « الفرنج ولا أسد الدين شيركوه ». وعاد الملك مرّى نازل على الإسكندرية من الجانب الغربى، والمراكب تحمل إليه جميع ما يحتاجه . وكان الوالى يوم ذاك بالإسكندرية نجم الدين ابن فضل ، والقاضى بها ابن الخشاب ، والمحتسب الضياء بن عوف ، والناظر الرشيد ابن الزبير ، فجمعوا القبائل ، وحصنوا البلد .

ثم إن أسد الدين شيركوه تجهز وطلب الإسكندرية ، ونزل عليها من الجانب الشرقى . ثم التقى الجمعان على الإسكندرية ، ولم يجر بينهما قتال . ومشى(٢) الرسل بينهم فى الصلح ، فاصطلحوا. ورحل الملك مرّى إلى الشام فى البر. وتوجه أسد الدين إلى القاهرة ، فأخلع عليه العاضد ، وعلى سائر من معه ، ونزل على ظاهر القاهرة بمسجد التبن(٣) .

وفيها كانت الوقعة بين نور الدين الشهيد وبين الفرنج على حارم ، وكسرهم

---

(١) الطرانة : بلدة من أعمال البحيرة على الشاطىء الغربى للنيل فى مواجهة جزيرة بنى نصر . (محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، ق ٢ ، ج٢ ص ٣٣٢) .

(٢) فى المتن : « ومشوا » .

(٣) هو مسجد تبر ، موضعه خارج القاهرة قريبا من المطرية ، وتسميه العامة مسجد التبن وهو خطأ (المقريزى : المواعظ ، ج ٢ ص ٤١٢) .

نور الدين كسرة عظيمة ، وقتل منهم ما لا يحصى كثرة ، وأسر منهم ثلاثين ألف نفراً ، وأخذ جميع ملوكهم ، وتسلَّم حارم وبانياس . وكانت الفرنج فى خلق عظيم ، فيهم القمص صاحب أنطاكية[١] ، والبرنس صاحب طرابلس[٢] ، وابن جوسلين[٣] . فلما التقى الجمعان ، صعد نور الدين على تل عال ، وشاهد من الفرنج ما هاله وأذهله من كثرتهم ، فترك القتال وانفرد عن العسكر ، وصلى ركعتين ، ومرّغ وجهه على الأرض وهو يقول: « ياسيدى ! الجيش جيشك ! والدين دينك ! ومن هو محمود ! افعل أنت ماتريد » . هذا والفرنج قد حملوا على المسلمين حملة منكرة . وكانت الحملة على الميمنة ، وفيها عسكر حلب ، فاندفعوا بين أيديهم ، فنزل إليهم نور الدين وقد كشف رأسه ، وصاح : « واإسلاماه ! العودة ! العودة ! بارك الله فيكم » . فكأنما أوقع الله تعالى صوته فى آذان سائر الجيش ، فكرّوا على الفرنج كرة رجل واحد ، فتقهقرت الفرنج لها الخيالة منهم ، فوقع السيف فى الرجالة ، فحصدوهم حصدا . فلما رأى[٤] الخيالة ذلك ، ولوا منهزمين ، فأخذهم السيف من كل مكان ، ولم ينج[٥] منهم إلا صاحب الفرس السابق . واستأسر منهم عدة ماقد ذكرناه ، فأُخذ عنهم الفداء ، فكان جملته ستمائة ألف وستون ألف ذهب عين . فكان نور الدين بعد ذلك يحلف أن جميع ما بناه من البيمارستان والمدارس وجميع وقوفاتهم من ذلك الفداء .

---

(١) يقصد بوهيموند الثالث أمير أنطاكية (١١٦٣ — ١٢٠١ م) .
(٢) يقصد ريموند الثالث أمير طرابلس (١١٥٢ — ١١٨٧ م) .
(٣) يقصد جوسلين دى كورتناى .
(٤) فى المتن : « رأوا » .
(٥) فى المتن : « لم ينجا » .

ذكر سنة ستين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم خمسة أذرع وخمسة عشر أصبعا ، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا وسبعة عشر أصبعا .

ما لخص من الحوادث

الخليفة المستنجد بالله أمير المؤمنين . وبنو سلجوق الحكام ، وأمرهم[1] فى هذه السنة راجع منهم إلى السلطان ألب رسلان السلجوقى . والعاضد صاحب مصر، والوزير شاور إلى أن قتل فى هذه السنة ، على ما ذكر صاحب تاريخ سير النيل المصرى .

وذلك أن أسد الدين شيركوه كان فى قلبه من شاور دخول عظيمة ، لما كان قد أسلفه من الإساءات ، حسبما تقدم من ذكر ذلك . ونظر إلى ديار مصر فوجدها ليس بها مانع ولا دافع غير شاور، فاستشار صلاح الدين واتفقا على تدبير الحيلة على قتل شاور. وكان أسد الدين مبرزا على مسجد التبن ، وادعى أنه مريض وشارف[2] على الموت ، وأنه يقصد الاجتماع بشاور ليتفق معه على عود العساكر إلى الشام ، ويستوثق منه بالأيمان أن لا يغدر بجيوش الإسلام ويكاتب عليهم الفرنج كما فعل من قبل. فلم يثق شاور حتى نفذ حكيما يثق به لينظر صحة ما ادعاه أسد الدين. فلما أتى[3] الحكيم خلا به صلاح الدين، وقال له: «ياحكيم ! أنت تعلم أن أهل مصر عادوا فى قبضة الفرنج متى شاءوا ، مادام هذا الوزير شاور . وقد رأيتم ياأهل مصر ما حل بكم من الفرنج ، ونحن إن عدنا إلى الشام بعيد علينا أن نرجع إليكم ، والمصلحة أن تتفق معنا على صلاح أحوال أهل بلدك. وهذه ألف دينار استعن[4] بها . وعهد الله وميثاقه أن تكون عندنا العزيز المكرم،

---

(١) فى المتن : وأمر فى هذه السنة » .

(٢) فى المتن : « مريضا وشارفا » .

(٣) فى المتن : « أتا » .

(٤) « استعين » .

بخلاف ما أنت عليه الآن ، وتحتال معنا على حضور شاور إلينا . وهٰهنا شخص من أصحابنا على خطة الموت ، انظره وخبر عنه إذا حلفت » . قال : فلما عاد الحكيم ، وعرّف شاور بأنه عاينه على التلف ، وثق شاور ، وطمع فى جيشه ، وركب وأتى إليه ، فوثب عليه جرديك وبرغش[1] ـ موليا نور الدين ـ فقتلاه بإشارة صلاح الدين لهما فى ذلك . وقيل إن أول من بسط يده بالقبض عليه صلاح الدين ، وأن شاور لم يقتل فى الساعة الراهنة حتى حضر توقيع من العاضد على يد خادم خاص بقتل شاور ، وإنفاذ رأسه ، ففعل به .

ثم خرجت الخلع بالوزارة لأسد الدين شيركوه ، ونعته العاضد بالملك المنصور . فكانت مدة وزارته ثمانية أشهر ، وتوفى إلى رحمة الله تعالى[2] . وولى صلاح الدين الوزارة ، ونعته العاضد بالملك الناصر .

وكان سبب موت أسد الدين أنه كان يحب أكل اللحوم الغليظة ، مثل لحوم البقر والخيل والنعام وما أشبه ذلك ، فلحقه من ذلك خانوق حتى قتله .

وكان صلاح الدين فى مبتداه قليل المال والرجال ، صاحب أكل وشرب وطرب ، فلما فتح الله عليه بالملك تاب عن جميع ذلك . وظن العاضد أن الأمر لا يستقيم له بعد أسد الدين ، لما كان يعلمه منه ، فأبى الله إلا أن يملكه الأرض ، ويفتح على يديه الفتوحات . وكان ذلك فى سنة أربع وستين وخمسمائة ، وإنما ذكر تلاوة على النسق .

---

(١) حققت الأسماء بالرجوع إلى وفيات الأعيان لابن خلكان ، ترجمة شاور (ج ١ ص ٢٢٠ ـ ٢٢١) .

(٢) جاء فى الهامش أمام هذه العبارة « قال ابن واصل : توفى أسد الدين شيركوه يوم السبت لثمان بقين من شهر ذى الحجة سنة أربع وستين وخمسمائة » . هذا وقد ذكر ابن الأثير (الكامل ، ج ١٢ حوادث سنة ٥٦٤ هـ) أن وفاة شيركوه كانت فى شهر جمادى الآخرة من تلك السنة . ويتفق هذا مع ماذكره ابن واصل نقلا عن ابن شداد (مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٦٧ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٦٩) . وأكد ابن أيبك صحة هذا التاريخ بعد أسطر قليلة .

وتوفى أسد الدين شيركوه يوم الأربعاء الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة ، كما يأتى من ذكر تمليك صلاح الدين فى تاريخه إن
٣ شاء الله تعالى .

وفيها توفى الوزير عون الدين بن هبيرة ، رحمه الله(١) .

(١) هو يحيى بن محمد بن المظفر ، المسمى عون الدين بن هبيرة ، وزير الخليفة المستنجد بالله العباسى (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ حوادث سنة ٥٦٠ هـ) .

ذكر سنة إحدى وستين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم ستة أذرع ونصف أصبع ، ومبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا واثنان وعشرون أصبعا .

ما لخص من الحوادث

الخليفة المستنجد بالله أمير المؤمنين ، وبنو سلجوق قد زال ملكهم من العراق ، والعاضد خليفة مصر ، وشاور الوزير .

وفيها كانت[1] عودة أسد الدين شيركوه إلى مصر ، وخرج من طريق البدرية ، ونزل أطفيح بجيوشه سادس ربيع الآخر . ورحل من أطفيح وعدى[2] ، وخيّم بالجيزة نيفا وخمسين يوما . واستنجد شاور بالفرنج حسبما ذكرناه . وتوجه أسد الدين عائدا إلى الشام . وقيل إن هـــذا جميعه كان فى سنة اثنين وستين وخمسمائة ؛ وهو الصحيح .

---

(١) فى المتن : « كان » .
(٢) فى المتن : « عدا » .

ذكر سنتى اثنى وثلاث وستين وخمسمائة

النيل المبارك فى هاتين السنتين

الماء القديم ـ سنة اثنى ـ أربعة أذرع وأربعة وعشرون أصبعا ، والزيادة سبعة عشر ذراعا واثنان وعشرون أصبعا. وفى سنة ثلاث ـ خمسة أذرع ونصف أصبع[1] ، الزيادة ستة عشر ذراعا وثلاثة وعشرون أصبعا .

وفى سنة ثلاث وستين خرج زين الدين على كوجك من نيابة الموصل . وكان هو صاحب الأمر بها من قبل سيف الدين غازى بن أتابك زنكى . وكانت مدينة إربل قاعدة بيته وأولاده . وكانت أيضا بيده شهرزور وجميع القلاع التى بها ، مثل العمادية، وتكريت وسنجار وحران ، فأصابه طرش فى أذنيه ، وكف بصره ، ففارق الموصل، وسلم جميع الممالك لقطب الدين مودود بن زنكى ، وانتقل إلى إربل ، فتوفى بها فى بقية هذه السنة . وقام بالبيت ولده زين الدين ، حسبما يأتى من ذكره ، إن شاء الله تعالى .

ثم لم تزل مع زين الدين إلى أيام السلطان صلاح الدين ، فتوفى زين الدين ، وقام بالأمر مظفر الدين كوكبورى أخوه إلى سنة ثلاثين وستمائة .

---

(١) قارن هذا مع ما جاء فى النجوم الزاهرة لأبى المحاسن (ج ٥ ص ٣٨٠) .

ذكر سنة أربع وستين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم ستة أذرع وثمانية أصابع ، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا فقط .

ما لخص من الحوادث

الخليفة المستنجد بالله أمير المؤمنين .

وبنو سلجوق الحكام على بلاد العجم والروم .

والعاضد صاحب القصر [فى مصر](١) . وشاور الوزير ، إلى أن قتل فى هذه السنة على يد صلاح الدين بإشارة أسد الدين ، يوم الأربعاء سابع ربيع الآخر . ووُزر أسد الدين الديار المصرية ، حسبما تقدم من ذكر ذلك . قلت : وللفقيه عمارة اليمنى ـ الشاعر الموصوف ـ فى شاور عدة مدائح ، فمن جملتها يقول :

ضجر الحديد من الحديد وشاور   من نصر دين محمد لم يضجر
حلف الزمان ليأتين بمثله   حنثت يمينك يا زمان فكفر

وفى هذه السنة كان الحريق بمصر ، وأحرق الجامع العتيق . وكان سببه النصارى ، لما أنكى فيهم الحاكم من منعهم ركوب الخيل والبغال ، وتعليق الصلبان الخشب الثقال فى حلوقهم ، وبناية المساجد والمآذن على كنائسهم ، وهدم منها عدة . فتجمعوا فى الباطن ، واتفقوا على حريق الجامع ، والآدر الكبار المتعينة ، والأرباع ، فكان حريق عظيم ما شهد مثله . وقيل إن سبب تذكر(٢) النصارى هذا الأمر بعد طول هذه المدة ، أنه تولى عليهم فى هذه السنة بطركا يعظمونه عندهم ، فحثَّهم على ذلك ففعلوه ، حتى مُسك منهم جماعة ، وقُطعت أيديهم وأرجلهم . وقصد صلاح الدين استئصال النصارى واليهود جملة كافية ، فلم يقدر على ذلك كونه كان فى أول مبتدأ

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة لإيضاح المعنى .

(٢) فى المتن : « تذكار » .

أمره ووزارته ، ولكل قادم دهشة . وذلك أن أسد الدين لم يقم فى الوزارة غير أربعة أشهر ، وقيل ثمانية أشهر على اختلاف الرواة فى ذلك ، وتوفى إلى رحمة الله تعالى فى تاريخ ما تقدم ، ووُزر صلاح الدين ، حسبما تقدم أيضا ، واستمر حاله .

ولما توفى أسد الدين وقام بالأمر صلاح الدين عمل عماد الدين الكاتب [قصيدة] رثى فيها أسد الدين ، وهنأ بصلاح الدين ، أولها منها :

ما بعد يَوْمِك للمعنَّى المُدْنف　　غير العويل وحسرةِ المتأسِّف
ماأجرأ الحدثان كيف عدا على الأ　　سد الهصور عدا[1] ، ولم يتوقف
لا نستطيع سوى الدعاء فكلنا　　إلا بما فى الوُسْع غير مُكَلَّف

وفى سنة أربع وستين ملك نور الدين قلعة جعبر أخذها من صاحبها شهاب الدين مالك العقيلى . وكانت بنو كلب قد استأسروه ، وأتوا به نور الدين ، فلم يزل يلطف به وعوضه عنها عدة بلاد ، حتى سلمها لنور الدين . وكانت قلعة جعبر لم تزل فى يد هؤلاء القوم من حين سلمها لهم جلال الدولة ملكشاه ، لما أخذها من صاحبها جعبر ، وكان شيخا أعمى [من بنى قشير يقال له جعبر بن مالك][2] ، وله ولدان كانا يقطعان الطريق ويخيفان[3] السبيل فقتلهما وسلم القلعة للعقيليين فلم تزل فى أيديهم إلى هذه السنة ، فأخذها نور الدين من صاحبها المذكور حسبما ذكر .

---

(١) فى ابن واصل (مفرج الكروب ج١ ص١٧١) : «على الأسد المخوف سطا ...» .

(٢) العبارة غير واضحة ، ومذكورة فى هامش الصفحة فى صورة مطموسة ، وما بين حاصرتين إضافة من معجم البلدان لياقوت الحموى (مادة جعبر) .

(٣) فى المتن : « يقطعون الطريق ويخيفون السبيل » ، واعتمدنا فى تصحيح العبارة على ابن الأثير (الكامل ، حوادث سنة ٤٧٩ هـ) .

ذكر سنة خمس وستين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم خمسة أذرع وثمانية عشر إصبعا ، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا وسبعة أصابع .

[ما لخص من الحوادث]

الخليفة المستنجد بالله أمـــير المؤمنين ، ونوابه ووزراء الحـكام فى الأرض بالممالك الخليفتية . والعاضد صاحب القصر . والملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب مدبر الممالك بالديار المصرية وما معها .

وفيها وصلت الفرنج ــ خذلهم الله ــ إلى ثغر دمياط ، مستهل صفر ، فى عـــدد عظيم ، فبادر إليهم صلاح الدين بتقى الدين عمر ابن أخيه ، وشهاب [الدين] خاله ، فى جماعة من الأمراء والجند والعساكر . وكانت الفرنج ــ لعنهم الله ــ قد ضايقوا الثغر مضايقة عظيمة ، حتى أشرفوا على أخذه ، فخذلهم الله عز وجل ، ووقع فيهم وباء ومرض ، حتى لا عاد منهم من يطيق يقف على قدميه . وبادرتهم العساكر مع الأمراء والملوك المذكورين ، فرحل الملاعين صاغرين عن الثغر، فى الحادى والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة .

وفيها بنى صلاح الدين السور الدائر بالقاهرة ومصر المحروستين ، وذلك خـــوفا من نور الدين الشهيد . ودور هذا السور تسعة عشر[1] ألف ذراع وثلاثمائة ذراع وذراعين بالعمل ؛ فما هو بالساحل وقلعة المقسم[2] التى كانت على شاطىء النيل إلى الـكوم الأحمر الذى بساحل مصر طول عشرة آلاف ذراع وخمسمائة ذراع ؛

---

(١) ذكر ابن واصل (مفرج الـكروب ، ج ٢ ص ٥٢) أن هذا السور « دوره تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع وذراعان بذراع العمل ، وهو الذراع الهاشمى » .

(٢) يقصد بقلعة المقسم قلعـــة المقس ، وموقعها اليوم قرب جامع أولاد عنان بالقاهرة . (محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، ق ١ ، ص ١١٤ ، ١٢٨ ــ ١٢٩).

وما هو بين القامة والمقسم وحائط القلعة بالجبل مجاور مسجد سعد الدولة ثمانية(١) آلاف ذراعاً وثلاثمائة واثنان وتسعون ذراعا ؛ ومن جانب القامة من مسجد سعد الدولة مقبل إلى الكوم الأحمر سبعة آلاف ذراع ومائتا وعشرة أذرع . وذلك بشاد بهاء الدين قراقوش ، وهو الذى راك الديار المصرية ، وهو أول روك كان بها(٢) .

وسميت الدنانير القراقوشية كل دينار ثلاثة عشر وثلث . وذلك أنه قطع سعر القمح والشعير والفول فى غالب الأزمان وجمعه ، فكانت جملة ثمن كل أردب ثلاثة عشر درهم وثلث ، فسمى ذلك دينار جيشى . وأقطع البلاد على هذه الدنانير ، فاستمرت إلى الآن .

وفى أول هذه السنة جهز صلاح الدين أخاه الملك المعظم عيسى إلى اليمن ، ففتحها وحصل على أموالها وحواصلها . وسبب ذلك أن صلاح الدين وأخاه(٣) المعظم كانا خائفين(٤) من الملك العادل نور الدين الشهيد ، فاتفقا على أن يفتحا اليمن ، فتكون لهما معقلا وحصنا ، إن قوى عليهما نور الدين . وكانت إرادة الله لهما غير ذلك ، حتى ملّكهما الأرض كلها . وكان صاحب اليمن قد قطع الخطبة عن ذكر الخلفاء وخطب لنفسه ، ففتحها المعظم فى أول هذه السنة ، وأقام بها شهوراً يسيرة . واشتاق إلى أخيه صلاح الدين ، فنفّذ رجلا من عقلاء قومه ، وقال : « إن وجدت السلطان صلاح الدين يوما منشرحا فاطلب لى دستوره لزيارته » . فلما وصل الرسول ومعه هدايا اليمن وطُرفها عرف صلاح الدين ما قال أخوه ، فأعجبه منه ذلك ، وأنعم على الرسول ، ونفذ يطلب المعظم ، فحضر إليه .

وفيها أبطل نور الدين الشهيد سائر المكوس بالشام ، فكانت جملته خمسمائة

(١) فى المتن : « ثلاثة آلاف » ، والتصحيح من ابن واصل (مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٥٣) ومن خطط المقريزى (ج ٢ ص ٢٠٨) .

(٢) عن الروك ، انظر ما كتبه محمد مصطفى زيادة فى كتاب السلوك للمقريزى (ج ١ ص ٨٤١–٨٤٢) .

(٣) فى المتن : « وأخوه » .

(٤) فى المتن : « خائفان » .

ألف دينار وستة وثمانين ألف دينار . وكان نور الدين قد بنى البيمارستان بدمشق فى سنة اثنين وستين وخمسمائة . وكان فى سنة ثلاث قد قطع الفرات[١] ، واستولى على الجزيرة والرها ، وعاد إلى منبج .

وفى هذه السنة أوصى نور الدين ــ رحمه الله وبرّد ضريحه ، وجعل الجنة مأواه ــ وعهد إلى ولده الملك الصالح إسماعيل .

الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل محمود نور الدين الشهيد بن أتابك زنكى

وباقى نسبه قد تقدم .

ولما مات نور الدين ــ رحمه الله ــ تحركت الفرنج بكل أرض ، وأقام الملك الصالح إسماعيل أياما قلائل ، ثم رحل طالبا لحلب ، فدخلها وقبض على أولاد الداية . وكان[٢] أولاد الداية أجلّ أصحاب الملك الناصر صلاح الدين. ونفذ قبل ذلك الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين إلى صلاح الدين يعزيه فى والده الملك العادل ، ويأمره بالخطبة والسكة له ، فامتثل ذلك على رغم منه . فلما قبض الصالح إسماعيل على أولاد الداية ، وجد صلاح الدين للشر بينهما سبيلا ، فجيش وخرج طالبا للشام بسبب الفرنج وتحريكهم . فلما بلغ الفرنج خروج صلاح الدين فى تلك العساكر الكثيفة ، سكنوا عما هموا عليه . ثم إن صلاح الدين نزل على دمشق وأخذها ــ والملك الصالح بحلب ــ وسلمها لأخيه الملك المعظم عيسى . ثم توجه إلى حلب فحاصر الصالح أياما . ثم وقع الصلح أن تكون حلب خاصة وأعمالها للملك الصالح إسماعيل بن نور الدين ، ويخرج عن سائر الشام . فلما تقرر ذلك عاد صلاح الدين إلى الديار المصرية . وكان قد جعل أخاه الملك العادل سيف الدين أبو بكر نائبا بها ، فخرج وتلقاه بأهل مصر من خلف سويس ، على طريق قلعة صدر[٣] ، خوفاً من الفرنج .

(١) فى المتن : « الفراة » .
(٢) فى المتن : « وكانوا » .
(٣) ذكر ياقوت (معجم البلدان) أن صدر قلعة بين القاهرة وأيلة .

وفيهـا كانت زلزلة عظيمة بحلب وبعلبك ونواحيهما ، وهلك فيها عالم عظيم . وانشق جبل لبنان المطل على بعلبك شقا لايعرف له انتهاء . ودامت الزلازل شهرا ، وربما كانت تزلزل فى اليوم والليلة عدة دفعات .

وقيل إن جميع ما ذكرناه فى هذه السنة من وفاة نور الدين ، وتمليك ولده الملك الصالح إسماعيل ، وخروج السلطان صلاح الدين ، وأخـــذه الشام من الملك الصالح إسماعيل ، كان فى سنة سبع وستين ، وهو الصحيح . وذلك أن نور الدين لم يمت حتى توفى العاضد صاحب القصر ، ووفاة العاضد كانت فى سنة سبع وستين يوم عاشوراء ، متفق على صحته .

وفيها كانت فتنة السودان ، وكانت فتنة عظيمة . وكان كبيرهم يسمى مؤتمن الدولة[1] خصى . وكان متحكما فى القصر . ولما ثقلت وطأة صلاح الدين أجمع أهل القصر على مكاتبة الفرنج ، فسيروا إليهم صحبة رجل جاء وجعلوه مخروزا فى نعله ، نقبض عليـه وأتى به إلى صلاح الدين ، فعمل الحيلة حتى قتل ذلك الخصى فى قصر كان له . ثم ثاروا السودان وكان عدتهم نيف وخمسة آلاف[2] نفر واصطلى بحربهم الأمير ابن أبى الهيجاء . وكانت الحرب بينهم فى بين القصرين يومين . وكانت لهم محلة عظيمة على باب زويلة تعرف بالمنصورية ، فأرسل صلاح الدين إليها من أوقع فيها النار والحريق فى أموالهم وأولادهم . فلما بلغهم ذلك ولوا منهزمين ، ثم أمنوا بعد أن قتل منهم جماعة كثيرة .

وفيهـا توفى قطب الدين [مودود] بن [زنكى] صاحب الموصل إلى رحمة الله تعالى . أوصى بالملك بعده لولده عماد الدين زنكى ، سماه على اسم جده ، فلم يتم أمره ، واستقام الأمر لسيف الدين غازى أخوه ، بتدبير فخر الدين عبد المسيح ، فإنه كان قام بأمر النيابة بعد [زين الدين] على كوجك ، فاتفق مع الخاتون ابنة حسام الدين

---

(١) فى ابن واصل ، مفرج الكروب (ج ١ ص ١٧٤) : مؤتمن الخلافة .

(٢) فى ابن واصل ، مفرج الكروب (ج ١ ص ١٧٦): أن عدتهم زادت على خمسين ألفا .

تمرتاش جدته ، وقرر الأمر لغازى . وتوجه زنكى إلى عمه نور الدين مستنصراً به . وكان عُمْر قطب الدين لما توفى نحواً من أربعين سنة . ومدة ملكه الموصل إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر. ولما بلغ نور الدين استيلاء عبد المسيح على الأمور كره ذلك لكره منه له ، فتوجه فى سنة ست [وستين وخمسمائة] إلى نحو الرقة ، ثم نزل على سنجار وأخذها بعد حصار ، وأعطاها لابن أخيه عماد الدين زنكى الذى حضر إليه منتظرا مستنصرا به . ثم توجه ودخل الموصل ، واستقر غازى فيها نائبا عنـــه ، وجعل بالقلعة سعد الدين كمشتكين ، وقسم تركة قطب الدين بين يديه على الوجه الشرعى .

ذكر سنة ست وستين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم سبعة أذرع فقط . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا وتسعة عشر أصبعا .

ما لخص من الحوادث

الخليفة المستنجد بالله أمير المؤمنين ، إلى أن توفى فى هذه السنة . قُتل ثامن ربيع الأول سنة ست وستين وخمسمائة ــ وهى هذه السنة ــ وله ثمان وأربعون سنة . وقيل إنه مات بالنقرس . وكان حسن السيرة ، رفع المكوس فى أيامه ببغداد . وزيره شرف الدين أحمد بن محمد . والغالب على الأمور بنو[1] سلجوق ، حسبما تقدم من ذكرهم . نقش خاتمه لقبه .

ذكر خلافة المستضىء بنور الله بن المستنجد بالله، وما لخص من سيرته

هو أبو محمد الحسن بن يوسف بن محمد المقتفى[2] لأمر الله ، وباقى نسبه قد تقدم. أمه أم ولد ، يقال لها بدور[3] . مولده [فى] المحرم[4] سنة ست وثلاثين وخمسمائة . بويع له عند موت أبيه ، وأقام خليفة تسع سنين وثمانية أشهر ، إلى أن توفى فى تاريخ ما يأتى ذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى المتن : « بنى » .

(٢) فى المتن : « المتقى بالله » ، والتصحيح من الكامل لابن الأثير (حوادث سنة ٥٦٦ هـ) : والبداية والنهاية لابن كثير (ج ١٢ ص ٢٦٢) .

(٣) ذكر ابن الأثير أن أم الخليفة المستضىء كانت أم ولد أرمينية تدعى غضة (الكامل ، ج ١٢ ، حوادث سنة ٥٧٥ هـ) ؛ وفى البداية والنهاية لابن كثير (ج ١٢ ص ٢٦٢) أن أمه « أرمينية تدعى عصمت » .

(٤) ذكر ابن واصل (مفرج الكروب، ج ١ ص ١٩٥) أن مولده كان فى ثالث عشر شعبان سنة ست وثلاثين وخمسمائة .

وفيها والعاضد صاحب القصر لم يكن له أمر ، وقد خلعه السلطان صلاح الدين بفتاوى الأئمة والفقهاء ، حسبما تقدم من ذكر سببه .

وفيها ولّى السلطان صلاح الدين القاضى صدر الدين أبو القاسم عبد الملك بن عيسى ابن درباس الحكم والقضاء بالديار المصرية وسائر أعمالها ، وخلع عليه بما يليق بمثله .

وفيها كان أول تملك :

السلطان الأجلّ صلاح الدنيا والدين يوسف الملك الناصر

هو أبو المعالى السلطان الملك الناصر صلاح الدنيا والدين ، يوسف بن نجم الدين أيوب بن شاذى بن مروان ، فاتح الفتوح ، وقاتل كل كافر لحوح ، معلى منار الإسلام ، وحامى أمة النبى عليه السلام ، مذل عبدة الأوثان ، وخامد جمرة الكفر والطغيان ، ومطهر البيت المقدس من رجس الشيطان ، كاسر الصلبان ، وراغم البطرك والقسيس والرهبان . متعه الله بالحور والولدان ، فى عرصات الجنان ، بكرمك يارحمن ! يارحمن ! يارحمن !

وفيها خرج السلطان صلاح الدين إلى الغزاة ، وغار على الرملة وعسقلان ، وعاد إلى القاهرة .

وفيها خرج والتقى أهله لما قدموا من الشام ، خوفا عليهم من العدو المخذول ، ودخلوا إلى القاهرة سالمين .

وفيها أخذ الأيلة وقلعتها ، ثم خرج إلى الإسكندرية لتدبير أحوالها .

ذكر سنة سبع وستين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم خمسة أذرع وسبعة أصابع . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا وعشرون أصبعا .

ماتخص من الحوادث

الخليفة المستضىء بنور الله أمير المؤمنين. وبنو سلجوق قد اختل نظامهم ببغداد، وعاد أمر الخلافة على ما كان عليه .

وفيها توفى العاضد صاحب القصر ، واختلف فى سبب وفاته اختلاف كثير ؛ فمنهم من ذكر أنه مات حتف أنفه ، ومنهم من ذكر أن السلطان صلاح الدين ضيّق عليه حتى سم نفسه فمات . ورأيت فى مسوداتى أن العاضد كانت عنده جلية السلطان صلاح ، وأنه سبب زوال ملكهم . وكان عادة صلاح الدين أنه يأتى كل يوم إلى باب القصر ، ويقبل العتبة ، ويستأذن الزمام ، فيأذن له . فقال العاضد للزمام: « إذا رأيته قد حضر ولم يقبل العتبة وجاز بغير إذن فعرفنى سرعة » . فلما خلع صلاح الدين العاضد أتى ذلك اليوم ولم يقبل العتبة ، وجاز بغير استئذان ، فدخل الزمام وعرف العاضد ذلك . وكان فى يده خاتم بفص فامتصه ، ففاضت نفسه ، والله أعلم .

وكان السلطان صلاح الدين ـ لما خلعه بمقتضى الفتاوى الشرعية المقدم ذكرها ـ خطب لبنى العباس فى أول جمعة من هذه السنة ، بمصر . وفى الجمعة الثانية فى القاهرة وسائر الأعمال المصرية . ثم نفذ بذلك إلى سائر البلاد الشامية ، والخليفة يومئذ المستضىء بنور الله . وفيها خطب أيضا لنور الدين محمود صاحب دمشق .

واستولى السلطان صلاح الدين على جميع ما فى القصر من الذخائر والأموال ، وحمل لنور الدين صاحب الشام حملا من أموال القصر وذخائره وجواهره وتحفه ، فكان ذلك بجملة كبيرة . وفى جملة الهدية الحمارة العتّابيّة[1] والفيل والزرافة .

---

(١) يقصد بالحمارة العتابية حمارة مخططة من حمر الوحش التى تشبه فى لونها القماش العتابى المخطط.
(Dozy, Supp. Dict. Ar.)

وفيها بطل الأذان بحى على خير العمل ، وعاد إلى ما كان عليه أولا ، واستمر إلى الآن ، أدامه الله إلى يوم الدين . وفى ذلك يقول عرقلة الدمشقى :

أصبح الملك بعد آل علىٍّ مشرقا بالملوك من آل شاذى
وغدا الشرق يحسد الغرب للقو م ، ومصر تزهو على بغداد
وما حوَوْها إلا بعزم وحزم وصليل الفولاذ فى الفولاذ
لا كفرعون والعزيز ، ومن كا ن بها كالخصيب والأستاذ

وفيها وصل الريدكور صاحب صقلية[1] إلى الإسكندرية وقصد أخذ الديار المصرية . وكان معه جمع عظيم ، وصحبته ستين طريدة تحمل الخيول ، ومائتى وخمسين شينى ، فى كل شينى ثلاثمائة مقاتل . وكان السلطان صلاح الدين قد خرج إلى الشام ، وهو على غزة ، فأخذ من غزة إلى الإسكندرية فى أربعة عشر مرحلة ، مغدى ، معشى . والتقى الجمعان على الإسكندرية ، وجاءت الأمداد من كل جهة . وكانت وقعة عظيمة ، نصر الله فيها الإسلام ، وأيد أمة النبي عليه السلام . وهرب الفرنج وملكهم الريدكور ، وفى أرقابهم سيف كل بطل من المسلمين مذكور . وغنم[2] المسلمون غنيمة جليلة . وهذه[3] الوقعة تعرف بوقعة الريدكور . وفيها اختلاف بين سنتى سبع وتسع ، والله أعلم أيهما كانت . والذى يقارب الصحيح أن ذلك فى سنة تسع وستين وخمسمائة[4] .

---

(١) كان صاحب صقلية عندئذ هو الملك وليم الثانى (ت ١١٨٩) ولم يخرج على رأس هذه الحملة ؛ وإنما أرسل حملته تحت قيادة تنكرد أمير لكى (Tancred Count of Lecce) ، الذى وصفه ابن الأثير بأنه « ابن عم صاحب صقلية » (الكامل ، ج ١٢ ، حوادث سنة ٥٧٠ هـ) وتنكرد هذا هو الذى توج فى أوائل سنة ١١٩٠ م ملكا على صقلية . انظر :

Cam. Med. Hist., Vol. 5. p. 201

Runciman, A. Hist. of the Crusades, vol. 2, p. 403.

(٢) فى المتن : « وغنموا » .

(٣) فى المتن : « وهى الوقعة » .

(٤) حدد ابن واصل تاريخ هذه الحملة التى قام بها ملك صقلية على الاسكندرية بشهر ذى الحجة سنة تسع وستين وخمسمائة (مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١١) . انظر أيضا الكامل فى التاريخ لابن الأثير (حوادث سنة ٥٧٠ هـ) وكتاب الروضتين لأبى شامة (ج ١ ص ٢٣٥) .

ذكر سنة ثمان وستين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم خمسة أذرع وعشرون أصبعا . مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا وأربعة أصابع .

مالخص من الحوادث

الخليفة المستضىء بنور الله أمير المؤمنين ، والخطبة يومئذ له بسائر بلاد الإسلام . وانقطعت الدولة الفاطمية إلى الآن ، وعاد الحق إلى نصابه ، والأمر إلى صوابه .

وقيل إن نور الدين الشهيد فى هـــذه السنة صاحب دمشق بحاله ، وأن وفاته فى سنة تسع وستين .

وفيها أمر السلطان بقتل جميع السودان بالديار المصرية وسائر أعمالها .

وفيها توفى نجم الدين أيوب ، والد السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى ، ثامن عشر ذى الحجة من هذه السنة .

وفيها وجه السلطان أخاه فخر الدين توران شاه إلى بلاد النوبة، وفتح قلعة يقال لها بريم، وعاد ومعه جماعة من أهلها. وفيها خرج السلطان صلاح الدين إلى غزاة الكرك.

ذكر منازلة الكرك وسببه

كان السلطان صلاح الدين ـ رحمه الله ـ قد اصطلح مع الإبرنز صاحب الكرك[1] . وكان يعطى الإفرنج شيئا كثيرا لا يعلم له قيمة ، ويصانعهم فيما بينه وبينهم ، ويجتهد بكتمان ذلك ، لا يسمع عنه أنه يصانع عن نفسه وبلاده .

---

(١) يقصد أرناط ـ رينودى شاتيون ـ صاحب الكرك بحكم زواجه من وريثتها سنة ١١٧٧م (٥٧٣ هـ) . ويلاحظ أن المؤلف خلط هنا ويبدو أن المقصود بهجوم صلاح الدين على الكرك ماحدث سنة ٥٨٣هـ قبيل موقعة حطين، انظر (ابن واصل: مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٨٦) .

ووقع الصلح بينهم إلى وقت معين ، بشرط أن المسافرين يسافروا والقفول لا تنقطع ،والتجار لا تتعوق من الشام إلى مصر ، والخفر على الإفرنج . فاتفق أن صاحب الكرك شرب ذات ليلة وسكر ، وأمر الخيالة أن تنزل تقطع الطريق على المسافرين من المسلمين ، فركبت الخيالة ومعهم الرجالة ، ونزلوا ، فأخذوا خلقا كثيرا من التجار والتركمان والفقراء والمسافرين . فلما بلغ السلطان صلاح الدين ذلك عظم عليه ، وأنذر لله ـ عز وجل ـ إن ظفره الله تعالى بصاحب الكرك ذبحه بيده ، تقرباً إلى الله بدمه ، وأن يحمل حجارة قلعته على الأرض . ثم نفذ إلى سائر ملوك الإسلام ، يحثهم على الغزاة ، فجاءه الناس من كل فج عميق . وقدح زند الحرب ، وانتدب للطعن والضرب . وخرج بنية صادقة ، وقلوب على الغزاة موافقة . ثم إنه نزل على الكرك ، وأمر بقطع الأشجار ، وأقام عليها شهرين متتابعين ، ورتب عليها النقوب والزحوف ، ونصب المناجنيق . وعبرت الناس تحت النقوب ، وخاسفهم[1] الفرنج ، وقتل فى ذلك اليوم خلق كثير من الفئتين . وكان الملك المعظم عيسى بدمشق ، حسبما سقناه من أخباره ، فحضر بعساكر الشام . وكذلك قدمت الجيوش من عند صاحب الموصل سيف الدين غازى بن مودود . وجاءت سائر ملوك الإسلام . ثم إن السلطان صلاح الدين جدد من الجيوش على طبرية مع أخيه فخر الدين توران شاه . ثم قدم بنفسه، وفتحها الله تعالى على يديه ، بعد ذلك مع قلعة حطين ، التى مجاورة الطور .

فلما بلغ ملوك الفرنج اجتماع كلمة ملوك الإسلام ، انتحوا للدين الذى لهم ، وقالوا: « لابد من الموت ، فموتنا فى هذه الأرض المقدسة خير لنا من غيرها » . وتكاتبوا ، وأتتهم النجدة من كل أرض وجزيرة ، واجتمعوا مائة ألف واثنى عشر ألف ،

---

(١) فى المتن : « وخاسفوهم الفرنج » .

مابين فارس وراجل، ورفعوا صليب الصلبوت بزعمهم؛ وهى قطعة خشب يدعون أنها من الخشبة التى صلب عليها المشبه[١] بعيسى بن مريم، صلوات الله على عيسى وسلامه. ثم توجهوا بجموعهم إلى نحو السلطان صلاح الدين ليمنعونه عن طبرية وأخذها . فلما بلغ السلطان صلاح الدين ذلك جد فى سيره ، وقحم خيله[٢] ، حتى سبقهم إليها بيوم واحد ، ونزل عليها . ثم التقى[٣] الجمعان على السطح بطبرية ، وذلك يوم الجمعة الرابع والعشرين من جمادى الآخر . وحاز بينهم الليل ، فباتوا على مصافهم فى سلاحهم ، متوجهين إلى الله عز وجل ، مستهلين له بالدعاء والتضرع ، يسألوه ـ جل وعز ـ أن ينصرهم على أعدائه . فلما كان عند الصباح التقى الفريقان بأرض لوبيه[٤] . ولم يزل السيف يعمل ، والرجال تقتل ، ونار الحرب تشعل ، إلى الليل . ولم يحجز بينهم إلا الليل . وقد حازت المسلمون[٥] الماء بأرض الجزيرة إلى الصباح . وثار الحرب بينهم ، وقد اشتد بالملاعين العطش ، وقوى عليهم الحر ، وأوقع الله فى قلوبهم الرعب ، فاشتد خوفهم . فلما كان وقت الظهر انهزمت منهم طائفة ثم تبعتها أخرى . وركب المسلمون ظهورهم قتلا وأسرا ، فلم ينج منهم إلا من تعلق بجبل أو أدرك حصنا من حصونهم . وهرب القمص[٦] ونجا ، واحتاط المسلمون ببقية ملوكهم ، وهم صاحب الكرك المقدم ذكره ، وأرناط صاحب القدس الشريف[٧] ،

---

(١) يقول المسيحيون إن المسيح ـ عليه السلام ـ صلب على هذا الصليب الخشبى المعروف باسم صليب الصلبوت . على أن المؤلف تحفظ وقال إن المشبه بعيسى هو الذى صلب عليها حتى لا يتعارض قوله مع ما جاء فى القرآن الكريم « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » (النساء ، ١٥٧) .

(٢) قحم المفاوز : طواها (القاموس المحيط) .

(٣) فى المتن: « التقا » .

(٤) يفهم من المتن أن اللوبية اسم منطقة قرب طبرية. وقد ذكر ابن واصل « فركب العسكران وتصادما وذلك بأرض تسمى اللوبيا » (مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٨٩) .

(٥) فى المتن : « المسلمين » .

(٦) يقصد بالقمص ريموند الثالث أمير طرابلس وقد لقب بالقمص أو القومص فى المراجع العربية؛ انظر (ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٢٢) .

(٧) يلاحظ أن المؤلف خلط فى هذه العبارة ، إذ كان أرناط هو صاحب الكرك ، فى حين كان ملك بيت المقدس هو جاى لوزجنان .

وجفرى صاحب صقلية[1] ، وأولى[2] صاحب جبيل ، وابن[3] صاحب اسكندرونه ، واجل صاحب مَرَقِيَّة ، وفروخ صاحب بيروت . وهؤلاء الذين ذكرناهم كان كل واحد منهم عسكره نظير عسكر السلطان صلاح الدين وأزيد ، وإنما نصره الله تعالى عليهم ، لما علم صدق نيته فى محبة جهاد أعدائه . وأسر من الديوية والاسبتار والبنادقة والبارومية خلق عظيم . وقتل من الفرنج ما لا يحصى كثرة . وهذه الوقعة التى ذلت بها ملوك الفرنج لصلاح الدين .

قال ابن واصل وهو القاضى جمال الدين قاضى قضاة حماه فى تاريخه ، المسمى « مفرج الكروب فى أخبار ملوك بنى أيوب » : إن هذه الواقعة كانت فى سنة ثلاث وثمانين وخمس مائة ، بعد رجوع السلطان من بلاد الشرق . وأقول إنه الصحيح ؛ فإن صاحب التاريخ ـ أعنى أبو المظفر جمال الدين يوسف ـ الذى نقلت منه هذا التاريخ فى أخبار بنى أيوب ، كان إذا ذكر واقعة ، استمر على ذكرها هل يكون فى سنيها أو غير سنيها . والقاضى جمال الدين بن واصل حرر تاريخ السنين ، فالرجوع إليه فى وقائع السنين أولى من غيره . والعهدة فى جميع ما أذكره على نسخ الأصل . ولعل ما آفة الأخبار إلا رواتها .

ثم ضرب الدهليز السلطانى الصلاحى ، وجلس السلطان صلاح الدين ، وأجلس بين يديه ملوك الفرنج على مراتبهم وأقدارهم ، وأجلس صاحب الكرك أسفلهم ، وكان أكبرهم قدرا . وسبب إهانته غدره ونكثه ، حسبما تقدم من ذكر ذلك . ثم قال له السلطان صلاح الدين : « كيف رأيت صنع الله تعالى وعاقبة الغدر والنكث ؟ »

---

(١) المقصود بجفرى هذا الكوند اسطبل أماريك (Constable Amalric) ، وهو أخو الملك جاى لوز جنان ملك بيت المقدس .

(٢) هكذا جاء الاسم فى المتن ، وذكره ابن واصل (مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٩٢) «أوك» والمقصود به هيو الثانى Hugh II صاحب جبيل.

(٣) فى المتن : « وهند » ، والتصحيح من ابن واصل (ج ٢ ص ١٩٢) .

فأطرق إلى الأرض . ثم أمر به فكُبل ، ووثب السلطان فنحره بيده بين الملوك لوفاء نذره ، فصلّب[١] الجميع بأيديهم على وجوههم . ثم إنه أنفذهم إلى دمشق فى قيودهم ، فاعتقلهم بها.

قال ابن واصل فى تاريخه : سبب قتل البرنس صاحب الكرك وكيفيته أنه لما منّ الله تعالى بالنصر على الإسلام ، أمر السلطان بالملوك ، فأجلسهم فى الدهليز السلطانى ، وجلس السلطان فى سرادقه ، وأمر بإحضار البرنس ، وأوقفه على غدره وقوله. وكان الملعون لما غدر بالقافلة التى أخذها ، قال لهم: « قولوا لمحمدكم يخلصكم ». فقال له السلطان: « هاأنا أنتصر لمحمد صلى الله عليه وسلم ». ثم عرض عليه الإسلام، فأبى ، فسلّ السلطان النمجاه وضربه فحل كتفه ، وتمم عليه من حضر من المماليك ، وسحب. فلما رآه الملك هنفرى[٢] ارتاع، وظن أنه سيكون ثانيه،فأحضره السلطان، وطيب قلبه ، وقال : « إنما فعلت بهذا ما تراه لأنه تعدى طوره . وإنما الملوك لا تقتل الملوك » . ثم إن السلطان أمر بقتل سائر الداوية والاسبتار ، فقتلوا عن آخرهم .

ثم إنه رحل إلى عسقلان ، لما كان على المسلمين منها من الأذى ومنع الطرق بسببها ، فإذا أُخذت أمنت الطرق ، وسافرت القوافل والتجار. وكانت هذه عسقلان أم تلك الديار ، ومعقل عظيم من معاقل الفرنج . واجتمعت الفرنج عليها ، وحاصرهم السلطان صلاح الدين، فلم يلتفتوا إلى ذلك لحصانة المكان ، وكثرة رجاله ، والمراكب تأتيهم بما يمتارون ، فسير صلاح الدين أحضر ملوك الفرنج من دمشق ، ونفذ إلى من بعسقلان يقول: « متى لم تسلمونا الحصن قتلت ملوككم » . فلم يسمعوا ذلك، ولا رجعوا إليه ، وردوا أنحس جواب . فاتكل على الله ــ عز وجل ــ وجدّ فى حصارهم ، ونصب المناجنيق . فلما تحقق[٣] الملاعين أن لابد له من الحصن وفتحه ،

(١) فى المتن : « فصلبوا » .
(٢) صحتها « جاى » أو « كى » كما كتبه ابن واصل . أما هنفرى ، فالمقصود به همفرى الرابع صاحب تبنين ، وكان من جملة أسرى موقعة حطين .
(٣) فى المتن : « تحققوا » .

أرسلوا يقولوا: « سلّم إلينا ملوكنا ونحن نسلم الحصن إليك». فاتفق الحال على ذلك ، وأن يسلموا إليه عسقلان وجميع حصونها ، وهى[١] : الزعقة ، والعريش ، والداروم ، وغزة ، والرملة ، والنطرون ، وبيت جبريل . فسلموا جميع ذلك بالأمان ، وأطلق السلطان ملوكهم .

وقيل إن فى هـذه السنة كانت وقعة الريدكور صاحب صقلية المقدم ذكرها ، والله أعلم .

وفيها كسفت الشمس بعقدة الرأس ، واستُغرف منها النصف والثمن .

وفيها قبض على جماعة من كبار المصريين ، وهم : زين الدولة شبرام ، والأعز العوريس[٢] ، وضياء الدين بن كامل ، والقاضى عبد الصمد ، وعمارة اليمنى الشاعر ، ومصطنع الملك ، وقاضى القضاة ابن عبد القوى[٣] . وفيهم منجم نصرانى قال لهم : « أنتم تملكون من صلاح الدين بعد تسعين يوما » . ونقل للسلطان مااتفقوا عليه من مكاتبة الفرنج بالحضور ، وأن يعيدوها فاطمية . فشنقوا بأجمعهم فى سوق الخيل .

وفيها توفى فخر الدين داود صاحب حصن كيفا ، وولى ولده نور الدين محمود .

---

(١) فى المتن : « وهم » .

(٢) كان العوريس قاضى القضاة (ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ص ٢٤٧) .

(٣) ذكره ابن تغرى بردى « داعى الدعاة إسماعيل بن عبد القوى » (النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٧٠) .

ذكر سنة تسع وستين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

المـــاء القديم ستة أذرع وعشرون أصبعا . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا وعشرة أصابع .

ما لخص من الحوادث

الخليفة المستضىء بنور الله أمير المؤمنين . والسلطان صلاح الدين بالديار المصرية . ويقال إن فى هذه السنة مات نور الدين الشهيد ، وأخذ السلطان صلاح الدين الشام ، وملّـكها لأخيه الملك المعظم عيسى ، حسبما سقناه .

وأن فيها كان القبض على الجماعة المذكورين وشنقهم .

وفيها وصل أسطول صقلية إلى ثغر الإسكندرية ، وأقاموا عليـه أربعة أيام ، وأقلعوا عنه مستهل المحرم سنة سبعين وخمسمائة .

وفيها ظهر رجل مغربى بضيعة من أعمال دمشق ـ يقال لها مشغرى[1] ـ ادعى النبوة ـ لعنه الله ـ وقلب رءوس خلقٍ من الناس ، وعصوا على أهل دمشق، فأرسل إليهم المعظم عسكرا ، فلم يقدروا عليه ـ لوعارة بلدهم ـ وعادوا مجروحين .

وفيها خرج السلطان صلاح الدين ، وكسر عساكر الموصل على تل السلطان . وكان المواصلة أحد وعشرين ألف مقاتل .

وفيهـا نزل الملك المظفر[2] تقى الدين [عمر] بن شاهنشاه على طرابلس ، والتقى مع البرنز صاحب طرابلس ، وكانت وقعة عظيمة ، قتل فيها من المسلمين شمس الدين ابن المقدم ، وسيف الدين غازى بن الشطوب ، وكانا من كبار الأمراء الناصرية .

---

(١) فى المتن : « مشغرا » ، ومشغرى بالفتح ثم السكون ، قرية من قرى دمشق من ناحية البقاع (ياقوت ، معجم البلدان) .

(٢) فى المتن : « المنصور » .

قال ابن واصل : إن توجه الملك المعظم شمس الدولة أخو السلطان صلاح الدين إلى اليمن وفتحها ، كان فى هذه السنة، أعنى سنة تسع وستين . وكان صاحب مدينة زبيد يسمى عبد النبي ، فاستأسره المعظم ، ومات فى أسره . وكذلك صاحب عدن ، يسمى ياسر فأخذ أيضا ومات فى الأسر . واستناب بعدن الأمير عز الدين عثمان ، وبزبيد سيف الدولة مبارك بن منقذ. وحصل المعظم على أموال عظيمة ، ودفائن جليلة أظهرها لهم صاحبها عبد النبي بن محمد .

وفيها توفى نور الدين ــ رحمه الله ــ يوم الأربعاء حادى عشر شوال من هــذه السنة وهو الصحيح ، بمرض الخوانيق فى مدة سبعة أيام . وكان عمره ثمان وخمسون سنة ، مولده سنة أحد عشر وخمسمائة ، حليته أسمر طويل ، فى وجهه شعرات يسيرة ، سيرته لايدرك لها غاية فى الجودة .

ذكر سنة سبعين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم ستة أذرع وأحد وعشرون أصبعا . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا ، وسبعة عشر أصبعا .

ما لخص من الحوادث

الخليفة المستضيء بنور الله أمير المؤمنين. والسلطان صلاح الدين سلطان الإسلام بالديار المصرية والبلاد الشامية ، والحجاز ، واليمن ، وبعض أطراف المغرب . وأخوه المعظم بدمشق . والصالح إسماعيل بن نور الدين الشهيد يومئذ صاحب حلب . والعادل سيف الدين أبو بكر ينوب عن أخيـه السلطان بالديار المصرية ، إذا غاب السلطان فى أسفاره .

وفيها نافق الـكنز بالصعيد ، وقتل بعض أمراء السلطان ، فتوجه الملك العادل نحوه إلى أسوان ، وصحبته الأمير عز الدين موسك، والأمير حسام الدين أبو الهيجاء المعروف بالسمين مع جماعة من الأمراء، فلحقوه وقتلوه مع جماعة من أتباعه السودان.

وفيها خرج السلطان إلى الشام ، ونزل على حلب ، وحاصرها ، ورحل عنها ، ولم يتسلمها .

ووصل إلى السلطان الخلع من الإمام المستضيء بنور الله، وتقليد عظيم[1] بمصر والشام .

وفيها كان جراد عظيم ، وغلاء ووباء ، وهلك فيه عالم عظيم فى الشرق وأعماله.

وفيها ادعى رجل النبوة ، فطلبه السلطان ، فهرب منه .

وفى هـــذه السنة ــ أعنى سنة سبعين وخمسمائة ــ كانت الوقعة بين السلطان صلاح الدين وبين عسكر الموصل والحلبيين ، وكسرهم كسرة شنيعة . وفيها ملك حماة

---

(١) فى المتن : « وتقليدا عظيما » .

وولاها لخاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمى . وكذلك ملك حمص ، وملّكها لابن عمه الملك القاهر ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه . وكانت قبل ذلك إقطاعا لأبيه شيركوه من أيام نورالدين رحمه الله، فملكها ناصر الدين [محمد] ثم ذريته من بعده ، حسب ما نذكر منهم .

ذكر سنة إحدى وسبعين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم ستة أذرع وستة عشر أصبعا . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا وعشرة أصابع .

ما لخص من الحوادث

الخليفة المستضىء بنور الله أمير المؤمنين . والسلطان صلاح الدين سلطان الإسلام بالديار المصرية ، وما معها .

وفيها وقعت الهدنة بينه وبين الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ مدة ؛ وكانوا قبل ذلك قد وصلوا إلى داريا(١) بظاهر دمشق ، وأحرقوا الجامع ، ورحلوا من يومهم . ثم وقعت الهدنة بعد ذلك .

وفيها كسر السلطان صلاح الدين سيف الدين غازى بن مودود ـ صاحب الموصل ـ كسرة ثانية ، ونهب عسكره .

وفيها خرج صاحب خراسان الملقب بالمؤيد يريد خوارزم ليحاصرها ، فظُفِر به وقُتل ، وطيف برأسه على رمح فى سائر تلك الأقاليم .

وفيها فتح السلطان صلاح الدين حصن أعزاز ، وحصن بزاعة .

وفيها قفزت عليه وهو راكب الفداوية ، وجرحوه ، وسَلِم . فلما عوفى عاود النزول على حلب ، فإنه بلغه أن صاحبها [هو] الذى أرسل إليه الفداوية .

وفيها فتح صيدا .

---

(١) داريا : قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة (ياقوت ، معجم البلدان) .

ذكر سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم ستة أذرع وإحدى وعشرون أصبعا . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا وإحدى وعشرون أصبعا .

مالخص من الحوادث

الخليفة المستضىء بنور الله أمير المؤمنين .

والسلطان صلاح الدين على حلب يحاصر صاحبها . ووقع فى هذه السنة الصلح مع صاحبها الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين الشهيد ، وكذلك مع جماعة ملوك الموصل وديار بكر . وكان الصلح عاما .

وعاد السلطان إلى ديار مصر ، ودخل القاهرة يوم السبت السادس والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة . ثم خرج إلى ثغر الإسكندرية .

وفيها توفى الدكز أتابك ساطان. وتوفى السلطان أرسلان شاه بن طغرل بن محمد ابن ملكشاه(١) .

وفيها نزل الفرنج على حارم وحاصروها ، وأقاموا عليها أربعة أشهر . فلما بلغ السلطان صلاح الدين ، خرج إليهم ، فاعترضه نهر الصافية ، فازدحمت عليه العساكر والجمال والأثقال ، فلم يشعروا إلا وقد دارت بهم الفرنج بالخيل والرجل . وكان الجيش متفرقا(٢) فلم يلو(٣) أحد على أحد ، وقُتل من المسلمين خلق كثير ، وأسر خلق ، وتفرقوا فى الضياع . وكان مُقدِّم الفرنج البرنز أرناط [صاحب الكرك](٤) ،

(١) فى المتن : « توفى السلطان تغريل بن مسعود » ، والتصحيح المثبت من النجوم الزاهرة لأبى المحاسن (ج ٦ ص ٧٤) . وقد ذكر وفاته سنة ٥٧٠ هـ ؛ انظر أيضا الكامل لابن الأثير ـ حوادث سنة ٥٧٣ هـ .

(٢) فى المتن : « متفرق » .

(٣) فى المتن : « يلوى » .

(٤) مابين حاصرتين من مفرج الكروب لابن واصل (ج ٢ ص ٥٩) .

وكان قبل ذلك أسيرا عنـــد المسلمين فى حلب ، فأطلقه الحلبيون[١] غيظا منهم على صلاح الدين. [ولم] ينكسر المسلمون قط كسرة أنحس من هذه الكسرة . وانهزم السلطان صلاح الدين على طريق البرية إلى مصر فى نفر قليل .

قال ابن واصل[٢] : فى هذه السنة كان قدوم الملك المعظم شمس الدولة فخر الدين توران شاه من اليمن . واجتمع بالسلطان صلاح الدين على حماه وهو عائد إلى دمشق من حصار حلب . وأنه ملكه دمشق فى هـذه السنة ، أعنى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة . وعاد السلطان إلى مصر .

---

(١) فى المتن : « فأطلقوه الحلبيين » .

(٢) انظر مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٤٨ — ٤٩ .

ذكر سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم خمسة أذرع وثلاثة أصابع . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا وأحد عشر أصبعا .

ما لخص من الحوادث

الخليفة المستضىء بنور الله أمير المؤمنين . والسلطان صلاح الدين بمصر وقد خيم بفاقوس ، ثم عاد من المخيم إلى القاهرة ، ثم خرج طالبا للغزاة . وفيها كانت نوبة الرملة ، وكسر السلطان ، ورجع مكسورا . وفُقِد من العسكر خلق كثير ، وقُتل [شهاب الدين أحمد](١) ولد الملك المظفر تقى الدين ، وفقد(٢) الفقيه عيسى وأخوه الظهير .

ثم خرج السلطان بعد مدة شهرين إلى الشام . وترك العادل سيف الدين أبو بكر نائبا عنه بمصر .

وفيها هبت ريح سوداء شديدة ببلاد القفجق(٣) ، ووصلت إلى بلاد تفليس ، ثم إلى همذان وأصبهان وأكثر بلاد كرمان ، فأخربت البيوت ، وقتلت البقر والغنم والخيل . وروى رجل فى دهستان(٤) زعم أنه كان بارحة ذلك اليوم فى بلاد الخزر ، ومعه خيل يرعاها ، فهبت الريح واحتملته ، ورمت به فى دهستان ، ولا يعلم أمره . ومن المسافتين خمسة عشر يوما . ذكر ذلك صاحب تاريخ بغداد .

---

(١) مابين حاصرتين تكملة من مفرج الكروب لابن واصل (ج ٢ ص ٦٠) .

(٢) فى المتن : « وابنى » والتصحيح من مفرج الكروب لابن واصل (ج ٢ ص٦١) .

(٣) بلاد القفجاق : شمالى البحر الأسود .

(٤) دهستان : مدينة بكرمان (ياقوت ، معجم البلدان) .

ذكر سنة أربع وسبعين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم أربعة أذرع وثلاثة عشر أصبعا . مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا وتسعة عشر أصابع .

مالخص من الحوادث

الخليفة المستضىء بنور الله أمير المؤمنين . والسلطان صلاح الدين بمصر . وقيل فى هذه السنة كانت نوبة الرملة المقدم ذكرها[١] .

وفيها كان قران زُحل والمريخ فى السرطان ، وكانت فتن عظيمة بالشرق بين الملوك .

وفيها فتح قصر يعقوب[٢] بالسيف عنوة .

وفيها انكسرت الفرنج كسرة عظيمة ، وأُخذت أبطالهم أسرى[٣] . وقيل بل فى سنة خمس وسبعين وخمسمائة كانت كسرة الفرنج .

وفيها توفى [سيف الدين] غازى بن مودود بن زنكى صاحب الموصل[٤] . وكانت مدته فى ملك الموصل ثلاث عشرة سنة .

---

(١) ذكر ابن واصل أن وقعة الرملة المشار إليها كانت سنة ٥٧٣ هـ (مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٥٨) .

(٢) يقصد الحصن الذى كان الصليبيون قد أقاموه عند بيت يعقوب عليه السلام بمكان يعرف بمخاضة الأحزان (ابن الاثير ، الكامل ـ حوادث سنة ٥٧٥ هـ) . وقد سمى هذا الحصن فى نهاية القرن الثالث عشر الميلاد « حصن جسر بنات يعقوب » ؛ وكان يتمتع بأهمية كبيرة لوقوعه على الطريق بين طبرية وصفد من ناحية ودمشق من ناحية أخرى، انظر : سعيدعبدالفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٧٥٩ .

(٣) تعرف هذه الوقعة بوقعة المنفرى ، حيث أنه أصيب فيها همفرى الثانى صاحب بانياس ، ولم يلبث أن مات متأثرا بإصابته (ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٧٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ـ حوادث سنة ٥٧٤ هـ) .

(٤) ذكر ابن الأثير (الكامل ـ حوادث سنة ٥٧٦ هـ) أن وفاة سيف الدين غازى كانت سنة ٥٧٦ هـ .

وفيها بُنى باب البحر الذى بالمقسم[(١)] والسور المحاذى له .

(١) يشير المؤلف هنا إلى السور الذى بناه صلاح الدين حول مصر والقاهرة (ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢، ص ٥٢ وما بعدها).

ذكر سنة خمس وسبعين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم خمسة أذرع وستة أصابع . مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا وسبعة أصابع .

مالخص من الحوادث

الخليفة المستضىء بنور الله أمير المؤمنين ، إلى أن توفى فى هذه السنة ، مستهل شهر ذى القعدة . وزيره عضد الدين[١] أبو الفرج . مدة خلافته تسع سنين وثمانية أشهر . صفته أسمر بحمرة ، تام القامة .

ذكر خلافة الإمام الناصر لدين الله ابن المستضىء بنور الله ، وخبره

هو أبو العباس بن أحمد الناصر لدين الله بن أبى محمد الحسن المستضىء بنور الله[٢] ، وباقى نسبه قد تقدم . أمه أم ولد تدعى نرجس . بويع له يوم وفاة أبيه ، رحمه الله . ولم يزل نافذ الأمر فى خلافته ، مُطاعا فى جميع أقطار الأرض بالممالك الإسلامية .

وفى أيامه كان بدء خروج التتار على بلاد العجم . وجرى لهم مع السلجوقية ملوك العجم حروب ووقائع ، وأهوال وعجائب ، يشيب لهولها الأطفال . وسأذكر أول بدء شأن هؤلاء القوم وأصولهم الأصلية ، وبلادهم الأولية . وأذكر أول أب لهم ، المتولدين عنه ، المسمى بقرا جكون برجكى باللسان المغلى ، معناه بالعربى « فرخ السبع الأسود » . وهو جد جد ، جكزكان ترجى ، ولعله لم يذكر فى تاريخ غيره .

(١) فى المتن: « عضد الدولة » ، والتصحيح من الكامل فى التاريخ لابن الأثير (حوادث سنة ٥٧٥ هـ) ، انظر أيضا زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى، ص ١٠ .

(٢) ذكره ابن الأثير « المستضىء بأمر الله » (الكامل ، حوادث سنة ٥٧٥ هـ) ، وكذلك زامباور : المرجع السابق ، ص ٤ .

وسأذكر الكتاب الذى نسخته منه وسبب تحصيله . وجميع ذلك أذكره عند أخذهم لبغداد ، واستيلائهم على البلاد ، ليكون الكلام سياقه يتلو بعضه بعضا ، إن شاء الله تعالى .

وكانت مدة خلافة الإمام الناصر سبع وأربعون سنة وأشهر . وهو الذى امتدحه كمال الدين بن النبيه بقصيدته ، التى هى أول ديوانه ، وأولها :

بغداد مكتنا وأحمد أحمد حجوا إلى تلك المناسك واسجدوا

وهذا من التغالى الذى يخرج إلى الكفر . وكمال الدين ـ عفا الله عنه ـ من الشعراء المجدين ، لو سلم فى شعره من التجاسر الذى لايليق أن يذكر ، كقوله أيضا فى قصيدته التى أولها :

قمت ليل الصدود إلا قليلا ثم رتلت ذكركم ترتيلا

فهذا فيه إقدام على القرآن العظيم ، ولا يجوز البتة ، لما فيه من المعارضة . وابن النبيه المذكور مادح الملك الأشرف موسى ، وله فيه نخب القصائد ، فلو سلم مما ذكرناه لذكرناه . وديوانه أشهر من أن يذكر .

وفى هذه السنة أنعم السلطان صلاح الدين ببعلبك على ابن أخيه عز الدين فرخشاه ابن شاهنشاه بن أيوب ، ولقب الملك المنصور . ولم يزل مالكها إلى أن توفى فى حياة السلطان صلاح الدين ، فصارت لولده الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه . فلم يزل مالكها حتى أخذها منه الملك الأشرف [مظفر الدين] موسى بن العادل الكبير سنة سبع وعشرين وستمائة[1] . وفيها توجه الملك المعظم شمس الدولة توران شاه برسوم السلطان من دمشق إلى الديار المصرية ، وأنعم عليه السلطان بإسكندرية ، فأقام بمصر إلى أن توفى فى تاريخ مانذكره إن شاء الله تعالى .

(١) انظر ابن واصل ، مفرج الكروب، ج ٢ ص ٨٦ .

ذكر سنة ست وسبعين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم ثلاثة أذرع وعشرون أصبعا . مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا وستة عشر أصبعا .

مالخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، مدبر الأمور بنفسه ، والأمور راجعة إلى حكمه ، ليس عليه حجر من ملك من الملوك ، ولا وزير من الوزراء .

وبنو سلجوق يومئذ ملوك الشرق بكماله ، وملكهم قد اتصل بالهند والصين وصحراء القفجاق ، كما يأتى ذكرهم فى مكانه ، مع ما تقدم من ذكر بدء شأنهم فى الجزء الذى قبله .

والسلطان صلاح الدين ملك الديار المصرية ، والحجازية ، واليمنية ، والشامية ، وبلاد برقة . وبنو عبد المؤمن ملاك المغرب بكماله . وجزيرة الأندلس متفرقة الأجزاء والممالك ، مع عدة ملوك ، من حين انقطعت دولة الأمويين ، حسبما ذكرناه فى الجزء المختص بذكر بنى أمية ، وهو الجزء الثالث من هذا التاريخ .

وفيها خرج السلطان صلاح الدين من الديار المصرية بنية الغزاة ، وخلف أخاه الملك العادل نائبا عنه بالديار المصرية ، وتوجه إلى ديار بكر وبلاد الأرمن ، وفتح حصن المناقير[1] من بلادهم .

وفيها توفى الملك المعظم [شمس الدين توران شاه] أخو السلطان بثغر الإسكندرية، رحمه الله تعالى .

وفيها وصلت رسل الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين من بغداد ، وهما الإمام صدر الدين بن شيخ الشيوخ أبوالقاسم عبد الرحيم ، والأمير شهاب الدين

---

(١) فى المتن : «المانوين» ، وفى ابن واصل «المايغير» ، والصيغة المثبتة من كتاب الروضتين (ج ٢ ص ١٦) ؛ انظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٩٩ .

ابن بشير الخادم الناصرى ، بالخلع والتقليد بمصر والشام ، وما معهما ؛ وذلك فى شعبان من هذه السنة .

وفيها عاد السلطان صلاح الدين إلى الديار المصرية ، وسلم الشام لابن أخيه الملك المنصور عز الدين[1] فرخشاه .

وفيها نافقت عرب سليم بالبحيرة ، فخرج إليهم الأمير أبو الهيجاء ، فكسرهم . وكان[2] العرب فى ستين ألفا ، وأبو الهيجاء فى ألفى فارس . وغنموا أموالهم وجمالهم ، حتى أبيع كل خمس جمال بدينار ، وكل خمسين رأس غنم بدينار .

وفيها بنيت قلعة الجبل بالقاهرة المعزية .

وفيها توفى الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين الشهيد[3] .

وفيها ولدت امرأة بمصر غرابا ، وأحضر بين يدى السلطان صلاح الدين بحضرة القضاة . وكان من عجائب الدنيا ، والله أعلم .

قال ابن واصل : فى هذه السنة كانت وفاة سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى . واستولى على ملك الموصل أخوه عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى بن آقسنقر . وكانت وفاة غازى ثالث صفر من سنة ست وسبعين وخمسمائة[4] .

---

(١) فى المتن : « معز الدين » .

(٢) فى المتن : « وكانوا » .

(٣) جاء فى هامش المخطوطة أمام هذه العبارة مانصه : « وأوصى [الملك الصالح إسماعيل] بملك حلب لابن عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى صاحب الموصل خوفا من صلاح الدين أن يملكها ، وتخرج عن البيت الأتابكى . فحضر [مسعود] وتسلمها فى سنة سبع وسبعين وخمسمائة » .

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٩٢ .

ذكر سنة سبع وسبعين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم خمسة أذرع وعشرة أصابع . مبلغ الزيادة ثمانية عشرة ذراعا وخمسة أصابع .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين .

والسلطان صلاح الدين قد توجه إلى ثغر[١] الإسكندرية .

وفيها بلغ السلطان عن نواب الملك المعظم باليمن ، وهما ابن الزنجبيلى[٢] والى عدن ، وحطّان[٣] بن منقذ والى زبيد ، أن وقع بينهما اختلاف كبير ، أحدث إلى حرب ، فخشى أن يفسد الأمر بينهما ، فتخرج المملكة . فسيَّر نائبا عنه إلى اليمن ، وهو الأمير صارم الدين خطلبا[٤] ، وكان والى مصر . ثم توجه سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب إلى بلاد اليمن ، بعد سير الصارم والى مصر لقطع الفتن التى حدثت باليمن . وكان توجهه فى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة . ووصل إلى زبيد وملكها ، وقبض على حطان ، وأخذ منه أموالا عظيمة . وقال ابن واصل : إن من جملة ما أخذ له سبعين غلافا[٥] من غلف الزرد مملوءة ذهبا ، وقُوِّم المأخوذ منه بألف ألف دينار عين مصرية .

---

(١) فى المتن : « الثغر الإسكندرية » .

(٢) فى المتن : « ابن الريحانى » ، وفى مفرج الكروب لابن واصل : « ابن الزنجبيلى » . وفى الكامل لابن الأثير (حوادث سنة ٥٦٩ هـ) ورد الاسم « عز الدين عثمان بن الزنجبيلى » .

(٣) فى المتن : « حطام » والصيغة المثبتة من مفرج الكروب لابن واصل (ج ٢ ص ١٠٤ ــ ١٠٥) .

(٤) صارم الدين خطلبا ــ كذا فى المتن ، وكذلك فى كتاب الروضتين (ج ٢ ص ٢٦) ، وفى كتاب تاريخ ثغر عدن لباخرمه (ج ٢ ص ٣٨) . أما فى مفرج الكروب لابن واصل (ج ٢ ص ١٠٤) ، وفى الكامل فى التاريخ لابن الأثير (حوادث سنة ٥٧٧ هـ) فقد جاء الاسم « قتلغ أبه » .

(٥) فى المتن : « غلاف » .

وفيها تسلم عز الدين مسعود بن مودود قلعة حلب ، بوصية من [الملك الصالح إسماعيل] بن نور الدين له .

وفيها خرج الملك محمد الغوري إلى الهند ، وعدة عسكره ثلاثمائة ألف وتسعون ألف سوى الرجالة ، وكان في صحبته أربعمائة فيل ، ففتح الهند من الكفر .

قال ابن واصل[١] : لما خرج السلطان إلى الشام ، وبرز من القاهرة ، وخرجت الناس إلى وداعه ، بينما هو في سرادقه ، والعلماء والفضلاء بين يديه ، وكل منهم ينشد بيتا أو بيتين في الوداع ، إذ أخرج أحد مؤدبي أولاده رأسه ، وأنشد مظهراً بذلك فضيلته لهذا البيت :

تمتع من شَميم عَرار نجدٍ   فما بعد العشيَّةِ من عَرار

قال : فخمد نشاط السلطان ، وانقبض انبساطه ، وجعل الجماعة ينظرون بعضهم إلى بعض متعجبين ، من سوء أدب المؤدب . وكأنه والله نطق بما هو كائن في الغيب ، فإن السلطان فارق الديار المصرية هذه النوبة ، واشتغل بما سنذكره من الفتوحات والغزوات ، وتمادى الحال إلى أن قضيت منيته بدمشق ، ولم يعد بعدها إلى الديار المصرية . فكان الفال موكل بالمنطق . ثم سار السلطان متوجها إلى الشام لخمس مضين من المحرم سنة ثمان وسبعين وخمسمائة .

وفيها طلع الفرنج إلى أيلة ، وعمروا مراكب وشواني ، وركبوا بحر القلزم ، وقطعوا البحر ، ونزلوا على عيذاب ، وأخذوا عدة مراكب الكارم ، وهي موسوقة بهاراً وبضائع ، وقتلوا من أهل عيذاب جماعة كثيرة ، فإنهم لم يتحققوا أنهم فرنج ، لأنهم لم يعهدوا هذا قط ، ولا دخلت إليهم فرنج من طول الأعمار ، سوى هذه النوبة . والفرنج الذين فعلوا هذه الفعلة من أصحاب البرنز [أرناط] صاحب الكرك .

فلما بلغ السلطان ذلك أحضر أسطول المراكب من السويس ، وعمر بها مراكب حربية في أسرع وقت وأقربه ، وشحنها بالرجال والعدد ، وجعل المقدم عليهم

(١) مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١١٣ .

حسام الدين لؤلؤ . ثم رموا المراكب البحر من السويس ، وقصدوا اللاعين الفرنج ، فصادفوهم فى أرض الحوراء[١] ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، واحتاطت بهم المسلمون ، وأخذوهم ، وعادوا بأموالهم إلى عيذاب ، ودخلوا بهم قوص ، ثم إلى مصر . وكان دخولهم يوما عظيما .

وفيها ظهر بالغربية من عمل المحلة بالديار المصرية ، بقرية تسمى الكنيسة ، عين ماء . وذكر بعض النصارى أنه رأى فى المنام أن هذه العين تبرئ من سائر الملل ، فقصدها[٢] النـــاس من جميع الأقطار ، وأقاموا عليها أياما ، ولم يظهر لهم من ذلك أثر .

وفيها سير السلطان صلاح الدين إلى اليمن سيف الإسلام طغتكين ، وأن يكون نائبا بها ، فاستقر بها حتى توفى ، رحمه الله تعالى ، فيما يأتى من خبره ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) الحوراء : موضع على ساحل الحجاز قرب ينبع فى مقابلة المدينة المنورة ؛ انظر سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٧٨٧ .

(٢) فى المتن : « فقصدوها » .

ذكر سنة ثمان وسبعين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

المـــاء القديم ستة أذرع وأحد وعشرون أصبعا . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا وأصبعان .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، قائم الأمر ، مستمر السلطان ، نافذ الحكم فى أقطار الأرض .

والسلطان صلاح الدين سلطان الإسلام بالديار المصرية وما معها .

وفيها غزا السلطان طبرية، وبيسان، ثم توجه إلى الفرات، واجتمع بمظفر الدين. ودخل مظفر الدين تحت الطاعة . وكذلك وصل إليه رسول صاحب حصن كيفا ـ وهو نور الدين محمود بن قرا أرسلان ـ يسأل أن يكون تحت الطاعة ، ويصير من الحاشية .

وفيها توجه السلطان صلاح الدين إلى الرها وحران والرقة والخابور ونصيبين ، وملكهم . وتوجه إلى الموصل وحاصرها ، ولم يزل عليها حتى وصل إليه رسل الخليفة شافعين إليه بالإعفاء عنهم ، فرحل عنهم . ثم توجه إلى سنجار وملكها .

وفيها ملك سيف الإسلام [ظهير الدين طغتكين] اليمن ، وقتل حطان[١] ابن منقذ وأخذ جميع ماله ، فكان من جملة ما وجد فى سلاح خاناته أربعمائة زردية ذهب عين أبريز . وهرب ابن الزنجبيلى[٢] بجميع ماله ، ولحق بالسلطان صلاح الدين .

---

(١) فى المتن : « حطام بن منقذ » والصيغة المثبتة من ابن واصل (مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٠٤) .

(٢) فى المتن : « ابن الريحانى » . انظر ما سبق ص ٧٠ حاشية ٢ .

وفيها عدى[١] أبو يعقوب بن عبد المؤمن ملك المغرب إلى جزيرة الأندلس ، فنزل على شَنْترين[٢] يحاصرها ، وكان عدة عسكره مائتى ألف وستين ألف ، فخامر عليه وزيره ابن المالق ، فرحل عنها ، ولم يبلغ أربا منها .

---

(١) فى المتن : « عدا » .

(٢) فى المتن : « شويه بها » والصيغة المثبتة من الكامل فى التاريخ لابن الأثير (حوادث سنة ٥٨٠ هـ) ، وشنترين مدينة متصلة الأعمال بأعمال باجه فى غربى الأندلس ؛ انظر (ياقوت ، معجم البلدان ؛ أبو الفدا ، تقويم البلدان) .

ذكر سنة تسع وسبعين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم ستة أذرع ، وأحد وعشرون أصبعا . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا وأحد وعشرون أصبعا .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين مستمر الملك ، نافذ الأحكام .

والسلطان صلاح الدين سلطان الإسـلام بالديار المصرية وما معها ، وهو بلاد الشرق .

فيها فتح [السلطان صلاح الدين] آمد وملّكها لنور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا .

ثم عاود [صلاح الدين] النزول على حلب ، وفتحها ، وملكها فى صفر . وكان القاضى محيى الدين بن زكى الدين قاضى القضاة بدمشق ، فكتب إلى السلطان صلاح الدين يهنيه بالفتح ، بقصيدة من جملتها يقول :

وفتحكم حلباً بالسيف فى صفرٍ　　مبشر بفتوح القدس فى رجب

فكان الأمر كذلك. ومدح السلطانَ صلاح الدين القاضى السعيد بن سناء الملك، بقصيدة يقول فى أولها :

بدولة الترك عَزَّتْ مِلَّةُ العرب　　وبابن أيوب ذَلَّت شيعةُ الصلُب
وفى زمان ابن أيوب غدت حلب　　من أرض مصر وعادت مصرُ من حَلَب
ولابن أيوب دانت كل مملكةٍ　　بالصفح والصُّلح أو بالحَرْب والحَرَب
مُظَفَّر النصر مبعوث بهمته　　إلى العزائم مدلولٌ على الغلب
والدهر بالقدر المحتوم يخدُمُه　　والأرضُ بالخلقِ والأفلاكُ بالشُّهُب
وتجتلى الخلقُ من راياته هِمماً　　مُبيضَّة النصرِ مُصْفرَّة العذب

ومنها :

بك العواصمُ طابت بعد ما خبثت بمالكيها ولولا أنت لم تطب
فليت كل صباح در شارقة فذا ليل[١] فتى الفتيان فى حلب

ولما فتح السلطان حلب طلبها منه أخوه[٢] الملك العادل، فأحضره من ديار مصر، وسلمها له ، فلم تزل فى يده إلى سنة ثمانين ، فخرج عنها وسلمها للملك الظاهر ، حسبما نذكر .

وملك السلطان فى هذه السنة حارم ، وعاد إلى دمشق مُؤَيداً بالنصر ، وقد عاد ملك المصر . واستدعى الملك العادل سيف الدين أبو بكر من الديار المصرية ، وملكه حلب. ونفذ الملك المظفر تقى الدين عمر ابن أخيه إلى مصر نائبا بها عنه .

وفيها ظهر بقرية من قرى ديار مصر تعرف ببوصير السدر[٣] بيت هرمس الثانى[٤]، ووجدوا فيه أشياء كثيرة ، من جملتها كباش وضفادع معادن مصنوعة، وقوارير دهنج ، وفلوس نحاس فيها فضة ، وأصنام من نحاس ، وموتى عدة خمسة آلاف نفر ــ رجال ونساء ــ وأكفانهم سالمة لم تبل . وسفى السافى[٥] على الباقى فلم يصلوا[٦] إليه .

وفيها عزم السلطان على فتح القدس الشريف ، فإنه لم يبق بالوجه القبلى[٧] من البلاد بأيدى الفرنج غيره وعكا وصيدا ، وقليل من بلاد الساحل ، فاهتم لفتحهم غاية الاهتمام ، كما يأتى من شرح ذلك .

---

(١) فى المتن: « فذاليك » والتصحيح من مفرج الكروب لابن واصل (ج ٢ ص١٤٦).
(٢) فى المتن : « أخاه » .
(٣) بوصير السدر أو أبو صير السدر من القرى القديمة من أعمال الجيزة . ويبدو أن هذه الناحية كان بها كثير من شجر السدر ــ وهو النبق ــ فاشتهرت به . (محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ، ج ٣ ق ٢ ص ٣) .
(٤) يعنى أحد فراعنة مصر .
(٥) سفت الريح التراب أذرته فهو سفى (القاموس المحيط) .
(٦) فى المتن : « فلم يصلون إليه » .
(٧) يعنى الشطر الجنوبى من بلاد الشام .

وفيها توفى تاج الملوك بورى بن أيوب ، أخى السلطان صلاح الدين . وكان جرح على حلب فتوفى منه فى ثالث وعشرين صفر من هذه السنة ، رحمه الله تعالى . وكان عمره اثنتين وعشرين سنة . وكان فاضلا ، أديبا ، شاعرا، وله ديوان شعر، فمن ذلك فى ذكر الصوم على سبيل المداعبة ، يقول :

رمضان بل مرضان ، إلا أنهم أخطوا إذًا فى قولهم وأساءوا
مرضان فيه تخالفا ، فنهاره سلّ ، ولكن ليله استسقاء[1]

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٤٤ ؛ والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن ، ج ٦ ص ٩٦ .

ذكر سنة ثمانين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم سبعة أذرع وثلاثة عشر أصبعا . مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا وثلاثة عشر أصبعا .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، نافذ الأحكام ، مطاع الأوامر .

والسلطان صلاح الدين سلطان الإسلام بالديار المصرية وما معها .

وفيها غزا السلطان الكرك من دمشق . وخرج إلى خدمته الملك المظفر تقى الدين بالعساكر المصرية . وعاد إلى دمشق ، ثم رجع المظفر إلى مصر بجيوشه .

وفيها فتح سيف الإسلام أكثر معاقل اليمن ، وقوى بها سلطانه .

وفيها وقع خلاف بين الأتراك والأكراد ، وقتل بينهم خلق كثير .

وفيها عدى[1] السلطان صلاح الدين الفرات ، ونزل الموصل وحاصرها ، ووقع الصلح بينه وبين عز الدين صاحبها .

وفيها توفى شاه أرمن صاحب أخلاط ، ولم يخلف غير بنت واحدة ، فقام بمملكة أخلاط مملوكه سيف الدين بكتمر .

وتوفى قطب الدين صاحب ماردين ، وكذلك توفى نور الدين بن فخر الدين صاحب آمد ، رحمهم الله أجمعين .

وفيها كان الخلاف من أهل ديار بكر والجزيرة . وكذلك كان الخلاف بين كثير من ملوك الدنيا فى هذه السنة من سائر الأجناس ، وقتل خلائق لا تحصى .

وفيها فتح السلطان صلاح الدين ميافارقين ، وقُتل عليها خلق كثير .

---

(١) فى المتن : « عدا » .

وفيها حكم(١) المنجمون بأن يأتى هواء عظيم ، ويهلك منه عالم عظيم ، إلا من دخل المغائر ، حتى أن قليج أرسلان صنع مغائر وسروب تحت الأرض ، وسقفها بالأخشاب ، وجعل فيها مايحتاج إليه . وخرج هو وعياله وأهله وباتوا تلك الليلة التى زعم(٢) المنجمون أن يكون فيها ذلك الريح ، فلم يجر شىء من ذلك .

وفيها تسلم السلطان صلاح الدين شهرزور .

وفيها خرج الملك العادل سيف الدين أبو بكر عن حلب ، وتسلمها الملك الظاهر ابن أخيه ، وتوجه العادل إلى مصر . وفيها فتح السلطان صلاح الدين صفد فى مدة أحد عشر يوما ، ودكها دكا إلى الأرض ، وامتُدح بهذه القصيدة التى منها يقول(٣) :

بجدك أعطاف القنا تتعطَّف ... وطَرف الأعادى دون مجدِك تُطرف
شهاب غدا فى ظلمة الشرك ثاقب ... وسيف إذا ما هزه الله مرهف(٤)
وقفت على حصن المخاض وإنه ... لموقف صدق لا يوازيه موقف
وما أشرقت أعلامك الصفر سحرة ... إلى أن عادت أعلامها السود تكسف
ولا ضربت كوسات نصرك ساعة ... إلى أن غدت أكباد أعدائك ترجف
كبا من أعاليها صليب وبيعة ... وساد بها دين حنيف ومصحف
نصحتكم يا أمة الكفر فاسمعوا ... نصيحة من قد جاء بالله يحلف
لقد قلت أنا مالكم لا سمعتموا ... دعوا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

---

(١) فى المتن : « حكموا » .

(٢) فى المتن : « التى زعمون » .

(٣) من الواضح أن هذا خلط فى ذكر الأحداث ، ذلك أن صلاح الدين لم يفتح صفد إلا فى شوال سنة ٥٨٤ هـ (ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ص٢٧٢ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ص١٤٨) . أما أبيات الشعر المذكورة هنا فهى من قصيدة للشاعر بهاء الدين أبو الحسن على بن محمد ابن رستم الساعاتى الخراسانى ، هنأ فيها السلطان صلاح الدين باستيلائه على حصن بيت الأحزان عند جسر بنات يعقوب وتخريبه سنة ٥٧٥ هـ (ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ص ٨٣ـ٨٤).

(٤) فى مفرج الكروب لابن واصل (ج ٢ ص ٨٤) جاء هذا البيت على النحو التالى :

شهاب هدى فى ظلمة الشرك ثاقب ... وسيف هدى فى طاعة الله مرهف

ذكر سنة إحدى وثمانين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

المـــاء القديم سبعة أذرع وتسعة عشر أصبعا . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا فقط .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، بحاله . والسلطان صلاح الدين سلطان الإسلام بالديار المصرية وما معها .

وفيها توجه إلى الموصل ووصل إليـه معين الدين سنجر شاه صاحب الجزيرة ، ودخل تحت الطاعة . ثم توجه إلى ديار بكر ، وتمـكن من ذلك الجانب ، ثم عاد إلى الموصل . وحصل الصلح بينه وبين المواصلة ، وخطبوا له بالموصل . وفيها مرض السلطان مرضة خطرة ، وعوفى ولله الحمد . وفيها وصل إليه رسل الخلافة بالخلع العظيمة ، وتوقيع بإضافة ماردين مع حصن كيفا إليه . وأزيد فى التوقيع ألقابا تليق بمثل سلطانه .

وفيهـا توفى الملك القاهر ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص ، ليلة عيد الأضحى من سنة إحدى وثمانين وخمسمائة. وقام بمملـكة حمص الملك المجاهد أسدالدين شيركوه ولد ناصر الدين محمد المتوفى ، وذلك بإنعام السلطان صلاح الدين عليه بذلك . وعمره يومئذ اثنى عشر سنة . فلم يزل مالـكا حمص وأعمالها إلى أن مات فى سنة سبع وثلاثين وستمائة . وكانت مدة ملـكه نحواً من ست وخمسين سنة . وملك بعده ولده الملك المنصور إبراهيم ، وتوفى فى دمشق سنة أربع وأربعين وستمائة . وملك بعـده الملك الأشرف موسى بن إبراهيم ، فأخذها منه الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازى ــ صاحب حلب ــ فى سنة ست وأربعين

وستمائة . ولم يزل مالكها حتى [وطئت التتر البلاد وملكوها سنة ثمان وخمسين وستمائة ، فأعادوا حمص إلى الملك الأشرف موسى بن الملك المنصور . ثم لما رجعت البلاد إلى المسلمين أقره عليها الملك الظاهر ركن الدين بيبرس . ثم توفى الملك الأشرف فى سنة اثنتين وستين وستمائة ، وهو آخر من ملك حمص منهم](1) .

(١) مابين حاصرتين تكملة من مفرج الكروب لابن واصل ، ج ٢ ص ١٧٥ .

ذكر سنة اثنين وثمانين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم ستة أذرع واثنى عشر أصبعا . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا وأحد وعشرين أصبعا .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين بحاله .

والسلطان صلاح الدين سلطان الإسلام بالديار المصرية وما معها . وقد رجع إلى دمشق مظفراً منصورا . واستدعى ولده الأفضل ـ وهو الأكبر من ولده ـ وملّكه دمشق . واستدعى تقى الدين الملك المظفر من مصر . وملّك مصر لولده الملك العزيز ، ونفذ معه عمه العادل لتدبير أحواله بها . وملّك حلب لولده الظاهر .

قال ابن الأثير(١) فى تاريخه: إن السبب الذى فعله السلطان فى سنة اثنتى وثمانين وخمسمائة من نقل الملك العادل أخيه عن حلب وتوليتها لولده الملك الظاهر ، ونقل الملك المظفر عن مصر وتوليتها لولده الملك العزيز ، أن السلطان لما مرض وعوفى ، وسار إلى الشام ، سايره يوما علم الدين سليمان بن جندر ، فجرى بينهما حديث ، فقال له سليمان : « يا خوند بأى رأى كنت تظن أن وصيتك تمضى وأن أمرك يقبل ، كأنك كنت تظن أنك تمضى إلى الصيد ، وترجع فلا يخالفوك . بالله أما تستحى أن يكون الطائر أهدى منك إلى المصلحة » . فقال صلاح الدين وهو يتبسم من كلامه : « كيف ذلك ؟ » . قال: « إذا أراد الطائر يعمل عشًّا لفراخه قصد أعالى الشجر ليحمى فراخه . وأنت سلمت الحصون إلى أهلك ، وجعلت أولادك على الأرض . هذه حلب مع أخيك العادل ، وحماه بيد المظفر ، وحمص بيد المجاهد . وأحد بنيك بمصر تحت حجر تقى الدين، يخرجه منها متى أحب ». فقال: « والله صدقت فاكتم ما معك » . ثم اهتم فى تمليك بيته ، وكان أمر الله غير إرادته .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، حوادث سنة ٥٨٢ هـ .

وفيها توجه قراقوش ــ مملوك تقى الدين ــ إلى بلاد المغرب ، واستولى على بلاد القيروان ، فالتقاه أبو يعقوب بن عبد المؤمن بظاهر مدينة تونس ، فكسره قراقوش فى يوم الجمعة سادس عشر ربيع الأول ، واستولى على البلاد ، وخطب فى تونس مع سائر تلك النواحى للسلطان صلاح الدين . ثم إن أبا[1] يعقوب حشد عالما عظيما وكرّ على قراقوش فكسره ، ومضى هاربا إلى أشبيلية .

(١) فى المتن : « أبو يعقوب » .

ذكر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم ستة أذرع وثمانية أصابع . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا وثلاثة عشر أصبعا .

مالخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين بحاله .

والسلطان صلاح الدين سلطان الإسلام .

وفيها كان فتح القدس الشريف وغيره .

ذكر فتح القدس الشريف

وذلك أن السلطان صلاح الدين لما تفرغ وجهه من بلاد الشرق كله ، وأطاعته سائر ملوكه ، أفرغ همته العلية ، وفكرته الصالحة ، إلى تطهير البيت المقدس من أرجاس الكفر ، وخبث الفرنج . وكان ذلك إلهاما من الله عز وجل ، وتأييداً للإسلام . وكان يومئذ بالقدس الشريف البطرك الكبير ، الذى جميع أهل الصليب يعظمونه ويعتقدونه . وكان بها الباب ابن بارزان[1] صاحب الرملة . وكان فيه خَلْق عظيم ، لا يحصيهم إلا الله تعالى . فلما بلغهم قصد السلطان إليهم حشدوا وتجمعوا من كل فج عميق. وسيّر البطرك يستصرخ بملوك الإفرنج، ويحرم عليهم، ويقول لهم: « الموت عليكم بهذه الأرض المقدسة أخير لكم مما تسلمون بيت معبودكم » . وبلغ السلطان ذلك فقال: « نعم نأخذه منهم بحول[2] الله وقوته، ونخرب بيوتهم، ونكسر لاهوتهم ، ونهدم القمامة[3] التى يدعون أنها القيامة ، محل صلاتهم وقبلة ضلالهم » .

(١) ابن بارزان، هو الاسم الذى أطلقه العرب على الأمير باليان الثانى دى إبلين، زوج الملكة ماريا كومنين ، أرملة عمورى الأول ملك بيت المقدس ، انظر (سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٨١٢) .

(٢) فى المتن : « بحيل » .

(٣) يعنى كنيسة القيامة .

ثم نزل السلطان صلاح الدين بجيوشه ، والنصر قد حفّه ، والملائكة ترفرف بأجنحتها عليه ، فى العشر الأول من شهر رجب الفرد من هذه السنة . ونصب عليها المناجنيق والعرادات ، ووقع الزحف والقتال ، واقتتلوا قتالا شديدا لم يعهد بمثله من قبله . فلما تعين للفرنج قلة النجاح ، وأن المسلمين مستظهرين بالنصر والفلاح ، وأن لا بد أن يكون عوض ناقوسهم «حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح» ، وأن أمائر النصر قد لاحت ، وروائح الفتح قد فاحت ، أجمعوا رأيهم فى طلب الأمان ، ونفذوا بذلك رسولا إلى السلطان صلاح الدين ، فامتنع من ذلك . وكان الفرنج لما ملكوا القدس الشريف من المسلمين قتلوا جميع من كان فيه من المسلمين ، ولم يبقوا على رجل منهم ، وكان ذلك فى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة[1] ، ونحروا[2] أولاد المسلمين ونساءهم ، ولم يبقوا فى حق المسلمين مجهودا من كل شر . فقال السلطان صلاح الدين: « ما نفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله لما ملكتموه » . فأيقن الفرنج بالهلاك ، فاجتمعوا وضربوا بينهم رأيا أجمعوا عليه . ثم إن الباب ابن بارزان سيَّر طَلَب من السلطان أمانا لنفسه ، وطلب الحضور بين يدى السلطان ، فأنعم له بذلك ، وأحضره ، وأكرمه ، وأجلسه بين يديه.

فلما رأى الملعون إكرام السلطان له ، طمّعته نفسه فى طلب الأمان لأهل الحصن ، فصعب على السلطان ذلك ، وقال: « ما بقى أمان لا لك ولا لهم ــ ونهره ــ ولا عدت أفعل بكم جميعكم إلا كما فعلتموه بأهله عند فتحكم له » . فقال الباب: « حفظ الله السلطان ، عندى جواب إن أمنتنى من المعطب ذكرته بين يديك » . فقال : « قل وأنت آمن » . قال : « إن السلطان يعلم أن فى هذا الحصن خلق عظيم . وإنا لا نطلب الأمان خوفا من الموت ، فإن الموت لنا فى هذه الأرض المقدسة خير من الحياة . وإنما شفقة منا على الأطفال والعيال . وقد اتفقنا على رأى ، فمن إذن السلطان أقوله » . قال:

---

(١) كذا فى المتن ، وصحته سنة ٤٩٢ هـ ، انظر الكامل فى التاريخ لابن الأثير ؛ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان (حوادث سنة ٤٩٢ هـ) .

(٢) فى المتن : « ونصروا » وهو تحريف .

« قل » . قال: « يعلم السلطان ـ حفظه الله ـ إن اجتمع فى هذا الحصن من الفرسان والأبطال ما لم يجتمع فى غيره ، وأنهم لا يفرون من الموت ، ولا يرغبون فى الحياة . وأنا إذا حققنا الموت والله والله والله ـ كذا يحلف الملعون ـ لنقتلن كل أسير عندنا من المسلمين ، ويكون ذلك فى ذمة السلطان . ثم نقتل بعد ذلك أولادنا ونساءنا ، ونحرق جميع أموالنا وأمتعتنا ، ولا نترك لنا درهم ولا دينار ، ولا ندعكم تأسروا منا رجلا واحدا ، ولا صبي واحد ، ولا امرأة واحدة . وإذا فرغنا من ذلك أحرقنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من الأماكن الشريفة عندكم . ولا نترك لنا دابة ولا مركوبا إلا أتلفناه . ثم نخرج إليكم عن يد واحدة ، فنقاتلكم قتال الموت ، وهو من يموت كريما ، فلا يُقتل الرجل منا حتى يقتل أمثاله . ولا نزال كذلك حتى نموت عن آخرنا ، أو يفعل الله فينا حكمه . وأما قول السلطان إن الذين أخذوا القدس من الفرنج من قديم فعلوا ما فعلوا بالإسلام ، فالقاتل والمقتول ، والظالم والمظلوم ، لهم إله يختصمون بين يديه . ولا يحل للسلطان أن يأخذنا نحن بذنوب غيرنا ممن سلف . وإن الذين كانوا فيه من المسلمين لو صبروا لكان خيرا لهم . وأما نحن فكما أنهيت من الحال بين يدى السلطان حفظه الله ». فأمر السلطان صلاح الدين بخيمة فضربت له ، وأنزل فيها ، ثم طلب أكابر دولته ، واستشارهم فيما قاله الباب ، فقالوا : « بل الرأى أن يعطيهم السلطان الأمان ، فهو خير مما ذكروه » . فأمنهم السلطان ، وتسلم البيت المقدس يوم الجمعة لثلاث بقين من شهر رجب من هذه السنة. وكان يوما مشهوداً . ودخل السلطان صلاح الدين إلى الصخرة الشريفة المقدسة وهو فى غاية الفرح والسرور، إذ جعله الله تعالى فى هذا الفتح ثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وسُيرت البشائر إلى سائر البلاد الإسلامية . وفى ذلك اليوم طلع القاضى محيي الدين بن القاضى زكى الدين ، وخطب .

ذكر خطبة القاضي محيي الدين

« الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين[1] » .

الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون[2] » .

« وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا[3] » .

«الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، قيما ...[4] الآية ».

« قل الحمد لله ، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى »[5] .

« الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض[6] » الآية .

« الحمد لله فاطر السموات والأرض[7] » الآية .

الحمد لله معز الإسلام بنصره ، ومذل الشرك بكفره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج[8] الكافر بكفره . الذى قدر الأيام دولًا ، وجعل العاقبة للمتقين تفضلا ، ورفض عبادة من ضله ، وأظهر دينه على الدين كله . القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خليقته فلا ينازع ، والآمر بما يشاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فلا يدافع . أحمده على إظفاره وإظهاره ، وإعزازه لأوليائه ، ونصرته لأنصاره ، وتطهيره لبيت المقدس من أنجاس الشرك وأوضاره ، حمد من استشعر الحمد باطن سره ، وظاهر شكره .

---

(١) فاتحة الكتاب .

(٢) سورة الأنعام ، ١ .

(٣) سورة الاسراء ، ١١١ .

(٤) سورة الكهف ، ١ .

(٥) سورة النمل ، ٥٩ .

(٦) سورة سبأ ، ١ .

(٧) سورة فاطر ، ١ .

(٨) فى المتن: «ومستبيح» والتصويب من مفرج الكروب لابن واصل (ج ٢ ص ٢٢٠).

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، شهادة من طهّر بالتوحيد قلبه ، ورضى به ربه .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، دافع الشرك ، ورافع الإفك ، الذى أُسرى به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وعرج به منه إلى السموات العلى ، إلى سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، ما زاغ البصر وما طغى .

صلى الله عليه وعلى خليفته أبى بكر الصديق السابق إلى الإيمان ، وعلى عمر ابن الخطاب الذى أول من رفع عن هذا البيت شعائر الصلبان ، وعلى عثمان بن عفان ذى النورين جامع القرآن ، وعلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب مزيل الشرك ومكسر الأوثان ، وعلى آله والتابعين لهم بإحسان . . . » .

ثم ذكر الإمام الناصر لدين الله ، ودعا له وللسلطان صلاح الدين . وكانت صلاة جمعة ما رأى الناس مثلها ، لما حصل للناس فيها من الخشوع الزائد، والسرور المتزايد.

ومما لخص من الخطابة فصل فى الدعاء للسلطان :

« اللهم وأدم سلطان عبدك الخاضع لهيبتك ، الشاكر لنعمتك ، المعترف بموهبتك ، سيفك القاطع ، وشهابك اللامع ، والمحامى عن دينك الدافع ، والذاب عن حرمك وحرم رسولك المانع ، السيد الأجل ، والكهف الأظل ، الملك الناصر ، جامع كلمة الإيمان ، وقامع عبدة الصلبان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، مطهِّر بيت المقدس ، أبى المظفر يوسف صلاح الدين بن أيوب ، محيى دولة أمير المؤمنين . اللهم عمّ بدوامه البسيطة ، واجعل ملائكتك المقربين براياته محيطة ، وأحسن عن الدين الحنيفى جزاءه ، واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه . اللهم أبق للإسلام والمسلمين مهجته ، ووف للإيمان حوزته ، وانشر فى المشارق والمغارب دعوته . اللهم كما فتحت به البيت المقدس ، بعد ما ظُنت به الظنون ، وابتلى المؤمنون ، فافتح على يديه دانى الأرض وأقاصيها ، وملكه بكرمك وفضلك صياصى الكفر

ونواصيها ، ولا يلقى منهم كتيبة بقوتك إلا مزقها ، ولا جماعة بعزتك إلا فرقها ، ولا طائفة بقهرك إلا ألحقها بمن سبقها .

اللهم اشكر له عن محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ سعيه ، وأنفذ فى المشارق والمغارب أمره ونهيه، وأصلح به اللهم برحمتك أوساط البلاد وأطرافها، وأرجاء الممالك وأكنافها. اللهم ذل به معاطس آناف الكفار ، وأرغم به أنوف الفجار ، وانشر ذوائب ملكه برحمتك على الأمصار ، وأثبت سرايا جنوده فى سبيل الأقطار .

اللهم ثبّت الملك فيه وفى عقبه إلى يوم الدين ، واحفظه فى بنيه وبنى أبيه الملوك الكرام الميامين ، واشدد عضده ببقائهم ، واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم . اللهم وكما أجريت على يديه فى الإسلام هذه الحسنة التى تبقى على الأيام ، وتتخلد على مرور الشهور والأعوام ، فارزقه الملك الأبدى الذى لا ينفد فى دار المتقين ، وأجب دعوته ودعاءه فى قوله : « رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين »(١).

ونقل السلطان إلى البيت المقدس المنبر من حلب . وكان هذا المنبر قد أمر بعمله الملك العادل نور الدين الشهيد ، لما كانت نفسه الزكية تحدثه أنه سيفتح القدس الشريف ، فعمل هذا المنبر قبل فتح القدس الشريف بنيف وعشرين سنة .

قال صاحب هذا النقل : وكانت الفرنج ــ لعنهم الله ــ قد بنوا على الصخرة المقدسة كنيسة ، وقطعوا منها جملة كبيرة ، وغيروا أوضاعها ، وبنوا على حيطانها أشباه الخنازير ، وعملوا بها مذبحا ، وعينوا بها مواضع الرهبان ، ومحط الإنجيل ، وأفردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة ، مدهونة ، ما بين الأعمدة الرخام . فلما نظر السلطان صلاح الدين إلى ذلك عظم عليه ، وأمر أن تمحى جميع تلك الآثار . وأزال عن الصخرة ذلك البناء ، وأبرزها حتى ينظر إليها . ولم تكن قبل ذلك يظهر منها إلا قطعة يسيرة .

وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعة كبيرة ، وسيروها إلى القسطنطينية ،

(١) سورة النمل ، ١٩ .

وكذلك إلى صقلية ، فكانوا يبيعون منها ملوك الفرنج وزنا بوزن من الذهب . وقيل إن بعض ملوك الفرنج خرج عن ملكه ، وتولى خدمة ستارة الصخرة ، إشفاقا عليها. وكان كل ملك يأتى إلى زيارة القدس يتقصد أن يأخذ منها قطعة ، بحسب البركة . فلما بلغ السلطان صلاح الدين ذلك أمر الفقيه ضياء الدين الهكارى أن يكون أمينا عليها . ثم أدار عليها صفائح من حديد . ثم حضر الملك المظفر تقى الدين عمر ، وأحضر صحبته أحمالا من دمشق مملوءة ماء ورد، وتولى غسل قبة الصخرة[1] بنفسه. ثم أتى الملك الأفضل ، وفعل كذلك .

ثم رتب السلطان صلاح الدين فى جامع الأقصى من يقوم بوظائفه، ورتب فى قبة الصخرة إماما حسنا ، وأوقف عليه وقفا جيدا . وحمل إلى الجامع الأقصى مصاحف وختمات وربعات منصوبة على كراسى ، ورتب له أوقافا جليلة ، وعمل دار البطرك رباطا للفقراء .

وكانت قبور الفرنج من الديوية[2] وغيرها مجاورة للصخرة ، ونحو باب الرحمة ، ولهم قباب معقودة ، فأزالها السلطان صلاح الدين ، ومحا آثارها ، وأمر بغلق كنيسة قمامة .

ثم إن بعض الملوك قال : « نعم الرأى هدمها ، ونخرب القبور التى بجوارها » . فقال بعض سراة الناس من العلماء ـ أظنه ابن شداد أو العماد الأصفهانى ـ : «إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ لما فتح بيت المقدس استقر بهذه الأماكن على ما كانت عليه ، ولو شاء لفعل ذلك». فقال السلطان: «نحن متبعين لا مبتدعين ». واستقر بالأشياء على حالها . وأن لا يغير إلا ما كان مستجدًا. فلما استقر الأمر كذلك، وردت عليه اللطائف التهانى[3] بالقصائد من الفضلاء والأدباء والشعراء . فكان أول ذلك قصيدة الملك المظفر تقى الدين عمر :

(١) فى المتن: «بيت المقدس»، والتصحيح من مفرج الكروب لابن واصل (ج٢ ص٢٣٠).
(٢) يقصد فرسان طائفة الداوية Templers .
(٣) كذا فى المتن .

دع مهجة المشتاق مع أهوائها   يا لائمى ما أنت من نصحائها
جاءتك أرض القدس تخطب ناكحا   يا كفؤها ما العذر من عذرائها
زُفت إليك عروس خدر تنجلى   ما بين أعْبُدها وبين إمائها
إيه نخذها عاتق بكر فقد   أضحت ملوك الأرض من رقبائها
كم طالبٍ لجمالها قد ردَّه   عن نيلها أن ليس من أكْفائها

وهى طويلة ، وهذا ملخصها .

ومن شعر المظفر أيضا يخاطب عمه :

أصلاح دين الله أمرُك طاعة   فمُرِ الزمان بما تشاء فيفعلا
فكأنما الدنيا ببهجة حسنها   تحلو علىّ إذا رأيتك مقبلا

وكان - رحمه الله - فاضلا ، متأدبًا ، حسن الشعر . وكان أخوه عز الدين فرخشاه نظيره فى ذلك . وأتى بيت الملك المظفر جميعهم كذلك . وناهيك بولده الملك المنصور ، وسيأتى من ذكره ما يؤيد القول إنشاء الله تعالى . وكان السلطان صلاح الدين يحب الملك المظفر تقى الدين أكثر من محبته لسائر أهله ، لما كان قد خص به من الشهامة والنجابة والإقدام العظيم ، ولفرط طاعته لعمه صلاح الدين . ولأنه كان ألصقهم إليه قرابة ، لأن والد المظفر ، ركن الدين شاهنشاه - رحمه الله - كان أخا صلاح الدين لأمه وأبيه ؛ والملك العادل ، وتاج الملوك ، وسيف الإسلام ، كانوا إخوته لأبيه فقط . وقتل ركن الدين شاهنشاه شهيدا على باب دمشق لما حاصرها الفرنج ، ولم يدرك الدولة الأيوبية .

ثم وردت قصيدة القاضى هبة الله بن سناء الملك ، يقول :

لست أدرى بأى فتح تُهنَّا   يا منيلَ الإسلام ما قد تمنَّا
أنهنِّيك إذ تملكت شاما   أم نهنيك إذ تملَّكت عَدْنا
قد ملكت الجنان قصرا فقصرا   إذ فتحت الشآم حصنا فحصنا
قمت فى ظلمة الكريهة شمسا   فالبدر لا شك يطلع وهنا

لم تقف قَطُّ فى المعارك إلا … كنت يايوسف كيوسف حُسنا
قصدوا نحوك الأعادى فردَّ … الله ما أملوه عنك وعنَّا
٣ حملوا كالجبال عظما ولكن … جعلتها حملات خيلك عِهْنا
جمعوا كيدهم وجاءوك أركانا … فمن هدَّ فارسا هدَّ ركنا
فكل من يحمل الحديد له ثو … بًا وتاجا وطيلسانا وردنا
٦ خانهم ذلك السلاح فلا الرم … ح تثنى ولا المهند ظنا
وتولت تلك الخيول ولم … يتأنى عليها أنها لا تتأنى(١)
وتصيَّدتهم بحلقةِ صيد … تجمع الليث والغزال الأغنَّا
٩ صنعت فيهم وليمة عرس … لعب المشرفىّ فيها وغنَّى
وحوى الأسر كل ملك يظن … الدهر يفنى وملكه ليس يفنى
والمليك العظيم فيهم أسير … يتثنى فى أدهم يتثنى
١٢ كم تَمَنَّى الليالى حتى رآها … فتمنى أنه لا تمنى
ظن ظنًّا وكنت أصدق فى … الله يقينا وكان أكذب ظنا
رقَّ من رحمةٍ له القيد … والغل عليه فكلما إنْ أنَّ أنَّا
١٥ واللعين الإبرنز(٢) أصبح مذبوحا … يُهنى أنه مات منا
وتهادت عرائس المدن نحلا … وثمار الآمال منهن تُجنى
لا يخص الشآمَ منك سرور … كل ربع وكل أرض تهنا
١٨ قد ملكت البلاد شرقا وغربا … وحويت الآفاق سهلا وحَزْنا
وتفرَّدت بالذى هو أسْمَى … وتوحدت بالذى هو أسْنى
فاغتدى الوصف فى علاك حسيرا … أى لفظ يقال أو أى معنى
٢١ هذا ربنا الإله قال أطيعوه … سمعنا لربنا وأطعنا

(١) كذا فى المتن وورد الشطر الثانى فى ابن واصل (مفرج الكروب ، ج ٢، ص ٢٣٥): يثنى عليها بأنها ليس تثنا .

(٢) يقصد الأمير أرناط صاحب حصن الكرك .

وفيه وصل إليه رسل الخليفة يهنئونه بما فتح الله على يديه .

وفيها فتح عدة حصون ، وهى : طبرية ، والناصرة ، وقيسارية ، وصفورية ، والطور ، ونابلس ، وحيفا ، وصيدا ، وبيروت ، وعسقلان . ولم يبق فى هذه السنة بالساحل من حصون الفرنج غير عكا ، فأخذها فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة، كما يأتى من ذكرها فى تاريخها .

ذكر سنة أربع وثمانين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم ستة أذرع واثنى عشر أصبعا . مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا وثلاثة وعشرون أصبعا .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين . والسلطان صلاح الدين ، مشمر الذيل فى إخماد جمرة الكفر ، وقد نازل عكا . فلما وصل إلى تل الفضول[1] مضمرا على الزحف عليها ، إذ خرج إليه كبير من كبرائهم ، وطلب الأمان من السلطان ، وتضرع بين يديه ، والناس قيام ينظرون . فرَقَّ السلطان ورحمهم ، وأمنهم على أنفسهم وأهاليهم وجميع أموالهم . وخيرهم بين الإقامة فيها تحت أمانه وسلطانه أو الخروج عنها ، فاختاروا الرحيل عنها ، فخرجوا .

ودخل المسلمون إلى عكا يوم الجمعة ثانى جمادى الأولى من هذه السنة . وأخرج الأسرى من المسلمين ، فكان عدتهم أربعة آلاف أسير . وسلم عكا لولده الملك الأفضل ، وأنعم عليه بجميع ما فيها من أموال الفرنج وغلالهم ، وحواصلهم . وكتب له بذلك توقيعا متوجا بعلامته الكريمة ، يتضمن تملكها لولده بجميع نواحيها . وجعل الفقيه الهكارى أمينا بها من قبل الملك الأفضل .

وكتب السلطان إلى أخيه الملك العادل بمصر يبشره بما فتح الله عز وجل عليه ، ويأمره أن يخرج بالعساكر المصرية إلى بلاد الفرنج بالساحل من جهة الديار المصرية . فخرج الملك العادل ، ونزل على مجدليابا ، وفتحها ، وغنم ما فيها .

وأحضر السلطان بهاء الدين قراقوش ، وسلمه عكا نيابة عن ولده الملك الأفضل .

وخرج السلطان صلاح الدين وتوجه إلى حصن كوكب .

---

(١) فى مفرج الكروب لابن واصل (ج ٢ ص ٢٠١) : « التل » .

وفيها فتح البلاد الشمالية ، وهى: جبلة ، واللاذقية ، وصهيون ، وحصن بكاس ، وسرمانية ، وحصن بُرْزية ، ودرب ساك ، وبغراس .

وفيها هادن السلطان لصاحب أنطاكية .

وفيها فتح الكرك ، وصفد ، وكوكب ، وسبسطية[1] ، ونابلس ، وصفورية . وكان بنابلس خلق كثير فسألوا الإقامة بها فى مملكة السلطان ، فأقرهم على أماكنهم وأملاكهم . ثم إنه كتب إلى الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين، يبشره بما فتح الله عز وجل على الإسلام ، كتابا أوله يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر . . .)[2] الآية (وإن الأرض ..)[3] الآية ». ثم كتب: « الحمد لله الذى أنجز لنا هذا الوعد، وعلى نصرته لهذا الدين من قبل ومن بعد، فجعل من بعد ذلك العسر يسراً، وقد أحدث الله من بعد ذلك أمرا ، وهو الأمر الذى ما كان الإسلام يستطيع عليه صبرا ، فآتانى الله ما جرى فى زمن الصحابة والأخرى ، وأعتق الله ما كان من الأسارى بأيدى الكفار الأشرار ، وأصبح جوار الإسلام وقد استدار ، ورد من الكفر ما كان قد أشار. والحمد لله الذى أعاد ثوب الإسلام جديدا أبيضا نظره مُخْضَرّا، بعد ما كان قد غلب عليه الكفر بهذه الديار حتى أعاده منبرا . والحمد لله كما هو أهله ، على اتساع ملك الإسلام واجتماع شمله . والمملوك يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم، للنظر الكريم، ما يشرح به صدور المسلمين ، وينتج الحبور لأمير المؤمنين . ويورد البشرى على ما أنعم الله به يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر إلى يوم الخميس الآخر ، فذلك سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، سخرها الله على الكافرين ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ، فإذا رأيت ثم رأيت والبلاد

(١) فى المتن : « سبسيطة » .
(٢) سورة الأنبياء ، ١٠٥ .
(٣) سورة الأعراف ، ١٢٨ .

خاوية على عروشها ، ورايات الكفر خاشعة ، ورايات الإسلام طالعة ، وسناجق المؤمنين ببركات أميرهم عالية كاسية ، وقد كانت من الكفر ناكية باكية . وأخذ الله أعداءه بأيدى أوليائه أخذ القرى وهى ظالمة. وفى ذلك اليوم فتحت عكا بالأمان، ورُفعت عليها أعلام الإيمان. وهى أمّ البلاد ، وأحب إلى الكفر من إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد. وقد أصدر المملوك هذه المطالعة وصليب الصلبوت مكسور ، وقلب البرنز مرجوف مكسور ، والفارس مجدول ، والراجل مقتول ، والملوك ممسوكة، والدماء مسفوكة . والذى كان يظن أن عكا حصينة ، فقد خيب الله عز وجل ظنه ، والذى كان بماء المعمودية معموداً يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا . وعاد كل من كان فى الحرب منهم ذاهمة ويقظة، لايقبل منه عن نفسه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة. وطبرية فقد هُدمت أعلام الشرك من عليها ، وعكا فقد خاب وخسر من التجأ إليها، وقد سبيت نساؤها الأحرار ، وعادوا لنساء الإسلام خداما وجوار ، وكذلك عادوا مماليكا أولادهم الصغار ؛ بعد من قتل من آبائهم من كل فاجر وكافر ، وصارت الكنائس مساجدا يعمرها من كان يؤمن بالله واليوم الآخر . وعادت البيع مواقفا لخطباء الإسلام على المنابر . وعمرها الله بالتوحيد وأهله ، مكان كل مشرك وكافر . وأما فرسان الديوية والإسبتار ، فقد عجل الله تعالى بأرواحهم إلى النار ، وقد نزل بهم إلى أسفل الجحيم ، مصفدين مقرنين مع الشيطان الرجيم ، فليأخذ حظه من هذه البشرى مولانا أمير المؤمنين، فقد قطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين».

وفيها وردت قصيدة الشريف النسابة محمد بن أسعد بن على بن معمر الحسينى(١) نقيب الأشراف على السلطان صلاح الدين ، يهنيه بما فتح الله على يديه يقول :

أترى منـــاما ما بعينى أبْصر والقُدس يُفتح والصليب يُكسّر
وقمامـــة قُمّت من الرجس الذى بزواله وزوالهـــا يتطهّر

(١) فى المتن : « قصيدة القاضى تاج الدين » والصيغة المثبتة هى الصحيحة ، انظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢٣٣ .

ومليكه فى القيـــد مأسورا ولم ... يُرى قبـــل ذلك ملوك تُؤسر
قـــد جاء نصر الله والفتح الذى ... وُعد الرسول فسبحوا واستغفروا
فُتح الشآم وطُهر القـدس الذى ... هو فى القيـــامة حيث قام المحشر
من كان فتحه لنصرة أحمدٍ ... مـــاذا يقال له وماذا يُذكر
يا يوسف الصديق أنت لفتحها ... فاروقُها عمرُ الإمام الأطهر
ولأنت عثمان الشريعة بعـــده ... ولأنت فى نصر النبـــوة حَيْدَر

ذكر سنة خمس وثمانين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم خمسة أذرع وخمسة عشر أصبعا. مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا واثنان وعشرون أصبعا .

مالخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين . والسلطان صلاح الدين سلطان الإسلام بالديار المصرية وما معها .

وفيها خطب لولى العهد ــ عدة الدنيا والدين ــ أبى نصر محمد بن الإمام الناصر لدين الله ، بأمر والده ، فخطب له فى سائر الممالك الإسلامية .

وفيها كانت الوقعة العظمى مع الفرنج ، وأُخذت عكا ، وقتل من كان بهــا فى سبيل الله تعالى . وهذه الوقعة التى لم يعهد بمثلها فى جاهلية ولا إسلام .

ذكر الوقعة الــكبرى على عكا

وذلك أن السلطان صلاح الدين ، لما فتح هذه الفتوحات العظام ، وأذل الــكفرة اللئام ، وطهّر القدس من الأرجاس والآثام ، وفتح عكا وهى كرسى مملــكة الملاعين ، وأخلاها من كل كافر لعين ، أمر بتجديد سورها ، وبناء ماتشعث من ديورها ، وعمارة قصورها ودورها . وأمر الملك المظفر أن ينظف الساحل من جميع الفرنج ، ففعل ذلك ، ولم يبق فى الساحل حصن ولا معقل إلا وقد علاه الأذان ، وسكنته حملة القرآن ، وخلا من عبدة الصلبان . فعند ذلك تــكاتبت ملوك الفرنج فيما بينهم ، لما قد جرى على الــكفر وأهله ، والصليب وذله ، فانتخوا لدينهم ، وأجمعوا ذات بينهم ، على اجتماع كلمتهم ، والقيام فى نصرة ملتهم ، فاجتمعوا برًّا وبحراً ، وسهلًا ووعراً ، واستصحبوا القساوسة[1] والرهبان ، والبطرك الــكبير والديان ، بعد ما طاف جميع

(١) فى المتن : « القساسة » .

الجزائر والبلدان ، على عبدة الصلبان ، وصوروا بكفرهم صورة على أنها صورة المسيح عليه السلام ، وأسالوا على وجه الصورة الدماء ، وأقاموا صورة إعرابى ، وقالوا هذا نبى المسلمين قد جرح المسيح ، وأجرى دمه على وجهه ، فانهضوا لنصرته ، وخذوا بثأره . فلم يبق منهم ملك من الملوك ، ولا غنى فيهم ولا صعلوك ، إلا انتخى لمصابهم ، وسمع لهم وأجابهم .

أجمع أهل التاريخ ممن عنى بجمع أخبار العالم – رحمة الله عليهم – أن هذه الوقعة لم يُسمع بمثلها من أول زمان وإلى ذلك التاريخ ، فإن بلاد الروم خرجت عن بكرة أبيها ، من سائر قلاعها ومدنها وحصونها ، وأبذلوا الأموال للفرسان والرجال ، وباعوا أنفسهم للمسيح . ووردوا من البر والبحر بالخيل والرجل ، يقدمهم القسوس والرهبان ، وقد لبسوا السواد . والبطرك قد حرم عليهم ، وقالوا موتوا فى هذه الأرض المقدسة ، فهو خير لكم .

وكان السلطان صلاح الدين مخيما[1] على شقيف أرنون ، فلما بلغه ذلك من قصد الفرنج عكا فى هذه الجموع العظيمة ، خشى عليها ، وتوجه يقحم خيله ليسبق بالنزول عليها ، وتبعته العساكر أولا فأولا ، فلم يدرك عكا حتى سبقته الفرنج ، ونزلوا عليها برًّا وبحرا فى عدد لا يحصى ، كأنهم الجراد المنتشر ، وذلك لما أراده الله تعالى من سعادة المحصورين بها ، وأن يكونوا من الشهداء الفائزين بجنات النعيم ، وهو النعيم المقيم . وكان وصول الفرنج إلى عكا ونزولهم عليها رابع عشر شهر رجب من هذه السنة . ووصل السلطان خامس عشرة ، فسبقوه بيوم واحد ، لما يريده الله عز وجل . وتلاحق به العساكر ونزلوا يوم الجمعة على الخروبة . ونزلت الفرنج على عكا من كل جهة برا وبحرا . ونزل جيش السلطان صلاح الدين أول ميمنته بالنواقير بالبحر ، وآخر ميسرته القيمون . وأمر الناس أن يثبوا للقتال وإشغال الفرنج عن لجاجة الحصار على عكا ، فتقدمت الميسرة إلى طريق النهر الحلو ، وآخر الميمنة مقابل تل العياضية ، واحتاطت

(١) فى المتن : « مخيم » .

عساكر الإسلام بالعدو المخذول ، والفرنج اللاعين لا يشغلهم عن حصار عكا شاغل ، بل مجتهدين غاية الاجتهاد . والمسلمون بعكا لم يغلقوا لها بابا ، والسلطان صلاح الدين يناوشهم القتال من جهة القلب .

ووصلت ملوك الإسلام ، ووصل من الشرق مظفر الدين [كوكبورى] ابن زين الدين على كوجك . ووصل حسام الدين سنقر الأخلاطى . ولم يزل القتال كذلك بين الفئتين مناوشة إلى يوم الأربعاء ، لتسع بقين من شهر شعبان ، خرجوا الفرنج -خذلهم الله- فارسهم وراجلهم ، وتحركوا حركة عظيمة ، ارتجت لها الأرض ، وبين أيديهم الإنجيل محمولا على يد البطرك ، مستورا بثياب الأطلس . وركب السلطان صلاح الدين ، فى جيوش الموحدين ، ونادى مناديهم: « هيا ياأمة محمد المختار ! عليكم بالكفرة الفجار ! فهذا يوم وعد الله فيه الصابرين بالحور العين . أما ترضوا أن تبيعوا أنفسكم بالجنان ، ومجاورة الرحمن ، فى دار لايحزن مقيمها ، ولا يفنى نعيمها ، ولا ينفد سرورها ، ولا يبرح حبورها . ياخيل الله اركبى ، وبالجنة أبشرى » . قال : فركب الناس وقد باعوا أنفسهم لله ، وقد وثقوا بما وعدهم به الله فى كتابه العزيز العظيم ، على لسان نبيه الكريم ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

وكان السلطان صلاح الدين فى القلب ، وولده الملك الأفضل فى الميمنة ، وولده الظافر فى الميسرة . وكان مما يلى القلب سيف الدين على بن أحمد المشطوب(١) ملك الأكراد ، فى خلق عظيم من المهرانية والهكارية وغيرهم . ومحاذيه مجاهد الدين برنقش مقدم عساكر سنجار ، وخلق كثير من المماليك الترك . ولم يكن عليهم مقدما ، فيذكر عن الفقيه الهكارى - أمين القدس المقدم ذكره - قال: «إن السلطان صلاح الدين شاهدته بعينى وهو يدور بنفسه على جيوش المسلمين ، ويحرضهم على القتال ، ويقول لهم إنى كأحدكم، فلا يطالب اليوم أحد منكم غير رضى ربه».

---

(١) فى المتن : « سيف الدين غازى بن المشطوب » والتصحيح من مفرج الكروب لابن واصل (ج ٢ ص ٢٩٦) ؛ والنوادر السلطانية لابن شداد (ص ١٧١) .

ثم التقى الجمعان ، فبدرهم الملك المظفر بالجاليش[١] ، فتكاثروا عليه ، وكان فى طرف الميمنة على البحر . فلما رأى السلطان ذلك خاف عليه ، فحرك بنفسه نحوه . وكان المظفر قد تقهقر إلى ورائه قليلا ، لما رأى من كثرتهم عليه . فلما رأى السلطان صلاح الدين ذلك حرك نحوه . فلما عاين الجيوش تأخر المظفر وتحريك صلاح الدين شوقا إليه ، ظنوا أنها كسرة ، فانهزم المسلمون . وكانت أهل الديار البكرية ليس لهم خبرة بقتال الفرنج ، فولوا هاربين لايلووا على شىء . ووصلت طائفة من الفرنج إلى مخيم السلطان ، وجالوا حوله ساعة .

وأما ميسرة المسلمين ، فإنها ثبتت قليلا ، وصار السلطان دائر بين العسكرين ، ومعه القضاة ، والفقهاء ، والخطباء ، وأكابر الأشراف ، وهو يستوقف الناس ، ويحضهم وهم لايلوون . قال الفقيه الهكارى يحلف بالله أنه لم يبق مع السلطان سوى خمس نفر . وأما المنهزمون[٢] من المسلمين فإنهم وصلوا دمشق ، وهم الميمنة . والميسرة وصلت طبرية . ثم اجتمع على السلطان النـاس أرباب المروءات ، فحمل على العدو بنفسه فى شرذمة يسيرة ، فطرحوا من الفرنج جماعة جيدة . وجاء نصر الله والفتح ، وأيّد الله الإسلام على عوائده الجميلة ، فكان كما قال عز وجل : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين[٣] » . فولى الفرنج منهزمين ، فظنوا أن الجيوش تراجعت عليهم . وركبت تلك الفئة القليلة أكتافهم قتلا بالسيف ، وضربا بالدبوس . وعاد الملك المظفر وكذلك جناح الميسرة . وتداعت[٤] الناس ، وتراجعوا من كل مكان .

---

(١) فى المتن : « بالجملة » والتصحيح من مفرج الكروب لابن واصل (ج ٢ ص ٢٩٦) .

(٢) فى المتن : « وأما المنهزمين » .

(٣) سورة البقرة ، ٢٤٩ .

(٤) فى المتن : « وتحابت » والصيغة المثبتة من النوادر السلطانية لابن شداد (ص ١٧٤) .

قال الفقيه الهكارى : إن السلطان لما رد على الفرنج ، لم يكن معه من الناس ما يلحق الألفين فارس ، وكان الفرنج فى أربعمائة ألف أو يزيدون . ولقد ذكر جماعة من المسلمين الكبار ، ممن كان مع السلطان عند رجوعه على الفرنج ؛ منهم الأمير سيف الدين غازى ، وعز الدين القيمرى ، وحسام الدين المهرانى المعروف بابن كردم قالوا وحلفوا ــ وهم أمناء القول صادقين اللهجة ــ أن كل واحد ممن كان مع السلطان قتل من الفرنج الثلاثين والأربعين والخمسين وأكثر ، وأن الواحد منا كان إذا قرب مع مطلوبه من خيالة الفرنج ويرفع يده بسيفه ويريد ضرب عنقه ينظر إلى رأسه وقد طارت عن بدنه من قبل أن يصل إليه السيف . وهذا تأييد من الله عز وجل ، ومما يدل على صحة القول أن الملائكة تقاتل مع الإسلام .

قال : ولم يزل المسلمون(١) فى أكتاف المشركين إلى أن تحصنوا بالأسوار التى كانوا صنعوها لهم ، وعادوا يقاتلون من ورائها ، فعند ذلك قال السلطان صلاح الدين: «الحمد لله الذى نصرنا حتى عادوا متحصنين بالأسوار ». ثم رجع إلى دهليزه ومخيمه، ووقف أصحابه بين يديه وهم بالدماء مخضبين ، فرحين بما من الله عز وجل عليهم ، وبما يسره من نصرهم ، وتذاكروا من استشهد منهم ، وأخرجوهم من بين قتلى الفرنج ، وصلوا عليهم ، وواروهم بدمائهم التراب . ثم أمر السلطان بالانتقال من تلك المنزلة إلى منزلة تعرف بالخروبة، وكان ليس برأى جيد، فلو كان أقام مع مشيئة الله ــعز وجلــ لكان أصلح . وحسب السلطان حساب أن جيشه ضعف حاله ، لما نهب لهم عند هزيمتهم، وأنهم تشتتوا فى البلاد . وخشى لأن(٢) تكبسهم الفرنج، فلا تقوم لهم بعدها قائمة، فتحول لهذا السبب، ليجتمع إليه العساكر ويعود المنهزم، ويتكامل الجيش.

وكان ملك الفرنج الكبير يسمى الأنكتير مريضا على حظه ، واشتغل الفرنج بمرضه ، واشتغل السلطان صلاح الدين بتدبير أحوال جيوشه . هذا ، والرسل تتردد منهم طول بقية هذه السنة .

---

(١) فى المتن : « المسلمين » .
(٢) فى المتن : « وخشى لا تكبسهم الفرنج » .

وفيها توفى زين الدين يوسف بن زين الدين على كوجك صاحب إربل ، فى الثامن والعشرين من شهر رمضان[١] . وسير أخوه[٢] مظفر الدين يسأل السلطان أن يكون عوضا عن أخيه[٣] فى الخدمة ، وأنه ينزل عن حران والرها وسميساط والموزر ، وخدم بخمسين ألف دينار نقداً ، فأجيب إلى ذلك ، وأضيفت هذه البلاد ـ التى استرجعت ـ إلى الملك المظفر تقى الدين عمر صاحب حماه . وكتب لمظفر الدين بما سأل، وكتب إلى صاحب الموصل كتاب الوصية بمظفر الدين . واستقرت بيد الملك [المظفر] تقى الدين من البلاد ما نزل عنها مظفر الدين ، مع مابيده من ميافارقين . هذا ببلاد الشرق . وأما [ما كان بيد الملك المظفر فى] بلاد الشام ، فحماه والمعرة وسلمية ومنبج وقلعة نجم وجبلة واللاذقية وبلاطنس وغيرها .

وفى هذه السنة ولد الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين . ووصل إلى السلطان كتاب فاضلى بالبشارة ضمنه : « يقبل الأرض بين يدى مولانا الملك الناصر ، دام رشاده وإرشاده ، وزاد سعده وإسعاده ، وكثرت أولياؤه وعبيده وأعداده، واشتد بأعضاده فيهم إعتضاده ، وأنمى الله عدده حتى يقال هذا آدم الملوك وهذه أولاده . وينهى أن الله ـ وله الحمد ـ رزق الملك العزيز عز نصره ولداً ، ذكراً ، براً ، مباركاً ، زكيا ، سويا ، تقيا ، نقيا ، ذرية كريمة بعضها من بعض ، من بيت شريف كادت ولاته تكون ولاة فى السماء، ومماليكه تكون ملوكا فى الأرض. وكان مقدمه الميمون ليلة الأحد ، وهى من الجمعة أولى العدد ، وبه وبآله يعز الله أهل الجمعة ، ويذل أهل الأحد »[٤] .

(١) كانت وفاته فى الثامن والعشرين من رمضان فى العام التالى (سنة ٥٨٦ هـ) . وسيذكر المؤلف فى حوادث العام التالى وصول زين الدين هذا نجدة للسلطان . انظر ابن شداد ، النوادر السلطانية (ص ١٩٠) .

(٢) فى المتن : « ولده » وهو خطأ ، والتصحيح من النجوم الزاهرة لأبى المحاسن (ج ٦ ص ١١١ ـ ١١٢)، ومفرج الكروب لابن واصل (ج ٢ ص ٣٣٩) .

(٣) فى المتن : « أبيه » .

(٤) انظر ابن واصل (مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٣٠٩) .

ذكر سنة ست وثمانين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم خمسة أذرع وخمسة وعشرون أصبعا . مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا وأربعة أصابع .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين مستمر الحكم ، مطاع الأمر فى أقطار الأرض . والسلطان صلاح الدين سلطان الإسلام بالديار المصرية وما معها ، وهو فى حرب الفرنج على عكا حسبما تقدم من الكلام فى السنة الخالية . وحصار عكا باقٍ من جهة الملاعين . وكانوا قد بنوا أبرجة عظيمة بظاهر عكا ، وعادوا يقاتلون أهلها من عليها . فلما كان ظهر يوم السبت ثامن عشر ربيع الأول من هذه السنة أَحرقت أهل عكا تلك الأبرجة بالنفط . وعظم ذلك على الفرنج ، كأنهم كانوا استظهروا عليهم بها .

وفيها وصل إلى خدمة السلطان صلاح الدين جماعة من ملوك الإسلام ، وهم : الملك العادل عماد الدين زنكى بن مودود ، وابن أخيه معين الدين سنجر شاه ، والملك السعيد علاء الدين صاحب الموصل ، [وزين الدين يوسف] صاحب إربل . وكان فى ذلك حروب ومناوشات بين الفريقين ، وقتل من الطائفتين خلق عظيم . هذا والرسل تتردد بينهم ، وكل من الجمعين خائف من الآخر . وكان السلطان صلاح الدين رجلاً مسلما[1] ، ساذج الباطن ، مستسلم النية ، كثير الدين ، خال من المكر والخداع ، صادق القول ، عديم الكذب والسفه . وكان الفرنج يتحققون[2] منه ذلك ، فعادوا يشغلونه بالمراسلات والمواعيد الكاذبة ، ويسوفوا به الأوقات إلى حين[3] تعافى

(١) فى المتن : « رجل مسلم » .
(٢) فى المتن : « يتحققوا » .
(٣) فى المتن : « إلى حيث » .

ملكهم من علته ، فمادوا وغدروا فى جميع ما قرروه بينهم ، وجدّوا فى حصار عكا . وكان ذلك بعد مضى سنة ست وثمانين ، ودخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

وفيها وصل إلى أنطاكية[1] ابن ملك ألمان نجدة للفرنج . وكان أبوه قد خرج من بلاده فى مائتى ألف مقاتل من أول سنة ست وثمانين[2] . ووصلت الأخبار إلى السلطان بذلك ، فضاق صدره لذلك . وعبروا على قسطنطينية ، ولم يقدر ملك الروم على دفعهم . وكذلك دخلوا فى بلاد الروم بقونية ، وحصل بين صاحب الروم وبينهم مصافا ، فكسروه ، وقتلوا شجعانه ، وقالوا له : « لسنا نريد بلادك » ، فهادنهم . وآخر الأمر ، أن الله تعالى كفى شرهم ، ورمى فيهم المرض والموت ، وهلك طاغيتهم . وأوصى لولده ، ولم يصل إلى أنطاكية[3] إلا فى دون الخمسة آلاف من مائتى ألف ، فهذا تأييد إلهى لأمة محمد صلى الله عليه وسلم .

---

(١) فى المتن : « دمياط » وهو خطأ .

(٢) ذكرها ابن واصل «خمس وثمانين» (ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢ ص٣١٧).

(٣) فى المتن : « دمياط » وهو خطأ . ويشير المؤلف هنا إلى الشطر الألمانى من الحملة الصليبية الثالثة ، وقد سلك هذا الفريق طريق البر عبر آسيا الصغرى ، ولكن الأمبراطور فردريك بربروسا قائد الحملة غرق فى أحد أنهار إقليم قيليقية وتشتت رجاله ؛ انظر (سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٨٤٥ وما بعدها) .

ذكر سنة سبع وثمانين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم ستة أذرع وعشرون أصبعا . مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا وأربعة عشر أصبعا .

ما نلخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين . وبنو سلجوق بحالهم ببلاد العجم.

والسلطان صلاح الدين سلطان الإسلام بالديار المصرية وما معها ، وهو فى قتال الفرنج على عكا . والحصار باق ، وقد ضعف حال المسلمين الذين بعكا ، وقل جلدهم ، ونفد صبرهم . فلما كان يوم الثلاثاء سابع جمادى الآخرة من هذه السنة نفّذ أهل عكا من المسلمين يقولون للسلطان: « نحن والله قد عجزنا عن القتال ، وقد بلغنا غاية لا بعدها غاية ، ولم يكن بقى لنا غير التسليم . ونحن نهار الغد نسلّم إليهم ونطلب الأمان إذا لم تفعلوا معنا شيئا يخلصنا مما نحن فيه » . فكان ذلك أصعب شىء جرى على السلطان .

قال الفقيه الهكارى راوى هذا الحديث : « والله لم يستطعم السلطان بطعام ذلك اليوم مع تلك الليلة » . فلما كان صبيحة ذلك اليوم ، ركب السلطان صلاح الدين فى سائر الجيوش ، وقصد الفرنج ، ووصل إلى حيث وقف بخنادقهم ، وزحف حتى دخل بعضها ، وهو كالوالدة الثكلى على ولدها ، ويسير بين العساكر ويحثهم على القتال ، وينادى : « يا للإسلام ! يا لدين محمد عليه السلام ! » وعينيه تذرفان بالدموع . ودام ذلك اليوم ولم يقدر المسلمون[1] على شىء يفعلوه مع الفرنج . وسبب ذلك أن الرجال من الفرنج لبسوا العدد ، ووقفوا فى سائر السور من خارجه ومن داخله ، بالشروخ والزنارات[2] ، والنشاب . ثم إن الملاعين جدوا فى الحصار ، وتمكنوا من الخنادق

(١) فى المتن : « ولم يقدروا المسلمين » .

(٢) فى مفرج الكروب لابن واصل: «بالسلاح والزنبورك» ، والزنبورك نوع من السهام فى طول الذراع ، له أربعة أوجه ورأسه من الحديد المدبب ، صنع بطريقة تجعله أكثر فاعلية من السهام العادية ، انظر: Dozy : Supp. Dict. Ar. .

فملكوها ، ونقبوا أسوار البلد وحشوه خشباً وأحرقوه ، فوقعت الباشورة وهى بدنة السور ، فدخل الفرنج إليها وقتلوا من المسلمين جماعة ، وقتل(١) المسلمون من الفرنج خلقا عظيما من جملتهم ست ملوك، وقبضوا على أحد ملوكهم الكبار فى بعض الثقوب، فقال لهم : « لاتقتلونى وأبقونى أرحل عنكم الفرنج » . فلم يرجعوا له وقتلوه . فلما بلغ الملاعين قتل ملكهم التزموا أنهم لايبقوا فى عكا من يقول « لا إله إلا الله » . ثم جدوا فى الزحف ثلاثة أيام جدا عظيما . كل ذلك حزنا على ملكهم .

ثم إن السلطان صلاح الدين بعث إليهم سيف الدين المشطوب يطلب الصلح منهم. وفى جملة كلامه : « إنا نحن أخذنا منكم بلاداً كثيرة وحصونا كثيرة وإنا لم ننزل على بلد ولا قلعة وطلبوا منا الأمان والصلح إلا أجبناهم لذلك . فافعلوا أنتم أيضا كذلك » . فما كروا السلطان ، وسيروا يطلبوا منه القاضى نجيب الدين المالكى ليقرروا أمر الصلح بينهم ، وكان ذلك كله مكر منهم وخديعة ، حتى يشغلوا السلطان عنهم ، ويتمكنوا من أخذ البلد . فلما كان يوم الجمعة ، وصل عوام من البلد بكتاب من أهل عكا يقولون : « أن قد ضاق الأمر ، ولا بقى لنا خلاص ، وقد طلب منا الفرنج مائتى ألف دينار ، وألفى وخمسمائة أسير ، وثلاثة آلاف ثوب أطلس ، وصليب الصلبوت، على أننا نخرج بنفوسنا، لاسواها » . فلما وقف السلطان على ذلك أنكره، وعظم عليه . فبينما هو كذلك إذ وقعت الضجة ، ورفعت أعلام الشرك على أبراج البلد ، وصرخ الملاعين صرخة واحدة تزلزلت لها الأرض. وكان ذلك يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة من هذه السنة . فعظم ذلك على المسلمين ، وكثر قول : « لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

وعن القاضى بهاء الدين بن شداد ــ صاحب سيرة السلطان صلاح الدين ــ قال : وصلت إلى السلطان صلاح الدين فى ذلك الوقت الذى أخذت فيه عكا ، فوجدته يبكى بكاء عظيما ، فجلست إليه ، ثم ذكرته بما فتح الله عز وجل على يديه من بلاد

---

(١) فى المتن : « وقتلوا » .

الكفر، وماقُتل من رجالهم، فنظر إلىّ وهو مخنوق بعبرته، وقال: « كيفَ لى بخلاص المأسورين من أيدى المشركين ؟ » .

ثم أمر بالرحيل من تلك المنزلة إلى المنزلة الأولى [بشفرعم][1] . وجرد ألفى فارس فى مكانه لينظروا ما يكون من أمر البلد والمسلمين المأسورين . وكان فى جملة المأسورين بهاء الدين قراقوش الأسدى ، الذى بنى سور القاهرة ، وعمل الروك بالديار المصرية ، فأفدى نفسه بجملة كبيرة . ثم إن الملاعين قتلوا سائر من كان بها من المسلمين ، إلا من كان فى أجله تأخير .

فلما كان نهار الخميس سلخ جمادى الآخرة، ركبوا الملاعين، خيلا ورجلا، واصطفوا ميمنة وميسرة ، وتواقعوا مع يزك المسلمين ، فأردف السلطان اليزك بعشرة آلاف فارس ، فكسروا الملاعين ، وتبعوهم إلى خندقهم . فلما كان ثامن رجب الفرد، حضر صحبة حسام الدين حسين بن باريك المهرانى فارسان من الفرنج من عند الملك الكبير ملك الفرنج ، فقدموا بين يدى السلطان ، وسألوه عن صليب الصلبوت الذى أخذه من بيت المقدس ، وقالوا : « إن وجدناه تحدثنا فيما يعود نفعه على الطائفتين ، ويكون فيه المصلحة » فأمر السلطان بإحضاره . فلما عاينوه ، خروا له ساجدين على وجوههم، ومرغوا خدودهم على الأرض ، ثم عادوا إلى ملكهم .

ولما كان الحادى والعشرين من رجب ، خرج الملك الأنكتير ـ لعنه الله ـ ومعه جماعة من الخيالة ، وساروا نحـو تل العياضية[2] ، ثم أحضروا جماعة من أسرى المسلمين ، ممن كانوا بعكا وسلموا ذلك اليوم من القتل . فأراد الله لهم بالشهادة، وختم لهم بالسعادة ، وأوقفوهم ، وأرموا فيهم السيف . فلما نظر المسلمون بوارق السيوف ، ساقوا نحوهم ، ثم أعلموا السلطان بذلك ، فركب ، وركبت العساكر ، وركب الفرنج بأجمعهم من عكا . والتقى الجمعان ، وقتل بينهم خلق كثير . وكانت وقعة شديدة ،

---

(١) مابين الحاصرتين من النوادر السلطانية لابن شداد (ص ٢٧٨).

(٢) فى المتن : « تل الغياضة » .

انكسرت الفرنج فيها كسرة عظيمة . وذكر أن عدة من كان بعكا من المسلمين ممن قتل سوى من نجا خمسة آلاف نفر وسبعمائة نفر. ولما كان نهار الأحد ثالث ذى القعدة رحل الفرنج إلى الرملة ، وتوجهوا لبيت المقدس . ثم كان بينهم وبين المسلمين وقائع وحروب يشيب لهولها الطفل الوليد .

ودخل الشتاء وقويت الأمطار إلى سبع بقين من ذى الحجة وصل السلطان صلاح الدين إلى القدس الشريف . ونزل بدار الأقساء مجاور كنيسة قمامة . وكان قد وصل فى ثالث ذى الحجة عسكر مصر مع أبى الهيجاء . فلما بلغ الفرنج ذلك تحولوا إلى النطرون . ثم كان بينهم وبين المسلمين ــ وهم اليزكية ــ وقعة . ثم كان بينهم وبين الأمير سابق الدين صاحب شيزر وقعة عظيمة ، انكسرت فيها الفرنج كسرة شنيعة ، وتسلقوا فى الجبال ، وأخذت خيولهم . وحاصرهم المسلمون فى قلعة النطرون . ثم وصل عدة من الحجارين من عند صاحب الموصل بسبب تحصين خندق بيت المقدس . وعمل السلطان صلاح الدين بنفسه فيه ، وكذلك سائر الملوك مع كافة الجيوش .

وفى هذه السنة توفى القاضى شرف الدين بن عصرون(١) قاضى القضاة بدمشق ، وكان أوحد أهل زمانه فى الأربع مذاهب .

وفيها ظهر بمصر رجل منجم يقال له ابن السنباطى، فأقلب رءوس السودان وقوم من المغاربة يقال لهم « المصامدة » ، وقال لهم : « أنتم تملكوا الديار المصرية فى الليلة الفلانية بمدالمغرب». فاستعدوا بقوارير نفط، واجتمعوا بحارة بر المدينة،وهى الهلالية، وشربوا المزور إلى بعد العشاء ، دخلوا حمية واحدة من باب زويلة ، وأخذوا ما قدروا عليه من العدد ، وأتوا إلى خزانة البنود ليخرجوا من كان بها من المسجونين ، وهم مع ذلك يصيحون : « يا آل على » . وأتوا إلى السيوفيين ، وكسروا الدكاكين ،

---

(١) هو قاضى القضاة شرف الدين أبوسعد عبد الله بن محمد بن أبى عصرون التميمى الموصلى. ذكر أبو المحاسن أن وفاته كانت فى رمضان سنة ٥٨٥ هـ (النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ١١٠).

وأخذوا السيوف والمدد . ثم ركب الأمير بدر الدين بن موسك بعسكره ، فمسك الجميع ، والمنجم ، وقتلوا عن آخرهم[١] .

وفيها أخرب السلطان صلاح الدين عسقلان .

وفيها توفى الملك المظفر تقى الدين عمر ، وهو محاصر لملاذكرد ، وذلك يوم الجمعة لإحدى عشر ليلة بقيت من شهر رمضان المعظم . وكان ولده الملك المنصور فى صحبته، فأخفى موته ، وعاد به إلى مدينة حماه ، فدفن بها . واستقر [الملك المنصور] بملكه حماه وما معها . وخرج عنه ما كان بيد أبيه من بلاد الشرق ، واستقر بها الملك العادل سيف الدين أبو بكر ، حسبما نذكر من ذلك . وفيها توفى الشيخ نجم الدين الخُبُوشانى الشافعى ، رحمة الله عليهما .

---

(١) يلاحظ أن هذه الواقعة حدثت سنة ٥٨٤ هـ ؛ انظر ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ــ حوادث سنة ٥٨٤ هـ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢٧٦ ؛ المقريزى ، السلوك ، ج ١ ص ١٠١ .

ذكر سنة ثمان وثمانين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم ستة أذرع وثلاثة وعشرون أصبعا . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا وأحد عشر أصبعا .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين نافذ الحكم ، مطاع الأمر . والسلطان صلاح الدين سلطان الإسلام . واستولت الفرنج ـ خذلهم الله ـ على قلعة الداروم وهدموها ، ورحلوا عنها .

وفيها حصلت المهادنة والصلح بين السلطان صلاح الدين وبين الفرنج على شروط اشترطوها بينهم ، وقطعوا المدة ثلاثة أشهر بعد ثلاث سنين ، وقيل ثمانية أشهر .

وفيها توفى الفقيه نجم الدين بن شرف الإسلام رحمه الله تعالى ، وكان أوحد أهل زمانه فى الفتيا والفقه ، وكان حنبلى المذهب . وتوفى موفق الدين خاله ابن القيسرانى وزير نور الدين بحلب . وتوفى قطب الدين بن العجمى بحلب ، رحمهما الله تعالى .

وفيها توفى السلطان عز الدين قلج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان ابن قطلمش بن أرسلان السلجوقى سلطان الروم ، وكان له نحو عشر بنين . وقد ولّى كل واحد منهم قطرا ، وأكبرهم قطب الدين ملكشاه ، وكانت له سيواس ، فعمل على أبيه حتى خلعه من ملك قونية وملكها لنفسه ، واعتقل أباه . ثم خلص من الاعتقال وتوصل إلى ابنه نور الدين سلطان شاه ، فأكرمه ، وعاد إلى ملكه ، وتوفى فى هذا التاريخ . وملك بعده ولده غياث كيخسرو فى حديث طويل . ثم [غلب على غياث الدين أخوه](1) ركن الدين سليمان ، وهرب غياث الدين إلى الشام مستجيرا

---

(١) العبارة غير واضحة بالمتن والتكملة بين حاصرتين من مفرج الكروب لابن واصل (ج ٢ ص ٤١٢) .

بالملك الظاهر صاحب حلب. ثم مات ركن الدين سنة ستمائة وملك ولده قلج أرسلان. ورجع غياث الدين فملك قونية ، واستقرت السلطنة له حتى توفى ، وملك بعده ابنه
٣ عز الدين كيكاوس ، وكانت له حروب مع الملك الأشرف موسى بن العادل . ثم توفى [كيكاوس] وولى أخوه علاء الدين كيقباذ . ثم توفى [كيقباذ] سنة أربع وثلاثين وستمائة ، وولى بعده ولده غياث الدين كيخسرو الذى كسره التتار كسرة عظيمة
٦ سنة إحدى وأربعين وستمائة ، وتضعضع حينئذ ملك السلاطين السلجوقية ببلاد الروم وأعمالها ، حسبما نذكر بعد ذلك إن شاء الله .

ذكر سنة تسع وثمانين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

المـاء القديم ستة أذرع وثلاثة وعشرون أصبعا . مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا وثمانية أصابع .

ماتلخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين مستمر الأحكام ، مطاع الأوامر ، فى سائر أقطار الأرض . والسلطان صلاح الدين إلى أن توفى فى هـــذه السنة إلى رحمة الله ، ورحيب جنانه، بكرة يوم الأربعاء سابع عشرين شهر صفر من هذه السنة، بمدينة دمشق المحروسة .

ذكر وفاة السلطان صلاح الدين رحمه الله

كان السلطان صلاح الدين لـمـا تفرغ قلبه من جهة الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ قد عاد إلى دمشق وهو فى أسر الأحوال وأحسن الأمور ، ورُسل الملوك واردة عليه من كل جهة بالهدايا والتحف والمراسلات الحسان ، وهو يجلس كل يوم للمظالم ، وإسداء المـكارم[1] ، وإنصاف المظلوم من الظالم . ثم خرج إلى الصيد شرقى دمشق فغاب خمسة أيام . وكان معه أخوه[2] الملك العادل ، فودعه من البرية وأمره بالمسير إلى الديار المصرية ، وأوصاه بالملك العزيز . وعاد السلطان إلى دمشق ، فحصل له توعك ، ثم قوى .

وعن القاضى بهاء الدين بن شداد قال : حضرت من القدس[3] لـمـا طلبنى السلطان على البريد . فلما مثلت بين يديه قربنى وأجلسنى ، ثم قال لى : « من بالباب

(١) فى المتن : «رفع المكارم» والتصحيح من مفرج الكروب لابن واصل، ج٢ ص٤١٣ .

(٢) فى المتن : « أخاه » .

(٣) فى المتن : « حضرت من الديار المصرية » والتصحيح من النوادر السلطانية لابن شداد ص ٢٤١ .

جالسا؟ » . قلت: « الملك الأفضل ولدك ، والناس وقوف بين يديه » . فبهت ودمعت عيناه وقال : « أف للدنيا ماذا تغير من الأحباب على الأحباب » . ثم قال : « اخرج إليهم وعرفهم بعض ما أنا فيه » .

وعن القاضى الفاضل قال : حضرت عند السلطان صلاح الدين فى مرضه ، فأمر بطعام ، فقدم وقد جلس الملك الأفضل فى دست أبيه ، فقال لى : « يا قاضى اخرج وانظر الناس كيف هم بعدى » . قال ، فخرجت ، فلما رأيت ولده مكانه ، رجعت وقد عميت من البكاء ، وكذلك بكى كل من حضر . وكان أشد يوم على الناس .

ثم إن السلطان صلاح الدين ثقل فى المرض . وعن إمام الكلاسة[1] قال : حضرت عند السلطان صلاح الدين لما أمرنى ولده الملك الأفضل أن ألقنه الشهادة ، فوجدته قد غاب ذهنه ، فقرأت « هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم[2] » . قال فسمعته يقول : « نعم هو كذلك » . قال الشيخ: فقلت فى نفسى هذه عناية من الله تعالى بهذا الرجل فى دنياه وآخرته . قال الشيخ: ثم قرأت ـ وقد غاب ذهنه أيضا ـ إلى أن انتهيت إلى قوله تعالى « لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم[3] » . قال الشيخ: فرأيته وقد تبسم وتهلل وجهه ، وفاضت نفسه ، رحمه الله تعالى .

وعن القاضى الفاضل قال : لما مات السلطان صلاح الدين ـ رحمه الله تعالى ـ حصرنا تركته ، فوجدنا فى خزائنه أحد وأربعين درهم ، ودينار واحد صورى . هذا كان ملكيته لنفسه فى ذلك الوقت .

وتوفى وله من العمر سبع وخمسين سنة . وكان مولده سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة بتكريت . وكانت مدة مملكته بالديار المصرية نحو أربع وعشرين[4] سنة . وملك الشام بعد نور الدين وولده الصالح نحواً من تسع عشرة سنة .

(١) الكلاسة : شمالى جامع دمشق .
(٢) سورة الحشر ، ٢٢ .
(٣) سورة التوبة ، ١٢٩ .
(٤) فى المتن : « نحو أربع وعشرون سنة » .

أجمع الرواة أنهم لم يسمعوا ولا رووا عن ملك أسمح ولا أجود من السلطان صلاح الدين ـ رحمه الله ـ ولا أشجع نفسا ، ولا أنصر لملة محمد صلى الله عليه وسلم . وفى ذلك يقول ابن أسعد الفقيه الشافعى من قصيدة امتدح بها السلطان صلاح الدين رحمه الله :

وأبلج يستهين الموت يلقى ... بصفحة وجهه بيض الصفاح
جـــواد بالبلاد وما حـــوته ... إذا جادوا بربّات اللقـاح
من النفر الذين إذا تجـــلوا ... أعادوا الليل أجـلى من صباح
فمن حاتم وكعب وابن سعدى ... رعاة الشاة والنعم المـــراح
فللّاحين والراجـين منـــه ... أعز حمًى وأكرم مستبـاح
يفيض بطـون راحهم نوالًا ... وتستلم المـلوك ظهور راح

ذكر عدة أولاده الملوك

خلف سبع عشر ولداً ذكراً وبنت واحدة ، وهم : الملك الأفضل نور الدين على ، وكان أكبر ولده ، وولىّ عهده ، مولده بمصر يوم عيد الفطر سنة خمس وستين وخمسمائة . وكان يوم مات أبوه وولى الملك بدمشق عمره أربع وعشرين سنة وأشهر ، والله أعلم .

الملك العزيز

عماد الدين عثمان صاحب مصر ، مولده بالقاهرة ، ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين ، وكان أصغر من أخيه الأفضل بسنتين وشهرين .

الملك الظاهر

غياث الدين غازى صاحب حلب ، مولده بالقاهرة نصف شهر رمضان سنة ثمان وستين وخمسمائة . وكان أصغر من العزيز بسنة وأشهر .

والملك المفضل قطب الدين موسى . والملك الزاهر مجير الدين داود. والملك الظافر مظفر الدين خضر. والملك المؤيد نجم الدين مسعود . والملك الأغر شرف الدين يعقوب. والملك المعز فتح الدين إسحاق . والملك الجواد ركن[1] الدين أيوب . والملك الموفق نصرة الدين إبراهيم. والملك الأشرف نصير الدين محمد . والملك المعظم توران[2] شاه. والملك الغالب ملكشاه[3] . والملك المحسن[4] يمين الدين أحمد . والملك المنصور سيف الدين أبو بكر . والملك الأمجد عماد الدين شاذى .

ومات ـ رحمه الله ـ عن اثنين صغار ذكور . والبنت تزوجها بعد ذلك السلطان الملك الكامل ابن عمها ، حسبما يأتى من ذكر ذلك فى موضعه .

وعن القاضى بهاء الدين بن شداد قال : والله مات السلطان صلاح الدين ـ رحمه الله ـ ولم يترك دارا ولا عقارا ولا ملكا ولا ضيعة ولا فضة ولا ذهبا إلا ما ذكر أنه وجد بخزانته ، ولا رغب فى زخرف الدنيا ولا فى أعراضها ـ رحمة الله عليه ـ وعوّضه النعيم المقيم ، بجوار الرحمن الرحيم .

ذكر بعض محاسنه رضى الله عنه

قال العبد المؤلف لهذا التاريخ أبو بكر بن عبد الله الدوادارى ـ عفا الله عنه ـ : أما ذكر محاسن السلطان الشهيد صلاح الدين وبعض مناقبه ، فقد افترد بذلك مصنف سيرته ، والمطلع على أخباره ، والحاضر لمآثره وآثاره ، القاضى المرحوم بهاء الدين ابن شداد ، وذكر ذلك بلسان أنطقه فرح العطاء ، فأخرس بنطقه فصيح القطاء ، حتى لم يترك لقائل مقال ، ولا لحصّار قريحة من مجال . وأما ما ذكره أبو المظفر

---

(١) فى المتن : « نجم الدين » والتصحيح من ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٤٢٥ .

(٢) فى المتن : « الماجد توران شاه » والتصحيح من النجوم الزاهرة لأبى المحاسن (ج ٦ ص ٦٢)، ومفرج الكروب لابن واصل (ج ٢ ص ٤٢٥)، والروضتين لأبى شامة (ج ١ ص ٢٧٧).

(٣) فى المتن : « المحسن فروخ شاه » والتصحيح من مفرج الكروب لابن واصل (ج ٢ ص ٤٢٥) والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن (ج ٦ ص ٦٢) .

(٤) فى المتن : « المجاهد » ، والتصحيح من مفرج الكروب لابن واصل (ج ٢ ص ٤٢٥) .

الذى هذا التاريخ من أساس تاريخه نشىء ، ومن حشو حلاوة لوزينجه[1] حشى ، فقال : كان السلطان صلاح الدين ملكا شجاعا مقداما ، سمحا معطاء ، كريما جوادا ، حسن الملتقى ، صاحب بشاشة وهمة ويقظة وتفكر فى مصالح المسلمين ، شريف النفس ، عالى الهمة ، عزيز المروءة ، واسع الصدر ، كثير الحياء ، قليل السفه ، عظيم الحرمة ، شديد الهيبة ، متزهداً عن أعراض الدنيا ، غير متطلع لما فى أيدى الناس ، يُحبّ أهلَ الفضل والعلم والأدب ، متواضع لأهل العلم والشرع ، حسن التدبير ، ليس له همة فى لذّات الدنيا وزخارفها ، مشتغل لما استعمله الله ــ عز وجلّ ــ فيه من سائر الأمور الدينية ، أكبر همه الجهاد فى سبيل الله ، وقيام منار الإسلام ، وإخماد جمرة الكفر . يرى نفسه كأحدٍ من الناس .

ورأيت فى مُسوداتى أن لما فتح السلطان صلاح الدين بيت المقدس ، واستنقذه من يد الكفر ، فى شهر رجب ــ حسبما تقدم من تاريخه ــ كان هذا الفتح خامس وعشرين مرة له قد استُنقذ من يد المشركين بأيدى المسلمين .

قال ابن واصل : حدثنى بعض من أثق به أنه كان جالسا[2] بحضرة السلطان صلاح الدين ــ رحمه الله ــ وقد دخل عليه ولده عثمان الملك العزيز ــ وهو إذ ذاك صغير ــ فطلب من أبيه السلطان ديناراً[3] ، فقال لمملوكٍ قائم بين يديه : « أعطه » ــ أظنه خزنداره ــ فقال : « ما هو عندى » . فأطرق إلى الأرض ساعةً ، وإذا بحملٍ من الإسكندرية وقد دخل عليه ، وحملٍ آخر من الصعيد ، وآخر من الغربية ، فأمر بإفراغ المال بين يديه ، ثم قسمه وفرقه [على][4] الجميع ، حتى لم يبق منه شىء . قال الراوى كذلك : فداخلنى حنق ، وكنت ممن أدلّ عليه ، فقلت : « يامولانا كل الأمور

---

(١) لوزينج = القطائف ، نوع من الحلوى يحشى باللوز وما شابهه
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(٢) فى المتن : « كان جالس » .

(٣) فى المتن : « دينار » .

(٤) ما بين حاصرتين ساقط من المتن .

صبرت عليها إلا هذه » . قال : « وما هى ؟ » ، قلت : « ولدك يطلب منك ديناراً فلم تجده مع خازنك تعطيه ، وتفرق هذه الأموال العظيمة ولا تبقى منها لولدك ما طلبه منك». فقال: « يافلان ترى هذه الأموال والله إنما شُريت بها رءوسهم ومهجهم ». قال الراوى : فوالله لقد شاهدت تلك الرءوس تتطاير بين يديه فى مواقف الحُروب كالأكر ، فعلمت عند ذلك جميل مقاصده ، رحمه الله .

وروى أن السلطان صلاح الدين لما كان بدمشق ــ بعد مهادنة الفرنج ــ حضرت إليه عدة من الرسل ، ومنهم رسُول الفنش الكبير صاحب رومية ، وكان السلطان فى طارمة[1] له تطل على اصطبله ، وخيله قدامه ما لا تبلغ ثلاثين فرساً[2] ، فنظر الرسُول إلى ذلك فاستقله ، فقال للترجمان : « قل للسلطان أنت ملك الأرض ، وصاحب العصر ، وهذه جميع خيلك؟. فنحن أى فارس مَسْكَنة منا كان عنده أضعاف هؤلاء » . فأعاد الترجمان على السلطان ، فقال : « قل له جوابك غدا إن شاء الله تعالى » . ثم إن السلطان رسم للحجاب أن يكون الجيش جميعه بكرة النهار مُطلب ، ويدخل طُلبا طُلبا[3] بجميع خيولهم وجنائبهم وأثقالهم ، من تحت تلك الطارمة . فلما أصبح ، وجلس السلطان ، وكذلك الرسول ، ودخلت الأطلاب فى أحسن زى ، وأعظم هيئة ، رأى الرسُول ما أذهله ، فقال السلطان للترجمان: « قل له هؤلاء هم خيلى وعدتى ». فقال الرسُول : « والله مليح . لكن يجب أن يكون للسلطان مال حاصل، فإن المال مثل العسل ، والرجال مثل الذباب ، متى رأى العسل اجتمع عليه » . فأعاد الترجمان على السلطان ذلك، فقال قل له : « جوابك الليلة إن شاء الله تعالى » . ثم أمر السلطان أن يمد الخوان جميعه عسل فى زبادى على المخافى[4] ، وأوقد الشموع. وأحضر

---

(١) الطارمة، وجمعها طارمات: بيت يشيد من الخشب ، يشكل سقفه على هيئة قبة ، ويخصص لجلوس السلطان ، انظر (Dozy: Supp. Dict. Ar.) .

(٢) فى المتن : « فرس » .

(٣) الطلب : الكتيبة من الجيش، وهو لفظ كردى (Dozy: Supp. Dict. Ar.) .

(٤) المخافى ، ومفردها مخفية ، وهى طبق واسع كبير العمق كانت توضع به كميات كبيرة من اللحم والطعام فى الموائد الكبرى (كتاب السلوك للمقريزى ، ج ٢ ق ٢ ص ٤٦٨ حاشية ٣) .

الرسُول ، فمد يده إلى جميع ما رآه فوجده عسلا[1] ، فسأل من الترجمان فقال : « قل للسلطان هذا جميعه عسل إيش سببه؟ ». فقال السلطان: « قل له هذا جوابك ، وهذا العسل ، أين الذباب الذى أتى إليه ؟ ». فقال الرسُول: « هذا ليل ما فيه ذباب » فقال السلطان: « فإذا طرأ لى شغل[2] فى ليلٍ ، والأموال فى الخزائن، أين أجد الرجال؟ ». قال: فصَلَب الرسُول على وجهه ، وقال باللسان العربى : « أنت صاحب الوقت ، وفاتح الأرض » . وقد كان قبل ذلك لا يتكلم إلا بترجمان ، ويدعى أنه لا يعرف اللسان العربى .

قال ابن واصل صاحب التاريخ : إن الحصون التى فتحها السلطان صلاح الدين رحمه الله ؛ عن القاضى الإمام بهاء الدين أبى المحاسِن يُوسف بن رافع ، وهم : طبرية ، عكا، حيفا ، قيسارية ، الناصرة ، أرسوف ، يافا، عسقلان ، غزة ، الدارون ، صيدا ، بيروت ، جبيل ، هونين ، جَبْلية ، تبنين ، أنطرطوس ، جبلة ، اللاذقية ، السّرفند ، القدس ، نابلس ، البشير ، بيت لحم ، بيت جبريل ، صفورية ، الطور ، حصن دبُّورية ، جينين ، سبسطية[3] ، كوكب ، حصن عفرا ، الصافية ، مجدليابا ، لُدّ ، الجب الفوقانى ، الجب التيحتانى ، القطرون ، الرملة ، حصن العازرة ، عرا وعرعرا ، البرج الأحمر ، حصن الجليل ، بيت حبرون[4] ، قلنسوه ، قاقون ، قلعة الطفيلة[5] ، قلعة الهرُمْز ، صفد ، حصن يازور[6] ، شقيق ، أرنون ، شقيف تيرون ، حصن سكندرونة ، بانياس ، صهيون ، بلاطنس ، حصن الحاضرية ، قلعة المندقر ، قصور عكا ، قلعة أبو الحسن، صيدا الصغيرة ، حصن بَلدَة ، الرقيم ، الكهف ، حصن

(١) فى المتن : « عسل » .
(٢) فى المتن : « شغلا » .
(٣) فى المتن : « سفسطية » بالفاء .
(٤) فى المتن : « بيت حرون » .
(٥) فى المتن : « قلعة البطلة » ؛ ذكر ياقوت أن قلعة الطفيل قرب بيت المقدس ، انظر أيضا ، سيرة صلاح الدين ، لابن شداد .
(٦) فى المتن : « يازر » .

يحمود[1] ، الشُّرمانية ، درب ساك ، بغراس ، الدانور الشرقية ، بكاس ، الشغر ، بكسرائيل . عدة أربعة وسبعون فتوحًا استنقذه من أيدى المشركين . وأما ما اقتلعه من الممالك الإسلامية فمثلها أو ينقص عن ذلك قليلًا ، والله أعلم .

قال ابن واصل : ما استقر عليه الحال بعد وفاة السلطان صلاح الدين ـ رحمه الله . استقر بدمشق وما معها الملك الأفضل نور الدين على ، وبالديار المصرية وما معها الملك العزيز عماد الدين عثمان ، وبحلب وما ينسب إليها الملك الظاهر غياث الدين غازى ، وباليمن وأعمالها عمهم الملك العزيز ظهير الدين طغتكين بن أيوب ، وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية عمهم الملك العادل سيف الدين أبو بكر ، وبحماه وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقى الدين عمر ، وبحمص والرحبة وتدمر الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه ، وببعلبك وأعمالها الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب . وبيد الملك الظافر [خضر] حصن بُصرى ، وهو فى خدمة أخيه الأفضل صاحب دمشق . وبيد جماعة من أمراء دولته بلاد وحصون ، منهم : سابق الدين عثمان بن الداية ، بيده شيزر وقلعة أبى قبيس ؛ وناصر الدين منكورس بن خمارتكين بيده صهيون وحصن برزية ؛ وكذلك بدر الدين دُلْدرم بن بهاء الدين ياروق بيده تل باشر ؛ وعز الدين أسامة بيده كوكب وعجلون ؛ وعز الدين إبراهيم بن شمس الدين بن المقدم بيده بعرين وكفر طاب وحصن أفامية ؛ والملك الأفضل مرجوع الكل إليه ، لكونه كان ولى العهد والأكبر من أولاد السلطان ، وبقية إخوته فى خدمته[2] .

وفيها توفى سنان رئيس الإسماعيلية ـ صاحب التمويهات والخزعبلات العجيبة ، حتى أخذ بعقول أهل تلك الديار وملك بواطنهم وظواهرهم . فمن جملة ذلك أنه حفَر فى مجلسه حفيرة يكون مقدارها إذا جلس الإنسان فيها جاءت إلى رقبته ، وجعل عليها

---

(١) فى المتن : « محمود » .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ص ٣ ـ ٥ .

طابق من خشبٍ ، ونقب فيه بمقدار ما يطلع منه رأس الإنسان . ثم صنع طبق نحاس ، ونقب فيه بمقدار رقبة الرجل ، وجعله بمصراعين ملتقيات متداخلات فى بعضها البعض ، لا يميزه أحد ، ولا اطلع عليه أحد . فكان إذا أراد أن يفعل تمويهاً يأخذ رجلًا يختار عدمه ، ويقربه أولا ، ويُحسن إليه ، ولا يعلمه ما المراد به ، ثم يُجزل صلته ويوصيه بما يريد أن يقوله ، ويتقن أمره معه . ثم ينزله تلك الحفيرة ، ويخرج رأسه من ذلك الخرق الذى فى الطابق الخشب ، ثم يطبق على عنقه ذلك الطبق النحاس المصنوع ، ويضع فى الطبق حول عنق ذلك الإنسان دما غبيطا[1] ، ثم يغطيه بمنديل ، ويوهم أصحابه أنه ضرب رقبته ، وأنه نقله من الدار الفانية إلى الدار الباقية ، مع الحور والولدان، فى جناتِ نعيم . ويجلس ويأمر بحضور أصحابه ، فإذا استقر بهم الجلوس ، يأمر من يكشف عن تلك الرأس ، فلا يشك من رآها أنها رأسًا مقطوعة موضوعة فى الطبق، فيقول له: « تحدث يا فلان بما أنت فيه من الخير لأصحابك ، وما وصلت إليه من النعيم » . فيحدثهم بما قرره معه من الوصية له ، فيقول له : « أيما أحبّ إليك ترجع إلى أهلك إلى ما كنت فيه ، أو تسكن الجنة حسبما رأيت » . فيقول : « وما حاجتى بالرجُوع إلى الدنيا ، والله إن خردلة مما رأيت خير لى من تلك الدنيا سبع مرار. وأنتم ياأصحابى عليكم سلام الله ، وأوصيكم ، الله ! الله ! الحذر ! الحذر ! من مخالفة هذا الصاحب الإمام ، فهو حجة الله فى أرضه ، والسلام » .

وفيها ظهر بحمص من داخلها عُيون ماء ، حتى امتلأ الخندق، فشرب أهل حمص منه ، فوخموا جميعهم ، وظهر عقيب ذلك طاعون أهلك خلقا كثيراً[2] من أهلها .

وفيها ورد الخبر أن ذئباً كُلب[3] ، فهجم مدينة دنيسر[4] ، فأتلف اثنين وسبعين نفرا من الناس حتى قُتل .

(١) أى سائلا ، وفى المتن : « دم غبيط » .
(٢) فى المتن : « خلق كثير » .
(٣) أى أصيب بمرض الكلب .
(٤) دنيسر ، بضم أوله بلدة عظيمة مشهورة من نواحى الجزيرة ، قرب ماردين ، بينهما فرسخان (ياقوت ، معجم البلدان) .

وفيها خرج السلطان ملك شاه من همذان قاصداً الرّىّ ، فهدمها حجراً حجراً ، وقتل جماعة من أمرائها .

وفيها – فى سابع صفر – ظهر بظاهر بغداد عمود نار من الأرض إلى السماء ، عرضه تقـــدير ثلاثة أرماح ، ونظره الخليفة الإمام الناصر لدين الله ، وجميع أهل بغداد .

وفيها وقع بنابلس بَرَد ، زنة كل حجرٍ منها مائة وخمسين درهم .

وفيها نزلت صاعقة بسيخ الحديد من عمل حلب ، فقتلت جماعة ، وبقى مكانها خلو أربعين ذراعاً . وكذلك سقط بجبل اللوان من عمل حلب بَرَد تقدير كوز الفقاع .

ونزلت صاعقة بالياروقية من حلب ، وسقطت فى اصطبل الحاجب ، فقتلت له تسع أروس خيل .

ذكر سنة تسعين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

المـــاء القديم ستة أذرع وخمسة أصابع . مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعاً واثنان وعشرون أصبعاً .

ماتلخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، نافذ الأمر ، ومستمر الأحكام ، مطاع فى سائر الأرض .

والملك العزيز بمصر حسبما تقرر . والملك الأفضل بدمشق ، وسائر الملوك من إخوته فى خدمته ، خلا الملك الظاهر بحلب .

وفيها عزل القاضى صدر الدين أبو القاسم عبد الملك المقدم ذكره . وكان فى طول أيام السلطان صلاح الدين مستمر القضاء بمصر ، فعزل فى هذه السنة . وولى القاضى زين الدين أبو الحسن على بن الشيخ شرف الدين يوسف الدمشقى . وكان المذكور نائباً عن القاضى صدر الدين بالقاهرة سنين كثيرة ، فاستقر بالقضاء .

وكان السلطان صلاح الدين قد جعل لأولاده لكل واحدٍ إقليم ملكه فى أيامه. وجعل من الفرات[1] إلى الشرق كله داخلًا فى سلطان أخيه الملك العادل سيف الدين أبو بكر ، وذلك خوفاً على أولاده منه . فكان الملك الأفضل بدمشق ، والملك الظاهر بحلب ، والملك المنصور بحماه والمعرة وقلعة نجم ، والملك الأمجد ببعلبك ، والملك المجاهد حمص والرحبة وتدمر ، والملك العزيز مصر ، وباقى الملوك فى خدمة الأفضل بدمشق . والشرق جميعه للعادلِ .

---

(١) فى المتن : « الفراة » .

ذكر سبب انتقاض ملك الأفضل صاحب دمشق

وذلك أنه استوزر الصاحب ضياء الدين بن الأثير صاحب الترسل والفضيلة الحسنة . وكان له أيضًا صاحبان؛ أحدهما عز الدين ابن الأثير صاحب التاريخ المشهور، والآخر مجد الدين أبو السعادات صاحب كتاب جامع الأصول فى علم الحديث . وكان هذا الرجل فاضلًا، متقدمًا عند الملوك أصحاب الموصل من بنى زنكى . وكانوا هؤلاء الثلاث أصحاب حَلِّه وعَقْده ، فأشاروا عليه أن يُبعد مماليك أبيه ، وينشئ مماليكًا من جهته . وأوحوا إليه أن مماليك أبيه لا يرونَه(١) إلا بعين الصغر ، ففعل الأفضل ذلك ، وكان من سُوء التدبير . فلما تباين للأمراء ذلك مالوا إلى الملك العزيز بمصر ، ورحلوا إليه ، فتلقاهم العزيز أحسن ملتقى(٢) ، وأكرمهم ، وأحسن إليهم . ورأى أمره أنه قد قوى بهم ، فأشاروا عليه أن يتحرك إلى الشام ، ويأخذ دمشق من أخيه الأفضل . فأراد أن يقيم له ذنبًا يأخذه به فطلب منه بيت المقدس ـ وكان مضافًا إلى مملكة دمشق ـ فاستشار هؤلاء ، فقالوا : « لا تفعل يطمع فى سُلطانك » ، فامتنع . وتجهز العزيز إلى الشام . وكانت(٣) أسماء الأمراء الذين حضروا من الشام إلى خدمة العزيز : ميمون القصرى وسنقر الكبير ، مع جماعة من ملوك الأكراد ، والأمير فخر الدين جهاركس . ثم تبعهم بعد ذلك الأمير صارم الدين قايماز النجمى ، وكان من أكبر الأمراء الأيوبية ؛ فإنه مملوك نجم الدين أيوب بن شاذى والد الملوك بنى أيوب فحضر إلى الملك العزيز بمصر . فلما علم الأفضل بتحريك العزيز إلى الشام ، كتب كتابا إلى عمه الملك العادل يستنجده ويستجير به ، فعندها توجه العادل من الشرق إلى نحو الشام ، فوصل إلى دمشق فى اثنى عشر يوما ، ووجد العزيز أيضا قد وصل دمشق ،

(١) فى المتن : « مماليك أبوه لايروه » .
(٢) فى المتن : « ملتقا » .
(٣) فى المتن : « وكان » .

فمشى بينهما بالصلح ، فاصطلحا صلح العامرية ، على فساد . ولما رأى العادل اختلاف الإخوة ، طمع فى الملك بالشام ومصر وغيرهما .

وكان لما بلغ سيف الدين بكتمُر صاحب خلاط موت السلطان صلاح الدين فرح فرحا عظيما، وأمر أن تضرب البشائر فى سائر قلاعه وحصونه، ولقب نفسه الملك الناصر، وكتب كتبا إلى سائر ملوك الشرق ، مثل عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى ابن اقسنقر صاحب الموصل وحسام الدين [يولق](١) أرسلان بن إيلغازى ، وكذلك إلى صاحب سنجار ، وصاحب ماردين ، وغيرهم ، يستدعيهم إلى قتال الملك العادل ، وأن يأخذ البلاد منه ، فأجابوه إلى ذلك . وكان أول من قدم منهم صاحب ماردين وصاحب الموصل ، إلا عماد الدين زنكى فإنه لم يوافقهم على ذلك .وكان اجتماعهم فى سنة إحدى وتسعين وخمسمائة .

وأمّا ما جرى(٢) للعزيز فإنه لما خرج إلى الشام جعل ولده المنصور ولى عهده ــ وكان صغيراً ــ فأقام بهاء الدين قراقوش نائباً عنه بالديار المصرية . ولما أصلح العادل بينه وبين أخيه الأفضل حصل الخُلف بين العزيز وبين أمرائه الأسدية والأكراد ، ففارقوا خدمته ، ومضوا إلى عمه العادل وأخيه الأفضل . وانقلب الدست عليه، فتوجه من دمشق هارباً لا يلوى على شىء. وركبوا خلفه ولحقوه ببلبيس، وحاصروه بها أيامًا . ثم اصطلح مع عمه العادل وأخيه الأفضل على مال دفعه. وعاد الأفضل إلى الشام ودخل العادل إلى القاهرة ، وأخلى(٣) له العزيز القصر الكبير .

وفيها عزل القاضى زين الدين .

وفيها ولى القاضى محيى الدين بن عصرون(٤) .

---

(١) ما بين حاصرتين من مفرج الكروب لابن واصل ، ج ٣ ص ١٦ .

(٢) فى المتن : « ماجرا » .

(٣) فى المتن : « وأخلا » .

(٤) هذه العبارة فيها خلط وخطأ ، وبمقارنتها بما ذكره ابن واصل (مفرج الكروب، ج ٣ ص ٣٩، ٥٤) يتضح أن القاضى محيى الدين بن أبى عصرون ولى قضاء الديار المصرية سنة ٥٩٠ هـ ، وفى سنة ٥٩١ هـ عزل ابن أبى عصرون وولى بدله القضاء زين الدين يوسف الدمشقى . وقد استدرك ابن أيبك هذا فى أحداث السنوات المقبلة . ويلاحظ أن المقريزى أرخ عزل ابن أبى عصرون وتولية زين الدين يوسف بدله بسنة ٥٩٢ هـ.

ذكر سنة إحدى وتسعين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم ستة أذرع وأصبعان . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا وعشرة أصابع .

ماخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، نافذ الحكم ، مستمر السلطان .
والملك العزيز بمصر [ومعه] عمه العادل .

وفيها توجه العزيز والعادل عمه إلى دمشق وحاصروا الأفضل ، واقتلعوا(١) دمشق منه ، وملّكها العزيز لعمه الملك العادل ، وذلك فى شعبان . وعاد العزيز إلى مصر .

وتوجه العادل إلى الشرق ، فبلغه أخبار بكتمر صاحب خلاط ، فكتب [العادل] إلى أولاد أخيه يستنجدهم ، فكان أول من وصل إليه العزيز صاحب مصر ، وجدّ فى سيره حتى وافاه . وركب طريق المفازة . ثم وصل(٢) إليه الملوك أولا فأولًا . فلما تكاملوا رحل الملك العادل إلى حران ، ونزل بها . ثم إن عز الدين صاحب الموصل توفى(٣) . وتفللت جموع بكتمر ، ورجع كل عسكرٍ إلى بلاده . وأرسل عز الدين صاحب ماردين يعتذر من فعله للملك العادل . ثم إن بكتمر صاحب

---

(١) فى المتن : « واقتلع » .

(٢) فى المتن : « وصلوا » .

(٣) جاء فى حاشية فى هامش الورقة أمام وفاة عز الدين صاحب الموصل ما نصه :
قال ابن واصل : كانت وفاة عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى صاحب الموصل ، السابع والعشرين من شعبان سنة تسع وتسعين وخمس مائة ، فكان بينه وبين وفاة السلطان صلاح الدين ستةأشهر ، وهو الصحيح . وكانت مدة ملكه الموصل ثلاث عشرة سنة وستة أشهر . وقام بملك الموصل نور الدين أرسلان شاه ولده ، وهو أستاذ بدر الدين لؤلؤ النورى ، وبه عرف . وقام بتدبير المملكة الأمير مجاهد الدين قايماز إلى أن كبر نور الدين واستحكم أمره ، حسبما يأتى من ذكره إن شاء الله تعالى .

هذه الفتنة وثب عليه فداوى فقتله ، وسُلِّمَ الفداوى لبعض حاشيته له(١) . وتمكن الملك العادل من الشرق ، وملك الخابور ونصيبين وسائر تلك الأعمال . وعادت الملوك إلى بلادهم . وعاد العادل إلى دمشق ، وخلف بعض أولاده بالشرق ، لا أعلم أيهم كان .

وفيها وردت الأخبار أن [يعقوب بن يوسف بن](٢) عبد المؤمن صاحب الغرب كسر ألفنش(٣) ملك الفرنج على مدينة طليطلة بالأندلس ، وأسر من الفرنج ستين ألف أسير ، وقَتل مائتى ألف وستة عشر ألف ، وكَسب من السلاح والعدد ما لا يحصى كثرة ، من جملتها ستين ألف زردية . وكان عدة خيام اللاعبين أربع مائة ألف خيمة وستة عشر ألف خيمة، وعدد البغال التى كسبتهم عسكر [ابن] عبدالمؤمن مائة ألف وخمسة وعشرون ألف بغلٍ ، وعدد الخيل ستون ألف حصان، ومائة ألف حجرة(٤) . وأن ألفنش بعد هذه الكسرة دخل طليطلة فى سبع نفر .

قال ابن واصل : فى هذه السنة كان دخول العادل إلى الديار المصرية ورجوع الأفضل إلى دمشق .

وفيها ــ أعنى سنة إحدى وتسعين وخمس مائة ــ عزل القاضى ابن عصرون . وولى القضاء بالديار المصرية القاضى زين الدين يوسف الدمشقى .

(١) كذا فى المتن ، ولعل صحتها: «لبعض حاشيته فقتله» . وجاء أمامها فى هامش الورقة : قال ابن واصل : وفيها قتل بكتمر صاحب أخلاط ،قفز عليه باطنىفقتله. انظر (مفرج الكروب، ج ٣ ص ١٩) .

(٢) مابين حاصرتين من النجوم الزاهرة لأبى المحاسن، ج ٦ ص ١٣٧ . ويعقوب بن يوسف هذا هو ثالث الخلفاء الموحدين بالمغرب (٥٨٠ هـ ــ ٥٩٥ هـ) .

(٣) يقصد الفونس التاسع ملك قشتالة ، وهذه الموقعة هى موقعة الأرك (Alarcos) سنة ٥٩١ هـ (١١٩٥ م) ، انظر (Cam. Med. Hist. vol 6, p. 409) .

(٤) الحجرة : الأنثى من الخيل (القاموس المحيط) .

ذكر سنة اثنين وتسعين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم ستة أذرع وسبعة وعشرون أصبعا . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا وثمانية عشر أصبعا .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين، نافذ الأمر، مستمر الأحكام فى أقطار ممالك الإسلام ، خلا الغرب فإن [يعقوب بن يوسف بن] عبد المؤمن فيه ، يدعى بأمير المؤمنين . .

وفى أول هذه السنة عزل القاضى ابن عصرون .

وفيها استعلت كلمة الملك العزيز ، واجتمعت عليه الأمراء الكبار .

وقيل فى هذه السنة كان أخذ دمشق من الملك الأفضل، وتسليمها الملك العادل، وهو الصحيح .

وذلك أن الأمراء لما قووا عزم العزيز على أخذ دمشق ، وتوجه لأخذها من الأفضل ، وعلم الأفضل أن لا قبل له بالعزيز ، سير إليه يبذل له الأموال ، ويقول : « أنا أخطب باسمك ، وكذلك السكة ، وأكون نائبك » . فلم يقبل العزيز شيئا[(١)] من ذلك . فكتب الأفضل إلى عمه العادل وإلى إخوته الملوك يستجير بهم من العزيز . وتوجه الأفضل ونزل القصير لما بلغه قدوم العزيز . ثم ضاق ذرعه عن الملتقى[(٢)] ، فولى[(٣)] هاربا إلى رأس العين[(٤)] فلم يشعر إلا بالعساكر المصرية وقد أدركوه ،

---

(١) فى المتن : « شيء » .

(٢) فى المتن : « الملتقا » .

(٣) فى المتن : « فولا » .

(٤) رأس العين ، مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر ، (ياقوت ، معجم البلدان) .

فانهزم ، ودخل دمشق ، وتبعه العزيز . وكان ذلك يوم الجمعة لخمس بقين من جمادى الآخر . ولم يزل حتى حصره [العزيز] فى دمشق يوم وليلة ، فعندها وصل الملك العادل من الشرق فى اثنى عشر يوما[1] ، ودخل دمشق ، وكذلك الملك الظاهر صاحب حلب ، والملك المنصور صاحب حماه ، والملك المجاهد صاحب حمص ، والملك الأمجد صاحب بعلبك . ثم دخل الجميع دمشق إلى الأفضل . ثم كتبوا إلى العزيز يقصدوا الاجتماع به ، فاجتمعوا على سطح المزة وشفع العادل فى الأفضل عند العزيز ، فقبل ذلك ، وقال : « يا عم أنت الوالد بعد الوالد ، ولا نخرج عن ما ترسم به » . فلما رأى العادل حسن سياسة العزيز وغزارة عقله خطبه لابنته ، وقدمها له ، فكان الملك العادل الخاطب والملك العزيز المخطوب . ثم أصلحوا بين الملكين الأخوين ، وعاد كل ملك إلى بلاده . ثم تحرك أيضا الملك العزيز على الأفضل ، وعاد إليه قبل دخوله إلى الديار المصرية ، فإنه بلغه ممن يثق به أنه جهز عليه فداوية لقتله ، فبلغ الأفضل عودة العزيز إليه فخافه ، فركب بنفسه ، ولحق عمه العادل ، وسأله أن يقيم عنده بدمشق ، فعاد معه ، ونزل بدمشق . فلما بلغ الأمراء الكبار استقرار العادل بدمشق ــ وكان قد حصل لهم وحشة من العزيز ــ مالوا بأجمعهم إلى العادل . فلما حصل ذلك خشى العزيز على نفسه ، فعاد إلى مصر ، وأخذ بقلوب من بقى من الأمراء الأسدية ، وأحسن إلى الجند ، وأنعم إنعاماً كثيرا ، واستقر حاله .

واتفق العادل والأفضل على طلب العزيز ، فتوجهوا ، وإلى مصر قصدوا ، فلقيهم الأمير حسام الدين بن أبى الهيجاء ، وقال : « حثوا المسير فإن الأمراء المصريين كلها معكما » . ثم ورد من العادل رسول على العزيز يستدعى القاضى الفاضل . وكان القاضى الفاضل قد انفرد بنفسه ذلك الوقت ، وانقطع فى داره ، لما رأى ماحصل من الخلف بين الإخوة . فلما وصل القاضى الفاضل تلقاه الملك العادل ملتقى حسناً ، وقال : « يا قاضى إنما جئت لأوفق بين الإخوة » . ثم وفق بينهما فى حديث طويل ، آخره أنه أخذ الأفضل وعاد إلى دمشق .

(١) فى المتن : « يوم » .

وقيل إنه دخل مصر ، ونزل فى القصر عند العزيز ، حتى اتفق معه ، وخرجا جميعا ، واستقلما دمشق من الأفضل ، وأنعما عليه بصرخد . وملّك العزيز لعمه العادل دمشق ، حسبما تقدم من الكلام فى هذا المعنى ؛ والله أعلم .

قال ابن واصل إن فى هذه السنة ــ أعنى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ــ كان أخذ دمشق من الملك الأفضل بسوء تدبير وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزرى . ولما وصل الملكان[1] العادل والعزيز لحصار دمشق ، كتب إليهما جميع الأمراء الذين كانوا بها بالتسليم كرهاً للوزير المذكور ، فلم يحتاجا لمدة حصار . ولم يقاتل فى ذلك اليوم غير الملك الظافر مع عسكرٍ بعثهم نجدة الملك الظاهر صاحب حلب . وجرح فى ذلك اليوم الظافر جراحا كثيرة. ولم تقم البلد إلا ساعة من نهار، ودخلها الملكان المذكوران[2]، وخرج الملك الأفضل صبيحة ذلك اليوم بأهله وأمواله ، وكانت ليست بشيء. واختفى الوزير ضياء الدين فى بعض صناديق الأفضل ، ثم هرب إلى الموصل بأموالٍ جمة . وتوجه الأفضل وصحبته أخوه الملك المفضل قطب الدين إلى صرخد ، واستقرا بها . وكان دخول العزيز إلى دمشق رابع شعبان . وأخذت أيضا بصرى من الظافر ، وتوجه إلى أخيه الظاهر بحلب .

وسلم الملك العزيز دمشق لعمه الملك العادل ، ورحل من دمشق عشية الاثنين تاسع عشر شعبان ، فكانت مدة إقامته بها أربع عشر يوما .

وكانت مدة ملك الملك الأفضل دمشق ثلاث سنين وأشهرًا . واستقرت الخطبة والسكة بدمشق وأعمالها للملك العزيز ، والملك العادلُ يظهر أنه نائب[3] له بها إلى أن استقام له الأمر ، حسبما يأتى من ذلك[4] .

---

(١) فى المتن : « الملكين » .

(٢) فى المتن : « ودخلاها الملكين المذكورين » .

(٣) فى المتن : « أنه نائبا » .

(٤) انظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ص ٥٠ ــ ٦٧ .

ذكر سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم خمسة أذرع وخمسة وعشرون أصبعا . مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا وأصبعان .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، نافذ الأوامر ، مستمر الأحكام ، مُطاع فى سائر الممالك الخليفتيه الناصرية بالأرض . والملك العزيز بمصر .

وفيها سيّر [العزيز] إلى جميع الملوك من إخوته ، بالممالك الشامية ، القاضى ناصح الدين الطالقانى — قاضى العساكر — وصحبته الأمير علم الدين — غلامه — وأمرهم أن يخطبوا له فى منابر ممالكهم وبلادهم ، وأن يُنقش اسمه على الدينار والدرهم ، فامتثلوا ذلك . وسير عسكر مصر إلى خدمة عمه الملك العادل .

وفتح قلعة يافا واستعادها من الفرنج[١] .

وفيها أنشأ الأمير فخر الدين أياز جهاركس الناصرى الصلاحى القيسارية[٢] بالشرابشيين[٣] بالقاهرة المعزية .

قال ابن واصل : وفى سنة ثلاث وتسعين توفى سيف الإسلام صاحب اليمن ، فى شهر شوال منها . وكان يلقب بالملك العزيز ، ومدحه فى حياته [شرف الدين ابن عُنَيْن بقصيدة منها[٤] :

دمشق وبى شوق إليها مبرِّحُ ... وإن لام واشٍ أوْ ألحَّ عذول
بلاد بها الحصباء دُرٌّ وتربها ... عبير وأنفاس الشمالِ شمولُ
تسلسل منها ماؤها وهو مطلق ... وصح نسيم الروْض وهو عليلُ

(١) ذكر ابن واصل (مفرج الكروب ج ٣ ص ٧٥) أن العادل هو الذى فتح يافا ، وأن العزيز خرج من مصر إلى الشام بعد فتحها .

(٢) عن هذه القيسارية وتاريخها ، انظر : المقريزى ، المواعظ ، ج ٢ ص ٨٧ وما بعدها .

(٣) فى المتن : « الشرابشين » .

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ص ٧٢ .

ومنها:

وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ورأىُ ظهير الدين فىَّ جميـــلُ ؟
بنى المجـــد أمَّا جارُه فممُنَّع عزيز ، وأما جنـــده فذليـــلُ
وأمـــا عطايا مـــاله فمباحـــة عِـذاب ، وأمـــا ظِلُّه فظليـــلُ

وقام بعده بمملكة اليمن ولده إسماعيل ، ولقب المعز لدين الله ، آخر وقت ، وخطب لنفسه بالخلافة ، وادعى أنهم من بنى أميّة . وكان فى عقله ضعف ، وقد تقدم ذكر ذلك .

وفيهـا توفى عماد الدين [زنـكى بن مودود] صاحب سنجار ، وقام ولده قطب الدين محمد مكانه[1] .

(١) ابن واصل ، مفرج الـكروب ، ج ٣ ص ٧٨ .

ذكر سنة أربع وتسعين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم أربعة أذرع وعشرون أصبعا . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا وستة عشر أصبعا .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، مستمر الأحكام ، مطاع الأمر ، والملك العزيز صاحب مصر ، وكذلك بقية الملوك .

وفيها نزلت الفرنج ــ خذلهم الله تعالى ــ على تبنين[1] ، وحاصروها[2] . فلما بلغ الملك العزيز ذلك ، خرج بالجيوش لدفعهم عنها . فعندما أطلت أعلامه عليهم رحلوا عن البلد صاغرين . وكان الملك العادل عنده ، قد أتاه زائرًا لابنته زوجة العزيز .

وفى هـذه السنة كانت الوقعة العظيمة بين السلطان غياث الدين محمد بن سام وأخوه شهاب الدين الغورى ، وبين ملك الهند . وذلك أن شهاب الدين الغورى كان قد كُسر قبل ذلك من ملك الهند . ثم إنه اتفق مع أخيـــه صاحب الغور وسارا طالبين[3] ملك الهند ، فلما قاربا ، قال رجلٌ شيخٌ لشهاب الدين الغورى: « لا ينبغى أن تقدم عليهم فى بلادهم مع كثرتهم ؟ وقد جرى لك معهم ما جرى[4] » . فقال : « والله إنى منذ كسرونى ما نمت مع زوجتى، ولا غيرت ثياب البياض ، وها أنا سائر إليهم ومعتمدًا على الله عز وجل ، وإن نصرنى نصر دينه ، وكان ذلك من فضله ، وإن هزمونى فلا تطلبونى فإنى لا أنهزم بل أموت كريمًا » . فلما قاربهم خرجوا إليه ، فأظهر الهزيمة، وهم فى أثره إلى أن قاربوا بلاد الإسلام. ثم عبأ أصحابه فى بعض الليالى،

(١) فى المتن : « تنيس » وهو تحريف .

(٢) فى المتن : « وحاصروا » وهو تحريف .

(٣) فى المتن : « طالبان » .

(٤) فى المتن : « جرا » .

وكبسهم بغتةً ، فقتلهم قتلًا ذريعاً ، إلا من هرب منهم . وكانت نصرة عظيمة . وهذه الوقعة لم يكن ملك الهند فيها . فلما بلغه ما جرى[1] على أصحابه جمع جيوشه ، وكان فى جملتها سبع مائة فيل حربية ، وعدة جيشه ألف ألف مقاتل . وقصد بلاد الإسلام ، فسار شهاب الدين الغورى من غزنة لملتقاه ، وكان فى مائة ألف وعشرين ألفا ، والتقيا . وصبر المسلمون على قتال المشركين ، ونصر الله دينه ، وخذل الكفرة عُبّاد النار والأحجار . وكثر القتل فيهم حتى امتلأت تلك الصحارى والفلوات . وأما الأفيلة فقتل بعضها ، وانهزم بعضها . وقتل ملك الهند فى تلك الوقعة . ثم إن شهاب الدين دخل إلى عظيم بلاد الهند وملكها ، وحمل من خزائنها ألف وأربع مائة حملًا ذهباً ، وعاد إلى غزنة وصحبته الأفيلة برجالها ، وفيهم فيل أبيض . وحكى ابن واصل فى تاريخه عن الشيخ تاج الدين بن الساعى أن هذا الفتح كان فى سنة تسعين وخمسمائة .

ولما اتفق الملك العزيز والملك العادل على إخراج الملك الأفضل من دمشق ، ونفيه إلى صرخد ، كتب [الأفضل] إلى الإمام الناصر يتظلم منهما ، ويقول :

مولاى : إن أبا بكرٍ وصاحبه عثمان أحاطا بالسيف إرث على
فانظر لصاحب هذا الاسم كيف لقى من الأواخر ما لاقى من الأولى[2]

وهذان البيتان ضمنهما آخر مطالعته للإمام الناصر فأجابه فى آخر مكاتبته :

وافى[3] كتابك يابن يوسف معلناً بالودّ يخبر أن أصلك طاهرُ

---

(١) فى المتن : « ماجرا » .

(٢) جاء فى الهامش أمام هذه الأبيات ما يلى : « ومن شعر الأفضل فى المعنى :

أما آن للسعد الذى أنا طالب لإدراكه يوما يرى وهو طالبى
ترى يرينى الدهر أبدا شيعتى بتمكينى يوما من نواصى النواصب

قلت : يريد بقوله الشيعة أصحابه ، لأن اسمه على ، وبالنواصب أصحاب العادل ــ لأن اسمه أبو بكر ــ والملك العزيز عثمان » .

(٣) فى المتن : « وافا » .

غصبوا عليًّا حقـــه إذ لم يكن   بعـــد النبىّ له بيثرب ناصرُ
فاصبر فإن غـــدا عليه حسابهم   وابشر فناصرك الإمـــام النّاصرُ

ثم لم يزل الأفضل مُهَجّجاً من كل مكان حتى ملك فى آخر وقت مدينة سميساط[1]. ومات بها فى تاريخ ما يأتى ذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى المتن : شميصات .

ذكر سنة خمس وتسعين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم أربعة أذرع وعشرون أصبعاً . مبلغ الزيادة اثنا عشر ذراعا وأحد وعشرون أصبعاً .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، نافذ الأمر ، مستمر الحكم .

وفيها توفى الملك العزيز ـ رحمه الله ـ ليلة الحادى والعشرين من المحرم .

ذكر تملك المنصور بن الملك العزيز

هو ناصر الدين محمد الملك المنصور بن عماد الدين عثمان الملك العزيز بن السلطان صلاح الدين . وباقى نسبه قد تقدم .

كان ولى عهد أبيه[1] فى حياته . فلما توفى والده ، جلس بمملكة الديار المصرية فى تاريخ وفاة أبيه ، وعمره يومئذٍ تسع سنين وشهوراً .

وكان سبب وفاة الملك العزيز أنه خرج إلى الصيد بناحية الإسكندرية ، وأمعن فى البرية لصيد الغزال ، فساق ، فتقنطر من على جواده . ثم عاد إلى منزلة الأهرام ، فأقام بها ثلاثة أيام ، وتوفى إلى رحمة الله تعالى. وكان ملكاً جواداً ، سمحاً ، شجاعاً ، مقداماً ، صاحب رياسة وسياسة وعقلٍ وافرٍ ، وتدبيرٍ حسنٍ ، كثير الحياء والعدل ، والإنصاف والرفق ، والإحسان إلى الرعية . وكانت الرعايا يحبونه محبةً عظيمةً .

وكان قبل وفاته قد تحركت الفرنج حركة عظيمة ، وعزموا على أخذ الساحل من المسلمين ، مع الشام كله . وخرج الملك العادل إلى مقابلتهم . ونفّذ يطلب النجدة من العزيز ، فسير إليه العساكر فى جمعٍ كبيرٍ . ووصل إلى خدمته سنقر الكبير صاحب القدس ، وميمون القصرى صاحب نابلس ، وعدة أمراء ملوك . واجتمعوا ونزلوا

---

(١) فى المتن : « أبوه » .

على تل العجول[١] . ثم إن العادل نزل على يافا وحاصرها ، وأخذها بالسيف عنوة ، وقتل كل من كان بها ، وغنم منها غنائم كثيرة . ثم إن الفرنج ـ خذلهم الله ـ نزلوا على تبنين فبادرهم[٢] حسام الدين سامه[٣] وتبعتهم الجيوش الإسلامية . فلما كان نصف الليل هربت الملاعين . ثم لم يزل الملك العادل يغزو فيهم حتى أقلقهم ، وسألوا المهادنة، ووقعت الهدنة بينهم إلى مدة ثلاثة شهور بعد ثلاث سنين . ثم رحل العادل إلى الشرق ، ونزل على ماردين ، وأخذ ربضها، وكان بها نائباً يقال له نظام الدين[٤] . وكان قد كتب إلى العادل يستدعيه لأخذها بعد موت عز الدين صاحبها ، كما تقدم من الكلام فى ذلك . ثم إنه ندم على مكاتبة العادل ، وسوّف ، وظهر محاله وكذبه . وسير العادل ، وطلب العساكر من الملوك أولاد أخيه ، فحضروا إليه وجدّ فى حصار ماردين . ثم وقع فى الخيل مرض الطابق[٥] . ولم يزل يجد فى أمر الحصار حتى فتحها وعاد إلى الشام .

وفيهــا توفى الملك العزيز[٦] سيف الإسـلام [ظهير الدين] طغتكين صاحب اليمن .

وفيها توفى الأمير نجم الدين النورى صاحب شغربكاس[٧] والشقيف ، وهـذه الحصون كان أنعم عليه بها السلطان صلاح الدين ـ أستاذه ـ فى حال حياته .

(١) قرب غزة .

(٢) فى مفرج الكروب لابن واصل (ج ٣ ص ٧٥) : « وكانت بيد حسام الدين » .

(٣) كذا فى المتن ، وفى مفرج الكروب لابن واصل : « بشارة » .

(٤) كان صاحب ماردين هو حسام الدين يولق أرسلان بن إيلغازى بن ألبى الأرتقى ، ومدبر مملكته هو نظام الدين الذى كتب إلى الملك العادل يستدعيه ليسلم إليه ماردين ويأخذ منه عوضا عنها. انظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ص ٨٠ .

(٥) يقال جمل طباقاء أى عاجز عن الضراب (تاج العروس ولسان العرب) وطابق الفرس فى مشيه أو جريه مطابقة وطباقا أى وضع رجليه موضع يديه.

(٦) فى المتن : « الملك العز » والتصحيح من وفيات الأعيان لابن خلكان (ج ١ ص ٢٣٧).

(٧) الشغر بضم أوله وسكون ثانيه ، قلعة حصينة مقابلها أخرى يقال لها بكاس ، على رأس جبلين بينهما واد كالخندق ، وهما قرب أنطاكية ، (ياقوت ، معجم البلدان) .

ولما استقر الملك المنصور بن العزيز بالمملكة ــ وهو إذ ذاك طفل ــ نفذ إلى عمه الملك الأفضل فأحضره من صرخد ، وجعله أتابك جيوشه ، خوفاً من العادل عم أبيه. وقيل إن ذلك كان بوصيةٍ من العزيز له .

وكان دخول الأفضل القاهرة فى شهر ربيع الأول . وفى يوم وصُوله إلى بلبيس ورحيله متوجهاً إلى القاهرة انفصل أياز جهاركس ، وسرا سنقر ، وقراجا الكبير ، من الخدمة بديار مصر ، وتوجهوا إلى القدس ، وأقاموا به عاصين على الأفضل ، وكاتبوا الملك العادل .

وفيها عزل القاضى زين الدين عن الحكم .

وفيها توجه ألطنبا الجحاف مع جماعةٍ من الأمراء المصريين إلى الشام ، ولحقوا بمن تقدمهم .

وفيها تجهز الأفضل ، وخرج بالعساكر المصرية إلى الشام ، لمحاصرة عمه العادل .

وفيها قبض [الأفضل][1] على أخيه المؤيد [مسعود][2] مع جماعةٍ من الأمراء المصريين ، وأودعهم الاعتقال .

وقيل إن العادل كان بالشرق ، وولده الكامل بدمشق . فلما بلغ العادل توجُّه الأفضل من الديار المصرية إلى نحو الشام ، خشى على ولده ، وأن تؤخذ دمشق ، فساق فى خيل يسيرة جريدة ، فوصل فى إحدى عشر يوماً[3] . ودخل دمشق قبل وصول أحدٍ إليها ، وأمر الكامل أن يتوجه إلى الشرق ، ويكون على يقظة من أمره، وذلك فى ثالث شعبان من هذه السنة . ثم إن الأفضل زحف إلى دمشق ، وجرى[4] بينهما قتال عظيم ، وحرب شديد ، وقتل من الفئتين خلق كثير . واستظهر الأفضل ، ولم يبق إلا أخذ دمشق ، وتحصّن العادل بالقلعة . ثم إن عسكر الأفضل تفرق ، ودخلوا دمشق من عدة أماكن ، وتفرقوا للنهب ، فنزلت الأمراء العادلية ،

(١ ــ ٢) مابين حاصرتين تكملة من مفرج الكروب لابن واصل ، ج ٣ ص ٩٤ .
(٣) فى المتن : « يوم » .
(٤) فى المتن : « جرا » .

والملك العادل بنفسه، وغلقوا أبواب دمشق. ووقع السيف فى جماعة عسكر الأفضل ممن دخل دمشق ، فقتل جماعة كبيرة ، وعرّوا الباقى وأطلقوهم ، فعند ذلك تأخر الأفضل ونزل الكسوة[١] ، وعاد العادل محصوراً[٢] طول بقية هذه السنة .

وفيها كان بمصر غلاء شديد ، بلغ القمح فيها ثمانين درهما[٣] الأردب ، والشعير والفول أربعين درهما[٤] .

(١) الكسوة ، بضم الكاف ، قرية هى أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر ، (ياقوت ، معجم البلدان) .

(٢) فى المتن : « محصور » .

(٣ ـ ٤) فى المتن : « درهم » .

ذكر سنة ست وتسعين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم ثلاثة أذرع وأربعة وعشرون أصبعا . مبلغ الزيادة اثنا عشر ذراعا وعشرون أصبعا .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، مستمر الأمر ، نافذ الحكم . والملك المنصور بن العزيز صاحب مصر . وأتابك جيوشه الأفضل عمه . والملوك من أولاد السلطان صلاح الدين على ممالكهم ، وهم فى معونة الأفضل على حصار العادل عمهم بدمشق .

وفيها وصل الملك الكامل من الشرق بجيوشٍ كثيفة ، لنجدة أبيه العادل . وكان سبب وصُوله وقدومه مكاتبة أبيه له ، يحثه على حشد الجيوش ، وسرعة قدومه إليه ، ليستنقذه مما هو فيه من الأفضل وإخوته . وذلك أن العادل ضاق ذرعه من الحصّار وعدم القوت بدمشق ، وفارقه جماعة من أصحابه . فلما ضاق به الأمر طلب الأسرى[1] الذين كانوا عنده من الفرنج ، وقال : « أسلم إليكم هذه البلد وتعطونى الكرك بجميع ما فيها » ، فلم يوافقوه على ذلك . ثم شاور كبار خاصته ، فقالوا : « ابعث إلى ولدك يأتيك بالأموال والرجال » . فكتب إلى ولده الكامل أن يحصّل جميع ما أمكنه من الأموال والرجال ، ويسرع فى الحضور . وكتب إلى النائب بقلعة جعبر[2] أن يسلم للكامل جميع ما فى الحصن من الأموال والسلاح .

ولما وصل الكامل بتلك الأموال والجيوش ، اطمأن قلب الملك العادل ، وعلم أنه قد استقر حاله . ثم حصل الخُلف بين الأفضل وأخيه[3] الظاهر صاحب حلب ،

---

(١) فى المتن : « الأسرا » .

(٢) جعبر ، بالفتح ثم السكون ، قلعة على الفرات بين البالس والرقة قرب صفين، كانت قدي تسمى دوسر (ياقوت ، معجم البلدان) .

(٣) فى المتن : « وأخوه » .

وانفسد الحال على الأفضل ، ورحلت الملوك من عنـــده ، وطلب كل أحدٍ بلاده ورحل الأفضل خائباً ، هارباً ، طالباً للديار المصرية . وخرج العادل فى أثره بالجيوش .

وكان الأفضل قد وصل إلى القاهرة وأصلح حاله ، وخرج لملتقى[1] العادل ، فالتقيا على الصالحية ، وانـكسر الأفضل كسرة عظيمة لا جبر لها . ودخل القاهرة فى نفرٍ قليل . وأقام العادل على الصالحية ، وسير إلى الأفضل رسُول يقول له : « أنت تعلم أن مصر إقليم عظيم ، وله فى أنفس الناس ناموساً عظيماً ، فالله الله لا تحوجنى أخذها منك بالسيف ، فيكون ذلك نقصاً فى حق هذا الإقليم، فارحل عنها إلى مكانك بصرخد ، وأنت آمن على نفسك ومالك وحريمك » . فقبل الأفضل ذلك ، ورحل إلى صرخد ، بالرغم منه .

وكان [أن] أعطاه العادل فى الصلح ميافارقين وعدة بلادٍ ، وقع اليمين عليها . ثم انتقض الحال فى أمر البلاد المذكورة ، ولم يستقر للأفضل غير صرخد فقط .

ودخل الملك العادل إلى مصر سلطاناً مستقلًّا ، وهو السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب، وباقى نسبه قد عُلم . استبد بالملك بالديار المصرية والبلاد الشامية بدمشق وأعمالها ، وممالك الشرق التى كانت فى يده قبل ذلك من حياة أخيه السلطان صلاح الدين ، رحمـه الله . وملك جميع ذلك فى هذه السنة المذكورة ، وقام بالملك أحسن قيام، ونظم الأحوال أحسن نظام،ومشى على ما كان عليه أخوه السلطان صلاح الدين ، رحمه الله. وأقام بالديار المصرية بقية هذه السنة، ثم أقام بها الملك الـكامل، وتوجه [العادل] إلى بلاد الشرق حسبما يأتى من ذكره .

قال ابن واصل : إنمـا كان دخول العادل إلى الديار المصرية أولًا أتابكاً للملك المنصور . ثم استقبح ذلك فاستبد بالأمر ، وقام بأمر السلطنة ، فلذلك حصلت الوحشة من الأمراء الصلاحية ، وخرجوا عن طاعة الملك العادل خيفاً من ذلك[2] .

وفيها توفى القاضى الفاضل ، رحمه الله تعالى .

---

(١) فى المتن : « للتقا » .

(٢) انظر مفرج الـكروب ، ج ٣ ص ١١٠ .

ذكر القاضى الفاضل وفِقرٍ من ترسّله

هو القاضى الفاضل عند اسمه ، الآخذ من درجة السبق فى الفضيلة بأوفر من نصيبه وقسمه ، عبد الرحيم بن على البيسانى . قال : « أنفذنى والدى من عسقلان إلى الديار المصرية أيام الفتنة بوزارة شاور، وكتب على يدى كتاب إلى صاحب ديوان الترسل ، وكان يعرف بابن الخلال[1] . فلما مثلت بين يديه ، وقرأ الكتاب، وفهم أنى من طَلَبة علمه قال لى: «ياولدى ما الذى اعتدته وحصلته لهذه الصناعة ؟» قلت: «حفظ كتاب الله العزيز وكتاب الحماسة». قال: «إن فيهما لكفاية، مع ما أرى من نجابتك». ثم ترقت به الأحوال إلى أن صار منه ما شاع وذاع ، وشنف بذكر محاسنه الأسماع .

وإن كان آخر فقد تقدم بفضله على الأوائل ، وعبر على وجه قس وسحبان وائل . لا أعلم بالمشرق والمغرب مثله ، وعنوان عجائبه مثل قوله : ووافينا قلمة نجم وهى نجم فى سحاب ، وعقاب فى عقاب ، وهامة لها النهامة عمامة ، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة . قلت : ما أحسن هذا الحل بالمعنى . وبعض اللفظ من قول ابن المعتز :

ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا ... مثل القلامة قد قدت من الظفر

فإن حل المنظوم على ثلاثة أضربٍ ؛ الأول ـ وهو أقلهم رتبة ـ وذلك أن تحلّه بمعناه ولفظه ؛ والثانى أعلى منه رتبة أن تحل ببعض لفظه وبمعناه ؛ والثالث أن تحل بالمعنى دون اللفظ ، وهو أفضل الثلاث ، والله أعلم .

نقلت من خط القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ـ رحمه الله ـ يقول : نقلت من خط الأشرف بن الفاضل ـ رحمه الله ـ قال : اختار الله لجدى ـ رحمه الله ـ جواره ليلة الأحد الحادى عشر من شهر ربيع الأول، سنة ست وأربعين وخمسمائة. واختار الله

---

(١) فى المتن جاء الاسم غير منقوط . وهو يوسف بن محمد المعروف بابن الخلال الملقب بالموفق صاحب ديوان الإنشاء بمصر فى دولة الحافظ الفاطمى. وتوفى ابن الخلال بعد تملك الناصر صلاح الدين مصر بثلاث أو أربع سنين ، انظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ٤٠٧ ـ ٤٠٩ .

لعمى السعيد أبى الحسن جواره ليلة الجمعة الثانى والعشرين من جمادى الآخرة ، سنة تسع وخمسين وخمسمائة بالقاهرة، ودفن بسارية[(١)]. واختار الله لعمى الفتح جواره بالإسكندرية ليلة الثلاثاء تاسع وعشرين شعبان سنة أربع وتسعين وخمسمائة . واختار الله لسيدى والدى رحمه الله ـ يعنى الفاضل ـ جواره ليلة الأربعاء السابع من شهر ربيع الآخر سنة ست وتسعين بالقاهرة ، ودفن بسارية .

ومن فِقَر القاضى الفاضل رحمه الله ـ وهو من باب المرقص فى النثر ـ « لبد الماء فى اللبابيد فثقل وزنها ، وانعكس فيها التشبيه فصار كالجبال عهنها » .

وقوله فى فتح طبرية : فلما نظر إليها مالكها، وقد جعلنا عاليها سافلها ، وأيقظنا بصياح السيف نائمها ، وأنبهنا غافلها ...

وقوله : وافى الأصطول الميمون فى خمسين غرابا طائراً من القلوع بأجنحته ، كاسرا بمخاليب أسلحته ، فما وافى شملًا إلا دعاه إلى الحين ، وحقق ما يُعزى إلى غراب البين .

وقوله : وأخذنا بالحزم ، فسرنا إليهم سُرى الطيف ، واختطفناهم قبل بكور الغراب بمنشر الرمح ، وخناج[(٢)] السيف .

وقوله : من حمل السنين ثقلت على ظهره ، ومن قصرت خطاه اتسعت إلى قبره . وقوله : وقد أثر هذا البيكار فى استطاعتهم لا فى طاعتهم . وقوله فى التوسط بين الإخوة الملوك ـ وهما العزيز والأفضل ـ حسبما تقدم من ذكرهم : وما أدخل بينكم إلا كدخول الميل بين الأجفان يرُد إليها ما ذهب من الغمض ، وكالنسيم بين الأغصان يميلها ويعطف بعضها على بعض .

وقوله فى ملك الاسبتار[(٣)] : جهول ، عجول ، ما أدبه الوالدان ، ولا أخلقته

---

(١) سرى يسرى بالكسر ، أى سار ليلا وفى القرآن الكريم « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا » ، والمقصود بعبارة « دفن بسارية » أى دفن ليلا .

(٢) كذا فى المتن .

(٣) يقصد الاسبتارية Hospitallers وهم طائفة من الرهبان الفرسان الذين لعبوا دورا خطيرا فى تاريخ الحركة الصليبية بوجه خاص وتاريخ العصور الوسطى بوجه عام ، انظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية (جزءان) .

الجديدان ، أرعن من سكر الحداثة ، مقسم الرأى ، وكيف لا يكون مقسمه وهو عابد الثلاثة .

وقوله فى الدعاء للسلطان : جعل الله الأرض التى يملكها منقلة ، والأرض التى يطؤها مقبلة ، والأرض التى يجر عليها عسكره مثقلة ، والأرض التى يلقى[1] فيها أعداءه[2] مقتلة .

وقوله فى أمثاله : عضة المحبّ ولا قبلة الجانى !

وقوله : الركوب على الخنافِس ، ولا المشى على الطنافس !

وكتب إلى السلطان صلاح الدين من مصر فى أثناء مكاتبة ، وذَكَر النيل ، وعرَض بما أظهره الملك العزيز ولده من تأمين السبل فقال : وأما النيل ، فكما قال جميل ، قد امتدت أصابعه ، وتكسرت بالموج أضالعه ، واحمرّ صفحه الحاكى مَذاقُه جنى[3] النحل ، فكأنه سيف ظل به دم المحل . وحيثما توجه المسافر يلقاه ، وليس بمصر قاطع طريق سواه .

وكتب إلى عامل تُشُكِّىَ منه : وقد وصل أهل عملك ، يشكون سوء عملك ، فإن كان الاختيار صدفك فإن الاختبار صرفك .

ولهُ فى جملة رسالة يقول : ولو كاتبت سيدنا بمقدار شوق إليه لأضجرته ، ولو أغببته بقدر ثقتى به لهجرته .

ومن مليح شعره وقد أعرقته الحمى[4] يقول :

لا تنكروا عرق المريض فإنه لضرورةٍ أمست إليـه داعية
فلكل عضوٍ مقلة من حقها طول البكاء على فراق العافية

---

(١) فى المتن : « يلقا » .
(٢) فى المتن : « أعداؤه » .
(٣) فى المتن : « جنا » .
(٤) فى المتن : « الحماء » .

وقوله فى الغزل :

ولما بدا خط بخد معــذبى كظلمة ليلٍ فى ضياء نهارِ
خلعت عذارى فى هواه ولم أزل خليع عِذارٍ فى جديد عِذار

قلت : وقفت على ترسل ابن الصيرفى المصرى ـ وكان إمام الكتاب بالديار المصرية فى المائة الخامسة ـ ولعل الحاذق الفطن إذا أمعن النظر فى ترسّل هذا الرجل المذكور ، يَجد القاضى الفاضل مستمدًّا منه .

ومن مليح ترسله قوله : وجاءت غربان الماء تحكى قطع السحاب فى أديم السماء ، يحسب الناظر أنها ركائب قد طفت فى بحر السراب ، أو جفون محدقة والمجاديف لها أهداب .

ونظرت فى مجموع بيتين فى غاية الرقة . يقول جامعه: هو[1] لابن الصيرفى ـ فما أعلم هو هذا ابن الصيرفى أم غيره ـ وهما :

توهمه قلبى فأصبح خده وفيه مكان الوهم من نظرى أثرُ
ومرّ بقلبى خاطراً فجرحته ولم أرَ جسماً قط يجرحه الفكرُ

ومن المحفوظ فى المعنى :

نظرت إليه نظرةً فتحيَّرت دقائق فكرى فى بديع صفاتهِ
فأوحى إليه القلب أنى أحبه فأثّر ذاك الوهم فى وجناتهِ

ومن المحفوظ أيضاً :

دعوت بماء فى إناء فجاءنى غلام به خمر فأوسعته زجرَا
فقال هو الماء القراح وإنما تجلَّى[2] له خدى فأوهمك الخمرا

ومن المحفوظ أيضاً :

وقد كنت مستغنٍ بلحظك وحده فكيف وفيه سبعة خيرها شرُّ
سقام وأسد ضاريات وأسهم وسُمر القنى والسحر والسيف والخمرُ

(١) فى المتن : ولابن.
(٢) فى المتن : « تجلا » .

فماذا تقل فيمن حوى فيك أربع ... بواحدةٍ منهنّ ينفطر الصخرُ
فأيامه سُود وبيض لحـــاظه ... وأضلمه صفر وأدمعـــهُ حمرُ

ومن المحفوظ أيضاً :

كأن فى فِيــهِ خمّارًا ولآّلا ... وبين جفنيـــه نفاثاً ونبّالا
منوّع الحسن يُبدى من محاسنه ... لأعينِ النـاس أصنافاً وأشكالا
فلاح بدرًا ووافى دُميةً ورنا ... سيفاً وماج نقاً واهتز عبيالا[1]
وافترّ درًّا وغـنّى[2] بلبلًا وذكا ... مسكاً وعَنّ طُلًا وازورّ ريبالًا[3]

ومن المحفوظ أيضاً فى ساقٍ لسيف الدين المشدّ :

ساقٍ تجلّى[4] كأنه قمر ... على قوامٍ أفديه من ساق
لمـــا رآنى وقد فتنت به ... من عظم وجدى وفرط أشواق
شمّر عن ساقه غـــلائله ... فقلت مهلًا واكفف عن الباق
غنى[5] وكاس المدام فى يده ... قامت حروب الهوى على ساقِ

ومن ذلك فى المعنى :

لم أنسهُ إذ قام يكشف عامدًا ... عن ساقه كالجوهر البرّاق
لا تعجبوا أن قام فيه قيامتى ... إن القيامة يوم كشف الساق

* * *

ولنعود الآن إلى سياقة التاريخ بعون الله تعالى ، وحسن توفيقه . وإنما قصدنا بإثبات هذه المقطعات لتنشيط القارئ ، ولا يملّ ويسأم من فنٍّ واحدٍ ، فإذا خرج به شجُون الحديث من فنٍّ إلى فنٍّ ، كان لزناد فكرته أقدح ، ولطير نظرته أصدح.

---

(١) العبيلة : الغليظة (القاموس المحيط) .

(٢) فى المتن: « غنا » .

(٣) الريبل : الناعمة من النساء (لسان العرب) .

(٤) فى المتن : « تجلا » .

(٥) فى المتن : « غنا » .

قال الإمام علىّ ـ كرّم الله وجهه ـ : « إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد ، فابتغوا لجلائها طرائف الحكم » .

وقال سيدنا رسُول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن من الشعر لحكمة ، وإن من البيان لسحرًا » .

* * *

وفى هـذه السنة اشتد الغلاء بمصر ، وبلغ الأردب القمح مائة درهم ، والشعير والفول من خمسين إلى ستين ، فنعوذ بالله من أمثالها .

وفيها خُطب باسم الملك الكامل ناصر الدين محمد مع اسم أبيه الملك العادل سيف الدين أبو بكر بالديار المصرية ؛ ونقش ذلك على الدينار والدرهم .

وفيها عزل القاضى زين الدين ، وأعيد إلى الحكم القاضى صدر الدين المقدم ذكره ، وكان وجيهاً عند الملك الكامل .

ذكر سنة سبع وتسعين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

المـاء القديم ذراعان فقط . مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعاً وستة عشر أصبعاً .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، مستمر الأمر ، نافذ الحـكم .

والسلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر وولده الملك الـكامل ، ملوك مِصر والشام بأعمال دمشق وما معها مع الشرق ، وما بأيديهما منه . وبقية المـلوك أولاد السلطان صلاح الدين فى بلادهم مستمرين الممالك بها . والغلاء مستمر بمصر .

وفيها احترق البحر احـتراقاً عظيما ، حتى نَشَف قدّام المقياس ، وحُفر قدامه ، وارتدمت طاقات الماء ، وجدد حفره ، وكان ارتدم من بحر مِصر شرق الجزيرة .

وفيها قبض السلطان الملك العادل على أولاد أخيه ؛ المؤيد والمعز ، واعتقلهما فى دار بهاء الدين قراقوش .

وفيها كثرت الفقراء والصعاليك بمصر والقاهرة ؛ وخلت الأرياف والضّياع ، واشتد بالناس الجوع،وأكل بعضهم بعضاً، وأكلوا الميتة،وفُرق بعضهم على الأغنياء. والتزم الملك العادل بمؤنة ستة آلاف نفرٍ . وكان يموت بمصر والقاهرة كل يوم ما يزيد عن الستّمائة والسبعمائة من الجوع .

وفيها لحق الملك الـكامل جدرى ، وعوفى منه .

وفيها خرج السلطان الملك العادل إلى البركة وخيّم بها ، لـما بلغه خروج الملك الظاهر صاحب حلب إلى منبج وملـكها . وتوجه إلى قلعة نجم وحاصرها. واختلفت الناصرية على الملك العادل.وبلغه أن الظاهر نزل على دمشق،فتوجّه العادل من البركة، ووصل نابلس ، وخيم بها . فلما بلغ الظاهر ذلك عاد إلى حلب . فنفّذ السلطان ولده الملك المعظم عيسى وقلده مملـكة دمشق . ثم توجه العادل ودخل الشرق ، واستولى على عدة ممالك ، وهم : حرّان ، والرها ، وسرُوج ، وجبل عوف ، وميافارقين ،

وسميساط[1]. وملّك ميافارقين لولده الملك الأوحد نجم الدين، وعاد السلطان إلى مصر.

وفيها اشتد بالناس الغلاء ، وهرب أكثر أهـل مصر إلى الغرب وإلى الحجاز واليمن والشام وتفرقوا أيدى سبا . وكان ذلك أعظم ممـا جرى فى زمان المستنصر فى سنة عشر السبعين والأربعمائة[2] حسبما ذكرناه فى سنيه .

وروى الناس من الثقاة ، أن فى هذه السنة كان يقوم الرجل فيذبح ولده الصغير ، وتساعده أمّه على طبخه ، ويأكلونه. ولما اطلع السلطان على ذلك ، مسك منهم جماعة فعلوه ، فأمر بحرقهم ، فأحرقوا بمشاهدة جميع الناس . وعادوا يفعلون ذلك ، مع من يقـدرون عليه وعلى تحصيله ، مثل طبيب يُدعى لينظر إلى مريضٍ ، فعندما يحصل فى الدار يثبوا عليه فيقتلونه ويأكلونه . وكذلك مثل مزين ، وجرائحى ، وسائر أرباب الصنائع ، الذين يستدعون إلى المنازل ليصنعوا شيئاً من صنائعهم ، فيفعلون به كذلك، وعادوا يختطفون الصغار والصبيان من الحارات والأزقة. وحُصر مَن كفّنه السلطان فى مدة عشرة أيام فـكانوا مائة ألف وعشرين ألف. وصلى خطيب الإسكندرية فى يومٍ واحدٍ على سبعمائة جنازة من أعيان الناس، خارج عمن لا يُعبأ به . وكان أشد الغلاء والوباء بالديار المصرية فى شهر رمضان ، بلغ فيه القمح سبعة دنانير مصرية الأردب ، والشعير والفول خمسة . ولا عاد يوجد شىء من سائر الحبوب ، وآلت مصر إلى الخراب الـكلى ، لولا لطف الله بعباده . وطلع نيلها فاطمأنت نفوس الناس قليلا .

وفيها كانت الزلزلة العظيمة فى شهر شعبان ، أتت من نحو الصعيد ، فعمت الدنيا فى ساعةٍ واحدة، وهدمت بنيان مصر ، حتى عدم تحت الهدم عالم عظيم . ثم وصلت بالشام والساحل ، وهدمت نابلس ، حتى لم يبق بها جدار قائم إلّا حارة السُّمرة .

---

(١) فى المتن : وشميصات .

(٢) يقصد الشدة العظمى أيام الخليفة المستنصر الفاطمى ، وقد استمرت من سنة سبع وخمسين وأربعمائة إلى سنة أربع وستين وأربعمائة (أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٣).

وهلك تحت الردم ثلاثون ألف إنسان. وكذلك هُدمت عكا وصُور، مع قلاع الساحل. وامتدت إلى دمشق ، فهدمت بعض المنارة بجامع بنى أمية ، وأكثر الكلاسة ، والبيمارستان النورى. وهرب الناس إلى الميادين. وسقط من الجامع ستة عشر شرافة، وانشقت قبة النسر[١] . وامتدت إلى بانياس وهونين . وخرج قوم من أهل بعلبك سائرين فى طريقهم ، فسقط عليهم جبلًا ، فهلكوا تحته . وهدمت أكثر قلعة بعلبك مع عظيم بنائها. وامتدت إلى حمص وحماة وحلب. وقطعت البحر إلى قبرص ، وانفرق البحر فصار أطوادًا ، وقذف بالمراكب إلى الساحل ، وتكسرت منه عدة مراكب . ثم وصلت إلى أخلاط وأرمينية وأذربيجان والجزيرة . ووصلت إلى العجم ، فأحصى من هلك فى بلادها تحت الردوم ، فقيل كان ألف ألف ومائة ألف . وكان قوة الزلزلة فى مبتدأ أمرها أقامت بقدر ما يقرأ الإنسان سورة[٢] الكهف ، ثم عاودت بعد ذلك أيامًا .

وفيها توفى الشيخ جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن بن على بن عبد الله بن حماد ابن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزى بن عبد الله بن القاسم بن النظر بن القاسم بن محمد ابن عبد الله بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه . وهو ابن الجوزى الواعظ المشهور . وقيل إن أباه توفى وتركه وهو ابن ثلاث سنين . وكان له عمة صالحة ، وكان أهله تجاراً فى النحاس . فلما كبر، حملته عمته إلى مسجد أبى الفضل ، وأسمعته الحديث . وقرأ القرآن، وعنى بأمره شيخه ابن الزعفرانى ، وعلمه الوعظ . واشتغل بفنون العلم ، وأخذ اللغة عن أبى منصور الجواليقى . وصنف الكتب فى فنون شتى ، وقيل بلغت مصنفاته نحواً من ثلثمائة كتاب . وحضر مجلسه الخلفاء والوزراء والعلماء والأئمة والملوك والأمراء . وأقل ما كان يحضر مجلسه عشرة آلاف نفرٍ . وأوقع الله له فى قلوب الناس المحبة والقبول

(١) قبة النسر : تقع قبلى جامع دمشق ، لها ثلاث منائر (محمد كرد على ، خطط الشام ، ج ٥ ص ٢٧٥) .

(٢) فى المتن : « صورة » .

والهيبة . وكان زاهداً فى الدنيا . وقال صاحب هذا النقل عنه أنه سمعه يقول: « كتبت بأصبعى هاتين ألفى مجلد». وتاب على يده ما يزيد عن مائة ألف إنسان . وأسلم على يده نيف وعشرة آلاف يهودى ونصرانى . وكان يختم القرآن فى كل سبعة أيام . ولا يخرج من بيته إلا إلى الجامع الجمعة ، أو عند ما يحضر مجلسه للوعظ . ولا رآه أحداً مازحاً قط ، ولا رُئى فى صباه يلعب قط . وهو صاحب كتاب التاريخ الكبير المسمى بمرآة الزمان ، جمع فيه من العجائب والغرائب ما نثرت منه جملةً فى هـذا التاريخ . رحمه الله تعالى ، وسائر علماء المسلمين .

وفيها توفى الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى ، وكان خادم أسد الدين شيركوه، عم السلطان صلاح الدين . وجعله السلطان صلاح الدين زمام قصره . وكان رجلا مسعُودًا ذو همة ، وهو الذى بنى(١) السُّور المحيط بمصر والقاهرة ، حسبما تقدم من ذكر ذلك . وبنى(٢) القناطر بالجيزة التى على طريق الأهرام . وعمّر بالمقسم رباط ، وبظاهر باب الفتوح خان سبيل . وله وقف كثير لايعرف الآن. وكان حسن المقاصد، جميل النية . وكان كما تقدم من الكلام أنه أُخذ أسيراً من عكا لما أخذها الفرنج ، فاشترى نفسه منهم بعشرة آلاف دينار . وقال القاضى بهاء الدين بن شداد فى سيرة السلطان صلاح الدين : أنه انفك من الأسر يوم الثلاثاء حادى عشر شوال سنة ثمان وثمانين وخمسمائة. قلت: والناس ينسبون إليه أحكاماً عجيبة فى ولايته ، وهى بالعكس مما يروونه عنه ، حتى أن الأسعد بن مماتى(٣) صنع جزءًا لطيفاً وسمّاه « الفاشوش فى أحكام قراقوش » .

وفيها توفى سقمان الملقب قطب الدين بن محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان ؛ صاحب آمد وحصن كيفا . سقط من سطح جوسق(٤) فمات . وملك أخوه محمود ، وكان شديد الكراهية له والنفور منه ، فملكه الله مكانه .

(١-٢) فى المتن : « بنا » .

(٣) هو القاضى الأسعد أبو المكارم المعروف بابن مماتى، كان ناظر الدواوين بالديار المصرية، وتوفى سنة ٦٠٦ هـ (ابن خلكان ، وفيات الأعيان) .

(٤) جوسق - وجمعه جواسق - القصر والقصور (سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص٤٠٦).

وفيها توفى القاضى عماد الدين الكاتب رحمه الله . وكان جامعا لفنون كثيرة من الأدب والفقه والخلاف والتاريخ . وله النظم البديع والنثر الفائق . وكتب لنور الدين الشهيد وللملك الناصر صلاح الدين ، ونال عندهما المنزلة العالية . وله التصانيف البديعة كالبرق الشامى ، وخريدة القصر ، والتبصرة فى أخبار وزراء الدولة السلجوقية ، وغير ذلك . وكان مولده سنة تسع عشرة وخمسمائة ، فكان عمره تسع وسبعين سنة .

ذكر سنة ثمان وتسعين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم ذراع واحد وأربعة عشر أصبعا. مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا وثلاثة وعشرون أصبعا .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، مستمر الأمر ، نافذ الحكم . والسلطان الملك العادل سلطان الإسلام بالديار المصرية ، والبلاد الشامية ، وما بيده من بلاد الشرق . والملك الكامل ولى عهده .

والغلاء بمصر موجود ، لم يتناقص إلى جمادى الآخرة لما ظهرت زيادة النيل المبارك .

وفى شعبان منها عادت الزلزلة ، وهدمت ما كان تبقى من نابلس ، وشقت قلعة حمص ، وأخربت حصن الأكراد ، وامتدت إلى قبرص .

وفى هذه السنة انتظم الملك بسائر الممالك الأيوبية للسلطان الملك العادل، وضربت له السكة وأقيمت له الخطبة .

وفيها –أعنى سنة ثمان وتسعين– توفى القاضى محيى الدين بن زكى الدين قاضى القضاة بدمشق وأعمالها. وكان إليه قضاء حلب وبلادها من الإمام الناصر. وكان – رحمه الله – فاضلا مترسلا ، وله النظم والنثر البديعان . ولما توفى ولى السلطان الملك العادل قضاء دمشق لولده زكى الدين ، وهو الذى لما أراد الملك المعظم عزله والإخراق به بعث إليه قباء وكمة ، وتقدم إليه بلبس ذلك ، فلبسه فلحقه غم وهم بسبب ذلك ، فمات بعد أيام قلائل .

وفيها أخرج الملك العادل المنصور بن العزيز من الديار المصرية ، لما خيف من الأمراء الصلاحية ، وذلك فى الخامس والعشرين من ربيع الآخر ، ومعه والدته وإخوته . وسيروا إلى الرها ، ثم انتقلوا إلى حلب فأقاموا عند الملك الظاهر ، وأحسن إليهم .

ذكر سنة تسع وتسعين وخمسمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم ذراعان وعشرون أصبعا . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا واثنى عشر أصبعا .

مالخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين بحاله . والسلطان الملك العادل كذلك . وولده الملك الكامل ، وبقية الملوك على ما هم عليه . -

وفيها وردت الأخبار أن الفرنج وصلت إلى عكا فى عالمٍ عظيمٍ ، لا يحصى عدتهم إلا الله عز وجل ، وأنهم طالبين الديار المصرية ، وسيروا أصطولهم إلى ثغر الإسكندرية .

وفيها ماجت الكواكب والنجوم فى السماء شرقاً وغرباً ، وتطايرت كالجراد المنتشر يميناً وشمالًا ، ولم يعهد بمثل ذلك إلّا عند مبعث النبى صلى الله عليه وسلم .

ذكر سنة ستمائة هجرية

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم ثلاثة أذرع وستة أصابع . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا وأحد وعشرون أصبعا .

ماتلخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين بحاله . والسلطان الملك العادل كذلك .

ودخل أسطول الفرنج ـ خذلهم الله ـ إلى فوّة يوم عيد الفطر ، من فم رشيد ، ونهبوها ، وقتلوا مَن كان بها ، وأقاموا يومين . وكانوا عشرين[١] قطعة . ولم يكن قبل ذلك جسرت الفرنج على مثل هذا . والفرنج على عكا ، والملك العادل مرابط لهم ، والرسل تتردد بينهم فى أمر الصلح . ثم اتفقوا على رأى بينهم .

وفيها نزل الملك العادل دار الوزارة بالقاهرة المعزية[٢] ، ونزل الكامل ولده بالقلعة ، وهو أول من نزل بها من الملوك .

وفيها غارت الفرنج ـ خذلهم الله ـ وهم طائفة الاسبتار ، على حماة[٣] ، ونهبوا وقتلوا من التركمان خلقا كثيرا ، ووصلوا إلى باب حماة . وخرج إليهم عامة حماة ، فقتل منهم خلق عظيم[٤] والذى تبقى عادوا هاربين إلى حماة ، فازدحموا فى الباب ، فمات منهم أناس عدة ، ورمى[٥] منهم جماعة بأنفسهم إلى الخندق . ورجعت الفرنج وقد أسروا جماعة كبيرة ، وفيهم رجل يُعرف بالشهاب بن التلاعى[٦] كان والياً

(١) فى المتن : « وكانوا عشرون قطعة » .

(٢) ذكر ابن واصل رحيل العادل إلى مصر وإقامته بدار الوزارة ضمن حوادث سنة ٦٠١ هـ ، وكذلك ما أعقب هذا من إغارة الفرنج على حماة (مفرج الكروب ، ج ٣ ص ١٦٢) .

(٣) ذكر ابن واصل هذه الوقعة فى حوادث سنة ٦٠١ هـ . وقد أعاد ابن أيبك الإشارة إلى إغارة الفرنج على حماة فى حوادث سنة ٦٠١ هـ (مفرج الكروب ، ج ٣ ص ١٦٢) .

(٤) فى المتن : عظيمة .

(٥) فى المتن : « ورما » .

(٦) كذا فى المتن ، وفى مفرج الكروب لابن واصل (ج ٣ ، ص ١٦٣) : « شهاب الدين ابن البلاعى » .

بحماة . وكان قد حمل على الفرنج وأرمى من فرسانهم جماعة ، ثم تقنطر به جواده ، فمسكوه وأتوا به إلى طرابلس . ثم إنه بعد ذلك هرب منهم ، ورمى نفسه إلى البحر المالح ، وتسلق فى جبال بعلبك ، ووصل إلى أهله . وكتب صاحب حماة إلى عمه الملك المعظم ـ وهـــو بدمشق ـ فأنجده . ولم تفده[1] النجـدة لـكثرة الفرنج ، فللهم الله ، وخـذلهم .

وفيها توفى أبو القاسم هبة الله بن أبى الرداد ، متولى مقياس النيل المبارك بمصر ، وكان يومئذ خطيب الجامع بالجزيرة .

قال ابن واصل: إن فى سنة تسع وتسعين[2] قتل الملك المعز إسماعيل بن الملك العزيز ظهير الدين طغتكين بن أيوب ، صاحب اليمن . وسبب قتله قلة عقله ، وما كان ادعاه من الدعاوى الـكاذبة . وقيل إنه ادعى أيضاً الربوبية ، وأمر كاتبه أن يكتب : « من مقر الإلٰهية » ، إلى غير ذلك . فاجتمعت عليه مماليك أبيه وغيرهم ، وضربوا معه مصافاً . وآخر الأمر أنه قتل فى حديثٍ طويلٍ ، ونصبوا رأسه على رمح ، وداروا به . ورتبوا فى الملك أخ له صغير يلقب بالناصر ، فجعلوا [له][3] اسم الملك . وأقاموا [أتابكا له][4] مملوك لجده يسمى سنقر ، وتزوج أم الناصر ، ثم توفى بعد حروب كثيرة . وعصت زوجته بالقلعة ، وقالت: « لا أسلمها إلا لرجلٍ من بنى أيوب » . ثم تزوجها آخر ، يقال له غازى بن جبريل . ثم سَمَّ [الملك الناصر][5] ومات ، [وقتل غازى بعد ذلك][6] . ثم حضر إليها بعـــد مدة سُليمان شاه بن سعد الدين شاهنشاه بن الملك المظفر تقى الدين عمر ، وكان لابساً بالفقيرى [لباس الفقراء][7] فتزوجته ، وملك اليمن ، واستمر إلى حين توجه الملك المسعود بن الملك الـكامل إلى اليمن وملـكها . وسير سليمان شاه إلى الديار المصرية ، فأقام بها مكرما ، وقتل شهيدا على المنصورة نوبة الفرنج. واستمر الملك المسعود ملك اليمن والحجاز ، حسبما يأتى من خبره .

(١) فى المتن : « ولم تفيده » .

(٢) ورد هذا الحادث فى هامش المخطوطة فى المكان المثبت فيه .

(٣ـ٧) التكملة من مفرج الـكروب لابن واصل ، ج ٣ ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .

وفيهــا أعنى سنة ستمائة كان المصاف بين الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن السلطان الملك العادل وبين عسكر الموصل ، وكسرهم كسرة شنيعة . وكان ذلك أول ماظهر من ميامنة حروبه . وعاد بعدها ما حارب جيشا قط إلا كسره ، فإنه كان ميمون الحروب ، سعيد الحركة ، ما كسرت له راية قط .

وفيها ولد الملك الناصر قليج أرسلان بن الملك المنصور صاحب حماه ، وهو شقيق الملك المظفر ، أمهما مَلَكَة خاتون ، ابنة السلطان الملك العادل .

قال ابن واصل(١) : وفى هذه السنة كانت الزلزلة العظيمة التى عمّت مصر والشام وبلاد الروم إلى صقلية ، ووصلت إلى سبتة من الغرب .

(١) مفرج الكروب ، ج ٣ ص ١٦١ .

ذكر سنة إحدى وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

المـــاء القديم أربعة أذرع وستة أصابع . مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا وثمانية أصابع .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنـين ، مستمر الأوامر ، نافذ الأحكام فى سائر الممالك الإسلامية ، كثرها الله تعالى ، وأعلى كلمة سُلطانها . والسلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بحاله ، وولى عهده الملك الـكامل. وبقية الملوك الإسلامية على ما هم عليه .

وفيها فتح الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ قسطنطينية العظمى[١]، استقلموها من الرُّوم، ونهبوا أموالها . ووصلوا إلى الإسكندرية بأموالها وجواهرها ، وما كان فى كنيستها من عجائب المصاغات وغرائب الصناعات. وأبيع عليهم ـ فى هذه السنة ـ الشب بعشرة دنانير القنطار .

وفيها غاروا[٢] الملاعين أيضاً على مدينة حماة ، وأخذوا النساء الغسالات من على نهر العاصى . وخرج إليهم الملك المنصور تقى الدين وقاتلهم بنفسه أشد قتال ، وكشفهم ، واستردّ النساء وجميع ما أخذوه .

قال ابن واصل : وفى هذه السنة ـ أعنى سنة إحدى وستمائة ـ خلع الإمام الناصر ولده عمدة[٣] الدين أبا نصر محمد من ولاية العهد ، وولى ذلك أخاه الصغير أبى الحسن ولقبه الملك المعظم ، لميله إليه دون ولده الـكبير محمد . وكان الوزير يومئذ الشريف نصير الدين بن ناصر الدين مهدى الحسنى ، فأخرج خطًّا ذكر أنه خط عمدة الدين يذكر فيه أنه عاجز عن ولاية العهد ، وشهد [عدلان][٤] بصحته ، فقطعت السكة والخطبة باسمه فى سائر الآفاق .

---

(١) فى المتن : « العظما » .

(٢) كذا فى المتن .

(٣) كذا فى المتن ، وفى مفرج الـكروب لابن واصل (ج٣ ص١٦٨): « عدة الدين » .

(٤) مابين حاصرتين من مفرج الـكروب لابن واصل ، ج ٣ ص ١٦٩ .

ذكر سنة اثنين وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم سبعة أذرع وأربعة عشر أصبعا . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا واثنا عشرة أصبعاً .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين بحاله . والسلطان الملك العادل كذلك . وبقية الملوك حسبما سقناه من ذكرهم .

وفيها كان السلطان بثغر الإسكندرية وعاد إلى القاهرة المحروسة . وكان قد جهز أصطول عدتهم خمسة عشر شينيا وشحنهم بالرجال ، وخرجوا ، فلحقهم هواء مزعج رمى بهم فى طرف بلاد العدو قريباً من مدينة طرابلس الشام ، فكسر أكثرهم ، وعدم خلق كثير من الأصطول والمقاتلة ما بين أسرى وغرقى[1] . ولم يسلم من الشوانى غير ستة .

وفيها خرجت الأرمن ومعهم ملكهم ابن لاون[2] وغاروا على تركمان كانوا نزولا[3] على النهر الأسود ، فأخذوا منهم خلقاً كثيراً ، وساقوا دوابهم إلى درب ساك ، وأحرقوا ربضها ، وغاروا على بعض ضياع حلب . ثم إنه تقرر الصلح بين الملك الظاهر صاحب حلب وبينهم .

وفيها وصل الملك المعظم عيسى من دمشق إلى مصر لزيارة السلطان العادل .

---

(١) فى المتن : « أسرا وغرقا » .

(٢) فى المتن : « ومعهم ابن ملكهم لاون » .

(٣) فى المتن : « نزول » .

ذكر سنة ثلاث وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم خمسة أذرع فقط . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا وأربعة أصابع .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين بحاله. والسلطان الملك العادل كذلك. وقد خرج بجميع العساكر المصرية بنية الغزاة ، وجعل الملك الكامل بالديار المصرية .

وكان سبب حركة السلطان أنه بلغه أن الملاعين ــ أهل حصن الأكراد ــ خرجوا وغاروا على البلاد الإسلامية من الشامية، ونهبوا وقتلوا، فحلف [العادل] أنه لا يبقى بالساحل من الفرنج رجلا يكفر بالله ، إن شاء الله تعالى . ووصل إلى دمشق . وكانت الملوك قدمت عليه بالعساكر من كل فج عميق ، على كل ضامر . ونزل على بحيرة قَدَس[١] . ثم صام شهر رمضان حتى تكملت العساكر من جميع النواحى ، وسار إلى حصن الأكراد . واتقع[٢] مع الفرنج وقعة عظيمة ، قتل بينهما خلق كثير . ثم كسرهم وضيق عليهم ، وفتح حيفا وأعزاز ، وهو حصن قريب[٣] من المرقب . ثم نزل على طرابلس ، ونصب عليها المناجيق ، وضيّق على أهلها . وغارت العساكر على ضياعها ، وأخذوا أهلها من النساء والرجال ، وقطعوا أشجارها ، والعين الواصلة إليها . ولم يزل الأمر كذلك إلا أيام فى هذه السنة . ثم رحل السلطان وعاد ، ونزل على منزلته الأولى فى ذى الحجة من هذه السنة . وبعث صاحب طرابلس يسأل الصلح ، وسيّر هدايا جيدة ، وثلثمائة أسير من المسلمين ، فتقرر الصلح بينهم . وكان الرسول الريدكور أخو صاحب طرابلس .

---

(١) قدس بالتحريك : بلد بالشام قرب حمص ، وإليه تضاف بحيرة قدس .

(٢) كذا فى المتن ، ويعنى أنه التحم معهم فى وقعة عظيمة .

(٣) فى المتن : « وهو حصنا قريبا » .

ذكر سنة أربع وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم خمسة أذرع وسبعة أصابع . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا وسبعة أصابع .

ماخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين بحاله . والسلطان الملك العادل كذلك . وكان له ثلاثة عشر ولداً ذكوراً[١] تأتى أسماؤهم[٢] فى مكانها ، إن شاء الله . وكان منهم الملك الأوحد نجم الدين ، وكان قصيراً دميماً ، حقيراً فى العين ، فخرج مع والده وإخوته إلى الصيد ، فأرسل السلطان بازًا على طائرٍ ، فحط الباز على رأس الملك الأوحد ، فضحك السلطان وقال : « قد اصطاد بازنا اليوم بُومة » . فانكسر قلب الأوحد . وقيل : إن الباز كان أهداه للسلطان صاحب أخلاط ، فى جملة هدايا . وهذه الواقعة تعد من النكت الغريبة . فلما صار الأوحد صاحب ميافارقين ، وقدر الله تعالى أنه ملك أخلاط ــ لما استدعوه أهلُها،وسلموه البلد من غير كدٍّ ولا تعبٍ ــ فكتب إلى أبيه يبشره ، ويقول له فى جملة مكاتبته : « يا مولانا ؛ البومة التى صادها باز مولانا السلطان فى اليوم الأول من شهر كذا فتحت مدينة أخلاط ، وإنما كان الباز من صاحب أخلاط ، فبشر الملوك بأن يكون ملكها » . فلما قرأ السلطان كتابه تعجب منه كيف أسرّها فى نفسه ، وعظم أمره فى قلبه[٣] .

---

(١) فى المتن « ولد ذكور » .

(٢) فى المتن : « أسمائهم » .

(٣) ورد أمام المتن هذه الحاشية :

« وكانت هذه أخلاط مملكة عظيمة يقال إنها نظير الديار المصرية . وكانت قد صارت فى يد بكتمر مملوك صاحبها شاه أرمن بن سكمان . ولما قتل بكتمر ــ حسبما ذكرنا من خبره فى سنة تسع وثمانين وخمسمائة ــ ملكها بعده ولده . ثم تغلب عليه سيف الدين بلبان ، أحد مماليك شاه أرمن . وكان الأوحد ملكه أبوه ميافارقين ، فقصد مدينة موش وملكها . وطمع بعد ذلك فى أخلاط ، ==

وفيها على ما ذكر ابن الأثير ـ رحمه الله ـ صاحب التاريخ الكبير الجامع ، إن خوارزم شاه عبر بلاد الخطا بجميع عساكره،وذلك باتفاق من صاحب سمرقند وبخارى وهم الخُطا[١] الذين يلقبون ملوكهم « خان الخان » يعنى ملك الملوك ، وأنهم حشدوا والتقوا معه ، وجرى[٢] بينهم قتالٌ عظيمٌ فى عدة وقعاتٍ ، فتارة له وتارة عليه . فلما كان فى هذه السنة ، اقتتلوا أشدّ قتال ، فوقعت الكسرة على خوارزم شاه ، وانهزم جيشه هزيمة قبيحة ، وأُسِر كثير من المسلمين ، وأُسِر خوارزم شاه ، وأسر معه بعض أمرائه الكبار ـ يقال له شهاب الدين بن مسعود[٣] ـ ، أسرهم جميعاً رجل من الخطائيين وهو لا يعرفهما . ووصل المنهزمون من جيوش السلطان ، وفقدوا خوارزم شاه ، فعظم عليهم ، واشتاشت[٤] العساكر ، واختبطت البلاد. ثم إن شهاب الدين بن مسعود[٥] قال للسلطان : « يجب عليك فى هذا الوقت أن تدع السلطنة ونقْش المُلك ، وتصير خادمًا لى ، لعلى أحتال فى خلاصك » . فشرع خوارزم شاه يخدمه ، ويقدم له الطعام ، ويقوم فى قضاء حوائجه[٦] . فقال الرجل الخطائى الذى

= فقصدها . فخرج إليه بلبان وكسره ، فرجع هارباً إلى ميافارقين ، واستنجد . وعاود فكسر بلبان ، وتمكن من البلاد . ثم إن بلبان استنجد بمغيث الدين صاحب أرزن الروم ، فحضر إليه ، وضربا مع الأوحد مصافا ، فكسرها الأوحد. ثم إن مغيث الدين غدر ببلبان، فقتله طمعاً فى بلاده، فلم يمكنه أهلها ، وكاتبوا الملك الأوحد فسلموه القلعة من غير تعب ولا قتال . ثم جرت له بعدها حروب كثيرة حتى استقرت قاعدته بها حتى توفى» .

(١) الخطا ، قبائل آسيوية من الأتراك ، موطنها الأصلى فى شمال الصين ، نزحت فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى واستقروا غرب إقليم التركستان حيث كونوا دولة عرفت باسم « القراخطائيين » . وقره لفظ تركى معناه أسود ، ويبدو أن المغول هم الذين أضافوا هذا اللفظ إلى قبائل الخطا للتعبير عن عدائهم وكراهيتهم لهم . ولم تلبث دولة القراخطائيين أن امتدت إلى نهر سيحون الذى فصل بينهم وبين الخوارزمية المسلمين . وكان القراخطائيين يدينون بالبوذية . انظر : فؤاد عبد المعطى الصياد ، المغول فى التاريخ ، ص ٥ ، ٢٩ .

(٢) فى المتن : « جرى » .

(٣) فى الكامل لابن الأثير (حوادث سنة ٦٠٤): «يقال له فلان بن شهاب الدين مسعود» .

(٤) يقال بينهم شواش أى اختلاف (القاموس المحيط) .

(٥) فى الكامل لابن الأثير (حوادث سنة ٦٠٤ هـ) : « ابن شهاب الدين مسعود » .

(٦) فى المتن : « فى قضى حوائجه » .

أسرها لابن مسعود : « إن هذا الرجل يكثر من تعظيمك » . فقال له ابن مسعود : « أنا رجل كبير فى قومى ، وهذا غلامى » . فعاد ذاك الرجل الخطائى يكرر لابن مسعود ، ويقوم بحقه، وقال له : « لولا إن قومى عرفوا مكانك عندى وإلا كنت أطلقتك » . ثم تركه أيامًا ، فقال له ابن مسعود : « إن المنهزمين(١) يرجعون ولا رأونى ، فيظنون أهلى أنى قد قتلت ، فيعملون مأتمى ، ويتفرقون أموالى ويقتسمونها ، فأهلك ولا أعود أجد ما أستَفِكُّ به نفسى . فلعلك أن تقرر علىَّ شىء من المال فأحمله إليك » . فقرر عليه مالًا جيدًا ، وقال : « أريد أن تأمر رجلًا عاقلًا يذهب بكتابى إلى أهلى ، ويأتيك بما طلبت ، وإن كنت تأمر أن تنفذ غلامى هـذا فهم يعرفونه ويثقون به ، فإن أصحابكم لايعرفون أهلى ». فأذن له ذلك الرجل فى إنفاذ غلامه . فعندها سيَّر ابن مسعود السلطان خوارزم شاه ، والخطائى يظن أنه غلامه . ثم جهزه الخطائى بفرس وجنيب ، وأنفذ معه جماعة من أهله وأقاربه ، ووصَّلوه إلى قريب من خوارزم ، وعادوا وتركوه . ثم وصل السلطان إلى قريب من محل ملـكه ، فعرَّف بنفسه ، والتأمت عليه نواب بلاده ، واستبشروا به أهل مملـكته ، وضربت البشائر بسائر ممالـكه ، وزينوا المدن والحصون .

وأما ابن مسعود فإنه أقام عند ذلك الرجل ، فدخل عليه يوماً فقال لابن مسعود : « قد وردت الأخبار على ملـكنا أن السلطان خوارزم شاه قد عُدم فإيش عندك من خبره » . فقال ابن مسعود : « أو ما تعرف خوارزم شاه ؟ » . قال: « لا ، والله » . قال: « هو والله أسيرك الذى سفرته وجملته غلامى » . فبهت الرجل وقال: « ولم لا عرفتنى حتى كنت خدمته وسرت بين يديه ؟ » . فقال ابن مسعود : « قم الآن بنا نسير إليه ، فإنه يحسن مكافأتك أضعاف ما أمَّلته عندى » . فسارا إليه ، وقدما عليـــه ، فجعل ابن مسعود حاجباً كبيراً ، وجعل ذلك الخطائى أميرًا ، وأحسن إليهما غاية الإحسان ، والله أعلم .

---

(١) فى المتن : « إن المنهزمون » .

وفيها وصلت رسل الخليفة الإمام الناصر لدين الله ، بالخلع العظيمة ، وتقليد[١] بجميع البلاد الشامية والديار المصرية والممالك بالشرق ، والخلع إلى سائر الملوك أولاده، صحبة شهاب الدين شيخ الشيوخ السهْرَوَردى[٢] ، والأمير نور الدين السلحدار الناصرى . قلت : وهذا الشيخ شهاب الدين السهْرَوردى القائل هذين البيتين ، وذلك لما أشفق من طول العمر ، فقال :

يا رب لا تبقنى إلى زمنٍ ... أكون فيه كَلًّا على أحد

خذ بيدى قبل أقول لمن ألقاه ... عند القيام خذ بيدى

وقيل فى هذه السنة سكن الملك الكامل القلعة[٣] ، وجدد بها الآدر والمناظر والمستنزهات والحمامات وغير ذلك .

قال ابن واصل[٤]: فى هذه السنة عزل الخليفة [الناصر لدين الله] وزيره نصير الدين ناصر بن مهدى العلوى الحسنى ، وذلك لما خيلوه منه الأعداء ، وأغروه به ، فمن ذلك ما قيل :

ألا مبلغ عنى الخليفة أحمــدا ... توَقَّ ـ وُقيتَ السوءَ ـ ماأنت صانعُ

وزيرك هــذا بين أمرين فيهما ... فعالُك ـ يا خير البرية ـ ضائعُ

فإن كان حقًّا من سلالة أحمدٍ ... فهذا وزير فى الخلافة طامعُ

وإن كان فيما يدَّعى غير صادق ... فأضْيَع ما كانت إليه[٥] الصنائعُ

(١) فى المتن : « وتقليداً » .

(٢) فى المتن : « الشهرروزى » وهو تحريف ، انظر مفرج الكروب لابن واصل، ج ٣ ص ١٨٠ ، وكتاب السلوك للمقريزى ، ج ١ ص ١٦٧ . والسهروردى نسبة إلى سهرورد ، وهو بلد جنوبى السلطانية بين همذان وزنجان.

(٣) يقصد قلعة الجبل ، على جبل المقطم ؛ وهى القلعة التى شرع فى بنائها صلاح الدين الأيوبى سنة ١١٧٦م (٥٧٢ هـ) ، والتى يرجح أنها صارت مقرا رسميا لحكام مصر منذ عهد السلطان الكامل الأيوبى حتى أيام الخديوى إسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) عندما شيد قصر عابدين ليصبح مقرا رسميا للحكام ، انظر : نظير حسان سعداوى ، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى ص ٩١ وما بعدها .

(٤) مفرج الكروب ، ج ٣ ص ١٧٨ ـ ١٧٩ .

(٥) فى مفرج الكروب (ج٣ ، ص ١٧٩) : « لديه » .

ذكر سنة خمس وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

المـــاء القديم خمسة أذرع وعشرون أصبعاً . مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا ونصف أصبع .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين بحاله . والسلطان الملك العادل كذلك ، وهو بدمشق . وتوجه إلى خدمته الملك الـكامل ولده ، وأقامت(١) مصر والقاهرة خاليتان من سلطان إلى حين عودته .

وفيها وصل إلى السلطان الملك العادل ، وإلى جميع أولاده ، سراويلات الفتوة ، صحبة رسل الخلافة ، وصحبتها خلع عظيمة . فلبسوا ، ولبس كل أحدٍ من يلوذ به من أمرائه وخاصته . وشاع لبس ذلك فى الناس(٢) .

وفى شهر رجب توفى القاضى صدر الدين عبد الملك بن عيسى ، وكان صالحاً . وولى الحـكم بعده القاضى عماد الدين عبد الرحمن بن عبد العلى . وجُمع له ما لم يُجمع لغيره من تدريس وخطابة وغيرهما .

وكان السلطان العادل قد نزل على عكا فى سنة أربع ، وهى السنة الخالية ، وأقام عليها ثلاثة أيام . ثم اتفق الحال على [إطلاق] ألف وثمانمائة أسير من المسلمين(٣) ، فاستنقذوا من الأسر ، ورحل عنها .

---

(١) فى المتن : « وأقاما » .

(٢) عن الفتوة فى الإسلام ، انظر : ابن عمار البغدادى ، الفتوة (نشره الدكتور فؤاد حسنين) ؛ محمد فهمى عبد اللطيف ، الفتوة الإسلامية . انظر أيضا كتاب مفرج الـكروب لابن واصل ، ج ٣ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ حاشية ٢ للدكتور الشيال .

(٣) فى تاريخ الـكامل لابن الأثير (حوادث سنة ٦٠٤ هـ) : « فصالحه صاحبها الفرنجى على قاعدة استقرت من إطلاق أسرى من المسلمين وغير ذلك » .

وفى سنة خمس خرجت الكرج إلى ولاية أخلاط ، وقصدوا مدينة أرجيش[١] فحاصروها ، وماسكوها عنوة بالسيف ، ونهبوا جميع مافيها ، وأسروا وسبوا جميع أهلها ، وأصبحت خاوية على عروشها .

وفى آخر هذه السنة عاد الشيخ شهاب الدين السهروردى[٢] من عند الإمام الناصر إلى السلطان الملك العادل ، وصحبته خلعة عظيمة مكللة ، وطوق ذهب مرصع بالجواهر ، وتقليدًا عظيماً يتضمن نعوتا لم ينعت بها إلا الملوك من بنى بويه وبنى سلجوق ، لما كان الحكم لهم فى البلاد . ويتضمن التقليد مصر ، والشام ، والشرق كله ، والعراق ، وبعض العجم الذى لم يكن داخل فى ملك خوارزم شاه . وكذلك الخلع العظيمة إلى سائر الملوك أولاده . وكان ذلك يوما مشهودا .

وفيها كانت الزلزلة بنيسابور ، فدامت عشرة أيام وهى تعاودهم . وهلك تحت الردم عالم عظيم ، والله أعلم .

---

(١) أرجيش ، بالفتح ثم السكون وكسر الجيم ، مدينة قديمة من نواحى أرمينية الكبرى ، قرب خلاط ، أكثر أهلها أرمن نصارى (ياقوت : معجم البلدان) .

(٢) فى المتن : « الشهرزورى » وهو تحريف .

ذكر سنة ست وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم خمسة أذرع وعشرون أصبعاً . مبلغ الزيادة لم يتحرر فى هذه السنة ، كونه أخذ القاع من المـاء القديم فى شهر ذى الحجة . وكانت الزيادة فى سنة سبع وستمائة ستة عشر ذراعاً[١] فقط .

مالخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين بحاله . والسلطان الملك العادل قد توجه إلى غزاة الـكرج ، لـما بلغه مافعلوه ، وخروجهم على ولده الملك الأوحد صاحب أخلاط . فعندما سمع الـكرج بتوجه السلطان إليهم ، ولوا منهزمين . فنزل السلطان على سنجار محاصراً لها ، لينزعها من يد مالـكها ، فوصل إليه رسول الإمام الناصر ، وهو ابن الضحاك استادار الخلافة المعظمة ، وفى خدمته أربعمائة فارس . ولم يُسمع بمثله أنه سُير إلى ملكٍ من الملوك من جهة الخلافة . وشفع فى صاحب سنجار ، فامتثل ذلك ، ورحل عنها .

وفيها توفى سنجر شاه صاحب الجزيرة . وكان هـذا الملك سيىء الأخلاق ، قبيح السيرة ، ظلوماً ، غشوماً ، سفاكاً للدماء بحقٍ وبغير حقٍ . وكان له عدة أولاد ، فحبس كل واحد فى قلعة ، وذلك خوفاً على نفسه منهم . ثم إنه اعتقل ولدين منهم فى قلعة تعرف بقلعة فرح[٢] وهى قلعة عظيمة لا تُرام . وكان أحدهما يسمى محمود والآخر مودود . واعتقل ولداً آخراً ــ يسمى غازى ــ بالمدينة ، ووكل به من يمنعه من الخروج والدخُول . وكان فى جانب تلك المدينة ــ محاذى الدار التى فيها غازى ــ

(١) فى المتن : « ذراع » .

(٢) ذكر ابن الأثير (الـكامل، حوادث سنة ٦٠٥هـ) أن قلعة فرح هذه من بلدان الزوزان. وجاء فى معجم البلدان لياقوت الحموى أن الزوزان ناحية واسعة فى شرقى دجلة من جزيرة ابن عمر، وأنها كورة حسنة بين جبال أرمينية وبين أخلاط وأذربيجان وديار بكر والموصل، وأهلها أرمن، وفيها طوائف من الأكراد ، وفيها قلاع كثيرة حصينة .

بستان خراب ، فتحيّل الصبي حتى مسك ثعبانا عظيما ، وسيّره إلى أبيه ، وقال له : « ارحمني ، والله مالي مجاور غير هذا وأنظاره » . وظن أنه يرق له ، فلم يزدد عليه إلا قساوة . فاحتال الصبيّ وهرب من تلك الدار واختفى . فلما بلغ أبوه ، شنق البواب على باب الدار ، ثم نفذ البريد يتطلب الصبي فى سائر ممالكه ، فلم يخبره أحد به . وكان الصبي يمشى فى الأسواق وتحت قلعة أبيه ، والناس يعرفونه ويدعون له ويحسنون إليه ، محبة فيه وبغضاً فى أبيه . وكان الصبي متولعاً بإحدى حظايا أبيه ، فكان يكاتبها وتكاتبه . فكتبت إليه أن يأتيها الليلة . فأتاها ، وأقام معها فى القصر . ثم إن الملك شرب تلك الليلة ، وأحضرت الملاهى والأغانى ، فأمعن فى شربه ، ورسم أنه يغنوا له فى الفراق وما أشبه ذلك . ثم ذكر ذنوباً فعلها مع الناس ، وظلمه لأولاده . هذا وغازى ولده على أعلى القصر يسمع وينتظر غفلته ليقتله . فلما ثمل من الشرب ، وخرج الأغانى ، وخلا بنفسه ، قام إلى الخلاء ، فوثب عليه غازى فقتله ، وضربه بالسكين أحد عشر ضرباً[1] ، ثم لم يقنعه حتى ذبحه . ولو كان ــ مع مشيئة الله عز وجل ــ جلس فى ذلك الوقت كان استقر أمره فى الملك ، وإنما التهى مع تلك الجارية بالأكل والشرب ، ورأس أبيه بين يديه ، فخرجت جارية صغيرة إلى الدهليز ، وعرّفت لأستادار أبيه الصورة ، فسير ذلك الأستادار من وقته ، وأخرج بقية الأولاد المُحْبسين ، وأخبرهم بقتل أبيهم ، فجلسوا على الباب ، وأحضروا الحجاب وكبراء الدولة ، ومسكوا غازى واعتقلوه . وجلس ابنه مودود فى دست الملك ، والله أعلم .

وفيها وصل إلى بورة أربعة عشر مركبا من مراكب الفرنج ، فنهبوها وأسروا من فيها ، فخرج إليهم الملك الكامل فى الشوانى الإسلامية . فلما بلغهم ذلك هربوا . وبورة هذه بالقرب من دمياط .

قال ابن واصل[2] : فى هذه السنة كانت وفاة الملك المؤيد نجم الدين مسعود ابن السلطان صلاح الدين ، بالسبب الآتى ذكره فى تاريخه .

(١) كذا فى المتن .

(٢) مفرج الكروب ، ج ٣ ص ١٩٨ حوادث سنة ٦٠٦ هـ .

ذكر سنة سبع وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم لم يؤخذ له فى هذه السنة قاع جملة كافية ، وسببه أن زيادة سنة ست فى سنة سبع ، وقد تقدم ذكر الزيادة فى سنة ست .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين بحاله . والسلطان الملك العادل كذلك .

وفيها كانت وقعة الكرج مع الملك الأوحد. وذلك لما اتفقت الملوك فى هذه السنة على السلطان الملك العادل، وهم صاحب الروم خسرو شاه بن قليج أرسلان ، وصاحب الموصل ، وصاحب إربل ، وصاحب الجزيرة ، وصاحب ماردين ، وصاحب سنجار . واتفقوا أن تكون السكة والخطبة لصاحب الروم خسرو شاه . وخرج كل واحد من صوبه ، وقصدوا أن يدهموا الملك العادل بكثرتهم ، وكان يومئذ نازلا[1] على حران ، وعنده صهره صاحب آمد . ونزل الكرج على أخلاط سابع عشر ربيع الآخر وحاصروها ، فسيّر الملك العادل وطلب الملوك أولاده وأولاد أخيه . ثم إن الله تعالى نصر الملك الأوحد على الكرج ، وتفرقت كلمة الملوك المجتمعة على السلطان الملك العادل . وحضرت إليه الملوك بعساكرهم ، وقصد الكرج . ثم جهز الملك الأشرف والملك المنصور ففتحوا نصيبين وسنجار . واستقرت السكة والخطبة باسم السلطان الملك العادل على عادته ، والله أعلم .

قال ابن واصل[2] : فى هذه السنة كانت وفاة نور الدين صاحب الموصل ، بالسبب الآتى ذكره فى تاريخ أبى المظفر. والخلف فى هذه الأحوال فى مدد السنين على صاحب النسخة الأصل عهدته ، وإنما العبد ذكر كل[3] من التاريخين وما اختلفا فيه .

وقال ابن[4] واصل: إن فى هذه السنة توفى الملك الأوحد صاحب أخلاط ، وهو غلط منه ، وإنما الصحيح ما ذكرناه فى سنة عشرة وستمائة .

---

(١) فى المتن : « نازل » .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ج ٣ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ حوادث سنة ٦٠٧ هـ .

(٣) كذا فى المتن .

(٤) مفرج الكروب ، ج ٣ ص ٢٠٨ حوادث سنة ٦٠٧ هـ .

ذكر سنة ثمان وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم أربعة أذرع وستة أصابع أخذ تقديره فى سادس المحرم . مبلغ الزيادة فى هذه السنة سبعة عشر ذراعاً وعشرة أصابع .

ماتخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين بحاله. والسلطان الملك العادل كذلك، وقد عاد من بلاد الشرق فى هذه السنة ، ودخل الديار المصرية ، ونزل دار الوزارة .

وفيها توفيت والدة الملك الكامل، ودفنت بجوار ضريح الإمام الشافعى، رضى الله عنه . وبنى[1] عليها القبة العظيمة التى أجمعت الناس أنهم لم يروا مثلها . وحُمل الماء إليها من بركة الحبش على قناطر معقودة إلى التربة . وعمرت القرافة الصغرى بسبب ذلك . واستجدت الناس فى القرافة الآثار الحسنة .

وفيهـــا توفى أبو الحسن على بن محمد أبو سعد ، الملقب بتاج الدين بن حمدان ، صاحب كتاب التذكرة الحمدونية ، الذى سقنا فى هذا التاريخ جملة منها ، لما وجدنا صحة ما أثبته هذا الفاضل فيها من الأخبار ، ونثره من جواهر الآثار ، رحمه الله تعالى ، وسائر علماء المسلمين ، مع كافة أمة محمد أجمعين .

وفيها توفى فخر الدين إياز جهاركس ، صاحب القيسارية بالقاهرة المحروسة[2] ، رحمه الله .

وفيها توفى الملك المؤيد مسعود بن السلطان صلاح الدين ، رحمهما الله تعالى[3] . وكان لما قدم إلى رأس العين[4] تلقاه الوالى بها ، وأحضر له فاكهة ، فأكل منها هو

---

(١) فى المتن : « وبنا » .

(٢) عن هذه القيسارية ، انظر : المقريزى ، المواعظ ، ج ٢ ص ٨٦ .

(٣) انظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ص ١٩٨ .

(٤) رأس العين ــ أو رأس عين ــ ، مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة ، بين حران ونصيبين ودنيسر (ياقوت : معجم البلدان) .

وجماعة من خواصه. فلم تستقر الفاكهة فى معاه سوى ربع ساعة، وصاح: « النار ». وتوفى بعد ثلاث ساعات من تلك الساعة، بعد الظهر، وكذلك سائر من أكل معه منها. ثم حملوه إلى حلب إلى عند أخيه الملك الظاهر، ودفن بها. ولما بلغ العادل موت المؤيّد لبس عليه الأزرق.

قال ابن واصل[1]: وفيها كانت الفتنة بالحجاز، ونهب الركب العراقى. ولولا التجأ الباقون إلى الركب الشامى ـ وكان فيه ربيعة خاتون بنت أيوب أخت السلطان الملك العادل ـ لكان[2] الحجازيون قد أتوا عليهم. وسبب ذلك أن باطنيا[3] وثب على الشريف أبى عزيز قتـــادة صاحب مكة فقتله. وكانت أم صاحب [حصن] « الألموت » قد قدمت حاجّة، فادعوا أن الباطنى من جهتهم.

---

(١) مفرج الكروب، ج ٣ ص ٢١٠ حوادث سنة ٦٠٨ هـ.

(٢) فى المتن: « لكانوا ».

(٣) فى المتن: « باطنى ».

ذكر سنة تسع وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

المـــاء القديم أربعة أذرع وعشرة أصابع . مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا وثلاثة أصابع .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين بحاله . والسلطان الملك العادل كذلك ، وقد توجه من مصر إلى دمشق . وهرب عز الدين أسامة ، ولحقه الملك المعظم بنفسه ، وقبض عليه [واعتقله بالكرك][(١)] ، وتسلم من نوابه ما كان بيدهم من القلاع ، بعد حصار كوكب ، وأُخذ وخُرب . ونقلت ذخائره إلى الطُّور . واستقر السلطان بدمشق .

وفيهـا كانت الوقعة العظيمة المعروفة بالعقاب ، بين الأمين محمد بن يعقوب ابن عبد المؤمن صاحب المغرب ، وبين الفرنج ، على مدينة طليطلة من الأندلس . وكان النصر للمسلمين على المشركين .

وفيها نزل صاحب الكرج على أخلاط وحاصرها ، وأشرف على أخذها . ثم إنه شرب خمرًا وثمل سكرًا ، فحدثه سكره أن يركب ويأخذ البلد ، فركب [فى عشرين فارسا][(٢)] وساق ، فتقنطر به الفرس ، فأخذ أسيرًا مع عدة من أصحابه ، وأحضروا للملك الأوحد .

وفيهـا تحركت الفرنج حركة عظيمة ، وخرج لهم السلطان ، ثم وقع الصلح والهدنة .

وفيها توفى نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنـكى بن آق سنقر صاحب الموصل . وكان مدة ملكه بالموصل سبع عشرة سنة وأحد عشر شهرًا . وكان

---

(١) فى المتن « واعتقل » ومابين حاصرتين من مفرج الكروب لابن واصل (ج ٣ ص ٢٠٩).
(٢) مابين حاصرتين من مفرج الكروب لابن واصل (ج ٣ ص ٢٠١) .

لمـا قوى مرضه ، تولى الأمور وتدبير الأحوال بدر الدين لؤلؤ ـ وكان أستاداره والحاكم فى مملـكته . فلما مات الملك قال الأكابر من الدولة: « لايفوه أحد بموته » . وخرج بدر الدين لؤلؤ وجلس للناس ، وقضى حوائجهم . ثم طلب الأمراء والناس ، وأشاع بموته ، بعد أن أتقن أمره . وأخرج الملك ودفنه فى مدرسته التى كان أنشأها مقابل داره. وكان نورالدين صاحب الموصل ـ رحمه الله ـ ملـكاً جميلا ، جوادًا، شجاعاً، حسن الوجه ، كريم المحيا ، كثير البشاشة ، كثير الهيبة على أهل مملـكته ، زائد العدل ، لايستحسن الظلم ، يكون مع الضعيف بخلاف القوى ، جيد الحيلة والتصرف فى أمور المملـكة . وحُـكى عنه أنه لـما توجه إلى نجدة صاحب ماردين حين حاصره الملك الـكامل بن العادل وملك الربض منه ، فحضر نور الدين إلى نجدته ، وضرب مصافاً مع الملك الـكامل ، وكسره . واستقرت قلعة ماردين شاغرة بلا ملكٍ ولا مانعٍ ، فقيل له : « املك القلعة ، فإنه لم يكن بها مَن يمنعك » . فقال : « أعوذ بالله أن أغدر بصاحبها ، وأكون قد أنجدته من عدوه وأخونه فى ملـكه ، فيكون مثلى كمثل الرجل مع أبى زريق ، وذلك أن رجلًا حاز بشعراء[1] فسمع قائلًا يقول : بالله عليك أدركنى وخلص فراخى . فنظر وإذا هو الطائر المعروف بأبى زريق ، وحيّة التفّت على شجرة ، طالعة إلى عُشٍّ له فى تلك الشجرة ، تريد فراخه ، فرمى الرجل الحية بسهمٍ فقتلها . ثم قال : والله إنك طائر حسن ذكى ، لآخذنّ فراخه . فتسلق فى الشجرة يريد أخذ الفراخ . فلما نظر إليـه ذلك الطائر وعلم أنه يريد أخذ فراخه . قال له : يا إنسان قد عملت خيراً فتممه . فتعجب منه ، ورجع على نفسه بالملامة . وأنا كذلك إن أخذت هذه القلعة فأكون عملت خيراً[2] وما تممته » . ثم إنه نفذ كتاباً إلى صاحبها يبشره بالفتح والنصرة على الملك الـكامل ، ويستقدمه ، فقـدم ، وسلمه قلعته .

---

(١) فى المتن: « شعرى » والشعراء الأرض أو الروضة الـكثيرة الشجر (القاموس المحيط) . وحاز حوزا أى سار سيرا لينا .

(٢) فى المتن : « خير » .

ومن مناقبه ــ رحمه الله ــ عن مجد الدين ابن الأثير كاتبه قال : « كنت مع نور الدين صاحب الموصل ، وكان له سُرّادار ، وكانت مفاتيح القلمة مع ولد السرادار، ففتح وسرق دراهم لها صورة ، فبلغ السلطان ذلك ، فسير إلىّ ليلًا مع الدوادار أن أكتب كتاباً بأن تقطع يد ابن السرادار » . قال القاضي مجد الدين بن الأثير : « فقلت للدوادار إنني لا أكتب كتاباً إلا بين يديه . فرادني ، فامتنعت واعتذرت . فأحضرني بين يديه وقال : لم لا كتبت بقطع يد ابن السرادار ؟ . فقلت : ياخوند ، ولم ذلك؟. قال: لأنه سارق. فقلت : مولانا ــ أحسن الله إليه ــ عودني أني لا أكتب إلّا بما يجوز في الشرع . فقال: فكيف السارق ما تُقطع يده في الشرع ؟. قلت : هذا سرق من غير حرز . قال : وكيف ؟. قلت لأن المفاتيح معه . قال : فإن كان هكذا فجزاك الله عن صحبتك خيرًا ، منعتنا عن الإثم » . ثم لم يذكره بعدها .

قال ابن واصل(١) : وفي هذه السنة قبض السلطان كيكاوس على أخيه كيقباذ . وكان قد ذكر استيلاء السلطان غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان السلجوقي على بلاد الروم . ثم هلك غياث الدين ، فقام بالملك بعده ولده الملك الغالب كيكاوس . وفي هـذه السنة قصده عمه طغرل شاه وحاصره ، فاستنجد بالملك الأشرف ، فخاف طغرل شاه ، ورحل عن سيواس إلى بلاده . واستقر كيكاوس .

(١) مفرج الكروب ، ج ٣ ص ٢١٧ حوادث سنة ٦٠٩هـ .

ذكر سنة عشرة وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

المـــاء القديم أربعة أذرع وعشرة أصابع . مبلغ الزيادة ست عشر ذراعا وثلاثة أصابع .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين بحاله . والسلطان الملك العادل كذلك ، وهو بدمشق .

وفيها استقرّ ملك الموصل لعز الدين مسعود بن نور الدين المقدم ذكره . ومدبر مملـكته بدر الدين لؤلؤ ، أستادار أبيه .

وفيها وردت كتب الخليفة الإمام الناصر لسائر ملوك الإسلام ، بأن يشربوا له كأس الفتوة ويلبسوا السراويلات . وسيَّر لـكل ملكٍ خلعة تليق به ، وتقليدًا بممالـكه ، فامتثل[1] جميع الملوك ما رسم لهم به .

وفيها عاد السلطان الملك العادل من الشام إلى ديار مصر .

وفيها توفى الملك الأوحد نجم الدين صاحب أخلاط ، واستولى على ممالـكه الملك الأشرف مظفر الدين موسى . ثم إنه قدم إلى خدمة السلطان بالديار المصرية . ثم إن السلطان أنعم على ولده الملك المنصور شهاب الدين غازى بتمليك الرُّهَا وأعمالها .

وفيها هدم السلطان حصن كوكب ، وأبقى عجلون .

وفيها ظفر السلطان علاء الدين كيكاوس ـ صاحب الروم ـ بعمه طغرل شاه ، وأخذ بلاده ، وقتله ، وذبح أكثر الأمراء . وأراد قتل أخيه ، فشفع فيه ، فعفى عنه ، واعتقله . قلت : وهذه رذيلة فى البيت السلجوقى ، وإن كانوا غير رذيلين . لـكن أنفسهم أنفس قوية ملوكية ، لا يروا الضيم من بعضهم بعض ، والمُلك لاشك عقيم .

---

(١) فى المتن : « فامتثلوا » .

وفيها أظهر جلال الدين حسن ـ ملك الإسماعيلية[١] ـ الإسلام ، وكان قبل ذلك زنديقاً ، هو وجميع طوائفه . وهم أيضاً فرقة من فرق القرامطة المقدم ذكرهم . فأظهر فى هذه السنة الإسلام والتوحيد ، وقام بجميع الشعائر الإسلامية ، وأمَر رعيته بذلك ، ولم يكونوا يعرفون ذلك من قبل هذا . واستمسك بمذهب الإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ واستقر كذلك حالهم إلى الآن .

وفيها وصل القاضى بهاء الدين بن شداد ، من عند الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين صاحب حلب ، رسولا من أمّه إلى ابن عمها الملك العادل ، تستعطفه ، وتطلب منه ضيفة خاتون شقيقة الملك الكامل ـ وكانت آخر بنات الملك العادل ـ وخطبتها لولدها الملك الظاهر ، فأنعم لها بذلك ، وحصل الاتفاق .

قال ابن واصل[٢] : إن فى سنة عشرة كان مولد الملك العزيز بن الظاهر صاحب حلب . وأرخ ذلك بيوم الخميس خامس ذى الحجة من هذه السنة المذكورة . وقال أبو المظفر بل فى سنة إحدى عشر . وكانت ضيفة خاتون توجهت إليه فى أول السنة ، وولدت له الملك العزيز آخرها . وقد ذكرنا ذلك . والتفاوت بين النقلين سنة كاملة ، والله أعلم بالصحيح فى ذلك. ولم يذكر ابن واصل توجه ضيفة خاتون إلى الملك الظاهر . وذكر ذلك الشيخ جمال الدين أبو المظفر يوسف بن الجوزى[٣] ، رحمه الله .

---

(١) فى مفرج الكروب لابن واصل (ج ٣ ص ٢١١): «إمام الباطنية ، صاحب الألموت» .

(٢) انظر مفرج الكروب ، ج ٣ ص ٢٢٠ .

(٣) هو أبو المظفر شمس الدين يوسف بن قزاوغلى بن عبد الله المعروف بسبط ابن الجوزى صاحب كتاب مرآة الزمان ، والمتوفى سنة ٦٥٤ هـ .

ذكر سنة إحدى عشرة وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم ثلاثة أذرع وأربعة عشر أصبعاً . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعاً وثمانية عشر أصبعا .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين بحاله . والسلطان الملك العادل كذلك .

وفيها جهز الملك الكامل جيشا ثقيلا، ووجهه إلى اليمن صحبة ولده الملك المسعود صلاح الدين يوسف أقسيس. وجعل أتابكه الفارس فُليت[1] . وذلك أن سيف الإسلام صاحب اليمن كان قد توفى إلى رحمة الله عز وجل ، واستولى على اليمن سُليمان شاه ابن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، باتفاق من أجنادها . وتزوج أم سيف الإسلام المتوفى . ووصل الخبر إلى الملك الكامل ، فاستأذن والده السلطان الملك العادل فى إنفاذ ولده أقسيس ، فأذن له فى ذلك، فنفذه فى هذا العسكر الثقيل، فملكها الملك المسعود المذكور سِلماً من غير حربٍ ولا قتالٍ . وكان ملكاً جباراً فاتكاً ، قتل خلقا كثيرا من الأشراف من نسل الهادى المقدم ذكره، وخلقاً من أكابر أهلها.

وفيها كانت المعاملة بالقراطيس السوداء العادلية بدمشق ، نسبة الدراهم السُّود بمصر .

وفيها أعطى وأنعم الملك المعظم على مملوكه وأستاداره جَدّنا الأمير عز الدين أيبك المعظمى صرخد وسائر أعمالها، وملّكها له تمليكا. فلم تزل فى يده إلى أن استعادها[2] الملك الصالح نجم الدين أيوب فى سنة أربع وأربعين وستمائة ، حسبما يأتى من ذكر ذلك فى تاريخه إن شاء الله تعالى .

---

(١) انظر : يحي بن الحسين ، غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، ص ٤٠٢ (تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور) .

(٢) فى المتن: «إلى أن سقاه الملك الصالح نجم الدين أيوب» ، انظر مايلى من هذا الكتاب، حوادث سنة ٦٤٤ هـ

وفيها ملك السلطان علاء الدين خوارزم شاه بن تكش كرمان ومكران[١] . ثم ملك فى هذه السنة السند واتصل ملكه إلى أطراف الصين .

وفيها سيّر الملك الظاهر صاحب حلب يطلب زوجته ضيفة خاتون من عمه الملك العادل ، وتقرير العقد . وسير فى قبول ذلك القاضى بهاء الدين بن شداد . وسيّر معه أشياء كثيرة من الخلع والإنعامات على سائر الأمراء والأعيان . ولما وصل إلى دمشق خرج إليه الأمراء الكبار وحكام الدولة ، وتلقوه مع جميع العساكر ، وأحضره[٢] إلى القلعة . وكان يوماً عظيماً ما شهد مثله . وكان النائب عن الملك العادل فى قبول العقد شمس الدين التيتى ، وعُقد العقد على مهر مبلغه خمسون[٣] ألف دينارٍ ولحوقاتها . ثم نثر الذهب على رءوس الناس . وجهز السلطان بعد ذلك ضيفة خاتون . ثم وصلت إلى زوجها الملك الظاهر ، وخرج تلقاها بنفسه ــ من أول أعمال حلب ــ بسائر جيشه . وكان عبُورها إلى قلعة حلب يوما مشهودا .

قال ابن الأثير فى تاريخه : إن من جملة ما وصل معها من التحف والقماش والمصاغ ما حمله مائة وخمسون بغلا . وقال أبو المظفر صاحب التاريخ : كان فى جملة الجهاز ثمانون هاون ذهب برسم المطبخ ، ومائة هجين قماش ملبوس وغيره ، وثلاثمائة حمل جمل فرش وطرح ، وأنطارُه زركش وغيرها . ومن الجوار الصغار أربعمائة وصيفة تُرك وقفجاق ، ومن الجوار الكبار فى المحامل والكجاوات مايحمله ألف جمل . وكان فى خدمتها مائة جارية مطربة ، يلعبون بأنواع الملاهى ، ومائة جارية للتطريز . ولمّا دخلت على الملك الظاهر قام لها قائما إحدى عشر دفعة . ثم قدّم لها خمسة[٤] عقود جوهر ليس لها قيمة فنذكرها ، خارجاً عن قلائد العنبر المفصلة باللؤلؤ الكبار ، والياقوت البهرمان ، ومائتى وسبعون ثوب أطلس معدنى قرمزى ، ومثلها

---

(١) فى المتن : « كرمان وتكريت » والصيغة المثبتة من الكامل لابن الأثير ــ حوادث سنة ٦١١ هـ .

(٢) كذا فى المتن .

(٣) فى المتن : « خمسين » .

(٤) فى المتن : « خمس » .

من المتاجر المكللة ، ومائتى قطعة من الذهب والفضة من صناعة الفرنج العجيبة ، وعشرين هجيناً مُوَسَّقة من الثياب المختلفة الألوان . وكان وصولها إليه أول شهر ربيع الأول من هذه السنة . وفى آخرها ولدت له الملك العزيز ، واحتفل له الملك الظاهر فى ولادته احتفالًا عظيماً . ثم أمر الصناع أن يقترحوا من سائر الأنواع والصنوف ، فعملوا من ذلك أشياء بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة . وكذلك تماثيل من سائر الأنواع ، مثل فهود من عود وعنبر وصندل ، ووحُوشٍ من جميع الأجناس مطممة بالذهب والفضة . وفتح للمولود بيتا ، وعبر الناس ، وأرموا عليه من الجواهر واليواقيت والبَلَخش واللؤلؤ والأموال ماحسبت قيمته مائة ألف دينار عين . ثم صنعوا له درعين فى كل درعٍ أربعين جوهرة كقدر بيض الحمام ، مفصلًا بالياقوت البهرمان . وصنعوا له بركستوان[1] جميعه لؤلؤ كبار ، وستة سرُوج مجوهرة ، وستة سيُوف محلاة مرصعة بعلائق ذهب مكللة ، ورماح ذهب وأسنتها بَلَخش . وفى يوم سبوعه ختَن الملك الظاهر ولده الملك الصالح صلاح الدين أحمد ، وكان يوماً عظيما ما شُهد مثله . وختن معه أربعمائة غلام من أولاد كبار الدولة . وختن ألف يتيم وأكساهم أفخر ملبوس . وعملت وليمة ما شاهد الناس مثلها ، والله أعلم .

وقال ابن واصل[2] : لما ولد الملك العزيز امتدحت الشعراء وصنعوا القصائد المنتخبة فى التهانى . فمن ذلك قول راجح الحلِّى من قصيدة مطلعها ، يخاطب الملك الظاهر :

نَعَم جادت الدنيا بما أنت آمله   فحسبك من آمالها ما تُقابِلُه
إذا ماهناء قال قوم: قد انقضت   أواخره كرَّت عليه أوائله
فياحبذا دهرًا بملكك أشرقت   على أهله أسحاره وأصائله
فلسنا نرى إلا نعيماً يديمه   صنيعك فينا أو سرورًا يواصله

---

(١) بركستوان، أو برك أسطوان ، غاشية الحصان أو الفيل المزركشة (المقريزى ، السلوك، ج ١ ص ١٧٧ ، حاشية ٥) .

(٢) مفرج الكروب، ج ٣ ص ٢٢١ – ٢٢٢ .

ومنها :

فلله مولود أنار به الهدى   وأسفر وجه المُلك واشتد كاهله

٣ تباشرت الدنيا بغُرّة وجهه   فبورك من نجلٍ وبورك ناجله

ومنها :

وتحمد منه سيرة ظاهريةٌ   بها تشمل الآفاق طُرًّا شمائلُه

٦ عليه خلالٌ من أبيه وجدِّه   تدل على أن البــلاد معاقِله

ومنها فى تطهير ولده الآخر [يعنى ولده الصالح] :

ورثت خليل الله منصبه الذى   سما والنجوم الزاهرات تطاوله

١٢ فأحييت بالتطهير سُنَّته وكم   تَبِعْت نبيًّا فى الذى هو فاعله

آخرها يقول :

فدُم ياغياث الدين للخلق رحمةً   تعمُّهم كالغيث طبَّق وابله

ذكر سنة اثنتى عشرة وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

المـــاء القديم أربعة أذرع فقط . مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا، وثمانية أصابع.

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين بحاله . والسلطان الملك العـــادل كذلك ، وقد توجه من دمشق ، ودخل القاهرة المحروسة فى شوال من هذه السنة .

وفيها كان ابتداء النيابة فى المدرسة العادلية بدمشق المحروسة .

وفى النصف من شعبان توفى سيدى الشيخ نور الدين أبى الحسن على بن حُميد المعروف بالصباغ رضى الله عنه ، ودفن بجبانة ناحية قنا، من عمل صعيد مصر ، بجوار قبر شيخه سيدى الشيخ عبدالرحيم العمارى(١) الحسينى، رضى الله عنه. وصحب الشيخ أباالحسن ــرضى الله عنهــ جماعة من الأولياء والصديقين والنجباء والصالحين، فـكان يقول رضى الله عنه : « أصحابى ستمائة رجل ، وما نال أحد بالديار المصرية ما ناله أصحابى ، سوى رجلين الشيخ مفرج بدمامن(٢) ، والشيخ أبو كريم ، بكورة البهنساوية ، رحمة الله عليهم أجمعين » .

وفيها توفى الشيخ الهروى ، وكان له عند الملك الظاهر صاحب حلب صورة كبيرة . وكان من كبار الصالحين ، رحمة الله عليه .

---

(١) كذا فى المتن ، والمقصود هنا شيخه سيدى عبد الرحيم القناوى ، انظر (حسن المحاضرة للسيوطى ، ج ١ ص ٥١٦) ؛ وكذلك ابن العماد ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (ج ٥ ص ٥٢ ، وفيات سنة ٦١٢ هـ) .

(٢) ربما يعنى أن الشيخ مفرج من بلدة دمامن . وجاء فى معجم البلدان لياقوت ، وكذلك فى التحفة السنية لابن الجيعان (ص ١٩٣) أن دمامين قرية كبيرة بالصعيد شرق النيل على شاطئيه ، شمالى قوص .

قال ابن واصل[١] : فى هذه السنة كان استيلاء الملك المسعود أقسيس بن الملك الكامل محمد بن السلطان الملك العادل أبو بكر على اليمن . وقبض على سليمان شاه وزوجته ، وسيرهما مكرمين إلى الديار المصرية ، حسبما ذكرناه .

وفيها كانت وفاة على بن الإمـــام الناصر ، الذى كان نقل إليه العهد من أخيه واستقر العهد فيه .

قال ابن واصل أيضاً: إن فى هذه السنة ملك[٢] الرُّوم من الإفرنج مدينة أنطاليا، وصاحبها السلطان عز الدين كيكاوس ، وقتلوا من بها من المسلمين ، ثم استنقذها واستعادها منهم .

قال: وفيها ملك ابن لاون الأرمنى مدينة أنطاكية من الشام، وأحسن إلى أهلها، فأحبه[٣] أهلها لظلم صاحبها الابرنس، وأطلق جماعة من أسرى[٤] المسلمين كانوا بها .

(١) مفرج الكروب ، ج ٣ ص ٢٢٧ وما بعدها .
(٢) فى المتن : « ملكوا » .
(٣) فى المتن : « لحبوه » .
(٤) فى المتن : « أسرا » .

ذكر سنة ثلاث عشرة وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

المـــاء القديم أربعة أذرع وأربعة أصابع . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا وعشرة أصابع .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين بحاله . والسلطان الملك العادل كذلك . والملك الـكامل — ولده — مَلِك الديار المصرية .

وفيها عزل القاضى عماد الدين بن عبد العلى من الحـكم والخطابة ، وتولى الحـكم بالقاهرة — مع الجانب الغربى والبحرى — القاضى شرف الدين محمد بن عز الدولة . وتولى مصر مع الوجه القبلى القاضى تاج الدين عبـــد السلام الدمياطى ، المعروف بابن الخياط . وتولى الخطابة بالقاهرة الفقيه بهاء الدين بن الحميدى ، وبمصر الفقيه طاهر الحلى .

وفيها تحركت الملـكة صاحبة عكا[١] ، لما قدم عليها أخوها فى البحر، يسمى الملك نفرى ، وكان فى خَلْقٍ عظيمٍ ، ونزل بعكا . وصار يركب ويسير إلى القيمون[٢] وغـيره . نخشِيَهُ الملك العادل ، فجرد له إسماعيلى فضربه خمسة سكاكين ، فمات ، وقتل الإسماعيلى .

وفيها توفى الملك المعظم أبو الحسن على بن الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين .

وفيها وقع بالبصرة بَرَد كثير — قدر كوز الفقاع — حتى كسر رءوس النخل، وقتل كثيراً من الناس والحيوان .

---

(١) كانت مملـكة الصليبيين فى عكا عندئذ (سنة ١٢١٦ م) تحكمها الملـكة إيزابلا أويولاند، وهى طفلة صغيرة ، فقام بالوصاية عليها أبوها حنا دى برين (سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٩٥٢) .

(٢) قيمون، بالفتح ثم السكون، حصن قرب الرملة من أعمال فلسطين (ياقوت، معجم البلدان).

وفيها اتفق الملك الغلاب عز الدين كيكاوس بن كيخسرو السلجوقى مع الملك الظاهر صاحب حلب ، على لاون ملك الأرمن . ودخل عز الدين كيكاوس من مرعش ودخل الملك الظاهر من درب ساك ، فأحرقوا سيس ونهبوا منها شيئاً كثيراً(١) .

قال ابن واصل(٢) : إنه لم ينتظم للملك الظاهر وصاحب الروم أمر ولا كان بينهما اتفاق . وإن الملك الظاهر سير استشار السلطان فى ذلك فمنعه . وأن ابن لاون هادى الملك الظاهر وراسله ، فحصل الصلح بينهما . ولم يتوجه الظاهر ولا [أرسل] جيشاً من حلب إلى معونة كيكاوس صاحب الروم. وذكر ماذكرناه فى التوجه أبوالمظفر، والله أعلم كيف كان .

وفيها أرسل الملك الظاهر القاضى بهاء الدين بن شداد إلى السلطان الملك العادل يسأله أن يكون المُلك بعده لولده الملك العزيز ابن بنت السلطان ، ولا يغير عليه شيئاً بعد وفاته . وطلب بنت الملك الكامل لولده الملك العزيز . فلما قدم بهذه الرسالة قال السلطان : « أما المُلك فهو لولده ولا أغير عليه حسبما سأله . وأما الزواج فما هو لى، ولكن امض إلى أبيها الملك الكامل » . فمضى إلى الملك الكامل وتحدث معه ، فتبسم معه وقال : « مَن لى بابن عمى وابن أختى ، لحمى ودمى » . وأنعم له بذلك .

وفى آخر هذه السنة توفى الملك الظاهر صاحب حلب ، رحمه الله تعالى . واستقر الملك العزيز صاحب حلب مكان أبيه ، ولم يغير عليه شيئاً .

قال ابن واصل(٣) : كانت وفاة الملك الظاهر ليلة الثلاثاء التاسع والعشرين من جمادى الآخرة من سنة ثلاث عشرة وستمائة . وكان كتب وصية أن يكون ولده

---

(١) فى المتن: « شىء كثير » . وقد ذكر ابن واصل (مفرج الكروب ، ج ٣ ص ٢٣٦) أن الملك الظاهر أعرض عن الحركة لنصرة عز الدين وذلك بناء على نصيحة عمه العادل .

(٢) مفرج الكروب ، ج ٣ ص ٢٣٤ ــ ٢٣٥ .

(٣) مفرج الكروب ، ج ٣ ص ٢٤١ ، ويلاحظ أن ابن واصل قال إن وفاة الملك الظاهر كانت ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة .

الملك العزيز بعده ، ثم يكون ولده الملك الصالح أحمد بعد العزيز ، ثم يكون الملك المنصور بن العزيز بن السلطان صلاح الدين بعده ؛ وهو الذى أخرجه الملك العادل من ملك مصر .

قال : وزوج الملك المنصور المذكور بابنته قبل وفاته بيوم واحد ، وأوصى له بشىء كثير ، وجعل أتابكية ولده للأمير شهاب الدين طغريل ، فقام بخدمة هذا البيت أتم قيام ، ووفى من الأمانة ما لا وفّى به غيره . ولم يعتمد ما اعتمده بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فى حق بيت مخدومه من إزالة الأمر عنهم ، وتخصيصه إياه . فكان لؤلؤ بالضد من الأتابك شهاب الدين، رحمه الله. وأحضر الملك الظاهر - قبل وفاته - الريس جمال الدين على بن صفى الدين بن الطريرة ، وأخلع عليه ، وقلده رياسة حلب ، وكانت لأبيه من قبله .

قال : وبعث فى ذلك اليوم لكل واحدٍ من إخوته جملة مال ، وأعتق مائة مملوك ومائة جارية ، وأزوجهم بهن ، ورتب لهم كفايتهم ، وفعل من الخير ما يضيق عنه الوصف ، رحمه الله تعالى(١) .

بقية ذكر الظاهر : وكان الملك الظاهر صاحب حلب ، رحمه الله ، ملكاً جواداً سمحاً أديباً فاضلًا . قيل إن أبا المحاسن ماجد بن محمد كتب إليه أبياتا منها(٢) :

أما وضجيج قهقهة القناني   وأصوات المثالث والمثاني
لقد أضحى الشآم يتيه عجباً   بملكٍ ما له فى الأرض ثاني

فكتب جوابه يقول :

طلبنا الدُّرَّ من بحر المعانى   وعَذْب اللفظ من عضْبِ اللسان
وهل تجنى ثمار الفضل إلا   فروع أصلها حلو المجانى
فلا عجب أن استسقيت غيثا   أو استسقيت منطلق العنان
وأنت السابق الغايات فضلًا   إذا ما قصَّرتْ خَيْل الرِّهانِ

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .
(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ص ٢٤٥ .

فأهــلًا، ثم أهــلًا، ثم أهــلًا   بما أرسلتَ من سِحر البيانِ

قلت : لعل هذا الشعر يعتد به فى طبقة المطرب من طبقات الشعر ، لجودته ، وسلاسته ، وحسن توصيفه ، وبراعة معانيه ، رحم الله قائله .

وكان عمر الملك العزيز بن الظاهر ــ لما جلس فى الملك عند وفاة أبيه ــ سنتين وأشهر ، وعمر أخيه الملك الصالح أحمد ولى عهده نحو اثنتى عشرة سنة . ووقع فى ذلك منازعات كثيرة من أعمامه أولاد السلطان صلاح الدين ، مثل الملك الزاهر ، والملك الظافر وغيرهم . وآخر الأمر استقر الحال خشية من جده الملك العادل الكبير .

ولما مات الملك الظاهر المذكور رثاه شرف الدين بن راجح الحلى يقول :

سَلْ الخطبَ إن أصْغَى إلى من يخاطبه   بمن عَلِقت أنيابُه ومخالبُه

أرى اليوم دَسْتَ الملك أصبح خالياً   أما فيكمُ من مُخْبِرٍ أين صاحبه؟

ومنها :

فإن يكُ نورٌ من شهابك قد خفا   فيا طالما جَلَّى دُجى الليل ثاقبه

وقد لاح بالملك العزيز محمــد   صباح هُدًى كنَّا قديما نُراقبــه

فتًى لم يفته من أبيــه وجَدِّه   أب ثم جَدٌّ غالب من يغالبــه

ومنها يخاطب الملك العزيز وأخاه الملك الصالح بقوله :

أيمكث بالشهباء عبدُ أبيكم   ومادحُه أم تستقل ركائبه

فلما سمع شهاب الدين أتابك هذا البيت قال: « قولوا لهُ يرحل فلا حاجة بنا إليه، فإنا لا نعطى الشعراء شيئًا » .

قال : ثم امتدح شهاب الدين ــ بعد عدة مراثى عملها فى الظاهر ــ فلم يجزه عليها شيئًا . وأمر شهاب الدين بقطع ما كان له مرتباً ، ففارق حلب ، وصار إلى الملك الأشرف ، فحظى عنده . وبقية ما لخصناه فى الصفحة الأخرى[1] .

---

(١) كذا فى المتن .

ذكر سنة أربع عشرة وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

المـــاء القديم أربعة أذرع وأربعة عشر أصبعا . مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا ، واثنان وعشرون أصبعا .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين بحاله . والسلطان الملك العادل كذلك . وبقية الملوك فى محل ممالـكهم على ما هم عليه .

وفيها توجه السلطان الملك العادل من الديار المصرية إلى الشام ، وخيم بنابلس ، وانتقل إلى بيسان . وكان الفرنج ـ خذلهم الله ـ محاصرين الطور ، فلما بلغهم توجه السلطان إليهم رحلوا عنها خاسرين ، بعـد ما قتل من كبارهم عدة . ثم إنهم تجمعوا وخرجوا على العساكر السلطانية بمنزلة بيسان ، فرحل السلطان عنها ، ونزل على مرج الصفر . ثم غاروا على تبنين وبانياس ، ولم يحصلوا على شىء ورجعوا خائبين خاسرين . وأخذ ابن ملـكهم أسيراً ، مع عدة جيدة من خيالتهم .

وفيهـا وردت على السلطان عيونه أن الفرنج ـ خذلهم الله ـ فى تجهيز عظيم ، وأنهم طالبين جميع بلاد الإسلام ، فاهتم السلطان الملك العادل فى تحصين سائر الثغور الإسلامية وعمائرها ، وإزاحة جميع أعدارها[١] .

وفيها زادت دجلة زيادة عظيمة ، وغرقت بغداد بأسرها ، وانهدمت قصورها ودورها . وركب الإمام المسترشد بالله فى شبارية[٢] وخاطب الناس ، واعتذر لهم ، وجعل يتأوه ويقول : « لو كان هذا الماء يُرَدُّ بمال أو برجال لدفعته عنكم ، ولـكن أمر الله لامرد له » . وزاد الماء أمراً عظيماً[٣] إلى أن وصل السور ، وأيقن الناس

---

(١) العدر: المطر الشديد ، واعتدر المـكان كثر ماؤه وابتل من المطر (القاموس المحيط) . وربما كان المقصود بالأعدار المستنقعات ونحوها .

(٢) الشبار والشبارة نوع من السفن عرف فى العراق «وهى عندهم الحراقة عند أهل مصر» .
(Dozy: Supp. Dict. Ar.)

(٣) فى المتن : « أمر عظيم » .

بالهلاك . ودامت كذلك سبعة أيام ، ثم نقص الماء ، وعادت بغداد تلال خراب من الجانبين . وهذه غرقة أخرى غير الأولى[1] المقدم ذكرها .

ذكر توجه السلطان خوارزم شاه إلى نحو بغداد

فى هـذه السنة قدم السلطان خوارزم شاه محمد بن تكش السلجوقى إلى همذان طالبا بغداد ، فى أربعمائة ألف عنان ـ وقيل فى خمسمائة ألف عنان ـ واستعد له الإمام الناصر لدين الله ، وفرّق الأموال والسلاح . وسير إليـــه الشيخ شهاب الدين السهروردى[2] ـ المقدم ذكره ـ رسُولًا ، فأهانه ، واستدعاه ، وأوقفه إلى جانب تخته ، ولم يأمره بالجلوس . وعن أبى المظفر قال : حدثنى الشيخ شهاب الدين السهروردى[3] قال : استدعانى السلطان علاء الدين خوارزم شاه ، فأتيت ، فدخلت إلى خيمةٍ عظيمةٍ ، فيها دهليز لم أر فى الدنيا مثله . وتلك الخيمة والشقة والدهليز أطلس معدنى قرمزى . والأطناب حرير أبريسم[4] . وفى ذلك الدهليز ملوك عراق العجم على اختلاف طبقاتهم ، مثل صاحب همذان ، وصاحب أصفهان ، وصاحب الرى ، وغيرهم . ثم دخلتُ إلى خيمةٍ أخرى أعظم من الأولى أطلس معدنى قرمزى ، بنوارات زركش ، وأطناب حرير . وفى دهليزها ملوك خراسان مثل صاحب مرو ، وصاحب نيسابور ، وصاحب بلخ ، وغيرهم . ثم دخلتُ إلى خيمةٍ أعظم من الأولتين ، وملوك ما وراء النهر فى دهليزها . ثم دخلتُ إلى خركاة عظيمة ، أضلاعها ذهب عين ، وعليها سجاف مرصع بالجواهر ، يأخذ بالبصر . ثم دخلنا عليه ، فوجدناه فى خركاة حسب العادة ، مغشية بلبد أبيض ، وهو جالس على تخت ساذج . وهو شاب بوجهٍ كالترس ، ورأسه

(١) فى المتن : « الأوله » .

(٢ـ٣) فى المتن : « الشهرزورى » وقد سبق تصحيح الإسم .

(٤) ذكر دوزى أن «أبريسم» هو خيط الحرير ونسجه (Dozy: Supp. Dict. Ar.).

كرأس البغل، وله شعرات يسيرة فى وجهه، وعليه قباء بخارى يساوى خمس دراهم[1]، وعلى رأسه قطعة من جلد تساوى درهمين . قال الشيخ شهاب الدين : فسلمتُ عليه ، فلم يرد علىّ ، ولا أمرنى بالجلوس . فشرعت ، فحمدت الله عز وجل ، وخطبت خطبة بليغة ، ذكرت فيها فضل بنى العباس ، ووصفت الخليفة بالزهد والورع والدين ، والترجمان يردّ عليه قولى . فلما فرغت من كلامى قال للترجمان: «قول له هذا الذى تصفه ما هو هذا الذى فى بغداد ، وإنما أنا أجيء إن شاء الله تعالى إلى بغداد ، وأقيم خليفةً يكون بهذه الأوصاف» . ثم ردَّنا بغير جواب . ثم رحل ونزل بلخ ، فأرسل الله عز وجلّ على جيشه ثلجا عظيماً ، ما نظروا مثله ، أهلك دوابهم ، ووقع كثير من أطارف قومه من قوة الثلج الذى نزل بهم . ثم إن خوارزم شاه ركب يوماً فرسه ، فعثر به أطاحه من سرجه ، فتطيّر من ذلك ، ووقع فى عسكره الفساد . وكان معه سبعين ألف من الخطاء ، فاختلفوا عليه ، فعاد إلى بلاده فى تلك السنة . هذا ما ذكره أبو المظفر .

وأمّا ما ذكره الشيخ شهاب الدين أبو شامة قال: نسخت من كتاب محمد بن محمد ابن أحمد النسوى ، الجـامع لأخبار التتار مع السلطان علاء الدين خوارزم شاه ومع ولده السلطان جلال الدين منكبرتى[2] ، وقد اختصرت ما أمكن تلخيصه. حكى القاضى مجير الدين الخوارزمى أن السلطان علاء الدين سير مراراً[3] إلى بغداد، آخرها بمطالبة الديوان بما كان لبنى سلجوق من الحكم ، والنزول ببغداد ، فأبوا عليه ذلك ، وأنفذوا إليه الشيخ شهاب الدين السهروردى[4] رسُولًا ، مدافعاً لما طلب من الديوان العزيز . وكان عند السلطان علاء الدين من حسن الاعتقاد ما أوجب تخصيص الشيخ برفيع المنزلة ، ومزيد الاحترام ، ما يميز به عن سائر الرسل الواردة عليه من سائر الأقطار . وأنه لما دخل إليه الشيخ ، أقبل عليه وأكرمه وأجلسه .

---

(١) فى المتن : « الدراهم » .

(٢) فى المتن : « منكبرى » .

(٣) فى المتن : « مرار » .

(٤) فى المتن : « الشهرزورى » .

فقال الشيخ : « من سُنَّة الداعى لهذه الدولة القاهرة أن يقدم على أداء الرسالة حديثاً من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم » . فأذن له السلطان فى ذلك ، وجلس على ركبتيه تأديباً لسماع الحديث . فذكر الشيخ حديثاً فيه تحذير من أذيَّة أقاربه. فلما فرغ الشيخ من رواية الحديث ، قال السلطان: « أنا ما أذيت أحداً من أقاربه، ولا من آل العباس، ولا قصدتهم بسوء . وقد بلغنى أن فى مجلس أمير المؤمنين منهم خلق كثير مخلدين ، يتناسلون فى الحبوس . فلو أورد الشيخ هذا الحديث بعينه على مسامع أمير المؤمنين كان أولى وأنفع ». فعاد الشيخ والوحشة قائمة. ثم عزم السلطان علاء الدين على طلب بغداد ، وقسم نواحيها إقطاعاتٍ لعمالٍ من قبله . وسار حتى عـلا عقبة أسداد[1] فنزلت عليه الثلوج حتى ملأت[2] عليه الأباطح وغطت الخراكى والخيام .ودام كذلك أسبوعين ، فشمل الهلاك خلقاً من عساكره ، ولم ينج شيء من الجمال ، وتلفت أيدى أناسٍ كثيرة ، فرجع عن وجهه ، وسيأتى تتمة أخباره فى مكانها[3] .

وفيها كان جفل السلطان الملك العادل من الفرنج لما خرجـوا عليه بجموعهم ، ووصلوا إلى عين جالوت فأحرقوها . وطلع السلطان إلى قلعة عجلون ، وقطع الفرنج خلفه الأردن ، وأوقعوا بالبزك ، وغاروا على البلاد . وورد المرسُوم إلى المعتمد والى دمشق بالاهتمام والاستعداد ، واستخدام الرجال ، وتدريب الدُّروب على قصر حجاج[4] والشاغـور[5] وطرق البساتين . ونقلت غلة داريا إلى القلعة بدمشق . وغرقوا الأراضى بالمياه لأجل الفرنج الملاعين ، وقصدهم إلى دمشق . وأرسل السلطان

---

(١) كذا فى المتن ؛ وربما كان المقصود « عقبة بغداد » التى ذكرها ياقوت (معجم البلدان)، وقال إن العقبة وراء نهر عيسى قريبة من دجلة بغداد . والعقبة الجبل الطويل يعرض للطريق فيأخذ فيه .

(٢) فى المتن : « ملت » .

(٣) انظر ابن الأثير ، الكامل ـ حوادث سنة ٦١٤ هـ .

(٤) قصر حجاج ، محلة كبيرة فى ظاهر باب الجابية من مدينة دمشق ، منسوب إلى حجاج بن عبد الملك بن مروان (ياقوت ، معجم البلدان) .

(٥) الشاغور : محلة بالباب الصغير من دمشق (ياقوت ، معجم البلدان) .

إلى ملوك الشرق يستحثهم . ثم نزل السلطان على مرج الصفار ليجتمع العساكر فيه . ووقع عند ذلك الجفل العظيم، وعزم الناس على[1] النزوح عن أوطانهم بدمشق. وعاد للناس ضجيج وبكاء وتضرع إلى الله عز وجل فى أوقات الصلوات بالجامع . ثم إن الفرنج ـ خذلهم الله ـ عادوا إلى عكا بجميع ما احتووا عليه من الأسارى وكانت غاراتهم وصلت إلى زحر[2] وإلى فيق[3] وغيرها . ثم وصل الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص بمن اجتمع إليه من العساكر لنجدة الناس، ودخل من باب الفرج بعد جهد جهيد لازدحام الناس. ومضى من فوره إلى دار ست الشام ـ أخت السلطان الملك العادل ـ فسلم عليها . ثم عاد إلى داره وبات بها . وأصبح متوجها إلى خدمة السلطان ، فعند ذلك سكنت نفوس الناس .

وكان الملعون ملك الفرنج فى ذلك الوقت وجامع حشودهم يقال له الملك العنكر[4]، وكان فى خمسة عشر ألف قنطارية فرسان ، خارجاً عن الرجالة . وكان هذا الملعون شجاعاً مقداماً . قال أبو المظفر : لما رجع هذا الملعون بمن معه من خربة اللصوص ، ووصلوا إلى تل الفرس. ثم رحلوا ونزلوا تحت الطور يوم الأربعاء ثامن عشر شعبان، وأقاموا إلى يوم الأحد ثانى رمضان ، وكان يوماً كثير الضباب . فما شعروا بهم أهل الطور إلا وهم عند الباب ، وقد ألزقوا رماحهم السور[5] . فعند ذلك فتح المسلمون الباب ، وخرج إليهم الفارس والراجل ، وقاتلوهم أشدَّ قتال ، حتى رمُوهم إلى أسفل

---

(١) فى المتن : « عن » .

(٢) كذا فى المتن. وربما كانت قرية من قرى سواد دمشق ، انظر: (مفرج الكروب لابن واصل ج ٣ ص ٢٥٥ ؛ الكامل فى التاريخ لابن الأثير ـ حوادث سنة ٦١٤ هـ) .

(٣) يعنى عقبة فيق (المقريزى ، السلوك ، ج ١ ص١٨٦ ؛ مفرج الكروب لابن واصل ، ج ٣ ص ٢٥٥) .

(٤) كذا فى المتن . ويشير المؤلف إلى ما حدث فى تلك السنة (١٢١٧ م) من وصول حملة صليبية من الغرب جلها من الهنغاريين والألمان ، تحت زعامة ليوبولد السادس دوق النمسا وأندريه الثانى ملك هنغاريا ، ثم لحق بهما فى الشام هيو ملك قبرس . وكان ملك الصليبيين فى عكا عندئذ هو حنا دى برين ، انظر : (سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٩٥٧) .

(٥) فى المتن : « الصور » .

الطور . فلما كان يوم الثلاثاء رابع الشهر المذكور، طلعوا بأسرهم ، وصحبتهم سلم عظيم ، فزحفوا من ناحية المرامى من نحو باب دمشق . ولم يزالوا حتى ألزقوا السلم السور[1] ، فقاتلهم المسلمون قتالًا لم يعهد فى جاهلية ولا إسلام مثله ، لشدته : ودخلت رماح الملاعين من المرامى من كل ناحية ، فضرب بعض الزراقين السلم بقارورة نفط أحرقه ، وقتل عنده جماعة كبيرة من أعيان الفرنج ، وقتل كند كبير من كبارهم . فلما رأوه صاحوا صيحة عظيمة ، وكسروا رماحهم عليه . واستشهد فى ذلك اليوم من المسلمين من الأمراء بدر الدين محمد بن أبى القاسم ، وسيف الدين مرزبان ، وكانا من الأمراء الأجواد الصلحاء ، رحمهما الله تعالى . وغلقوا الأبواب ، وباتوا يداوون الجرحى[2] ، واتفقوا أنهم يقاتلون قتال الموت ولا يسلمون أنفسهم ، فيجرى عليهم كما جرى على أهل عكا . وكان فى الطور أبطال المسلمين . وأوقد[3] الفرنج حول الطور النيران. فلما كان يوم الخميس سادس رمضان وقت السحر رحل[4] الفرنج طالبين عكا ، ولم يعلم لذلك سبب . ثم إن الملك المعظم وصل الطور ، وأطلق الأموال ، وأخلع على سائر مَن كان بها ، وشكر لهم ماصنعوه .

وفيها جلس الملك العزيز بن الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين على كرسى مملكة حلب .

وفيها تتابعت إمداد الفرنج وملوكها فى البحر من المرقية[5] والبنادقة ، وهما كرسى مملكة الرومانية ، وهى التى فيها الباب الكبير ، الذى يزعمون أنه الخليفة عندهم . ثم تتابعت ملوكهم أولًا فأولًا ، وحلفوا أن لا بد لهم من البيت المقدس والشام والساحل بكماله . فلما بلغ السلطان الملك العادل ذلك ــ وكان بالديار المصرية ــ

---

(١) فى المتن: « الصور » .

(٢) فى المتن: « الجرحا » .

(٣) فى المتن : « وأوقدوا » .

(٤) فى المتن : « رحلوا » .

(٥) كذا فى المتن ، وفى السلوك للمقريزى « من روما وغيرها إلى عكا » .

جمع العساكر ، وخرج بنية الغزاة وحمى بلاد الإسلام. وقصد الشام، وبث العساكر من الداروم إلى الرملة . ولما بلغ الفرنج ذلك قصدوه بخيلهم ورجلهم . ولم تكن العساكر تكملت بعد عند السلطان . وكان حَذوراً ، فرحل من مرج الصفار ، وطلب دمشق ، وجعلها ظهره . فعند ذلك غارت الفرنج على البلاد الإسلامية ، وأخذوا من بيسان وأعمالها خلقاً كثيراً[1] ، وسفكوا وقتلوا ونهبوا وأحرقوا . ووصلت غاراتهم إلى جينين . ثم أقاموا على بانياس ثلاثة أيام ، ثم رجعوا بالأموال والغنائم والأسرى[2] إلى عكا . ثم عادوا إلى صيدا والشقيف ، ثم رجعوا إلى عكا . ولم يزالوا كذلك إلى النصف من رمضان المعظم . ثم إن السلطان عيَّد بدمشق عيد الفطر ، وخرج طالبا للعدو ، وحلف لابد له منهم . فبينما هو راكب إذ رأى شيخاً كبيراً ، وعلى رأسه حملة كبيرة ثقيلة ، وهو يعدو بها ، فقال له السلطان : « لا تعجل ياشيخ، وتمهّل على نفسك »، فالتفت إليه الشيخ وقال : « ماتستحى من الله يا سلطان الإسلام ، إنك قد أسلمتنا لعدونا ، وتقول على مهلك » . فكانت هذه الكلمة أشد ما يكون عليه وخنقته العبرة . ثم أمر ولده الملك المعظم عيسى أن يأخذ العساكر ويسير إلى الفرنج ، ويردهم عن البيت المقدس . ومضت سنة أربعة عشر وستمائة والحروب بينهما سجال .

ذكر أولاد الشيخ وأصلهم[3]

قال ابن واصل : فى هذه السنة – أعنى سنة أربع عشرة وستمائة – عاد الشيخ صدر الدين بن حمويه من بغداد ، وكان قد توجه إليها رسولًا من الملك العادل إلى الديوان العزيز . قال : وكان صدر الدين هذا جليلًا معظماً عند الملك العادل . وكان أبوه الشيخ عماد الدين قدم إلى الشام فى الأيام النورية ، ففوّض إليه السلطان الشهيد

(١) فى المتن : « خلق كثير » .

(٢) فى المتن : « الأسرا » .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب، ج ٣ ص ٢٥٧ .

نور الدين محمود بن زنكى مشيخة الصوفية بالشام ، وجعل إليه نظر الخانقاه بدمشق وغيرها ، إلى أن مات. صار بعد ذلك النظر لولده الشيخ صدر الدين. وولد لصدر الدين
٣ أولاد نجباء من ابنة شهاب الدين بن شرف الدين بن أبى عصرون ، وهم فخر الدين وعماد الدين وكمال الدين ومعين الدين ، فتقدموا فى الأيام الكاملية غاية التقديم ، وسيأتى من أخبارهم ما يليق بمواضعها .

ذكر سنة خمس عشرة وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

المـاء القديم ستة أذرع وستة أصابع . مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا وسبعة أصابع .

مالخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمـير المؤمنين ، مستمر الملك ، قائم السلطان . والسلطان الملك العادل سلطان الإسلام . وبقية الملوك على ما هم عليه .

ذكر الوقعة العظمى على ثغر دمياط وابتدائها

لمّـا كان فى ثانى شهر ربيع الأول من هذه السنة ، وصلت الفرنج ـ خذلهم الله ـ إلى ثغر دمياط المحروس ، وعبروا بمراكبهم كلها من الفم ، وخيموا ونصبوا المناجنيق الغريبة والشيطانية ، ورمُوا الثغر . ووقع الحصار والجدّ والقتال . وكان السلطان الملك العادل نازلا[١] على مرج الصفّار ، وبعث بالعساكر إلى ولده الملك الـكامل . وأقام الملك المعظم بساحل الشام مقابل الفرنج خوفا على الساحل منهم . هذا والملك العادل مريض عاجز[٢] عن الحركة والركوب . ونزل الملك الـكامل ليلة الثلاثاء سابع عشر شهر جمادى الآخرة بثغر دمياط ، ووصل مخيم عساكره إلى أشموم .

وفيها أخربوا[٣] الطور لما رأوه وبالًا على المسلمين ويشغلهم عما سواه . وكان فى يد الملك المعظم ، فعوض عنه أموالا جزيلة . ونقلوا جميع ذخائر القلعة إلى القدس وعجلون والـكرك . وكان الطور قد أنشأوه فى سنة سبع وستمائة .

---

(١) فى المتن : « نازل » .

(٢) فى المتن : « مريضا عاجزا » .

(٣) يعنى أن المسلمين هم الذين أخربوا قلعة الطور ، انظر : ابن الأثير ، الـكامل ـ حوادث سنة ٦١٤ هـ . ويذكر أبوشامة (ذيل الروضتين ، ص ١٠٩) أن العادل استدعى ولده المعظم وقال « قد بنيت هذا الطور وقد يكون سببا لخراب الشام . . . ورأى من المصلحة خرابه ليتوفر من فيه من المسلمين والعدد على حفظ دمياط » .

وفيها ـ فى يوم الجمعة ثانى عشر ربيع الآخر ـ كَسَرَ الملك الأشرف موسى ابن السلطان الملك العادل لملك الروم كيكاوس السلجوقى . وسبب ذلك أن الملك الأشرف جمع عساكر الشرق وعسكر حلب، ودخل بلاد الفرنج وأشغلهم عن دمياط، ونزل على صافيتا وحصن الأكراد . وكان السلطان [العادل] ببرج الصفار مريضا ، حسبما تقدم من القول ، فاستغنم صاحب الروم غيبة الأشرف بالعساكر ، واشتغاله بالفرنج ، وخرج إلى رعبان يريد يتسلم حلب لخلوها من العساكر . وأخذ رعبان وتل باشر ، فبلغ الملك الأشرف ذلك، فعاد من صافيتا إلى حلب وقد سبقه صاحب الروم إلى منبج ، وتقدم بعض عسكره إلى بزاعة . وكان الملك الأشرف بظاهر حلب. وتقدم بين يديه المبارز بن خطلخ وسنقر الكبير والحلبيون[1] مع جماعةٍ من مشاهير الجيش . ونزل الملك الأشرف بعدهم على تل بزاعة . وقدم العرب بين يديه ، والتقى بعسكر الروم . وكان الملك الأشرف مؤيداً فى سائر حروبه ، فكسر صاحب الروم كسرة شنيعة . وكانت العرب أكثر نكاية فيهم . ثم استرد الملك الأشرف رعبان وتل باشر ، وأعطاها للملك العزيز صاحب حلب. ثم بعث الأشرف سيف الدين ابن كهدان والمبارز بن خطلخ فى عسكرٍ كثيفٍ إلى خدمة أخيه الملك الكامل، وهو على ثغر دمياط .

وفى آخر جمادى الأولى أخذ[2] الفرنج ـ خذلهم الله ـ المنازل على دمياط ، وملكوا برج السلسلة . وكان هذا البرج قفل الديار المصرية . فنفذ الملك الكامل إلى أبيه السلطان العادل صدر الدين شيخ الشيوخ ، يخبره بذلك ، ويستصرخه ويستنجده . فلما اجتمع به وكان على حطة من المرض فعرفه ، فدق بيده على صدره ، وكان سبَب وفاته ، رحمه الله ، كما يأتى بيان ذلك فى موضعه ، إن شاء الله تعالى . قال الشيخ علم الدين السنجارى : إن هذا البرج كان قفل الديار المصرية ، وذلك أنه كان برجاً عالياً بنى فى وسط النيل ، وفى ناحيتيه سلسلة وسلسلة ، تمتد إحداهما على النيل

(١) فى المتن : « والحلبيين » .
(٢) فى المتن : « أخذوا » .

إلى دمياط، وتمتد الأخرى على النيل إلى الجزيرة، يمنعا من عبور المراكب إلى بحر النيل من المالح . فملكوه الملاعين فى التاريخ المقدم .

وفيها توفى السلطان الملك العادل ــ رحمه الله ــ حسبما يأتى من ذكره فى موضعه ، إن شاء الله تعالى .

وفيها توفى الملك القاهر عز الدين صاحب الموصل ، وهو عز الدين مسعود ابن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكى بن آقسنقر . وكانت وفاته لثلاث بقين من شهر جمادى الأولى . وكانت مدة ملكه سبع سنين وتسعة أشهر . وانقرض بانقراضه البيت الأتابكى ، رحمهم الله تعالى .

ذكر وفاة السلطان الملك العادل

توفى إلى رحمة الله تعالى سابع جمادى الآخرة من هذه السنة ، وله من العمر ست وسبعون سنة وأشهر . وملك دمشق فى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ، فكانت[1] مدة ملكه دمشق ثلاث وعشرون سنة . وملك مصر سنة ست وتسعين وخمسمائة ، فكانت مدة ملكه بمصر والشام والشرق تسع عشرة سنة . وخلف من الأموال والفصوص والجواهر ما قيمته سبعمائة ألف دينار ، خارجاً عن الضياع والكراع . وخلف فى الكرك مثلى ذلك ، لكن احتوى عليه الملك الحافظ ولده ، فإنه كان نائباً للسلطان والده بالكرك . وكان للسلطان الملك العادل خمس عشر ولداً وقيل سبعة عشر ذكراً ، خارجاً عن البنات وهم : الملك الأوحد [أيوب] نجم الدين صاحب أخلاط ، والملك الفائز شمس الدين إبراهيم ، والملك المغيث تقى الدين عُمر ، والملك المعظم شرف الدين عيسى صاحب دمشق ، والملك العزيز عماد الدين عثمان ، والملك الأمجد مجد الدين حسن ، والملك الأشرف مظفر الدين موسى ، والملك المعز

(١) فى المتن: « فكان ».

مُجير الدين يعقوب ، والملك الصالح عماد الدين إسماعيل أبوالجيش ، والملك المفضل[١] قطب الدين أحمد[٢] ، والملك الأمجد[٣] تقى الدين عباس ـ وهو أصغرهم مولدا وآخرهم موتا ـ توفى سنة تسع وستين وستمائة ، والملك الحافظ نور الدين أرسلان شاه ، صاحب قلعة جعبر . وتاج الملوك إسحاق ، والملك المظفر صاحب ميافارقين شهاب الدين غازى، أدرك هلاوون[٤] وفتحه بغداد . والملك الجواد شمس الدين داود ـ توفى فى حياة أبيه ـ وخلف ولده الملك الجواد أيضا الذى ملك دمشق . والسلطان الملك الكامل ناصر الدنيا والدين محمد صاحب مصر أعلاهم ملكاً وأسماهم رتبة ، وصاحب السكة والخطابة .

وفيها التقى الملك المعظم الفرنج فى جمادى الآخرة على القيمون، فنصر الله الإسلام على عبدة الصلبان ، ببركات النبى عليه السلام. وقتل من الفرنج خلقٌ كثيرٌ ، وأسر من فرسان الديوية مائة فارس ، وعبر بهم إلى القدس وأعلامهم منكسة .

وفيها اجتمعت سائر ملوك الفرنج ونازلوا ثغر دمياط . وعادت الأمداد تمدهم أولًا فأولًا . أجمعت الرواة من أرباب التواريخ أن الحرب لم تزل بين الفريقين ، ليلًا ونهاراً ، وصباحاً ومساءًا ، مدة أربع سنين متوالية ، حتى عادوا[٥] أولاد المسلمين وأولاد الفرنج الصغار يخرجون ويتصافقون ، ويأسرون بعضهم البعض ، ثم يتفادون فيما بينهم . فبينما الملك الكامل فى أشد الأمر من حرب الفرنج ، إذ ورد عليه الخبر بموت السلطان والده الملك العادل. وكان من جملة الأمراء الكبار أمير يقال له عماد الدين ابن المشطوب ، وكان ملك الأكراد . فلما بلغه موت السلطان أفسد قلوب جماعة

(١) فى المتن: «الأفضل» والصيغة المثبتة من مفرج الكروب لابن واصل (ج ٣ ص ٢٧٥)؛ والسلوك للمقريزى (ج ١ ص ١٩١) .

(٢) فى المتن : « إبراهيم » والصيغة المثبتة من السلوك للمقريزى (ج ١ ص ١٩٢) ؛ ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزى (ج ٨ ص ٣٩٢ ـ طبعة شيكاغو) .

(٣) فى المتن: «المجاهد»، والصيغة المثبتة من مفرج الكروب لابن واصل (ج٣ ص٢٧٥)؛ والسلوك للمقريزى (ج ١ ص ١٩٢) .

(٤) أى هولاكو .

(٥) كذا فى المتن .

من الأمراء على الملك الكامل ، وقال : « هذا صبي خفيف ، ولا يأتينا منه خير » . فلما بلغ الكامل ذلك خشي على نفسه ، وهرب من ليلته مع جماعةٍ يلوذون به من خاصته ، ونزل المنصورة . وأصبحت العساكر فلم يجدوا السلطان بالدهليز ، فتسحبوا أولًا فأولًا ، وكانت كسرة عظيمة ، لولا لطف الله عز وجل وعنايته بهذه الأمة . وأن الافرنج ـ خذلهم الله ـ لما لم يجدوا من يقاتلهم ، ولا من يمانعهم ، تقدموا إلى وطاقات المسلمين، ونهبوا الأموال والعدد والسلاح. وقد كان كل أحدٍ من المسلمين قد أخذ ما خف حمله عليه ، وترك ما ثقل . وكان الملك الكامل نوى أن يقصد اليمن ، ويترك ديار مصر للعدو ، فأبى الله إلا عوائده الجميلة على هذه الأمة المنصورة ، وأن يكون الأعداء هم العصابة المكسورة. فلم يصبح الصباح إلّا والملك المعظم صاحب الشام بجيوشه ، وقد صبّحه . فخرج الملك الكامل وتلقاه ، واعتنقاو بكيا . ثم إنه شكا[1] إليه ابن المشطوب ، وما فعله ونواه ، فحلف المعظم أنه لا ينزل عن فرسه حتى ينفيه من الديار المصرية . وكان عسكر الديار المصرية في ذلك الوقت أكثره أكراد ، وابن المشطوب ملكهم . ثم إن المعظم لم يزل راكبًا حتى مرّ بخيمة ابن المشطوب، فقام إليه وتلقاه . فقال له المعظم : « اركب والحقني، حتى نتفق على أمرٍ تكون فيه المصلحة ، فرأيك المبارك » . فتوهم ابن المشطوب أن المعظم مائل إلى ملك مصر ، وأنه طلبه ليتفق معه على نزع الكامل من الملك . فركب ابن المشطوب حافيًا بغير خفٍّ لعجلته ، ولا سيفٍ . فلما لحق به قال: « أريد نخرج ونبعد ونتحالف على أمرٍ يكون فيه صلاح المسلمين » . فقوى ظن ابن المشطوب ، ولم يزل يحادثه إلى أن بعد عن وطاقه. ثم إن المعظم أمر أن يركب خمسين مملوكا من أجلاد مماليكه، وجعل عليهم عشرة من بني أيوب ، ويلحقون به . فلما لحقوا به ، التفت إلى ابن المشطوب ، وقال : « يا عماد الدين ! هذه الديار المصرية لنا أو لك ؟ » . فقال ابن المشطوب : « الله ! الله ! ياخوند ! أنا مملوك بني أيوب». فقال المعظم : « نحن ما عدنا نريدك تبلى

---

(١) في المتن : « شكى » .

بنيرنا ولا تبلى بنا » . ثم أمرهم أن يأخذوه من ساعته ، ويوصلوه إلى غزة . ثم رجع المعظم إلى خيمته ، وكذلك الملك الكامل ، وقوى أمره ، وثبت ملكه .

وأمّا الفرنج فإنهم فى تلك الليلة أشرفوا على أخذ ثغر دمياط ، وأحاطوا بها ، وجدوا فى حصارها . وانقطع عن أهل دمياط مَن كان يدخل إليهم من جواسيس المسلمين ، وقلّ عندهم القوت ، وذلك بسبب حركة ابن المشطوب . وتمكن الفرنج تمكنا عظيماً[١] فى حفرهم الخنادق بينهم وبين المسلمين ، وبنوا الأسوار ، وعملوا الستائر بالأخشاب ، وأقاموا فيها الرّماة بالجروخ . وأما مَن كان من المسلمين بدمياط، فإنهم ضعفت أحوالهم ، وضاقت حيلتهم ، واشتد خوفهم ، وصبروا صبر الكرام .

وأراد الملك الكامل أن يسيّر إليهم رسُولا ، فلم يقدر على ذلك لحفظهم اللاعين البر والبحر . وكان عند الملك الكامل جندارًا من قريةٍ من ضياع حماه ، يقال لها معرذفتين[٢] ، اسمه شمائل ، فتوصل إلى أن صار جندارًا فى الركاب . فحضر بين يدى السلطان الملك الكامل ، وسأل أن يكون رسُولًا إلى أهل دمياط ، فكان يغطس فى البحر ، ويطلع من البر الآخر ، ويخاطر بنفسه ، ويعبر دمياط ، ويدخل بين مراكب الفرنج . ويجتهدوا كل الاجتهاد على أخذه ، فلم يقدروا على ذلك . ودخل دمياط عدة طرق فى تلك الأيام التى لا كان الطير يطيق العبور بها ؛ لاحتياط اللاعين بها، فأحسن السلطان إليه ، وجعله برددارًا . ثم أعطاه إقطاعا وجعله جندياً فى العدة . ثم جعله مقدماً فى الحلقة السلطانية وهو مع ذلك واقف[٣] على قدم الاجتهاد فى الخدمة والمناصحة . فأوعده السلطان وقال : « متى فتح الله تعالى علينا بكسر هذا العدُو ورجعنا إلى القاهرة جملتك من الناس » . فلما فتح الله على المسلمين ، واستعادوا دمياط ـ بعد [أن] أقامت بأيدى الفرنج ثلاث سنين ـ ورجع السلطان إلى القاهرة ،

---

(١) فى المتن : « وتمكنوا الفرنج تمكن عظيم » .

(٢) معرذفتين : قرية تقع غربى حماه .

(٣) فى المتن : « واقفا » .

أمَّر شمائل طبلخاناه بأربعين طواشياً ، وولاه القاهرة . وهو الذى بنى الخزانة التى [عند] سُور باب زويلة ، المعروفة به ، كفى الله شرها[١] . وكان بين المسلمين وبين المشركين فى طول بقية هذه السنة وقائع متعددة إلى أن دخلت سنة ست عشرة وستمائة .

(١) ذكر المقريزى أن خزانة شمائل كانت بجوار باب زويلة على يسرة من دخل منه ، بجوار السور . وأنها كانت من أشنع السجون وأقبحها منظرا ، يحبس فيها من وجب عليه القتل أو القطع ومن يريد السلطان إهلاكه من المماليك وأصحاب الجرائم العظيمة (المقريزى ، المواعظ ، ج ٢ ص ١٨٧) .

ذكر سنة ست عشرة وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم أربعة أذرع ونصف أصبع . مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا وأصبعان .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين مستمر الأحكام ، مُطاع الأوامر . والسلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه بن تكش سلطان الدنيا بالشرق جميعه ، إلى ممالك الصين وبلاد الخطا وغير ذلك . والسلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب سلطان الديار المصرية ، ومامعها . وبقية الملوك إخوته بحالهم. والحرب قائمة على ساق بين المسلمين والفرنج ـ خذلهم الله ـ على ثغر دمياط .

وفى السادس من المحرم من هذه السنة هدم سُور بيت المقدس وقلاعه وأبراجه وصهاريجه . ولم تزل العمارة فى هذا البيت من عهد البختنصر إلى ذلك التاريخ ، وسبب ذلك أن الملك المعظم صاحب الشام لما توجه إلى أخيه الملك الكامل ، بلغه أن طائفة من الفرنج عزمهم إلى نحو البيت المقدس وأخذه ، فاتفق مع الأمراء على خرابه ، ليؤمن شرّه ، ولا يكن لهم إلى نحوه التفات ، فيشغلهم عما هم عليه . وخشوا أن يملكونه فيحصل لهم التعب فى إعادته منهم ، فشرعوا فى هدمه فى التاريخ المذكور . وكان يومئذٍ بالقدس الملك العزيز فخر الدين عثمان ، والأمير عز الدين أيبك المعظمى ـ جدنا ـ صاحب صرخد . وكان فى البلد ضجّة وصراخ وبكاء وعويل ، وخرجت البنات والصبيان والشيوخ والعجائز إلى الصخرة والأقصى ، وقطعوا شُعُورهم عليهما ، بحيث امتلأت تلك البقعة . وخرجوا هاربين ، وتركوا أموالهم ، وما شكّوا أن الفرنج تصبّحهم . فطلب بعضهم مصر ، وبعضهم الكرك ، والبعض دمشق . ومات خلق كثير من الجوع والعطش . وكان يوم لم ير الناس أصعب منه ، ونهبت أموالهم . وبلغ القنطار الزيت عشرة الدراهم[1] ، والنحاس رطل نصف الدرهم .

---

(١) كذا فى المتن .

ولمّا كان فى شهر شعبان ، أخذت الفرنج ثغر دمياط. وكان قبل ذلك قد جهزوا إليها ابن الجرخى ــ المعرُوف بالناهض ــ فى خمسمائة رجل ، فهجموا على الفرنج بالخنادق ، فقتل ابن الجرخى وجميع مَن كان معـــه ، وصف[1] الفرنج رؤوسهم على الخنادق . ثم إنهم طمُّوا الخندق الذى لدمياط . وضعف حال أهلها ، وأكلوا الميتات، وعجز الملك الـكامل عن نصرتهم . ووقع فيهم الوباء والمرض والفناء ، فراسلوا الملك الـكامل ، فتمادى عليهم الجواب ، فراسلوا الفرنج أن يسلموا إليهم البلد ، ويخرجوا بأنفسهم وأهاليهم وأموالهم ، فأجابوهم إلى ذلك . ثم ركبوا فى البر والبحر وزحفوا وفتحوا لهم البلد فدخلوا ورفعوا أعلامهم على الأبراج والأسوار[2] . ثم إنهم غدروا بأهل البلد ، ووضعوا فيهم السيف قتلًا وأسرًا ونهباً . وباتوا تلك الليلة فى الجامع يفجرون بالنساء ، ويفضحون البنات . وأخـذوا المنبر والمصاحف ، وبعثوهم إلى الجزائر . وجعلوا الجامع كنيسة . وكان أبو الحسن بن فضل يومئذٍ بدمياط ، فسألوا عنه ، فقيل لهم هذا رجل صالح من مشايخ المسلمين ، تأوى إليه الفقراء ، فما تعرضوا لهُ . ووقع على الإســـلام كآبة وحزن ، وبكى[3] السلطان الـكامل ، والملك المعظّم . وتأخرت العساكر من تلك المنزلة . وقال المعظم : « لوكان الدعاء يستجاب ، لاستجاب لأهل دمياط » . قال أبو المظفر : فقلت : « لا تقل كذلك يا خوند فإن الله تعالى أخبرنا أنه يستجيب دعاءنا فى عدة مواضع من كتابه العزيز ، وإنّما أهل دمياط لما كثر فسقهم ، وفشا فجورهم ، سلَّط عليهم من انتقم منهم ، لقوله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية ....[4] » الآية . قال أبو المظفر : وكان الملك المعظم قد كتب إلىّ كتاباً وأنا بدمشق بخط يده ، يقول فيه : « أخو[5] عيسى الـكاملى .

(١) فى المتن : « وصفوا » .
(٢) فى المتن : « والأصوار » .
(٣) فى المتن: « وبكا » .
(٤) سورة الإسراء ، ١٦ .
(٥) كذا فى المتن .

قد علم الأخ العزيز ما جرى[1] على دمياط ، وأريدك تحرّض النـاس على الجهاد ، وتعرّفهم ما جرى على إخوانهم المسلمين أهل دمياط ، من الـكفرة أهل العناد . وأنى كشفت عن ضياع الشام فوجدتها ألفى ضيعة ، ألف وستمائة أملاك لأهلها ، وأربعمائة سلطانية . وكم مقدار ماتقوم [به] هذه الأربعمائة ضيعة من العساكر . والقصد أن يخرج أهل الأملاك يذبُّوا عن أملاكهم، الأصاغر منهم والأكابر » . قال أبو المظفر: فجلست فى الجامع بدمشق ، وقرأت كتابه عليهم ، فأجابوا بالسمع والطاعة ، وقابلوا أمره بالامتثال . وقالوا: « نتجهز جهدنا». فلما حلّ ركابه بالساحل ، وقع التقاعد من العامة ، فـكان ذلك سبباً لأخذ الخمس من أموالهم . وتوجهتُ إليه فلحقته بقيسارية ، ففتحها بالسيف عنوة ، ثم فتح النقـــير ، وانتقل فدخل دمشق ، ووقعت جباية الخمس .

وفيهـا توفّيت الست ست الشام بنت أيوب ، أخت السلطان صلاح الدين ، وشقيقة الملك المعظم شمس الدولة توران شاه ، وسيف الإسلام ، ابنى أيوب . وهى التى تُنسب إليها المدرستان اللتان[2] بدمشق ، الواحدة قبلى البيمارستان النورى ، والأخرى ظاهر دمشق بالعوطة ، وتعرف أيضاً بالحسامية ، نسبة إلى ابنها حسام الدين، وكانت دفنته بها . وهو إحدى القبور الثلاث ، والقبلى هو قبر توران شاه، والأوسط قبر ابن عمها ناصر الدين محمد بن شيركوه . ولم يكن لأسد الدين شيركوه ولد غيره . وكان تزوجها ، وولدت له حسام الدين المدفون بالمدرسة المعروفة به . وكانت ست الشام من كرماء الناس الجيدات . وكانت تعمل فى بيتها كل سنة من الأشربة والمعاجين والعقاقير بألوف دنانير ، وتفرقها على الناس للثواب . وكان بابها ملجأ القاصدين ، ومفزع المـكروبين . وكان وفاتها فى ذى القعدة من هذه السنة . وإخوتها أربع ملوك عظماء بنى أيوب ؛ وهم السلطان صلاح الدين ، والملك العادل سيف الدين

---

(١) فى المتن : « ماجرا » .

(٢) فى المتن : « المدرستين اللتين » .

أبو بكر ، والمعظم الكبير شاهان شاه، وسيف الإسلام طغتكين الملك العزيز صاحب اليمن . فمن بَنِى هؤلاء الملوك الأربع المذكورين :

آل السلطان صلاح الدين بن أيوب

العزيز صاحب مصر عثمان وولده المنصور محمد ، والأفضل ، والظاهر صاحب حلب ، وابنه العزيز ، وابن ابنه الناصر يوسف ، والزاهر ، والظافر . وقد تقدم ذكر بقيتهم فيما سقناه عند وفاة السلطان صلاح الدين .

آل السلطان الملك العادل بن أيوب

السلطان الملك الكامل محمد ، وأولاده الثلاثة الملك المسعود أقسيس صاحب اليمن وولده الأشرف موسى الذى ملك مصر فى أيام البحرية . وولد الملك الصالح المعظم توران شاه الذى قتلوه البحرية . والعادل الصغير أبو بكر صاحب مصر. والملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر أستاذ الترك . وابن العادل الملك المغيث صاحب الكرك ، والملك المعظم بن الصالح توران شاه المقتول بمصر ، الآتى ذكره .

والملك المعظم عيسى بن السلطان الملك العادل ، وولده الملك الناصر داود ، والملك الأشرف موسى بن السلطان الملك العادل ، وليس من عقبه ملك فيذكر . والملك الأوحد بن السلطان الملك العادل ــ وهو صاحب أخلاط ــ وليس من عقبه ملك ، والملك الصالح إسماعيل بن السلطان الملك العادل وهو المعروف بأبى الجيش وأخوه شهاب الدين غازى صاحب الرُّها ، والملك العزيز عثمان شقيق المعظم. وقد تقدم أيضاً ذكر أسماء بقيتهم عند ذكر وفاة السلطان العادل .

آل سيف الإسلام صاحب اليمن ابن أيوب

الملك المعز إسماعيل ، وهو الذى ملك اليمن بعد والده ، وادعى الدّعاوى الباطلة ، وقُتل باليمن . وخلف ولده الملقب بالملك الناصر ، وملك أيضاً اليمن أياما قلائل .

آل المعظم شاهان شاه الكبير بن أيوب

فرخ شاه وولده الأمجد ، والناصر قليج أرسلان، وتقى الدين وابنه المنصور وولده المظفر أصحاب حماه . وذريتهم المتصلة إلى آخروقت بحماة ، حسبما نذكرهم فى تواريخهم إن شاء الله تعالى . والظافر ، والمغيث عمر ، والمنصور ، والمسعود ، والسعيد ، والأمجد أولاد الصالح إسماعيل ، ومجير الدين يعقوب ، وتقى الدين عباس .

ومن ذُريّة الأمجد بهرام شاه ، ولده الملك المنصور إبراهيم ؛ وولد إبراهيم الملك الأشرف موسى . هؤلاء أصحاب بعلبك . ولم يزل موسى إلى أيام الملك الظاهر البندقدارى ، حسبما يأتى من ذكرهم .

وأمّا أصحاب حمص فمن ذرية أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين تأتى أيضا أسماؤهم فى تواريخها إن شاء الله تعالى .

قلت : ولهؤلاء السادة أولاد أيوب شجرة تجمع سائرهم متصلة الأنساب إلى آخر وقت . وإنما ذكرت فى هذا الفصل الملوك الذين ملكوا نصيباً من الدنيا .

***

وفيها ، والسلطان الملك الكامل فى قتال الفرنج بدمياط وقد ضعف حاله وقل القوت عندهم ولا بقى لهم صبر على القتال . وأراد أن يسلم البلاد إلى العدو . كل هذا وكتبه ورسله تتردد إلى ملُوك الشرق وإلى إخوته الملوك . ومن جملة قوله فى الحث على طلب النجدة: « واإخوتاه ! واغوثاه ! واإسلاماه ! أدركوا الإسلام ! أغيثوا أمة محمد عليه السلام ! ».

فلما قويت شوكة الافرنج وظنوا أنهم سيملكون البلاد ، ويهلكون العباد ، تواردت العساكر الإسلامية ، تتلو بعضها بعضاً ، فأول من قدم الملك المعظم عيسى صاحب الشام ، ثم الملك الأشرف موسى شاه أرمن . وجاءت عساكر الشرق .

ثم إن الأشرف ترك جيوشه عند الملك الكامل ، وعاد إلى بلاده فى نفرٍ قليلٍ ، خوفاً عليها . وعظمت جيوش الإسلام، واطمأنت النفوس. فلما رأوا الفرنج المخذولين ذلك ، كاتبوا بقية ملوكهم ، وأتتهم الأمداد فى البحر ، ودخلوا إلى دمياط ، وحصنوا أسوارها ، وبنوا ما كان أخربوه منها . وكان نزول السلطان الملك الكامل على المنصورة ــ وهى طلخا ــ وبنى بها قصراً وأسواقاً وحمامًا . وبلغ فى الحمام أجرة غسل الرأس جملة . وعادت مدينة .

ونزلت الفرنج قبالهم . واستمرت بينهم الحروب . وفشا القتل فى الطائفتين . وكان الحرفوش من المصريين يحمل على رأسه قشرة بطيخة خضراء ، ويعُوم فى البحر محاذياً للبر ، فيراها الفرنجى ، فيظن أنها بطيخة ، فيمد يده ليأخذها ، فيجذبه الحرفوش، فيأخذه أسيراً، حتى عادوا إذا رأوا شيئا عائما على الماء يصلبوا على وجوههم ولا يقربوه .

قال أبو المظفر : فبينماهم كذلك إذ قدم الملك المنصور وعساكره، وكذلك الملك الناصر صلاح الدين قليج أرسلان ، ثم تلوهم بقية الملوك إخوة السلطان الملك الكامل وأولاد عمه ، وكان ذلك فى سنة ثمان عشرة وستمائة ، حسبما يأتى .

وفيها ــ وهى سنة ست عشرة ــ استدعى الصاحب صفى الدين بن شكر من القاهرة، ووصل إلى المخيم مستهل شوال ، وخلع عليه وعلى أولاده ، ووُزِّر ونَظَرَ فى الدولة ، واستخرج من الناس أجر أملاكهم شهرين ، وكذلك التبرع . واستخدم الرجال ، والحرب مستمر(١) .

وفى سنة ست عشر كان أول بدء خروج التتار من بلادهم الأصلية المسماة ــ بلسان التركية لغتهم ــ قراطاغ ، معناه الجبل الأسود . وفى مبتدأ خروجهم ، وفى ذكر أصلهم أشياء عجيبة غريبة الوقوع وقعت للعبد من كتابٍ يأتى اسمه وسبب تحصيله عند ذكرهم ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى المتن : « مستمرا » .

ذكر سنة سبع عشرة وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

المـــاء القديم ثلاثة أذرع ونصف أصبع . مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا، وأربعة أصابع .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين مستمر الحكم، مطاع الأمر. وملوك الشرق بحالهم . وكذلك السلطان علاء الدين خوارزم شاه، والسلطان الملك الكامل سلطان مصر ، وما معها . والحرب بينه وبين الفرنج على ثغر دمياط .

وفى شهر رمضان ورد الخبر بوفاة الملك الفائز . ووفاة الشيخ صدر الدين بن شيخ الشيوخ ، ودفن بالمُوصل .

وفيها صُرف القاضى تاج الدين بن الخراط ، وأضيف حكم مصر والوجه القبلى للقاضى ابن عين الدولة ، مضافا لما بيده من القاهرة وأعمالها .

وفيها كان غلاء ، وبلغ القمح دينارين ونصف مصرية الأردب .

وفيها [كان] قَتْل حسن بن قتادة صاحب مكة لأمـير الحاج [العراق] ونهب الحاج[1] .

[وفيها] توفى نصير الدين ناصر الدين بن مهدى الشريف العلوى ، الذى كان وزير الخليفة الناصر لدين الله ، رحمه الله .

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل فى التاريخ لابن الأثير (حوادث سنة ٦١٨ هـ) . وقد ذكر ابن الأثير أن أمير الحاج العراقى الذى قتله حسن بن قتادة اسمه أقباش ، وهو من مماليك الخليفة الناصر لدين الله .

ذكر سنة ثمان عشرة وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

المـــاء القديم ثلاثة أذرع وستة أصابع . مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا ، وعشرة أصابع .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين مستمر الأمر ، مطاع فى أقطار الأرض . والسلطان علاء الدين خوارزم شاه سلطان الدنيا بالممالك الشرقية. والسلطان الملك الـكامل ملك الديار المصرية وما معها. وبقية الملوك بممالـكهم، وقد قدموا فى هذه السّنة ــ لنصرة الإسلام ــ إلى خدمة السلطان الملك الـكامل ، حسبما سقناه أولًا .

ثم إن شوانى المسلمين اقتتلوا مع مراكب الفرنج ، فغلبهم المسلمون ، وأخذوا من مراكبهم ثلاث [قطع] ، بما فيها من الرجال والعدد والسلاح. وفرح[1] المسلمون بذلك ، واشتموا روائح النصر . هذا والرسل تتردد بينهم فى أمر الصلح . والملك الـكامل يقصد ذلك ، ومجتهد[2] على الصُّلح ، خوفا من إخوته الملوك ، حتى إنه دخل تحت كل ما اشترطوه عليه ، وهو أن يسلم لهم القدس ، وعسقلان ، وطبرية ، وجبلة، واللاذقية ، مع جميع فتوحات السلطان صلاح الدين ، ما خلا الـكرك والشوبك. ورضى الملك الـكامل بذلك جميعه ، حتى ثلثمائة ألف دينارٍ [يدفعها] لعمارة القدس وغيره . ثم قالوا: « ولا بدّ لنا من الـكرك والشوبك» ، وتعنتوا فى الشروط تعنتاً عظيماً[3] . وكان فى ذلك خير عظيم، لما يريده الله عز وجلّ من نصرة دينه ، ويريهم معجزات قدرته ، وأن النصر إلا من عنده .

فبينما الرسل تتردد فى ذلك كله ، والملك الـكامل يحث فى طلب الصلح، ويذعن

---

(١) فى المتن : « وفرحوا » .

(٢) فى المتن : « ومجتهدا ».

(٣) فى المتن : « تعنت عظيم » .

بالإجابة لكل ماطلبوه . وكان النيل قد عمّ البلاد، وكان عالياً ، لما يريده الله عز وجل من خذلان أعدائه ؛ إذ عبر جماعة من عسكر المسلمين فى الخليج وقطعوه ، وعدوا إلى جزيرة الفرنج ، وقطعوا عليهم جسراً من تلك الجسور المحيطة بهم. ولم يكن للفرنج خبرة بذلك ، ولا يعلمون زيادة النيل ، فساح عليهم ، وغرق خيلهم ودوابهم ، ودار بهم الماء من كل جانب ومكان. وعادوا يتأخرون إلى نحو الثغر ولا يجدون سبيلًا. وإن طلبوا نحو البحر لا يجدون سبيلًا ، ولا مراكباً تطيق العبور إليهم لعظمها . وضايقهم النيل ، ولم يبق لهم غير طريق واحدة ، وهى أضيق الطرق ، وأى طريق قصدوها غرقوا فيها .

فلمّا علم السلطان بما قد وقعوا فيه من البلاء الذى قد عمهم وطمّهم، أمر بالمراكب، وركبت الجيوش ، وأخذوا عليهم سائر المذاهب والطرق، وحازوا بينهم وبين دمياط. وفى ذلك النهار وصل للفرنج مركب عظيم يسمى مرمة[١] ، وفيه خلق عظيم ، وسلاح كثير ، وحوله عدة مراكب يحفظونه ، وهو موسوق مأكول وسلاح وغير ذلك . فخرجت[٢] عليه شوانى المسلمين ، وقاتلوهم أشد قتالٍ ، ونصر الله الإسلام ، وأخذوا ذلك المركب العظيم بكل مافيه . فلما رأوا الفرنج ذلك ، انقطعت[٣] قلوبهم ، وأيقنوا بالهلاك والدّمار . ثم أحاطت بهم عساكر الإسلام من كل وجهٍ بالنشاب والرماح ، وقلّ نشاطهم لِماَ نالهم من الغرق الذى لم يكن لهم فى حساب . وأخذتهم الحجارة والنبل، وأحاط بهم البلاء، وصُب عليهم الخذلان صبًّا. فعندها أرموا خيامهم وأثقالهم ، وأرادوا الزحف على المسلمين ، لعلهم يقدرون على الوصول إلى ثغر دمياط ، فحيل بينهم وبين ما يشتهون ، وذلك لكثرة المياه التى عمّتهم . فلما عجزوا عن ذلك ، ذلت نفوسهم الخنزيرية ، ونكست صُلبانهم ، وقهر شيطانهم ، وذل سُلطانهم ،

---

(١) فى المتن : « يسمى سبع قطع » ، والصيغة المثبتة من مفرج الكروب لابن واصل (حوادث سنة ٦١٨ هـ) . والمرمة نوع من السفن الكبيرة فى العصور الوسطى ، انظر (ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ص ٢٦٠ حاشية ١) .

(٢) فى المتن : « فخرج » .

(٣) فى المتن : « انقطع » .

فرجعوا إلى مراسلة السلطان الملك الكامل وسألوا الصلح، وطلبوا الأمان لأنفسهم، وأن يسلموه دمياط ، ولا يريدون غير خلاص نفوسهم لا غيرها . فاستشار إخوته الملوك فى ذلك ، فقال الملك الأشرف ـ وكان قوى النفس، شديد البأس ـ : « لا نقبل منهم ، ونقتل هؤلاء الملاعين أجمعهم ، فإن هؤلاء هم دين النصرانية كله ، وهم الصليب بكماله ، ونريح الأرض منهم ، ولا نبقى على أحد منهم . وقد أمكننا الله عزّ وجل بقدرته من نواصيهم » . وكذلك قال المعظم . فقال الملك الكامل ـ وكان فيه سياسة ونظر فى العواقب ـ : « ليس هذا برأى ولا مصلحة . وهؤلاء كبار دين الصليب ، وملوك الأرض ، والفرنج كثير . وإلى الآن دمياط فى أيديهم . ومتى قتلناهم لابد أن يأتوا برا وبحراً ، وفارساً وراجلًا ، وأصحابنا فى هذا الوقت قد سئمت نفوسهم من القتال ، وكَلُّوا . وأنهم والله لمعاذير فى ذلك . وقد أنعم الله علينا بهذا الفتح العظيم ، الذى ما كان لنا فى خلد . والرأى أن نُنعم عليهم بنفوسهم . لكن على ما نريد نحن ، لا ما على ما يريدون هم » .

قال ابن الأثير ـ رحمه الله ـ فى تاريخه : كانت مدة الحصار والحرب على ثغر دمياط ثلاث سنين ، وثلاثة أشهرٍ . وقال غيره : ثلاث سنين وسبعة أشهرٍ .

ثم حصل الصلح بينهم فى حادى عشر الشهر ، واتفق الحال بينهم على أن يأخذوا منهم رهائن ، حتى تعود رهائنهم . فكان عدة رهائن الفرنج أربعة عشر ملكاً وهُم: كرموك بن الباب يعنى خليفتهم، وكرمريك صاحب صقلية، وبندارك ملك النوباردية، وسربار ملك الجزيرة الورانية ، والريدكور صاحب المساوى وهو إقليم كبير بالمغرب ، وكندفور صاحب جزيرة النمسون ، وطُرباط صاحب البندقية ، وابن الأنبرون ، وفرنسيس ، وأدورد ، والملك أخو زنتون ، والملكة صاحبة عكا بنفسها ، ورُومان ابن صاحب رومية الكبرى وهو المعروف بالكاف ، وكُندريس الكبير ، وهؤلاء أعظم ملوك دين الصليب . ثم رهن عندهم السلطان الملك الكامل ولده الملك الصّالح، وجماعةً من الأمراء الكبار المصريين . وكان عمر الملك الصالح فى ذلك الوقت خمس عشرة سنة ، فإن مولده فى سنة ثلاث وستمائة ، فكان مراهق البلوغ ، أو بالغ .

فلما حضروا الملوك من الفرنج ــ خذلهم الله تعالى ــ بين يدى السلطان الملك الكامل ، أقمدهم بين يديه ، بعدما جلس فى دست مملكته ، وأوقف الملوك إخوته بين يديه ، وفى خدمته عن يمينه ويساره . فنظر[١] الفرنج ناموساً عظيماً ، وهيبة وافرة ، وجلله الله تعالى بالسكينة والوقار . ثم إنهم أنفذوا قسوسهم ورهبانهم ، وسلموا المسلمين الثغر على رغمٍ منهم .

وكان ذلك يوم الخميس تاسع عشر من شهر رجب الفرد من هذه السنة . وقيل تاسع الشهر ، والله أعلم . وتسلم[٢] المسلمون الثغر فى ذلك اليوم ، بعد أذان الظهر . فما استقرت الأحوال فى تسليمها إلا بعد أذان العصر ، حتى وصلت للفرنج ألف مركب موسُوقة ، رجال وعدد وسلاح ومأكول ، فلو علموا اللاعين بذلك، لما سلموا، لكن كانت[٣] إرادة الله عز وجل أغلب ، وقدرته أعجب .

وكانت الفرنج قد حصنوا دمياط تحصينا عظيماً ، ثم عادت كل رهائن إلى أهلها. ورسم السلطان بمبايعتهم . وكان يحمل إليهم فى كل يومٍ خمسين ألف رغيف من الخبز ، ومائتى إردب شعير . ثم توجهوا إلى بلادهم ، قيل فى بقية شهر رجب ، وقيل استهلوا شعبان ، وسافروا .

ولما توجهوا ، واطمأنت نفوس الملوك الإسلامية ، وردت بشائر السّادة الفضلاء بالتهانى فى قصائدهم المبدعة، ذوو الألفاظ المخترعة. فمن ذلك قصيدة الشيخ شرف الدين ابن عُنَيْن ، التى أولها يقول :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنّا ... إذا جُهلت آياتنـــا والقَنا اللّدْنَا
غداة لقينـا دون دمياط جحفلًا ... من الرُّوم لا يحصى يقيناً ولا ظنّا
قد اتفقوا رأياً وعزما وهمـــة[٤] ... ودينا ، وإن كانوا قد اختلفوا لُسناَ

(١) فى المتن : « فنظروا » .
(٢) فى المتن : « وتسلموا » .
(٣) فى المتن : « كان » .
(٤) فى المتن : « قد اتفقوا رأيا ودنيا وهمة وعزما » والصيغة المثبتة من مفرج الكروب لابن واصل (حوادث سنة ٦١٨ هـ) .

تداعوْا بأنصار الصليب وأقبلت   جموع كأن الموج(١) كان لهم سُفنا
وأطمعهم فينــا غرور فأرقلوا   إلينــا سراعا بالجياد فأَرقَلْنا
فمــا برحت سُمر الرماح تنوشهم   بأطرافها حتى استجاروا بِنا مِنّا
سقيناهمُ كأساً نفت عنهم الـكرى   وكيف ينام الليل من عدم الأَمْنا
لقــد صبروا صبرًا جميلًا ودافعوا   طويلًا فما أجدى دفاعاً ولا أغـنى
بدا الموت من زرق الأسنة أحمرا   فألقوا بأيديهم إلينا فأحسنا
وما برح الإحسان منّا سجية   توارثها عن جَد آبائنا الأبنا
وقد جربونا(٢) قبلها فى وقائعٍ   تعلم غُمر القوم منا بهــا الطَّعْنا
أسُود وغى لولا وقائع سمرنا   لما لبسُوا قيدًا ولا سكنوا سجنا
وكم يوم حرٍّ ما وقينــا هجيره   بسترٍ وقرٍّ ما طلبنــا له كِنا
فإن نعيم الملك فى وسط الشقا   ينال وحلو العيش من مُرّه يُجنى
يسير بنــا من آل أيوب ماجد   أبى عزمه أن يستقر بنــا معنا
كريم الثنا عارٍ من العار باسل   جميل المُحيّا كامل الحسن والحُسنى
سرى نحو دمياطٍ بكل سَمَيْذعٍ   إمام يرى حسن الثنا المغنم الأسنى
مآثر مجدٍ خلدتهــا سيُوفه   طوال المدى يفنى الزمان وما تفنى
وقد عرفت أسيافنــا ورقابهم   مواقعها فإن عاودوا عُدنا
منحناهم مِنا حيــاة جديدة   فعاشوا بأعناق مقــلدةٍ منّا
ولو ملـكونا لاستباحوا دماءنا   ولوغاً ولـكنا ملـكنا فأحسنا

ثم وردت قصيدة القاضى بهاء الدين بن زهير بن على القوصى ، رحمه الله ، التى أولها يقول :

بك اهتزّ عطف الدين فى حلل النصر   ورُدّت على أعقابها ملة الـكفر

---

(١) فى المتن : « كأن الجو » .

(٢) فى المتن : « جربوها » ، والصيغة المثبتة من السلوك للمقريزى (ج ١ ص ٢١١) .

ومنها :

وما فرحت مصر بهذا الفتح وحدها ... لقد فرحت بغداد أكثر من مصر

٣ ولو لم تقم فى الله حق قيــــامهِ ... لمــا سلمت دار السلام من الذعر

ومنها:

وأقسم لولا عزمة كامليـــة ... أخافت بالمقـــام وبالحجر

٦ وأقسم إن ذاقت بنو الأصفر الكَرى ... لما حلمت إلّا بأعلامك الصُّفر

ثلاثة أعوامٍ أقبــلوا وأشهراً ... تجاهد فيهم لا بزيدٍ ولا عَمرو

ومنها :

٩ وليلة فرّ العدوّ وأنهــا ... بكثرة من أرديته ليــلة النحر(١)

أيا ليـــلةٍ شرف الله قدرها ... فلا غرو أن سميتها ليـلة القدر

سددت سبيل البر والبحر عنهمُ ... فسابحــه بر وسابحه بحر

١٢ أساطير ليست فى أساطير من مضى ... فـكل غرابٍ راح أقنصَ من صقر

وجيش كمثل الليل هولًا وهيبةً ... وإن زانه ما فيه من أنجمٍ زُهر

وباتت جنود الله فوق ضوامرٍ ... بأوضاحها تغنى السُّراة عن الفجر

١٥ فمــا زلت حتى أيّد الله حزبه ... وأشرق وجه الدينَ جذلان بالنصر

فرويت منهم ظامىء البيض والقنا ... وأشبعت منهم طاوى الذئب والنسر

وجاءت ملوك الروم نحوك خُضَّعا ... تجرجر أذيال الذلة والصُّغر

١٨ أتوا ملـكا فوق السِّماك محله ... فمن جوده ذاك السحاب الذى يسرى

فمنَّ عليهم بالأمان تـكرّماً ... على الرغم من بيض الصوارم والحمر

كفى الله دمياط المخافة إنهـــا ... غدت قبلة الإسلام من موضع البحر

٢١ وما طاب ماء النيــل إلّا لأنه ... يحلّ محل الريق فى ذلك الثغر

---

(١) فى المتن : « أجل وحق الله من ليلة القدر » والصيغة المثبتة من مفرج الـكروب لابن واصل (حوادث سنة ٦١٨ ﻫ) .

منها :

لك الله كم من فارس قد أجرته ... من الموت إذ أطاقته خيفة الأسر
يقصّر عنك المدح من كل مادح ... ولو جاء بالشمس المنيرة والبدر

* * *

ذكر ليلة طيبة جرت بين ملوك الإسلام

وذلك لما رحلت الفرنج ــ خذلهم الله ــ وطابت نفوس الملوك ، واطمأنت قلوبهم ، اجتمعوا فى القصر الذى بناه السلطان الملك الكامل بالمنصورة . وجلس السلطان الملك الكامل محمد ، والملك الأشرف موسى ، والملك المعظم عيسى فى مجلس شراب وأنس ولذة وطرب . وكان يومٌ رقت غلائل صحوه ، وغنجت شمائل جوه ، وضحكت ثغور رياضه ، واطرد زرد النسيم فوق حياضه ، وفاحت مجامر الأزهار ، وانتشرت قلائد الأغصان عن فرائد الأنوار ، وقام خطباء الأطيار ، على منابر الأشجار ، ودارت أفلاك الأيدى بشموس الرّاح فى بروج الأقداح ، بمجلس قد تفتحت فيه عيون النرجس ، ومالت أعناق البنفسج ، وفاحت مجامر الأترج ، وفتقت فازات النارنج ، وانطلقت ألسن العيدان ، وقام خطباء الأوتار ، وهبّت رياح الأقداح ، ونفقت سُوق الأنس ، وقام منادى الطرب ، وطلعت كواكب الندمان ، وامتدّت سماء الند على بساط الورد ، وقد سبُوا العقل فى مرح الجنون ، وخلعوا العذار بأيدى المجون ، فأمر الملك الأشرف موسى لجاريته أن تغنى ، فنهضت وقبلت الأرض ، وتناولت العود وأصلحته ، وجسته وغنت تقول :

ولما طغى فرعون عـــكا وقومه ... وجاء إلى مصر ليفسد فى الأرض
أتى نحوهم موسى وفى يده العصا ... فغرقهم فى اليمّ بعضاً على بعض

قال: فأعجب بذلك الأشرف ، وطرب لقولها ، وشرب ، وطاب . فأمر السلطان الملك الـــكامل لجاريته أن تغنى ، فنهضت ، وقبلت الأرض ، وتناولت العُود ، وساوته ــ وكانت حاذقة ــ وغنت تقول :

أيا أهل دين الكفر قوموا وانظروا   لما قد جرى فى عصرنا وتجددا
أعباد عيسى إن عيسى أتاكم   وموسى جميعاً ينصران محمدا

قال : فأعجب ذلك الثلاث ملوك . وأمر السلطان الملك الكامل الكل واحدة بخمس مائة دينار .

ثم إن الملوك تودعوا وسافر كل ملك إلى بلاده ومحلّ ملكه . والذى أجمع عليه أرباب التاريخ أن كان مدة إقامة الفرنج على ثغر دمياط أربعين شهراً وسبعة عشر يوما. (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال)[1].

ودخل السلطان الملك الكامل إلى القاهرة فى شهر شوال من هذه السنة ، ثم خرج إلى العباسة ، ومضى[2] إلى قلعة صدر[3] وأمر بعمارتها ، ورجع إلى القاهرة المحروسة .

وفيها استولى عماد الدين زنكى على البلاد الهكارية بالموصل ، وأخذ قلاعهم . فلما عاد الملك الأشرف من دمياط ، استجار به بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ـ وهو يومئذ أتابكها من قبل أستاذه ـ فأجاره ، وأنجده ، وانهزم زنكى منهما ، واستعاد [بدر الدين لؤلؤ] ما أخذه [زنكى] .

وفيها توفيت الملكة عصمة الدين خاتون بنت العادل الكبير ، أخت السلطان الملك الكامل ، زوجة الملك المنصور صاحب حماة .

وفيها توفى قطب الدين محمد شاهنشاه بن عماد الدين زنكى صاحب سنجار .

وفيها كان ظهور التتار من بلادهم وخروجهم إلى بلاد الإسلام .

---

(١) سورة الأحزاب ، ٢٥ .
(٢) فى المتن: « ومضا ».
(٣) قلعة صدر ، قلعة خراب بين القاهرة وأيلة ذكرها ياقوت (معجم البلدان) .

ذكر السلطان علاء الدين خوارزم شاه

وسلطان الإسلام يومئذٍ بسائر الممالك الشرقية السلطان علاء الدين خوارزم شاه محمد بن تكش بن إيل أرسلان اتسز بن محمد بن أنوشتكين[١] ، ونسبته تنتهي إلى هٰهنا. هكذا ذكره ابن الأثير فى تاريخه . وكان أبوه أو جده أحد مماليك الملك العادل عضد الدولة أبو شجاع ألب أرسلان داود بن سلجوق. وهكذا ذكره أيضا ابن واصل صاحب تاريخ بغداد . وكان لأيامه ملك خوارزم من جهة السلطان المشار إليه ابن سلجوق . فلما انقضت دولة بنى سلجوق من العجم قوى سلطان علاء الدين خوارزم شاه ، وملك العجم وخراسان وعراق العجم ، واستولى على ما وراء النهر ، وطمع فى أخذ بغداد ، وأن يعيد أمر الخلافة على ما كان عليه فى أيام دولتى بنى بويه الديالمة وبنى سلجوق ـ وقد تقدم القول فى ذلك . وهذا كله لأمرٍ كان كامنا[٢] فى الغيب ، لما يريده الله عز وجل من تملك التتار الأرض ، فلا راد لحكمه ، ولا مفر من قضائه[٣] .

قال ابن واصل صاحب تاريخ بغداد : شهدت على جماعة من سراة الناس من أرباب دولة بغداد ـ كل يذكر ويتقلد فى ذمته ـ أن الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين كتب إلى التتار يستدعيهم إلى البلاد ، ويهون عليهم العُبور إلى الأقاليم ، ويصغّر عندهم أمر السلطان علاء الدين خوارزم شاه . كل ذلك خوفاً منه لئلا يحضر إلى بغداد ، وتعود الخلافة كما كانت فى أيام بنى سلجوق . ولذلك لوّح ابن الأثير فى تاريخه عند ذكره لخروج التتار كما يأتى بيانه فى موضعه ، إن شاء الله تعالى .

قلت : وأما هؤلاء القومُ، وبدء خلقهم، وأول شأنهم، فإنه من الحديث العجيب، والأمر الغريب ، ولعله لم يذكره أحد من المؤرخين ، لعدم إحاطة علمهم به . وقد وقع

(١) فى المتن : « محمد بن تكش بن ألب أرسلان أقسز بن محمد بن موستكين » وتصحيح الاسم من زامباور ، معجم الأنساب ص ٣١٧ .

(٢) فى المتن : «كان كامن »ـ.

(٣) فى المتن : « قضاه » .

العبد عليه من كتاب عجيب له عند الترك مزية عظيمة ، يسمى باللغة التركية « الواى أطام بتكى » معناه « كتاب الأب الكبير ». وهذا الكتاب وقفت عليه سنة عشرة وسبعمائة ، أحضره إلىّ شخص كان يسمى أمين الدين الحموى ، كاتب الأمير بدر الدين بيسرى ، رحمهما الله تعالى . وكان الوالد ـ سقى الله عهده ـ فى ذلك التاريخ ، متولى الأعمال الشرقية ، وما معها . وكان هذا الرجل أمين الدين له بالأعمال راتب مقرر ، فكان كثير التردد إلى بلبيس ، وكنت من حال الصبى متولعا[1] بالفضل وأهله ، والأدب ونبله . وكان أمين الدين ـ رحمه الله ـ من أحسن الناس محاضرة ، وألذهم مسامرة ، وأغزرهم مروءة ، وأكثرهم أدباً[2] . وكان ممن يتردد إلى الملوك من السادة الفضلاء فى ذلك العهد ، مثل الشيخ جمال الدين السملوطى ، والحكيم شمس الدين ابن دانيال ، وجمال الدين البلاليقى المعروف بابن زيتون ، وجماعة أخر من أهل الفضل والأدب . فكنا نهب العيش بالآداب ، ونستخرج لباب اللباب من ذوى الألباب ، فى كل فن وباب . فتجارينا ذات يوم ذكر التاريخ ، وبدء التتار ، فذكر أمين الدين المذكور أن عنده كتاب لم يقع لأحدٍ مثله ، وأنه كان عند الأمير بدر الدين بيسرى من أعظم ذخائره وأعزها عليه ، وكان إذا أحضره قام له قائماً ، وجعله على رأسه ، ويعظمه كما يعظم كتاب الله تعالى . فسألناه أن يحضره إلينا . فلما عاد أحضره ، فنظرناه كتابا حسناً ذى شَأْوةٍ جليلة ، بخطٍّ منسوب ربما يقال إنه خط تلميذ ابن البواب ، فى ورق بغدادى ، مجلد بأطلس أحمر ظاهر وأصفر باطن . وله قفل ذهب ، يدل على عناية كبيرة به . فاجتمعنا عليه ، وقرأه علينا أمين الدين ، فوجدناه تاريخاً للترك الأول وأول خلقهم ـ بزعمهم ـ وذلك مما يخالف الشرع المطهّر . فاستنسخت منه بدء خلق التتار والترك الأول ، لما رأيت فيه من العجائب الغريبة ، ليكون ذلك من باب التعجب ، لا من باب التصديق ، إذ هو غير موافق للشريعة ،

(١) فى المتن : « متولع » .
(٢) فى المتن : « أدب » .

وإنما هو شيء وضعوه[1] الحكماء المتفلسفين ، يصيدون به عقول من يخدموه من الملوك الراغبين فى طول الحياة الدنياوية ، مما يؤيد زعمهم أن العمر الطبيعى مائة وعشرون سنة ، فمن مات قبل ذلك كان من وجوه التفريط بنفسه ، مع شروطٍ وضعوها . ونحن نعوذ بالله من زعمهم ، وزخارف أقوالهم . ونعلم ونتحقق أن العمر محتوم ، ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها ، فهذا هو الاعتقاد الصحيح ، والعقل الرجيح .

وها أنا أضع وأثبت – فى هذا الفصل – جميع ما استنسخته من ذلك الكتاب ، لضرورة بدء خلق هؤلاء القوم التتار بزعمهم . وليظهر أيضاً نقصان عقولهم ، فيما وضعوه من خرافاتهم .

ذكر بدء شأن الترك الأول حسبما ذكره صاحب الكتاب التركى

هذا كتاب عنى بحلِّه من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية ، كما عنى بحله من اللغة التركية إلى اللغة الفارسية ، عبد الله المتوكل على ربه الغفور المسامح ، جبريل ابن بختيشوع المتطبب ، فى سنة إحدى عشرة ومائتين للهجرة النبوية المحمدية ، على صاحبها السلام . وتركت فيه ألفاظاً بحالها باللسان التركى ، كما تركها الذى حلها من التركية إلى الفارسية ، وهو أبو مسلم عبد الرحمن صاحب الدعوة العباسية . قال جبريل : ووصل إلىّ هذا الكتاب من ذخائر أبى مسلم المذكور . وذكر أنه من كتب جده برزجمهير بن البختكان الفارسى . وكان أبو مسلم ينتسب إلى برزجمهير المذكور ، وليس ببعيد فيما ذكره ، لما كان عليه من العقل الوافر ، وحسن السياسة والتدبير ، مع ما اجتمع فيه من فنون العلم . وقتله المنصور لما خيف من دهائه وتدبيره . وسمعت المأمون – رضى الله عنه – يقول: الملوك ثلاث الذين ساسُوا البلاد وأتقنوا الأمور وأقلبوا الدول ؛ وهم الإسكندر ، وأزدشير ، وأبو مسلم. ثم إن جبريل أطنب فى ذكر أبى مسلم إطناباً كثيراً ، أضربت عنه ولم أنسخه ، إذ ليس فيه لنا غرض .

ثم قال بعد ذلك : إن الله جلت قدرته وتعاظمت حكمته خلق جيلًا عظيماً آخر

(١) كذا فى المتن .

الصين الأعلى[١] من جهة مشرق الشمس ، سمت علوه فى الجو أربع فراسخ ، صاعداً فى فلك الهوى ، حجراً أسوداً أصمّا ، ليس به نبات . وأن من حكمة الله جل وعزّ ، التى لا تدرك لها غاية ، ولا يحصر لها نهاية ، جعله حاجزاً للبحر الأسود المحيط ، وحاجزاً لمين الشمس فى أول طلوعها ، فإنها تطلع من ذلك البحر من غامض علمه ، الذى لا يعلمه سواه ، فيحجبها هذا الجبل أن تدرك الأرض فى أول طلوعها ، ويمنع حرارتها فى مبتدأ طلوعها ؛ لطف من الله تعالى ، وتدبير من الحكمة الإلهية . فلو أدركت الأرض فى أول مبتدأ إشراقها ، ماتركت عليها من دابةٍ ، ولا نبتت فيها خضراء . وليس تدرك الأرض إلا بعد ما تصير فى اثنى عشر دقيقة من سمت رأس المشرق ، فعند ذلك تخف حرارتها ، لارتفاعها ، ويدرك بها الانتفاع . واسم هذا الجبل باللغة التركية قَراطاغ ، تفسير ذلك الجبل الأسود . ثم إن هذا الجبل تتفجر منه ــ من سفحه الموازى إلى جهة المغرب ــ عيون ماء عذبةٍ ، أحلى من الشهد ، وأبرد من الثلج ، وأعطر من المسك . تفرش تلك العيون فى بحيرة مسافة دورها سبعُون فرسخا كاملًا ، يجرى منها نهر فى طول سفح ذلك الجبل ، مسافة مائة وثمانين فرسخاً . قد بنى فى وسط هذا المجرى[٢] مدينتان عظيمتان[٣] ذاتا أسوارٍ دائرة ، بحجارة سُودٍ ، ونُحتا ذكر فى أنثى ، وأنثى فى ذكر ، لاتكاد تبين مداخله إلا للمتأمل الحاذق . دور كل سُورٍ سبعة عشر فرسخاً كاملًا ، لكل مدينة أربعون[٤] باباً من الحديد الصينى ، كالفضة المحلية . على كل بابٍ برج مشيد من تلك البناية . وذلك النهر يجرى فى تلك المدينتين . وبين المدينة والمدينة مسافة سبع عشر فراسخ . وقد صُنع ذلك النهر بمقاسم قد رتبت ، وتدبيرٍ قد أحكم ، حتى ليس يخلو منه منزل من منازل تلك المدن . ثم يخرج وينقسم عدة أنهر إلى سائر بقاع تلك الأراضى ، وعليه

(١) فى المتن : « الأعلا » .

(٢) فى المتن : « المجرا » .

(٣) فى المتن : « مدينتين عظيمتين » .

(٤) فى المتن : « أربعين » .

ضياع ومزدرعات وأشجار ، ذات ثمارٍ عجيبة ، وفواكه لذيذة ، ما لا يعلمها إلا الله تعالى . ويعمّ ذلك النهر أراضى ذات أعمال، وعمائر تقدير سنة طول ، فى سنة عرض، عليها أمم وخلق ، ذوو صورٍ مختلفة ، يرجعون جميعهم إلى سلطان تلك المدينتين .

وهاتان المدينتان(١) تسميان باللغة التركية أيدرماق وأشرماق . ويقال لكل مَن يملكهما من نسلٍ واحدٍ وعظمٍ واحدٍ باللغة التركية ألطن خان ، تفسيره ملك الذهب . ولم يكن للقوم عدو يخشونه ، ولا منازع يخافونه ، أهل عيش خضلٍ ، ولذةٍ وفكاهةٍ، وأكلٍ وشربٍ وتناسلٍ ، من أحسن خلق الله وجوهًا ، وأرطبهم أبدانًا ، وأنعمهم عيشًا . يأكلون من أطيب اللحُومَات ، وألذ الفواكه ، لتلك الأراضى الحسنة ، والمراعى اللذيذة ، ذات الحشائش المختلفة ، النابتة فى تلك الأماكن الخصبة ، الصحيحة الهواء(٢) ، العذبة الماء . فليس يُرى فيهم مرض من الأمراض ، ولا عاهة من العاهات ، الفرح غالب(٣) على قلوبهم ، حتى إذا ما مات عندهم الميت لايعرفون البكاء عليه ولا الحزن، طوال الأعمار . لا يكاد الشخص منهم يموت إلا بعد المائة وما فوقها .

قال جبريل : ولهم فى ذلك معنًى دقيقاً ، جُل بحثنا عليه ، وذلك أن صاحب هذا الكتاب برزجمهير بن البختكان قال ــ وإن لم يكن ذلك موافقا للشرع المطهر ، فنحن إنما نذكره للتعجب لا للتصديق ، فما على ناقل خبرٍ من عتب ــ قال برزجمهير : إن أول خلق هؤلاء القوم المذكورين(٤) أن بهذا الجبل المسمّى بقراطاغ مغار، مسافة علوها فيه من أسفله إلى حين يرقى(٥) إليها الراجل الشبق ــ بعد المشقة العظيمة والتعب والكلال ــ ثلاثة أيامٍ ، بطريقٍ وعراء كثيرة التعاريج ، متسلقة(٦) فى الجو . وأن

(١) فى المتن : « وهاتين المدينتين » .
(٢) فى المتن : « الهوى » .
(٣) فى المتن : « غالبا » .
(٤) فى المتن : « المذكورون » .
(٥) فى المتن : « يرقا » .
(٦) فى المتن : « متسقلة » .

على فم تلك المنار باب عظيم من الذهب الأحمر ، مرصّع بأنواع الجواهر العظيمة القدر، وله سدنة وخدام . وهذه المغار فهى معبُود أهل تلك الديار ، فإذا أراد الإنسان منهم يحلف ، يقول : « أيّما قراطاغ » ، تفسير ذلك « وحق الجبل الأسود » . وإشارته إلى تلك المغار .

قال جبريل: قال برزجمهر : وأصل دعوَاهم فيه. قلت: ونحن لانصدق هذه الدعوى الضعيفة ، وإنما نورد ما قالوه ، ونرد عليهم من الشرع والعقل الذى احتجاجهم به . قال : إنه لما كان أول زمان ، جرّت السيول من الأمطار ماءً إلى تلك المغار ، وسحّب ذلك الماء بقوته تراباً من مجر السيول ، فاحتبس فى تلك المغار فى أخدودٍ شبيهٍ بقالب هذه الخلقة الآدمية . وكانت[1] الشمس فى ذلك الوقت فى برج أفنون ـ على ما نقول نحن برج السرطان ـ فقصده بذلك أن الشمس كانت فى أوجها وقوة حرارتها ، بما يقتضيه عرض أرضهم ، إذ كل إقليمٍ خُص بعرضٍ وسمتٍ . وكانت تلك الصبابة التى تحدرت من تلك السيول إلى المغار ، قد تجمعت فى ذلك الأخدود . فلما استقرت ، طبختها الشمس ، فكانت المغار بمنزلة جوف المرأة . والمستقر فى ذلك الأخدود عنصران[2] : الماء والتراب ، وطبختهما الشمس فى أوجها فكانت كعنصر النار . واعتدلت له الرياح فى مدة تسعة أشهر ، وتكملت الأربع استقصاءات . فلما كانت الشمس ببرج حيتان ـ وهو كقولنا برج الحمل ـ فقصده أنه مضى تسعة أشهرٍ ، فإن كل ثلاثة أشهرٍ فصل . فلما كان ابتداء أمره ، والشمس فى أوجها ، فيكون أول الصيف . فلما مضت التسعة أشهرٍ ، مضى فصل الصيف وفصل الخريف وفصل الشتاء، وشرعت الشمس للاعتدال. فلما وافق إكمال تلك المصاية[3] وتعفينها وإنضاج طبخها عند اعتدال الشمس استحق الكمال والخروج ، فخرج من ذلك الأخدود صفة هـذا الحيوان الناطق . قال جبريل : وهذا القول تصححه أصحاب القول بالتماقين ،

(١) فى المتن : « وكان الشمس » .

(٢) فى المتن : « عنصرين » .

(٣) المصاية بالضم : القارورة الصغيرة (القاموس المحيط) .

ويُحتج فيه أن لكل ماعفن فى استحقاقه نتج منه روح حيوانى(١) وذلك بالضرورة ، كالدود من الخل ومن الجبن ، وكالحشرات من الأرض . وربما عفنت أشياء ، وخرجت منها حيوانات مختلفة الأشكال . قال : فسُمّى ذلك الشخص الذى خرج من تلك المنار باللغة التركية « أى أطام » معناه « الأب القمر » . والترك يدعون أنهم أحق به من الفرس ، والفرس يدعون أنّهم أحق به من الترك . واسمه عند الفرس كهومرت معناه بالفارسية « أب الآباء » .

قلت : ونحن نعوذ بالله تعالى من تصديق دعوى الطائفتين ، ونشهد أن الله خالق آدم من طين ، بقدرته التى لايقدر عليها سواه ، بما أتى به الرسول الصادق ، الذى بالحق ــ عن الحق ــ ناطق . وأن الله تعالى واجد الوجود من العدم ، وهو على كل شىء قدير . وأما دعوى هؤلاء القوم على ما ذكره صاحب هذا الكتاب ، فإنها دعوى سخيفة جداً ، لايقبلها الشرع ولا العقل جملة كافية .

قال جبريل : قال برزجمهير : فنزل ذلك الشخص المسمى « أى أطام » إلى تلك الأرض الطيبة الهواء(٢) ، العذبة الماء ، فأقام بها أربعين سنة ، وهو متزايد القوة والنشاط ، والنهضة فى سائر أعضائه وتركيبه . قال : ثم إن السيول اجتمعت أيضاً ، ونزلت ، وتحصلت تلك المصابة بالمثال الأول الذى تقدم ذكره . لكن كانت الشمس ببرج كيذان ــ معناه أنه بالتقدير والقياس كقولنا برج السنبلة ــ فأدرك الطبخ والشمس فى أول هبوطها ، وتكامل نضجها والشمس قد شرقت على أوجها ، فخرجت أنثى ، هذا بقوله فى كلام طويل هذا تلخيصه . ولو أمكننى تلخيص الجميع لكان أوفق ، لكن ألجأت(٣) الضرورة لبيان ذكر أول خلق التتار حسبما يأتى ،

---

(١) فى المتن : « روحا حيوانيا » .

(٢) فى المتن : « الهوى » .

(٣) فى المتن : « ألجت » .

فإننى لم أجد أحداً ذكر أصلهم الأول ، وإنما سائر أرباب التواريخ ابتدأوا[١] بذكر جكزخان[٢] تمرجى ، ولم يتعدونه . ووجدت فى هذا الكتاب بدء شأنهم ، فأحببت أن أنبه على ذلك . قال جبريل : نخرجت أنثى لعدم إدراكها أول الأوج ، فنقصت عن التركيب الذكرى لعدم الحرارة ، فسميت باللغة التركية « أى وا » معنى ذلك « وجه القمر » . فتزاوجا وتناسلا ، فأقام « أى أطام » بعد نزول « أى وا » أربعين سنة أخرى واقفاً عن الزيادة والنقصان . ثم شرع فى النقص ، فأقام أربعين سنة متناقص الأحوال . فلما كملت له مائة سنة وعشرون سنة ، هلك . وقد صار له من النسل أربعين ذكر وأنثى ، فتزاوجوا بيعضهم البعض . وكان أكبر الأولاد لما هلك « أى أطام » أعادهُ إلى المغار ، ووضعه فى ذلك الأخدود ، رجاء أن يقوم ثانيا . فلما هلكت أمه « أى وا » بعد أبيه بأربعين سنة ، طلع بها إلى أبيه ، فوجده قد تمزق ، فوضعها فوقه ، وطمرها وتركهما . وجعل على باب المغار ذلك الباب الذهب ، وأقام عليه سدنَة يحفظونه .

قال جبريل بن بختيشوع : فمن هاهنا أخذت الحكماء الأطباء أن العمر الطبيعى مائة وعشرون سنة . والعلة فى ذلك أن هذا الشخص لما كان ابتداؤه[٣] ، والشمس فى أوجها ، اقتضى الزيادة فى ذلك الفصل بكماله . وذلك أن السنة ثلثمائة وستين يوماً ، والخمسة أيام وزائدها لايعتد به فى حساب السنة الشمسية . وفى ذلك بحث دقيق ، وحديث طويل أضربت عنه ولم أنسخه .

قال جبريل: فإذا حُسبت هذه الثلثمائة وستين يوما[٤] على منازل القمر، وهى الثمانية وعشرين منزلة التى يحلها القمر فى طول السنة ، كانت كل منزلة تُخص بمدة أيام ،

---

(١) فى المتن : « ابتدوا » .

(٢) كذا فى المتن ، وقد تكرر الاسم بهذه الصورة فى بقية الكتاب .

(٣) فى المتن : « ابتداه » .

(٤) فى المتن : « يوم » .

وكانت كل ثلاثة[1] أيام إلا قليل بنظير سنة من العمر الطبيعى، وهو المائة وعشرون سنة . فإذا حسبت السنة اثنى عشر شهرا ، كان استكمال السنة باستكمال مائة وعشرين سنة . فالزيادة فيها كون أن الشمس كانت فى أول خروجه إلى فسيح الفضاء بنقطة الحمل ، وهى فى صعودها ، فاقتضى الحال الزيادة فى طول مدة ذلك الفصل بكماله . فلما صارت الشمس بنقطة السرطان ، وبلغت منتهى[2] الزيادة فى صعودها ، وقفت فى ذلك الفصل بكماله . فلما عادت الشمس بنقطة الميزان ، وتساوت ، ورجعت إلى الهبوط ، اقتضى ذلك الحال النقصان . فلما انتهت إلى الحضيض اقتضى الحال التلاف والهلاك ، إذ الحمل لم يكمل غير تسعة أشهر ، فمنتهاه آخر ما الشمس فى برج الجدى ، وهو آخر الحضيض الشمسى . والعمر الطبيعى إنما هو تسعون سنة ، وإنما جعلوه مائة وعشرون سنة للغاية فى النهاية. قال جبريل : وأقوى الأدلة على ماذكرناه أن سائر المخلوقات ذوات الأرواح الجائلة فى الأجساد المركبة ، فى فصل الربيع يحصل لها الانتعاش وقوة الحركة والنهضة وتحريك الشهوة والتنصل من الأمراض التى حدثت فى فصل الخريف ، ولم تنصل فى فصل الشتاء كون أن الشمس فى هبوطها .

قال جبريل: فإن قال قائل رأينا[3] من يعيش أكثر من المائة وعشرين، ورأينا من يموت دون ذلك من غير سبب عارض ، فالجواب عن ذلك ، قال برزجمهر : الحجة لنا فى ذلك خلقة هذا الشخص المدعو « أى أطام » فإنه إذا اتفق أن المولود يولد موافقا لبروز هذا الشخص فى الأوقات التى تكون فيها من ابتدائه إلى انتهائه ، وتكون أعضاؤه مناسبة لتلك الأعضاء المختصة بذلك الشخص ، لاتساع جولان الروح فى متسع التركيب ، وسلم من أن تغلب عليه طبيعة على طبيعة ، وخلص من آفات الدنيا وعوارضها ، حكمنا له أنه يعيش ما قدرناه له من العمر الطبيعى . ثم إنه ذكر هاهنا مقادير الأعضاء فى التركيب من الرأس إلى القدم ، مما أضربت عنه لطول شرحه

(١) فى المتن : « ثلثه » .
(٢) فى المتن : « منتها » .
(٣) فى المتن : « رينا » .

وهذيانه . ثم قال: فإن زاد المولود فى خلقه عن هذا التركيب ، واتفقت له هذه الأسباب المشترطة كلها ، زاد عمره على العمر الطبيعى بمقدار تلك الزيادة فى تركيبه ، وإن نقص عن خلقه فى هذا التركيب نقص عمره بمقدار ذلك النقص . قال جبريل : ولذلك أن الطبيب الماهر والحكيم الحاذق إذا رأى طفلا كان أو غيره كاملا فى خلقه التركيب الأصلى فى سائر أعضائه ، علم مقدار جولان الروح فى ذلك التركيب ، وراعى[1] مصالح الطبائع الأربع فى الأغذية ، فأمكن أن يعيش ما قدر له ، بشرط سلامته من الآفات العارضة ، فيجب على الطبيب الحاذق اللبيب الفطن إذا كان بخدمة ملك أو رئيس أن ينظر إلى أعضائه وتركيبه ، ويلاطف مانقص منها ، ويحفظ نقصها من أى الطبائع هى ، فيكون اعتماده دائباً فى حفظ صحة تلك الطبيعة التى من جهتها نقصت الحملة عن الاعتدال . ثم تكلم كلاماً كثيراً جداً[2] ، أطنب فيه إطناباً كثيرا ، أضربت عنه. والذى تبين للعبد من هذا القول أن الأطباء وضعوا ذلك فخًّا ليصيدوا به عقول الكبار من العالم ، وأن لا يكون لهم غنى عن طبيب حاذق يلازم مجالسهم لحفظ الصحة من أمزجتهم . وليس نشك أن الله عز وجل خلق الداء والدواء ، وإنما قولهم فى معانى التركيب وحياة العمر الطبيعى فمحال لا يصدقه مؤمن يؤمن[3] بالله تعالى ، وبما أتى به رسوله صلى الله عليه وسلم. والصحيح قول الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ : « العمر محتوم، والرزق مقسوم ».

قال جبريل : ثم إن ذلك النسل الذى من ذلك الشخص كثر وتزايد ، وبغى[4] بعض على بعض ، فأجمعوا أمرهم على أن يقيموا من بينهم رأساً[5] يرجعون إلى كلمته ، ويأخذ القصاص من بعضهم لبعض ، فاتفق رأيهم على أن يكون الأكبر من ولد

(١) فى المتن : « وراعا » .

(٢) فى المتن : « كلام كثير » .

(٣) فى المتن : « يأمن » .

(٤) فى المتن: « وبغا ».

(٥) فى المتن : « رأس » .

« أى أطام » ، فكان أول من جلس على سرير الملك من هؤلاء القوم من ولد « أى أطام » الأكبر منهم ، تسمى باللغة التركية « أى أطام كشكرى » معناه « الأب القمر الصغير » . فأقام فى الملك ثمانين سنة ، وهو الذى ابتنى تلك المدينتين العظيمتين ـ أيدرماق وأيشرماق ـ بناها فى مدة أربعين سنة . ثم هلك ، فقام بالأمر ولده ، وكان يسمى بلغتهم « كشكرى بلجكى » معناه « فرخ كشكرى » . فلما استقر له الأمر كان أبوه قد أوصاه أن يجعل رمته فى تمثال من ذهب مجوف ، ويجلسه على كرسى فى بيت يصنعه له كالمعبد ، فصنع له ذلك ، وأحكم له البيت الذى جعله فيه ، وأوقد عليه القناديل الذهب بالزيت المحكم الذى لاينطفىء ، لا ليل ولا نهار . وأقام له سدنة يخدمونه . وعاد ذلك مشهداً لهم وعيداً ، يجتمعون إليه فى يوم تاريخ وفاة ذلك الملك ، فيسجدون له، ويدعون عنده، ويقربون إليه من أعز أموالهم ومواشيهم. وسُمِّى بعد ذلك كل من ملك من نسل ذلك الملك من ذلك الحين « ألطن خان » تفسيره « ملك الذهب » . وأقاموا على ذلك ما شاء الله تعالى من الدهور ، آلاف من السنين والقرون ، وهم فى ألذ[1] عيش وأهناه ، لا يعرفون لهم عدواً ولا حرباً ولا قتالا . انتهى كلام[2] جبريل إلى هاهنا .

قلت : فأبى[3] الدهر إلا أن يفرق شملهم ، ويعيدهم عبيداً بعد الملك ، وأذلاء بعد العز ، كعادة الدهر وغدره ، والزمان وشره . فكان موجب ذلك ما ذكره سليمان بن عبد الحق بن البهلوان الأذربيجانى، مما ذيله على كلام جبريل بن بختيشوع، وضمنه هذا الكتاب المذكور . قال سليمان بن عبد الحق : إنه كان بهذا الجبل المسمى « قراطاغ » عند منبع تلك البحيرة ، وحوشاً شداداً ، سوداً ، كالبخاتى عظماً ، لايطيق بشر أن يقرب تلك الأرض بما رحبت ، لكثرة وحوشها ، وخبث أسودها.

---

(١) فى المتن : « اللذ » .

(٢) فى المتن : « الكلام » .

(٣) فى المتن : « فأبا » .

ولم يكن بها ساكن[1] من الإنس ، مع كثرة خيرها ، وسعة فضائها ، وبهجة أقطارها ، وعذوبة مائها ، وصحة هوائها ، تشتمل تلك البحيرة على عدة جزائر خضرة نضرة ، كثيرة الأشجار والنبات ، يأوى إليها سائر أصناف الطير من سائر أقطار الأرض ، يبيض ويحضن ويفقس ، لا تجد من يشوش عليهم ، ولا من ينفره عن وكره. وكان أكثر ذلك طيرًا ، الجنس الذى يقال له باللغة التركية « قو » وهو « التم » . فاتفق أن بجوار هذه الأرض ـ بعد مسافة بعيدة ـ بلاد يقال لها تبّت ، وهى التى بها الغزال ، الذى فى صراره المسك المعروف بالمسك التبتى ، وهو أجود من المسك الصينى بطبقات ، لا يحمل إلا إلى الملوك فى البر دون البحر ، فإن حمله فى البحر مما يقطع ريحه ، وله حديث طويل ، أضربت عنه لذلك .

قال سليمان الأذربيجانى : خرجت امرأة من بلاد تبّت ، وهى حامل[2] ، إلى بعض تلك الأودية بتلك الأرض تحطب ، فأدركها المخاض ، فوضعت ولداً ذكراً كأنه قطعة صخر ، فنهضت تأتيه بشىء من ذلك الحشيش تستره به ، فاختطفه نسر[3] ، وحلّق به فى الجو ، فلم يحطّه إلا بسفح ذلك الجبل المسمى بقراطاغ . فسقط ـ لما يريده الله عز وجل ـ فى غيضةٍ قد ولدت فيها فى تلك الساعة لبؤة ، فصار الطفل عند شبلها الذى وضعته ، لأمرٍ أراده مدبّر الأمور ، ومقدّر الكائنات ، الفعّال لما يريد ، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون . ثم أراد النسر حمله ، فنظر إلى اللبؤة وهى قد ضمته إلى شبلها ، وظنت أنها وضعته مع شبلها ، وحنّنها الله ـ جل وعز ـ عليه ، كما ورد الخبر عن نمرود بن كنعان مع النمرة التى حضنته مع جروها . فجفل النسر وحلق طائراً وتركه . ثم إن اللبؤة أرضعته مع شبلها من وقتها . ولم يزل كذلك حتى انتشأ وترعرع ، وكبر مع ذلك الشبل ، وعادت اللبؤة تكسر لهما من أصناف وحوش ذلك الجبل

(١) فى المتن : « ساكنا » .

(٢) فى المتن : « وهى حاملا » .

(٣) فى المتن : « نسراً » .

وتطعمهما. وشبّ ذلك الغلام وكبر، حتى صار يفترس الأسود بيده، ويأكل لحومها، وعاد كأنه البختى العظيم من عظم خلقه، بوجهٍ كأعظم ما يكون من وجوه السباع، ولا يظن أن ثم خلقاً سوى تلك الوحوش، لعدم السالك بتلك الأراضى. وعادت الأسود إذا رأته جفلت منه وهربت، خوفا من شره ولافتراسه إياهم.

قال سليمان بن عبد الحق الأذربيجانى: فبينما هو ذات يوم بسفح ذلك الجبل على شاطئ تلك البحيرة، إذ نظر إلى سبعة نفر من بنى آدم ـ ثلاثة[1] رجال وأربع نسوة ـ وهم فى تلك الأرض، والأسود قد دارت عليهم من كل جهة. فنظر إلى أشخاص كشخصه، وشبهاً كشبهه، وتركيباً كتركيبه، فحنت الجنسية، ومالت الطبيعة الآدمية، فنهض إليهم، وزعق على تلك الأسود الذين قد تجمعوا عليهم، فنفروا منه، لما رأوه. وكذلك أولئك الأشخاص سقطوا على وجوههم لهول منظره، فتقرب إليهم وانسهم، فتأنسوا به، لما علموا أنه يمنع عنهم أذى[2] تلك الأسود. وتبينوه فوجدوه آدميًّا مثلهم، وإنما غيرت محاسنه الوحشية الربيبة. فكلموه فلم يفهم، بل إنه يزمجر كزمجرة الأسود. ثم إنه تأنس بهم، وعاد يفترس لهم من تلك الأسود والوحوش ويأتيهم به، فيشوون ويأكلون ويطعمونه، فعاد يأكل مما يأكلون. ولم يزل كذلك حتى فهم وعقل كلامهم. وعادوا يأمرونه بالشىء فيفهم. وسأل بعد ذلك منهم عن أحوالهم، فعرّفوه أن ثم أناس مثلهم كثير فى جميع الأرض، فقال: «فما الذى أوقعكم أنتم هاهنا، ولم أر من قبلكم غيركم؟». فقالوا: «نحن تتار»؛ معنى ذلك ـ أى تائهين عن أرضنا ـ «وأن قوما من جنسنا غلبوا علينا، وقتلونا، وأخرجونا من ديارنا، فخرجنا هاربين، لا ندرى أين نتجه، فوقعنا فى هذه الأرض تتار، أى تائهين». فهذه أصل كلمة قولهم التتار.

(١) فى المتن: «ثلثه».

(٢) فى المتن: «أذا».

قال : وكان فى جملتهم بنت ، فعلق بها ذلك الشخص الوحشى ، وواقعها ، فولدت منه غلاماً، فسموه أهله «تتار خان» ـ تفسيره الملك التائه ـ وسموا أبوه ذلك الشخص الوحشى « ألب قرا أرسلان بلجكى » معنى ذلك وتفسيره « فرخ الأسد الأسود ». ثم توالدوا وتناسلوا، وكثروا وقتلوا تلك الأسود الذين فى تلك الأراضى ، وأكلوا لحومها . وولد لتتار خان ولد[1] فسماه قرا أرسلان بلجكى ـ على اسم جده . ثم ولد لقرا أرسلان بلجكى ولد، فسماه تتار خان كشكرى تفسيره «تتارخان الصغير» . وهو أول من صنع الشبابة التركية المسماة بلغتهم « صبرغوا »، وصنعها لمشاكلة حس تلك الطيور التى بتلك الجزائر ، فكان يمدى إليهم ، ويصفّر بتلك القصبة، فتجتمع عليه الطيور من سائر نواحى الجزائر ، فيصيد منها ماشاء أن يصيد . ثم ولد لهذا تتار خان كشكرى أولاد ثلاثة[2] جكز خان ، وأغزّ خان ، وأطن خان .

قال سليمان بن عبد الحق : فهؤلاء الثلاثة أصول سائر بطون التتار ، وانقرض ما سواهم . وتوالدوا ، وكثر نسلهم فى تلك الأرض ، وتفرقوا حول تلك البحيرة ، وليس لهم ما يأكلوه غير وحوش ذلك الجبل ، مع ما تنبت تلك الأراضى من أنواع النباتات . ثم ولد لجكز خان اثنا عشر ولدا ذكراً ، فكان الأكبر فيهم يسمى تتار خان بيغو ، وكان أعظمهم خلقاً ، وأقواهم بطشا ، وأشجعهم نفسا . وكان يسطو[3] على الأسود بغير سلاح ، فيملكها بيده . وكان لما علموا أهل تلك الديار أن تلك الأرض خلت من تلك الوحوش الضارية ، وأن عاد بها سكان وقطّان ، ترددوا إليها ، ونازلوا أهلها . ودخلت التتار تحت طاعة ذلك الملك المسمى ألطن خان ، وعادوا يميرون إليه ، ويتقربون إليه بغرائب تلك الوحوش التى بذلك الجبل ، وينعم عليهم بما يمونهم من قوتهم . وتخلقوا بأخلاق الآدميين قليلا ، وإنما الغالب عليهم أنهم كالأسود . وعاد لهم الخيل والمواشى . ومات كبارهم.

(١) فى المتن : « ولدا » .

(٢) فى المتن : « ثلث »

(٣) فى المتن : « يصطو »

وولد لهذا تتارخان بيغو ولد[١] فسماه جكزخان وهو جكزخان تمرجى ، يعنى الحداد . وسبب تسميته بالحداد ، أنه كان يتردد إلى مدينة أيدرماق ، وصحب بها رجلا حدادا[٢] ، فتعلم منه عمل نصول السهام ، فكان يأخذ منه الحديد ويعود إلى أهله فيصنع نصول السهام ، ويعبر بهم إلى تلك المدينة على رأس الحول ، فيبيعه ويمتار لأهله وولده ما يمونهم مما يحتاجون إليه من الحول إلى الحول .

قال : لقد نظرت إليه لمافتح أذربيجان ــ بلدنا ــ بعد هزيمة السلطان علاء الدين خوارزم شاه منه فى أقطار الأرض ، حسبما يأتى من ذكر ذلك فى تاريخه ، فكان من صفته أن وجهه كدور الترس ، ورأسه كرأس البعير ، يشمل من وجهه النار ، ورأسه بين كتفيه من غير عنق ، يظهر له سناط[٣] ، لم يكن بوجهه إلا شعرات تستره . ونظرت إلى زنوده شبه أكارع البعير الجيد . ورأيت حوله جماعة يقاربون صفته ، لكن لم يكن فيهم من هو أهول منه منظرا . فلم أملك نفسى دون أن سقطت إلى الأرض هيبة منه . ثم مَنَّ الله علىّ بالخلاص .

قال : وولد له أربعة وعشرون ولد ، فكان أكبرهم يسمى بيشخان . وكان قد أتى فى خلقة جده تتارخان بيغو وشدته وشجاعته وقوة نفسه ، فعاد يلعب بالطير المسمى طغريل . وكان للملك الكبير ألطن خان عدة أولاد . وكان ولى عهده يسمى كمش خان . وكان من عادته أنه يخرج فى كل عام إلى أرض التتار يتصيد ويتنزه ، ويقيم مدة ، ثم يعود . وكان جكز خان ، وأولاده ، وكبار بنى عمه يلقونه ويكونون فى خدمته ، حتى يعود إلى مدينته ، بعد ما ينعم عليهم ويعطيهم الخيول والمواشى وغير ذلك . وكانت[٤] المسافة بين مدينة أيدرماق وبين ديار التتار التى هم بها نزول أربعين يوما .

---

(١) فى المتن : « ولداً » .
(٢) فى المتن : « رجل حداد » .
(٣) سناط بالضم والكسر ، لالحية له أو الخفيف العارض أو لحيته فى الذقن (القاموس المحيط) .
(٤) فى المتن : « وكان » .

ذكر سبب تغلب التتار على ملك ألطن خان وما كان من حيل الحروب

قال سليمان بن عبد الحق الأذربيجانى : فلما كان فى سنين عشر العشرين وستمائة خرج كمش خان بن ألطن خان على عادته إلى الصيد ، ووصل إلى منازل التتار ، وتلقوه كعادتهم . وركب كمش خان وعلى يده طغريل ، وقدّامه فى الخدمة بيشخان ابن جكزخان ، وعلى يده أيضا طغريل . فأُطلقا جميعا فاشتبك[1] الطائران فى طير واحد المسمى قو ، فسبق إليهما بيشخان بن جكزخان ، واقتلع طير كمش خان ، وضرب به الأرض قتله ، وذبح لطيره ، وأشبعه على صيده . فلما نظر كمش خان إلى ما حلّ بطيره رجع إلى منزلته غضبانا ، وأمر أن تشال خراكيه ، وتوجه إلى بلاده ، وهو قد كاد ينشق غضبا . فلم يلتفت إليه بيشخان ، ولا عبأ به ولا ركب إليه ، ولا استرضاه . وعاد إلى عند أبيه جكز خان ، وأخبره بما جرى[2] ، فقال له : « لبئس ما فعلت . أما علمت أن هؤلاء أصحاب الدنيا وملوك الأرض؟ ويجب علينا مداراتهم كونهم الحكام علينا ؛ ونحن تحت طاعتهم وعزب من عظمهم ، وليكونن لنا ولهم شأن عظيم ، وأرجو أن نكون المنصورين[3] عليهم . فإنى رأيت فى منامى بارحتى ما يدلنى على ذلك ، وهو كأنى على رأس قراطاغ ، وقد مسكت الشمس بقرنيها ، من شرقها إلى غربها ، وقد سلمتها لكم ، فانفلت من يدى ناحية المغرب » .

ثم إنه ركب من فوره ودار على إخوته وبنى عمه وعشائرهم ، وسائر جنسيته ، وجمعهم إليه ، الكبار فيهم وزعمائهم ، فكانوا عدة ثلثمائة وستون نفر . ففرح بعدتهم ، وقال : « هذه[4] المدة عدة سنة الدهر » . ثم إنه عرفهم صورة الحال ، وما جرى[5]

(١) فى المتن : « فاشتبكا » .
(٢) فى المتن : « جرا » .
(٣) فى المتن : « المنصورون » .
(٤) فى المتن : « هذا » .
(٥) فى المتن : « جرا » .

بين كشخان و بيشخان ولده. ثم إنه جمع ثلثمائة وستين[١] سهما وجعلها جرزة[٢] واحدة، وكان كل سهم من نفر منهم، وقال: «أيكم يكسر هذه؟». فقالوا: «لا نطيق كسرها جملة»، فقال: «نحن كذلك متى كنا مجتمعين لا يطيق أحد على كسرنا» . ثم رمى لكل أحد سهمه وأمره بكسره ، فكسره كأسرع ما يكون . فقال : « ونحن كذلك أيضا إذا ما تفرقت كلمتنا كسرنا كهذه السهام » . فكان جكز خان أول من ضرب هذا المثل . ثم قال : « لكن لابد لنا من رأس نرجع إليه ، وإلى حكمه وتدبيره » . فانتقوا من الثلثمائة وستين ، سبعين نفرا ، ثم انتقوا من السبعين ثلاثة[٣] عشر نفرا ، ثم من الثلاثة عشر ثلاثة ، فيهم جكزخان . ثم اجتمع رأيهم أن يصنعوا قربانا ويقربونه لتنكاخاتون ، فمن خرج قربانه موكولا كان مالرأس وصاحب الأمر ، ومرجوعهم إليه. وكانوا يتخذون لعبة من لبد أبيض ويجعلونها فى خركاة ولها خادم[٤] يسمونه بخشى . وهو من نسل أولئك القوم الذين كانوا قد قدموا من أول زمان على ذلك الشخص الوحشى ألب قرا أرسلان بلجكى ، المقدم ذكره . وهذه اللعبة كانت معبود أولئك القوم الذين هؤلاء التتار من عَظْمِهم ، القادمين التائهين حسبما سقناه . ويسمون هذه اللعبة تنكاخاتون ، ولهم فيها أحاديث عجيبة تخامر العقول ، فأضربت عن جميع ذلك فإنه كفر عظيم ، نعوذ بالله منه ، ومن تصديقه .

قال سليمان : فصنعوا ثلاث[٥] قصع من ثريد ، وصبروا إلى الليل ، وقدموهم إلى اللعبة . ووقف البخشى يزمزم بلغتهم ، والثلاث نفر على ركبهم جوك[٦] . فلما تهور

---

(١) فى المتن : « وستون » .

(٢) الجرزة : الحزمة .

(٣) فى المتن : « ثلث » .

(٤) فى المتن : « خادما » .

(٥) فى المتن : « ثلث » .

(٦) الجوك أو الجوق : الجماعة من الناس ؛ انظر الجواليقى ، المعرب من الكلام الأعجمى (ص ١٤٢) ، وذكر دوزى (Dozy : Supp. Dict. Ar.) أن الجوك عند التتار السجود لإظهار الطاعة والاحترام. ويقال ضربوا له الجوك أى أظهروا الطاعة والاحترام بالسجود .

الليل ، سمعوا من داخل الخركاه هدّة عظيمة ، ودويا عظيما ، وقعقعة كأجنحة طائر عظيم ، وحِسّ لم يعهدوا بمثله قط قبل ذلك اليوم ، وقائل يقول بلسانهم، ما هذا صفة تفسيره : « جكزخان صاحب الزمان ، وملك الأوان ، ومخرب البلدان ، وقاتل الشيوخ والولدان ، فكونوا له أعوان ، تكونوا فى أمان » . وبرزت قصعته مأكولة بكمالها إلى ناحية المشرق بكماله ، وتبقى منها جنب إلى ناحية المغرب لم يؤكل . قال: فعند ذلك نهض القوم بأسرهم وأجلسوا جكزخان ، وضربوا له جوك . فأمر عند ذلك أن يجتمعوا جميعهم من الرجال النافعة للحرب ، فكان عدتهم أربعة آلاف رجل[1] كالأسود فى قطع البخاتى عظم خلق . غير أنهم لم يكن لهم ما يلبسونه ، ولا سلاح يقاتلون به، ولا خيلا يركبونها ، إلا عدة ثلثمائة وستين فرس ، منهم ثمانين فرس من نسل أصل فرس كان لجدهم تتارخان بيغو ، صاحب الصبرغى . وكان لما يتردد إلى الجزائر التى فى تلك البحيرة ، وجد فى جزيرة من بعض تلك الجزائر المحاذية للجبل قراطاغ ، فرسا وحشيًّا ذيله تسحب على الأرض ، وعرفه يطل على ركبتيه ، وهو يضرب الأرض بحوافره ، فتقدح ناراً . فاحتال عليه أن صنع له حفيرة أوقعه فيها .

ثم إنه أقام حولا كاملا يؤانسه ويطعمه ويسقيه حتى تأنّس به . ثم أطلعه من تلك الحفيرة ، وأحضره إلى أهله . ثم أقام حولا ثانيا حتى ركبه . وكان هذا الفرس تسبق الريح ، وتلحق عليه ما شاء من أصناف الوحوش ، يقتل الأسود بحوافره ويديه ، لايصعب عليه وعراً ولا جبلا. إذا جاع يحفر الأرض بحافره ويأكل أصول الأشجار. وإن لم يجد أكل الحصى ، روثه أشد من الصخر قوة وصلابة . وكان لا يطيق يركبه غير تتارخان بيغو صاحبه . وكان اسم هذا الفرس أط أطن ، أى فرس النار . فنسل عندهم فى ذلك الوقت الذى تجمعوا فيه ثمانين فرسا عن بنى تتارخان بيغو يتوارثونه كابراً عن كابر . قال سليمان : وقيل إن هذا الفرس كان يكلم صاحبه ، ويفهم ما يأمر له به .

---

(١) فى المتن : « أربع آلاف رجل » .

فلما اجتمعوا على كلمة واحدة ، ونظرهم جكزخان ، سُرَّ بهم . ثم إنه نفَّذ إلى صاحبه الحداد الذى كان يتردد إليه بمدينة أيدرماق رجلا من دهاة قومه ، وأمره أن يتجسس له أمور الملك ألطن خان، وما قد عزم عليه. فغاب أياما ثم رجع ، فأخبره أن كمش خان لما رجع ووصل إلى أبيه عرَّفه ما كان من بيشخان وإخراقه ناموس الملك ، فعظم على ألطن خان، «وها هو ينفذ إليكم يلجياً - يعنى بريداً - يطلبكم إليه فلا تسمعوا ، فإنكم إن أتيتم إليه لا يبقى على أحدٍ منكم». فلم يكن بعد ذلك إلا أيام قلائل وحضر إليهم يلجى فى سبع مائة فارس ، يأمر جكزخان وسائر بنيه وكبار عشيرته بالقدوم إلى باب الملك ألطن خان ، فأنزلهم وأكرمهم . فلما كان الليل نفذ لكل رجل رجلا من قومه ، فقتلوهم عن بكرة أبيهم يد واحدة ، فكان هذا أول دمٍ أراقته التتار فى الدنيا .

ثم أخذوا خيولهم وعددهم وسلاحهم ، وفرَّق جميع ذلك على أعيان قومه . ثم أنفذ ذلك الرجل الجاسوس إلى الحداد المقدم ذكره ، يكشف له ما يتجدد من أمور ألطن خان ، فعاد وأخبره أن ألطن خان بلغه ما فعلتم بيلجيه ، وقد جهز إليكم خمسين ألف مدرع ، وأمرهم بأخذكم أشد أخذ. فعند ذلك جمع كبار قومه ، وعرفهم ذلك ، فقالوا: «كيف لنا بخمسين ألف لابس، بخيول وسلاح وعدد، ونحن كما ترانا؟». فقال: «لا بأس عليكم إذا نحن صادفناهم. فعند أول حملة انهزموا وتسلَّقوا فى جبلكم هذا . فأنتم تخبرون مسالكه ووعوره ، فإنهم لا يتبعونكم فيه ، لما فى أنفسهم منه ومن دغله وكثرة وحوشه . ثم إن نحن لم نكن على بالهم بشىء ، وهم أهل لذة وأكل وشرب . وينظروا إلى هذا المكان وطينته ، وهذه الأرض وحسنها ، ولذة هوائها، ونضارة زهرها . وهم أهل لذة ، ولا يفارقهم الخمر . فإنهم سينزلون بها لا محالة ، لقلة اكتراثهم بنا ، فيأكلون ويشربون ، ويمرحون إلى الليل ، فينامون سَكْرى ، فحينئذ ننزل عليهم ، فلا نبقى منهم باقية » . قال سليمان : فكان الأمر كما قدر ، ولا أخرم عليه فى حسابه القضاء والقدر ، فقتلوهم عن آخرهم ، واستعانوا بخيولهم

وسلاحهم وملابسهم ، وباتوا فقراء فأصبحوا أغنياء ، وعاد لكل نفر منهم جملة من الخيول والعدد والسلاح . ثم اجتمع إليهم من كان بعيداً منهم ، ونازحا[١] عنهم ، ومن لم يكن قد وافقهم أولا ، ومن فقير وكساب ومحتاج ، فأعرضهم جكز خان فعادوا فى عشرين ألف فارس شديد ، كأنه قطعة من جبل بقلب أصلب من الحديد .

فلما عاينهم جكزخان تعاظم سروره ، ونفّذ إلى ذلك الحداد جملة من ما كسب من ذلك العسكر ، وهو يستخبره عن ما يتجدد عند ألطن خان . فعاد إليه الجواب يخبره أن قد توجه إليهم كشن خان بنفسه ، ابن ألطن خان ، فى مائتى ألف عنان ، « وحلف بقراطاغ أنه لا يبقى من عظمكم أحداً[٢] ، لا من النساء ولا من الرجال . والمتوجهون إليكم أعظم الجيش ، فإنهم من عظم « أى أطام » الكبير . وقد تقرر أمرهم إذا هم أخذوكم أن يقطعوا رءوسكم ، ويجعلوها على عيدانهم ، ويدخلون المدن كذلك» .

قال : فجمع جكزخان كبار قومه ، وعرفهم ذلك ، فقالوا: « فما تشير به علينا ؟ » فقال: « إن القوم لا يعلمون إن نحن قد عدنا فى هذا المدد ، وظنهم أن نحن على ما كانوا يعهدونه . والرأى أن تفترق عليهم أربع فرق ، كل خمسة آلاف يقدمهم كبير منكم . وتكون كل[٣] فرقة فى جهة من الجهات الأربع . ونقطع من هذه الأعواد ونغرسها فى سفح هذا الجبل ، ونلبسها ما فضل عنا من هذه العدد كهيئة الرجال ، فما يشكون أنهم رجال . ثم نخرج عليهم الكمناء من أربع جهات ، فلن يتمالكوا أن يولوا منهزمين ، فنضع فيهم السيف ، ونجتهد على أن لا يفلت منهم أحد، ونلبس ما عليهم، ونأخذ رءوسهم على رماحنا ، ونسوق إلى مدنهم فيرونا ، فلم يشكوا إن نحن قومهم وقد ظفروا بنا . فيكون ذلك سبب الفتح والملك » .

---

(١) فى المتن : « ونازح » .

(٢) فى المتن : « أحد » .

(٣) فى المتن : « وتكون كون فرقة » .

قال سليمان : فكان الأمر كما ذكر ، ولا أخرم عليه الحساب دقة . ودخل مدينة أيدرماق فى عدته ، وذبح ألطن خان على سريره بيده، وقتل سائر مَن كان من عظمه، وأخرج قومه وحاشيته وجنده ، وجعلهم فلاحين[1] فى تلك القُرى[2] ، يزرعون ويقومون بالخراج له . وجلس جكز خان على سرير الملك ، ولبس التاج ، وفرّق بنيه فى سائر أقطار الأرض .

انتهى ما استنسخته من الكتاب التركى المسمى « أى أطابتكى » . ونحن نذيل عليه مما ذكروه أرباب التواريخ ؛ مثل ابن الأثير صاحب التاريخ الكبير الجامع ، ومثل ابن واصل صاحب تاريخ بغداد ، وغيرهما ، إن شاء الله تعالى .

قال ابن واصل : إن أول إقليم ملكوه التتار بلاد الصين، ولم يقل للمدن أسماء. قال : وملكهم يومئذ جكز خان ، ولم يذكر له نسباً . ثم قال : ومشوا من الصين الأعلى[3] إلى الصين الثانى ، ثم مشوا إلى تركستان ، فحاصروا مدنها وملكوها وقتلوا كل من كان بها . ثم مشوا إلى كاشغر وبلاشغر ، وهاتين مدينتين عظيمتين أكبر أقاليم الصين ، فقتلوا كل من كان بها من الترك من بنى يافث بن نوح عليه السلام ، ونهبوا أموالهم ، ونفذوا من جهتهم جماعة من أصحابهم فى زىّ تجار يبيعون ما معهم من تلك الأموال المكتسبة ، ويشتروا بها لهم قماش وسلاح من أطراف بلاد العجم . وكان هؤلاء القوم لا يعرفون القماش ولا الملبوس ، ولا شىء من زينة الدنيا ، إلا أنهم شبه الوحوش النافرة فى الأرض . ولا يعرفون غير جلود الوحش ، مثل القندس والسمور والقاقل ، وما أشبه ذلك . وكذلك جميع تلك الأمم الذين من وراء النهر خلف جيحون . قال صاحب التاريخ: فلما قدم أولئك الأقوام إلى بلدٍ يقال لها أتراب، وهى آخر ولاية مملكة السلطان علاء الدين خوارزم شاه

(١) فى المتن : « فلاحينا » .

(٢) فى المتن : « القرا » .

(٣) فى المتن : « الأعلا » .

من جانب المشرق من الأرض . وكان بها نائب[١] للسلطان علاء الدين ، فموّقهم عنده ، وسيّر إلى السلطان يقول : « إن قوماً قدموا علينا لا نعرفهم قبل ذلك ، ومعهم أموالًا جمّةً ، من أصناف كيت وكيت ، يقصدون بيعه ومشترى قماش وسلاح[٢] . فما ترسم فى أمرهم؟ » . فكتب إليه السلطان يقول: « إذا أتاك كتابى فاضرب رقابهم، ولا تبقى منهم غير رجلٍ واحدٍ ، ليعُود يخبّر قومه . وخذ جميع ما معهم ونفذه إلينا، لينتهوا عن التجاسر والعبور إلى البلاد » . ففعل ذلك ، وعاد ذلك الرجل الذى تبقى منهم إلى جكز خان ، وقد كسر الخطا أيضا وأخذ بلادهم . وكان بين بلاد الخطا وبين بلاد الإسلام سدًّا ، فلما ملكت التتار بلاد الخطا قوى أمرهم ، وعادوا يغارون على أطراف ممالك السلطان علاء الدين . فلما وصل ذلك الرجل إلى جكزخان وأخبره بماجرى[٣] على رفقته، أرسل جكزخان جواسيساً من عنده ، لينظروا مملكة السلطان علاء الدين خوارزم شاه وتقدير جيشه . وكذلك السلطان علاء الدين نفّذ عيوناً ، تكشف له أخبار هؤلاء القوم . فعادوا جواسيس جكزخان إليه ، وعرفوه أن عساكره متفرقة ، وإذا اجتمعوا يبلغون أربع مائة ألفٍ . وعادوا عيون السلطان علاء الدين إليه وخبروه أن هؤلاء القوم خلق عظيمة[٤]، لا يعلم عددهم إلّا الله عز وجلّ ، وأنهم من أصبر الناس على الشقاء والجوع والبلاء ، وأن « نحن لم نر[٥] حالًا أزرى من حالهم ، ولا أجوع من أنفسهم . وهم مع ذلك إذا قيل لهم أمر[٦] وقفوا عنده ، وهم راضين بما هم فيه» . فعند ذلك ندم السلطان علاء الدين على قتل تجارهم ، ووقع فى فكرة عظيمة .

قال ابن الأثير فى تاريخه : كان سبب خروج التتار ودخولهم بلاد الإسلام غير هذا ، مما لم يكن يُودع بطون الأوراق .

(١) فى المتن : « نائباً » .
(٢) فى المتن : « ومشترا قماشا وسلاحاً » .
(٣) فى المتن : « جرا » .
(٤) كذا فى المتن .
(٥) فى المتن : « نرا » .
(٦) فى المتن : « أمراً » .

واستشهد بقول ابن المعتز :

فكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً[١] ولا تسأل عن الخبر

وسبب تلويح ابن الأثير أن الخليفة الإمام الناصر أمير المؤمنين كان السبب فى دخول التتار البلاد لمكاتبته إياهم وتهوين الأمور عليهم ، حسبما سقناه قبل ذلك ، والله أعلم .

ذكر ماجرى[٢] بين الملكين السلطان علاء الدين خوارزم شاه وجكزخان

وذلك أن السلطان علاء الدين لما اشتغل فكره بهؤلاء القوم وعلم أنهم يقصدونه ولا ينامون عنه ، استشار الشيخ شهاب الدين [الخيوقى][٣] وكان إماماً عالماً ، فقال الشيخ: « الرأى أن تجمع العساكر ، وتقصدهم قبل قصدهم إليك . ويكون نزولك على جانب النهر جيحون ، فإنهم يأتون من بلادٍ بعيدة ، تعاب ، فتلقاهم وأنت مستريح ». فجمع خوارزم شاه خواصه وملوكه ، واستشارهم ، فلم يوافقوا على ذلك ، وصغروا أمرهم ، وقالوا : « الرأى أن نقيم حتى يُعدِّى العدو ونأخذه فى هذه الجبال » . فبينما هم كذلك ، إذ قدم عليهم رسُول من جهة جكزخان ، ومعه جماعة يقولون للسلطان خوارزم شاه: « يقول لك الملك نائب رب السماء جكزخان : تقتل تجارنا وتأخذ أموالنا بغير حقٍ لك . اعتد للبلاء ، واشتد للحرب ».

فلما سمع خوارزم شاه مقالتهم عظم عليه ، وأمر بضرب رقابهم فضرب رقاب جماعة منهم ،

---

(١) فى المتن: «فظن شرا» ، والصيغة المثبتة من الكامل لابن الأثير (حوادث سنة ٦١٧ هـ).

(٢) فى المتن : « جرا » .

(٣) مابين حاصرتين إضافة من مفرج الكروب لابن واصل (حوادث سنة ٦١٧ هـ). والخيوقى نسبة إلى خيوق ، بلد وحصن من نواحى خوارزم ، وأهل خوارزم يقولون « خيوه » ، وأهلها شافعية دون جميع بلاد خوارزم فهم حنفية (ياقوت ، معجم البلدان) .

وحلق لحى[1] بقيتهم، وجدع أنافيهم وآذانهم، وجرّسهم، ورءوس القتلى[2] فى أعناقهم. وطاف بهم فى سائر ممالكه. ثم ردهم إلى جكزخان. ثم جمع جيوشه وسار ستة أشهر إلى أن وصل إلى بيوت التتار، فلم يجدهم بها، فوجد النساء والأطفال والصبيان، فأوقع بهم وسباهم، ورجع. وكان سبب غيبة التتار عن بيوتهم أنهم قصدوا ملكا من ملوك الترك، يقال له كشلوخان، فكسروه وغنموا أمواله، ثم عادوا إلى بيوتهم. فوصل إليهم الخبر بما جرى[3] عليهم من خوارزم شاه، فلحقوه قبل خروجه من أرضهم، وتصافف العسكران، واقتتلوا قتالاً لم يعهد مثله منذ أول زمان، وإلى ذلك التاريخ. وأقام السيف يعمل ثلاثة أيام بلياليها، ليلاً ونهاراً، إلى أن قتل من الفريقين ما لا يعلمه إلا الله عز وجلّ. وكلُّوا[4] الطائفتين من القتال، وعدم صبرهم من الجوع والعطش والتعب، ووقفت خيولهم من الجولان. والذى اتفقت عليه أرباب التاريخ، أن هذه الوقعة لم يحضرها جكزخان، بل كان المقدم ولده بيشخان. فلما كانت[5] الليلة الرابعة، افترقت كل طائفة عن الأخرى، ونزل كل ملك مقابل الآخر. فلما أظلم الليل، أوقدت التتار نيرانهم، وتركوها، وساروا طالبين ديارهم. وكذلك فعل المسلمون[6] أيضاً، لأن كل طائفة من الفريقين عجزت عن الأخرى. ثم عاد التتار وقد عدم منهم خلق[7] لا يحصى عددهم إلا الله تعالى. والذى قتل من المسلمين ـ ما أجمعوا عليه أرباب التاريخ ـ مائة ألف وعشرين ألف.

ورجع خوارزم شاه إلى بخارا، وبلغه أن جكزخان لم يكن حاضراً هذه الوقعة مع كبار مغله، فتحقق أنه لا له قبل بهم، فاعتمد للحصار لما علم من عجزه عنهم. وجمع الذخائر فى القلاع الحصينة، وجعل فى بخارا ثلاثين ألف مقاتل، وفى سمرقند خمسين ألفاً،

(١) فى المتن: « لحا ».
(٢) فى المتن: « القتلا ».
(٣) فى المتن: « جرا ».
(٤) كذا فى المتن.
(٥) فى المتن: « كان ».
(٦) فى المتن: « فعلوا المسلمين ».
(٧) فى المتن: « خلقا ».

وقال : « احفظوا[1] البلاد إلى حين عودتى إليكم » . ثم سار طالبا خراسان . هذا ماذكره ابن الأثير فى تاريخه ، رحمه الله تعالى .

وأما ما ذكره ابن واصل صاحب تاريخ بغداد ـ رحمه الله ـ فإنه قال : إن عسكر السلطان علاء الدين خوارزم شاه كان فيه الكفاية للتتار وزيادة عنه ، وإنما كان فيه جماعة من الملوك مخامرين عليه ، فخاف على نفسه منهم لايسلمونه للتتار ولا يناصحُونه فى الحرب ، ففعل ذلك ، والله أعلم .

ذكر دخول التتار بلاد الإسلام

قال ابن واصل فى تاريخه : ثم إن التتار تجمعوا مع ملكهم جكزخان ، وقطعوا نهر سيحون بجموعهم وأثقالهم وحريمهم ، من غير اكتراثٍ ولا وجل . ووصلوا مدينة بخارا بعد خمسة عشر شهراً من هذه الوقعة ، وحاصروها ثلاثة أيامٍ ، فلم يكن للعسكر الذى ببخارا بالتتار طاقة ولا قِبل ، فخرجوا من البلد ليلًا ، وهربوا إلى نحو خراسان . وأصبح أهل البلد وليس عندهم أحد من المقاتلة ، فضعفت نفوسهم . وخرج القاضى ببخارا يطلب الأمان من التتار ، فأعطوهم الأمان ، وكان كذباً منه ولعنة . وكان قد بقى فى البلد بقية من العسكر ، فاعتصموا بالقلعة ، ودخل التتار البلد يوم الثلاثاء رابع شهر ذى الحجة سنة سبع عشرة وستمائة . ونادى جكزخان بالأمان ، وأظهر العدل حتى اختاروه الناس على السلطان علاء الدين . ثم قال: « نحن قد أمنّاكم فأخرجوا لنا أموال عدونا السلطان خوارزم شاه وذخائره ، وساعدونا على قتال هذا الباغى والذين فى القلعة » . ثم دخل الملك جكزخان بنفسه البلد، ونادى: « من تخلّى[2] عن مساعدتنا على هذه القلعة قُتل ، ولا له أمان عندنا » . فاجتمع أهل بخارا بكمالهم بين يديه ، فأمرهم بردم الخندق ، فردموه بالخشب والتراب ، حتى كسروا أخشاب

---

(١) فى المتن : « احفضوا » .

(٢) فى المتن : « تخلا » .

المنابر وسقوف المساجد . وطموا الخندق ، حتى بالـكتب النفيسة والختمات الشريفة والربعات المعظمة . فلما طموه ، أمر بالزحف عليهم . وكان بالقلعة أربع مائة مقاتل ، فصبروا على القتال صبر الـكرام اثنا عشر يوماً . ثم نقبوا سُور القلعة وملـكوها ، وقتلوا جميع من كان بهـا من الجند وغيرهم . ثم أمر جكزخان بإحضار وجوه البلد وأعيانها ، وطلبهم بالأموال من الذهب والفضة الذين يتبايمون بها بسكة السلطان خوارزم شاه ، وقال : « لنضربها باسمنا ونعيدها إليـكم . وأى من أخفى شيئا منها قتل » ، فأحضروا له جميع ذلك . فلما صفَّى أموالهم ، أمرهم أن يخرجوا من البلد مجردين من جميع أموالهم وقماشهم وأثاثهم . ثم دخل التتار البلد ، ووضعوا السيف ، وسبوا النساء ، وقتلوا الولد على صدر أبيه وأمه ، وفعلوا من المصائب ما تقشعر لسماعه الأبدان . ثم أطلقوا فى البلد النار فأحرقوه . ثم توجهوا إلى سمرقند ومعهم خلق عظيم من أهل بخارا ، يمشون حفاة عراة . ومن عجز منهم عن المشى قتلوه . فأحاطوا بسمرقند ، وكان فيها خمسون ألف فارس ، ومن العامة عالم لا يحصى عددهم إلّا الذى خلقهم . نخرجوا(١) العامة على التتار وقاتلوهم . وأما الجند فلم يخرج إليهم منهم أَحد ، وذلك لما علموا بمجزهم عنهم . فلما خرجت العامّة تأخروا التتار وانهزموا قدامهم ، فطمعت فيهم العامة وتبعوهم مدة يومٍ كاملٍ ، حتى بعدوا عن المدينة ، ثم رجعوا عليهم ، فقتلوا الجميع ، فمنذ ذلك ضعفت نفوس مَن بقى فى البلد . وأما الجند فإنهم طلبُوا الأمان لأنفسهم ؛ وذلك أنهم كانوا أتراكـ فظنوا أن التتار ترق لهم لأجل الجنسية ، فأعطوهم الأمان . نخرج الجند من البلد بأموالهم وأثقالهم وأهاليهم ، فقالوا(٢) التتار لهم : « اعطونا سيوفـكم فإنـكم فى ذمامنا ، ولا حاجة لـكم بسلاحٍ ، ونحن محتاجون إلى ذلك » ، فأعطوهم جميع سلاحهم . ثم داروا بهم فقتلوهم عن آخرهم .

وفى اليوم الرابع داروا بالبلد ، وفعلوا به كما فعلوا ببخارًا ، وأحرقوها . وذلك فى شهر المحرم سنة تسع عشرة وستمائة .

(١ــ٢) كذا فى المتن .

ذكر سنة تسع عشرة وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

المـــاء القديم ثلاثة أذرع وسبعة أصابع . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعاً وسبعة أصابع .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام النّاصر لدين الله أمير المؤمنين .

وفى شهر صفر منها خُطب لولى العهد، عدة الدنيا والدين، أبى نصر محمد بن الإمام الناصر لدين الله .

وفى شهر ربيع الأول دخـل الملك المسعود صاحب أقسيس ابن السلطان الملك الـكامل إلى مـكة ـ شرفها الله تعالى ـ سلطانا مستقلًا . وهو أول من ملـكها من الأتراك[1] . وهرب حسن بن قتادة صاحبها ، ونزل عند أخواله عنزة .

وفيها وصل الملك الأشرف موسى إلى القاهرة المحروسة وأمر بعمارة تربة والدته ، المعروفة بتربة أم الأشرف .

وفيها كانت الوقعة بين الفرنج والسلطان الملك الـكامل ، وقتل من الفرنج عشرة آلاف فارس .

وأما السلطان علاء الدين والتتار ، فإنه مُتحيّد عنهم ، يضرب فى الأرض عن ملتقائهم يمينا وشمالا . ثم إن جكزخان لـما ملك سمرقند ـ حسبما ذكرناه ـ جرّد من كبار المُغل عشرين[2] ألف فارس ، وقال لهم : « تأتونى بالسلطان علاء الدين حيث كان وأين كان » . قال صاحب التاريخ : أجمعت الرواة أن هؤلاء العشرين ألف الذين سيرهم

---

(١) المعروف أن الملك المسعود عاد بعد ذلك إلى زبيد بعد أن استعمل على مكة الأمير نور الدين عمر بن على بن رسول. انظر (يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى، ص ٦١٩ تحقيق سعيد عاشور) .

(٢) فى المتن : « ثمانين عشرين ألف » ، ويبدو أن « ثمانين » مشطوبة حيث يظهر ذلك من بقية العبارة .

جكزخان هم أكبر جيوش التتار بيوتاً فيهم ، ويسمون المُغرِّبة لكونهم ساروا إلى غربى خراسان ، وهم بيت هلاوون. وأنهم ساروا يقصدون مكانا يسمى بنجاز آب[(١)] وهو مفرق خمس مياه . وكان السلطان علاء الدين قد نزل خلف ذلك الماء ، معتصماً من التتار . فلما وصل التتار إلى ذلك النهر لم يجدوا[(٢)] ما يعدون به ولا من يخبرهم بأمره ، ويقال إنه نهر جيحون . فصنعوا من الخشب شبه الأحواض ، وجعلوا أسلحتهم فيها ، مع سائر عددهم . ثم ألقوا الخيل فى البحر ، وتعلقوا بأذيالها مع أطراف تلك الأحواض ، وقطعوا ذلك النهر جميعهم فى دفعةٍ واحدة . ثم لبسوا سلاحهم وركبوا خيولهم. ولم يشعر بهم السلطان علاءالدين إلا وهم معه على الأرض، فولى هارباً ، وتفرّق جيشه ، ولم يلو الأخ على أخيه ، ولا الوالد على ولده . ثم تفرقت كل فرقة من جيشه إلى جهة من الجهات . وتوجه السلطان علاء الدين إلى مدينة سابُور . واجتمع إليه بها العساكر ، فلم يشعر إلا بأوائل التتار وقد طلعوا عليه ، فانهزم منهم إلى مدينة مازندران[(٣)] ، فقصدوه أيضا بها . وعاد كلما قصد مكاناً تبعوه ، حتى وصل إلى الرىّ ، وهى من عراق العجم ، ثم منها إلى همذان ، والتتار خلفه . ثم عاد إلى مدينة مازندران ، ثم قصد مخاضة على بحر طبرستان فى مكانٍ يسمى باب سكون ، فنزل فى سفينة ، ومضى إلى قلعةٍ له فى البحر لاترام ولا تدرك ، فاعتصم بها خيفة من التتار ، فأدركته المنية ، فمات بها ، رحمه الله .

وكان السلطان علاء الدين ملكاً جليلا ، عظيم القدر ، كثير الفضل ، يحب العلماء والفضلاء، ويسمع المديح ويجيزعليه الجوائزالسنية . وكانت سعةملكه من العراق إلى بلاد تركستان إلى بلاد البرلى ، مضافاً إلى ملك غزنة ، مع بعض بلاد الهند ، مع سجستان وكرمان وطبرستان . وكان تقدير سعة ذلك سبع أشهر طول فى ستةعرض. فخرج عن جميع ذلك ، خوفاً من التتار ، وزال ملكه فسبحان من لا يزول ملكه .

---

(١) فى كتاب الكامل فى التاريخ لابن الأثير (حوادث سنة ٦١٧ هـ) وكذلك فى مفرج الكروب لابن واصل : « بنج آب ومعناه خمسة مياه » .

(٢) فى المتن : « يجدون » .

(٣) ذكر ياقوت أن مازندران اسم لولاية طبرستان .

وكان متخلقا بأخلاق أسلافه الملوك السلجوقية ، فإنهم كانوا ملوكاً عظيمى القدر، فضلاء ، أدباء ، علماء ، كرماء . ومن طريف ما يُحكى عن السلطان ملك شاه المقدم ذكره من كتاب « جنى[1] النحل فى أخبار ملوك العجم » . قال محمد بن عبد الرحيم البلخى : قرأت فى كتاب يسمى « مطالع الشروق فى آثار بنى سلجوق » أن كان لملك شاه خازناً جمع له فى مدة سنين عدة أربعين خزانة ، فيها من كل صنف عجيب ما لم يجتمع لملك قبله . وجعل ذلك الخازن كل خزانة صنف لا يشبهه الآخر ، من جميع أنواع الجواهر، والفصوص ، والأوانى الذهب والفضة ، والأموال الجليلة ، والقماش المتع الثمن الملوكى . وقصد الخازن بذلك أن السلطان ملك شاه إذا رأى ذلك وما اجتمع له من هـــذه الأموال العظيمة أن يعرف له حقه فى أمانته واجتهاده . فلما كمل له ما أحب، زين تلك الخزائن بأحسن زينة، وجهز ألف ثوب أطلس قرمزى، ليمدها فرشا تحت أقدام الملك عند دخوله إلى تلك الخزائن . ثم تقدم إلى بين يدى السلطان ملكشاه ، وقبل الأرض ، وقال : « المملوك يسأل مراحم السلطان ، تنقل خطواته الكريمة إلى خزائنه المعمورة بدوام عزه، لينظر ما قد تحصّل فيها من الأصناف العجيبة ، التى لم تجتمع لملك قط . وقد جهز المملوك ألف ثوب أطلس قرمزى لتفرش تحت أقدام مولانا السلطان ، عند طوافه فى خزائنه » . قال : فأفكر السلطان طويلا وقال : « صف لى بلسانك ما تصل قدرتك إلى وصف ما تحصّل من جليل ذلك » . قال : فوصف له الخازن من الأموال والأصناف والأمتعة ما لا ينحصر كثرة . وقال : « يا مولانا هـذا الذى وصفه المملوك بعض بعض ما يراه مولانا السلطان . فإن قدرتى تعجز عن وصف جملته » . قال: فأفكر أيضا طويلا وقال : « أما ما قصدته من اطلاعى على مناصحتك وخدمتك واجتهادك فقـــد عُلِم ذلك منك وتحققناه ، وقد شكرنا اهتمامك. وأما توجهى إلى أن أنظر إلى متاع الدنيا وزخارفها فلا أفعل ذلك،

(١) فى المتن : « جنا » .

لئلا يقال عنى بين الملوك أنى مشيت لأنظر بعض نعم الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى . وإنما اطلب الزعماء من جيوشنا ، وسلم عليهم من جهتنا ، وافرش تحت أقدامهم مااعتديته لنا[١] من أن تفرشه تحت أقدامنا . وأوقفهم على جميع ماعندك من جميع مافى هذه الخزائن . وقل لهم: الملك يسلم عليكم، ويقول[٢] لكم انظروا ما اجتمع فى هذه الخزائن من الأموال التى تحصلت بمضارب سيوفكم . وجميعه فهو لكم . وإنما الملك فيه كأحدكم فليأخذ من شاء ما شاء . ولا تمنعهم شىء يأخذوه ، ولو فرغوا الخزائن بكمالها » . قال : فخرج الخازن وجمع الزعماء وأتى[٣] بهم إلى الخزائن ، وفعل ما أمره به السلطان، وأدّاهم رسالته إليهم ـ وكانوا ستمائة زعيم . قال : فلما فرغ الخازن من قوله ، استقبلوا القبلة ، وسجدوا ، وقالوا : « هذا شكر لله عز وجل على ما خولنا من نعمه فى أيام مولانا السلطان ملك الإسلام » . ثم استقبلوا مكان سرير الملك وقبلوا الأرض ، وقالوا : « وهـــذه لإنعام السلطان علينا ، وبره بنا ، وحسن ظنه ويقينه فينا » . ثم ولوا خارجين . ولم يلتمس أحدٌ منهم شيئاً ، قلَّ ولا جلَّ ، وقالوا: « عرِّف مولانا السلطان أن نحن رعيته ، وعبيد سلطانه ، وأن نحن نعلم من شفقته علينا، وبره وكرمه، أضعاف ماذكره ، وما رسم به. وهذا المال فهو لنا. وإذا احتجنا إليه سألنا مراحمه فيه. وأحق ما كان مدخر لنا عنده وفى خزائنه. وعندنا من إنعامه وصدقته ما يكفينا ويزيد. وإن رسم حملناه إلى هذه الخزائن ليكون مضافاً لما هو مدخر لنا». قال محمد بن عبدالرحيم: فوالله ما أدرى أيهم أكرم طباعاً ولا أغزر مروءة ، السلطان فى سماحة نفسه بتلك الأموال الجمّة التى لم يسمح بها ملك قط ، أم الزعماء وشرف أنفسهم الأبيـة . فللّه درّهم ، من ملك جواد ، وزعماء أجواد .

قال محمد بن عبد الرحيم البلخى : ولما طالعت هذه الحكاية ، عادت فى نفسى ، وقدر الله تعالى أن الملك العادل نور الدين محمود بن أتابك زنكى ـ صاحب الشام ـ أنفذنى

(١) كذا فى المتن.
(٢) فى المتن : « ويقل » .
(٣) فى المتن : « وأتا » .

رسولا إلى ملك الروم كيكاوس بن السلطان الغالب بن مسعود بن قليج أرسلان ابن طغريل بك بن ملكشاه السلجوقى ، فاجتمعت به فى ملطية . وكان ملكا فاضلًا، عالمًا ، سخيًا ، من نسل هؤلاء الملوك السادة المذكورين . وله معرفة بأشعار العرب ، وعلم المنطق ، والجدل ، قال : فلما حضرت بين يديه ، رآنى حسن الحديث والمنادمة . وحسّننى الله فى عينه ، فأحضرنى ذات يومٍ فى مجلس الشراب والمنادمة ، فأخذ البرواناه الذى قدامه يصف علو همة السلطان وكرمه . ثم ذكر ماله من البلاد ، وما عنده من الأموال والخزائن ، وما ورث من آبائه وجدوده ملوك السلجوقية . قال : فذكرت تلك الحكاية المنقولة عن جده ملكشاه ، فقلت فى نفسى هذا وقتها ، فأحكيتها ، وزمكتها ، ولطفتها . قال : فوالله لقد رأيت الملك كيكاوس وقد أخذته الأريحية لها ، وبان فيه السرور ، وطرب حتى رأيته خرج عن فرشه الى نحوى ، وهو لايحس بنفسه لإعجابه بهذه الحكاية ، ثم تراجع إلى رتبته . وكان بين يديه طبق من ذهب فيه تماثيل من ذهب مرصعة ، وتماثيل من عنبرٍ ، ومن أنواع الطيب . قال : فأشار إلى الساقى ، فوضع ذلك بين يدى ، ولم أعلم لأى شىء وضعه بين يدى . فما تكلمت ، فقام أميرمجلس وغمزنى، فأتيته، فقال: « لم خدمت الملك وقت بواجب إنعامه عليك » . قال : فعلمت أنه أنعم علىّ بذلك ، فرجعت وقبلت الأرض بين يديه . ثم قبلت يده . قال : فتبسم وأنشد :

نحن قوم تجرى السلاطين منا ... فى المطايا على النجار القديم
لم تجد عندنا غير أريحىّ ... أو شجاع أو عالم أو كريم
فهم آل سلجوق منتهى التبجـ ... ـيل فى العالمين والتعظيم

ثم قال : « انظر إلى تلك الصورة » . قال محمد : فنظرت إلى صورة فى صدر ذلك المجلس عن بُعدٍ ، وهى صورة سلطان جالس على رأسه تاج مرصّع بالجواهر . قال : « يا محمد ! هذه صورتى، وقد جرت العادة منا كل سلطانٍ يقوم تُصوّر صورته فى هذا المكان . وكان أبى قد جعلنى ولىّ عهده، فصوّر صورتى فى حياته لمحبته لى» . ثم أمر

بشىء فأحضرت مرآة مصقولة ، وبخّر تحتها ببخور لا أعرفه ، وهى معلقة . وأطفأ تلك الشموع . فلما طلع ذلك البخور ، عادت تلك المرآة تشرق كالشمس المضيئة ، وعاد لها شعاعاً يخطف بالأبصار ، ولم تزل كذلك مادام البخور تحتها. ثم قال: «أحضروا الكوز» . فأحضر كوز لا أعلم ماطينته ، فجعل يصبّ فيه الماء ، فيعود فى تلك الساعة خمرًا من أطيب خمرٍ يكون وأعطره . فقال : « هؤلاء من ذخائر جدنا ميكائيل ابن سلجوق» . قال محمد بن عبدالرحيم: فحملنى الشراب أن قلت: « أعز الله السلطان ؛ بلغ المملوك أن سلجوق منتسب إلى ملوك آل ساسان ملوك الفرس». فقال: «من أين لك هذا النقل؟ » قلت : « سمعت الملك العادل نور الدين يذكر ذلك » . فتبسم وقال : «صدق السلطان نور الدين ، سلجوق يعد سبع جدود إلى يزدجُرد بن شهريار آخر ملوك آل ساسان ، وذلك أن لما خرج يزدجرد من إقليم العجم خرج معه حزداد بن جرهز أخو رستم صاحب القادسية. وحزداد كان من أكبر مرازبة يزدجرد ، فلازال به حتى سلمه لماهويه ، مرزبان مرو ، وكتب عليه سجلًّا بتسليمه إياه . ثم أن ماهويه مائل على قتل يزدجرد مع ملك الهياطلة ، فقتل يزدجرد . وكان له ولد يسمى بهرام أفيند ، دون البلوغ فى ذلك الوقت ، فتخفى عند دادة له شفيقة عليه . وملكت(1) المسلمون البلاد منهم، وعادت(2) أولاد ماهويه يعرفون بمرو وتلك النواحى « خداكسان » ؛ معنى ذلك « خانوا عهد الله » . ثم إن بهرام أفيند نكر نفسه من الملك ، طلبا للحياة، وعاش بمدينة مرو ، فولد له ولد(3) فسماه فيروز . ثم ولد لفيروز ولد فسماه تكان . ثم ولد لتكان ولد فسماه كيكاوس . ثم ولد لكيكاوس ولد فسمّاه كيغلغ . ثم ولد لكيغلغ ولد فسماه أرّق . فأبيع أرق لحسين بن طاهر بخراسان ، أباعوه قوم من الخوارج فى أيام المهدى فى حديثٍ طويلٍ . فعاد أرق عند حسين بن طاهر كأحدٍ بنيه لما عرّفه أصله . وكان حسين بن طاهر غلام لشخصٍ يقال له تلكان بن ميسور ابن حنشرة. وحنشرة كان غلاماً لحزداد بن جرهز المقدم ذكره أنه أخو رستم صاحب

(١ ـ ٢) كذا فى المتن .
(٣) فى المتن : « ولداً » .

القادسية الذى كان خرج مع يزدجرد من العجم. ثم إن أرق تزوج إلى قوم ترکمان أصحاب خرا كى ور، فولد له سلجوق جدنا . فلما كان من السامانية ما كان ـ وهم غلمان عبدالله ابن طاهر بن الحسين بن طاهر ـ كان سلجوق فى معسكرهم وعديدهم، فعرف بهم . فانظر يا محمد إلى صنع الله تعالى ، كيف أعاد ابن ملك القوم حتى عُرف بغلمانيه غلمان ابن ابن ابن غلام مرزبان من مرازبة جده يزدجرد ، ثم أعاد الله بمنّه وجوده إلى آل سلجوق وبنيه ممالك جدودهم آل ساسان على أحسن دين وأحبه إليه» .

قال محمد بن عبدالرحيم: فلم أسمع أطرف ولا أغرب من هذا الحديث . فلما رجعت إلى الملك العادل نورالدين ـ رحمه الله ـ حدثته بهذا الحديث، وقدمت إليه ذلك الطبق، فقال: «هو لك بارك الله لك فيه». فقلت: «يامولانا إنه لا يصلح أن يكون عند مثلى، وإنما يصلح أن يكون فى ذخائر السلطان» . قال: فأمر لى بعشرة آلاف دينارٍ وأخلع علىّ، ثم قال لى : « يا محمد ، والله لمأتاك لى بتحقيق نسبة بنى سلجوق أحب إلى من كل شىء ، فإن أبى أتابك زنكى ـ رحمه الله ـ كان مملوك البرسلان أبو شجاع عضد الدولة السلجوقى . وكان يقول إن بنى سلجوق من عظْم آل ساسان ، ولا كنت أعرف كيف ذلك » .

قلت: وهذه الحكاية جرى لها نظير، وهى من غريب ما يسمع. وذلك أن لما كان فى سنة ثلاث عشرة وسبعمائة تجاريت مع الشيخ صدر الدين بن المرحل المعروف بابن الوكيل ـ رحمه الله ـ فى أصول الناس ، وإلى ما يصيروا إليه ، فأحكيت له هذه الحكاية ، فتعجب لها غاية العجب ، وقال : « لا إله إلا الله ! هذه والله نظير حكاية الأمير عز الدين أيبك المعظمى صاحب صرخد جدك. تعرفها ؟ ». قلت : « لا والله ». قال : « وقفت على كتاب من خزانته يسمى «الوسائل إلى دقيق المسائل» أجد فيه بخط يده يقول ممـــا عنى بجمعه العبد الفقير إلى الله أيبك المعظمى ، وهو ميكائيل بن بهرام ابن مودود بن محمود بن داود أبو شجاع البرسلان السلجوقى » . فتعجبت من ذلك ، فاجتمعت بجمال الدين بن مصعب ـ رحمه الله ـ فى دمشق، فحدثته عن ذلك، فقال: «صدق، هو والله من بنى سلجوق ، وأباعوه الخوارزمية للملك المعظم » . وهكذا أحكى لوالدى

رحمه الله . يقول ابن مصعب: والشيخ يحدثني وهو كالغائب ، فقلت:« أراك فى فكرة بتقصد تصنف شيء فى هذا» . فقال : « لا والله إلّا مفكر فى صنع الله عز وجل . إن الذى جرى لسلجوق جرى[1] لأبيك ، لا يختل دقة » . قلت : « كيف ؟ ». قال : «لأن سلجوق يعد سبع جدود حتى يلتحق بيزدجرد آخر ملوك آل ساسان ، وأبيك يعد سبع جدُود حتى يلتحق بسلجوق ، وهذا عاد مملوك غلمان جدوده وهذا عاد مملوك لغلمان جدوده . فأبيك يعد إلى يزدجرد أربع عشر جد ، فافهم منى نسبك » . فقلت : « يامولانا لله درّ الحريرى فى قوله : المرء بنشبه لا بنسبه ، والفحص عن مكسبه لا عن حسبه » . ففهمت منه ـ رحمه الله ـ ما لم أكن علمته قبل ذلك الوقت .

وقد خرج بنا الكلام وشجونه عن شرط الاختصار ، وأنا أقول ، أستغفر الله من ذلك .

***

ولما يئس[2] التتار من السلطان علاء الدين قصدوا مدينة مازندران ، فملكوها مع صعوبة مسالكها وحصاراتها . وكان المسلمون ما ملكوها فى أول زمانٍ ، وقنعوا من أهلها بأدنى الأشياء من الخراج . ولا زالت كذلك إلى أيام سليمان بن عبد الملك ابن مروان الأموى ، فرغبوا أهلها فى الإسلام اختيارًا لا اضطراراً ، ودخلوا تحت الطاعة . وهؤلاء التتار ملكوها فى أقرب الأوقات وأيسر الأمور ، وقتلوا جميع من كان بها على عادتهم الشنيعة . ثم توجهوا إلى الرىّ ، فوقعوا فى طريقهم بالملكة عصمة الدين خاتون والدة السلطان علاء الدين خوارزم شاه ، وكانت قاصدة أصبهان وهمذان إلى ولدها ، لما بلغها ماجرى[3] عليه ، فأخذوها ، وأخذوا جميع ما كان معها ـ وكان ملكاً عظيماً ـ وسيروها بجميع ذلك إلى جكزخان وهو نازل بسمرقند .

ولما وصل التتار إلى الرىّ إنضاف معهم من العساكر والمفسدين والكفار والأكراد خلق كثير، فملكوا الرى ، وفعلوا فيها أقبح مما فعلوه فى غيرها. ثم ساروا

(١) فى المتن : « جرا » .
(٢) فى المتن : « ولما يأسوا » .
(٣) فى المتن : « جرا ».

مسرعين إلى همذان ، فلما قاربوها خرج إليهم كبراؤها بالدواب والخيل والأموال ، حتى ملأوا عيونهم وطلبوا الأمان ، فتركوا بها شحنةً من جهتهم ، وساروا عنها إلى أذربيجان ، فملكوها ، وقتلوا كل من كان بها ، ثم قزوين ، فاعتصم أهلها بالمدينة ، فحاصروها وملكوها ، وقتلوا كل من كان بها ، وكذلك زنجان. ثم ساروا إلى موقان ، وإلى مدينة مرو ، واقتتلوا فى طريقهم مع الكرج وكسروهم .

وفيها سيّر صاحب أذربيجان ــ وهو أزبك بن البهلوان السلجوقى ــ إلى الملك الأشرف موسى يستنجده على التتار ، فتكاتبوا[1] الملوك الإسلامية ، واتفقوا أن إذا خرج الشتاء ركبوا الجميع ولاقوا التتار ، وظنوا أن التتار لا يدخلوا إليهم فى تلك السنة .

وأما التتار فإنهم ساروا فى أول الربيع إلى بلاد الكرج ، وانضاف معهم مملوك لصاحب أذربيجان يسمى أقوش ، وجمع معه خلقاً من المفسدين ، من الجبال ، تركمان وأكراد وجبلية ، وغيرهم من الطوائف العديمى[2] الدين . وسار بهم أمام التتار حتى وصلوا أذربيجان ، فملكوا حصناً من حصونها ، وفتحوا أكثر بلادها. وساروا مجدين إلى تفليس ، فخرجت جميع الكرج مجدين معدين ، والتقوا عسكر أقوش ، واقتتلوا قتالاً عظيماً ، قتل بين الفريقين خلق عظيم . كل هذا وعسكر التتار ما وصل إليهم. فلما وصلت التتار ، كانت الكرج قد تعبت . فلما أردفت التتار لعسكر أقوش ولى[3] الكرج منهزمين ، وركبت التتار أقفيتهم قتلا وأسراً. وكان ذلك فى ذى القعدة من هذه السنة . ثم توجه[4] التتار إلى توريز ، فصانعهم صاحبها بأموالٍ عظيمة . ثم توجهوا إلى مراغة ، وكانت ملكتها امرأة مقيمة بالقلعة ، فنزلوا عليها وحاصروها عدة أيامٍ ، وأسرى[5] المسلمين بين أيديهم يزحفون بهم على المسلمين . وهكذا كانوا يفعلون ، يقاتلون بالمسلمين المسلمين فى سائر الأقاليم . ولم يزالوا حتى ملكوا مراغة ، فى شهر صفر من سنة عشرين وستمائة ، وفعلوا بهم كعوائدهم الشنيعة .

(١) كذا فى المتن.

(٢) فى المتن : « العديمين » .

(٣) فى المتن : « ولوا » .

(٤) فى المتن : « توجهوا » .

(٥) فى المتن : « أسرا » .

ذكر سنة عشرين وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

المـــاء القديم أربعة أذرع ونصف أصبع . مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا ، واثنا عشر أصبعا .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين . وسلطان المسلمين الملك الـكامل بالديار المصرية .

وسافر الأشرف ، وكانت[1] مدة إقامته بالديار المصرية ثمانية أشهر. وأتته مكاتبة صاحب أذربيجان ـ حسبما تقدم من الـكلام .

وفى شهر ذى الحجة خرج السلطان الملك الـكامل لملتقى[2] ولده الملك المسعود صاحب اليمن ، واجتمع به على منزلة البويب[3] . ثم سيَّر السلطان عسكراً كثيفاً ، يقدمه الملك الجواد بن أخيه ، إلى مكة ـ شرفها الله تعالى . وبعد الوقوف بعرفة ، نزلوا على الينبع ، وأقاموا عليه يومين ، وملـكوه ، وجعلوا فيه الأسد جغريل[4] ، والأمير صمصام الدين الخزندار العادلى أميراً على مكة .

هذا والتتار ينتقلون من إقليم إلى إقليم ، ومن مدينة إلى مدينة، يقتلون وينهبون ويخربون . ثم وقع الحلف بين ملوك الإسلام على ما كانوا عزمـوا عليه من اجتماع كلمتهم على التتار ، وجميع ذلك للأمور المقدرة التى[5] لا راد لقضائها ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

---

(١) فى المتن : « وكان » .

(٢) فى المتن : « لملتقا » .

(٣) البويب ، تصغير الباب : مدخل أهل الحجاز إلى مصر (ياقوت ، معجم البلدان) .

(٤) ضبط الاسم من كتاب السلوك للمقريزى (ج ١ ص ٢٥٥) .

(٥) فى المتن : « الذى » .

وفيها توجه(١) التتار طالبين إربل ، فنفّذ صاحبها يستنجد بالملك الرحيم بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل . واتفق مع مظفر الدين كوكبرى صاحب إربل أن يسيروا جماعة من العساكر يمسكوا الدربندات بمضيق الطرق ، ليمنعوا التتار من العبور إلى البلاد . وكان رأياً سعيداً لو تم . ثم وصلت كتب الخليفة أن التتار يمتنعوا من عبور البلاد ، ويأمرهم بالحضور والاجتماع بالعساكر على دقوقا (٢) ، وذلك ظنّاً من الخليفة أن التتار لا يعبرون البلاد ، وأنهم متوقفون (٣)عنه وعن بلاده ، لما بينه وبينهم من المكاتبات . وكان التتار لما وصلوا إلى مدينة إربل وجدوا الجبال ضيقة المسالك ، فتركوا إربل وقصدوا العراق، فعند ذلك خرج صاحب إربل وصاحب الموصل بالعساكر ، وتبعوا التتار ، وهم فى عساكر كثيفة . ثم إن الإمام الناصر سيّر إلى [مظفر الدين صاحب إربل](٤) يأمره بالحضور بالعساكر. فلما اجتمعت العساكر على دقوقا(٥) ينتظرون أن الخليفة يسيّر إليهم عسكرا كثيفا من بغداد، يكونوا هؤلاء العساكر فى ضمنه لملتقى(٦) التتار ، فجاءهم مملوك من جملة مماليك الخليفة يقال له قشتَمُر ، ومعه نحو من ثمانمائة فارس . فلما رأى الملوك هذا الحال تفرقوا كل ملكٍ إلى مكانه ، وكتب مظفر الدين للخليفة يقول : « إن هذا العدو عدو ثقيل ، وخلق عظيم ، لا يعلم عددهم إلا الله عز وجل . فابعث إلينا جيشاً نلتقى(٧) به هذا العدو ، ولو عشرين ألف فارس، ونحن نتكل

(١) فى المتن : « توجهوا » .

(٢) فى المتن : « دقاقا » ، ودقوقا، مدينة بين إربل وبغداد (ياقوت ، معجم البلدان) .

(٣) فى المتن « متوقفين » .

(٤) العبارة مختلطة فى المتن ونصها : « ثم إن الإمام الناصر سير إلى السلطان مظفر الدين بن العادل صاحب بلاد الجزر وهو إقليم كبير بجانب أخلاط يأمره بالحضور . . . » ومابين حاصرتين من مفرج الكروب لابن واصل (حوادث سنة ٦١٦ هـ) ؛ ومن الكامل لابن الأثير (حوادث سنة ٦١٧ هـ) .

(٥) فى المتن : « دقاقا » .

(٦) فى المتن: « لملتقا ».

(٧) فى المتن : « نلقا » .

على الله تعالى ونلقاه بمعونته » . فغلب[١] على رأى الخليفة الوزراء السوء ، وأثبتوا فى ذهنه أن التتار لا يدوسون له أرض، وإنما هؤلاء يقصدون أن يمنعوا[٢] عن بلادهم. فلم يرد الخليفة له جواباً .

وقد كان التتار لما سمعوا بمظفر الدين تأخروا إلى ورائهم ، فإنه كان رجلًا شجاعاً مقداماً . فلما بلغهم أن العساكر تفرقت من على دقوقا نزلوا همذان ، وكان لهم بها شحنة ، حسبما ذكرناه . فأرسلوا إليه أن « خُذ لنا من أهل البلد قماشا وسلاحا ومالًا نستعين به » ، فأجمع الشحنة أهل البلد ، وطلب منهم . وكان أهل البلد قد ضجروا من جور التتار ، ومن أخذ أموالهم . وكان بهمذان يومئذ رجل يعرف بالشريف وهو حاكم[٣] على أهلها . وكان من كبار المسلمين وخيارهم، وهو من جهة التتار أيضا ليصانعهم عن المسلمين ، فاجتمع[٤] الناس وأتوا إلى الشريف الهمذانى ، وشكوا إليه جور التتار ، وما هم فيه من البلاء معهم . فقال: « إذا كنا تحت أمرهم، ما يسعنا إلا نسمع ونطيع » . فقال أهل البلد للشريف : « أنت إذاً أشد علينا منهم ». فقال: « إنمــا أنا رجل منكم ، ومهما فعلتوه كنت معكم » . فعند ذلك جذبت أهل البلد السيوف وقتلوا الشحنة الذى كان عندهم من جهة التتار ، وغلقوا باب البلد ، وعصوا على التتار . فركبوا إليهم ، وحاصرُوهم ، واقتتلوا أشد قتال . وقتل بينهم عالم عظيم إلا أن أهل همذان صبروا صبر الكرام على الموت ، والجوع ، والعطش ، والسهر ، وضرب السيوف . ثم إن التتار هجموا عليهم ، وأخذوهم ، وقتلوا جميعهم .

ولما فرغوا من همذان عاودوا أذربيجان فوصلوا إلى أردويل[٥] ، فنزلوا عليها

(١) فى المتن : « فغلبوا » .

(٢) فى المتن : « أن يمنعون » .

(٣) فى المتن : « وهو حاكما » .

(٤) فى المتن : « فاجتمعوا » .

(٥) يقصد بها أردبيل وهى أشهر مدن أذربيجان ، وكانت قبل الإسلام قصبة الناحية (ياقوت ، معجم البلدان)

وملكوها . ورحلوا طالبين توريز ، وكان قد قام بها شمس الدين الطغرائى ، وحصّن البلد أحسن تحصين . فلما علموا ذلك صالحوه أيضاً على مالٍ أخذوه . ثم توجهوا إلى بيلقان ، وهم يخربون كل ما مروا عليه من البلاد والأقاليم فى طريقهم ، فملكوا بيلقان بالسيف عنوة وقتلوا أهله . ثم ساروا إلى كنجة ـ وهى كرسى مملكة أران . وعلمت التتار أنهم لا يقدرون على كنجة ، ولا على أهلها كونهم رجال شجعان ، فصالحوهم على مالٍ أخذوه[1] منهم . ثم ساروا إلى دربند[2] شروان وقصدُوا مدينة شماخى[3] فحاصروها ، وصبر[4] أهلها أحسن صبر ، فأحضر[5] التتار المواشى من الأبقار والأغنام وجيف القتلى[6] ، مع الجمال والحمير ، وردموا الخندق ، وتسوروا عليه إلى السور . فقاتلوهم أهل البلد ثلاثة أيام ، ثم ملكوها وقتلوا أهلها. ثم توجهوا إلى بلاد الترك ، وهُم القفجاق وبلاد اللان وبلاد الروس وغيرهم من الأمم ، فلم يقدروا[7] على الجواز إليهم ، لضيق المسالك ، وكثرة العالم وشجاعتهم ، فشرعوا إلى المكر والخديعة ، وسيروا رسُولًا إلى السلطان رشيد شروان شاه صاحب المدائن وصاحب الدربند ، يطلبون منه رسلًا يسمعون كلامهم ويسعون فى الصلح بينهم ، فسيروا إليهم عشرة نفرٍ من عقلاء قومه ، فضربوا رقاب عشرة ، وأبقوا واحداً منهم، وقالوا له: « أرينا ودلنا على الجواز ونحن نمن عليك بنفسك ، وإلا قتلناك » ، فأخذهم وسلك بهم طريقا هى أسهل الطرق .

فلما قطعوا الدربند وجدوا من المواشى والأغنام والأبقار فى تلك الأعمال ما لا تحصى كثرة . وفيها جنس يقال له اللان وجنس يقال له اللكز ، وهما جنسان عظيمان

---

(١) فى المتن : « أخذونه » .

(٢) فى المتن : « درب » .

(٣) فى المتن: « شماخا » .

(٤) فى المتن : « وصبروا » .

(٥) فى المتن : « وأحضروا » .

(٦) فى المتن: « القتلا » .

(٧) فى المتن : « فلم يقدرون » .

من الترك ، مع طوائف أخر، فوقعوا عليهم بالسيف على حين غفلة منهم ، وقتلوا منهم أمماً عظيمة . وهؤلاء اللكز مسلمون[١] واللان نصارى[٢] فلم يبقوا لا على المسلمين ولا على النصارى . وكانوا قد اقتتلوا مع اللان قتالا عظيماً ، فلم يظفروا بهم، فأرسلوا رسلاً إلى القفجاق ، يقولون لهم: «نحن منكم وأنتم منا ، وهؤلاء أعداؤنا وأعداؤكم ونحن نحلف لكم أن نكون يداً واحدة ، ويكون لكم قِسْماً من أموالهم كما لنا» . فاتفق القفجاق معهم على اللان واللكز فأفنوهم وأخذوا أموالهم ، وسبُوا ذراريهم ، وأخربوا بلادهم ، ثم رجعوا إلى بلاد القفجاق وهم آمنون منهم ، لما بينهم من العهود والمواثيق . فلم يشعروا إلّا والتتار قد أحاطت بهم ، ووضعوا فيهم السيف ، وأخذوا من القفجاق أضعاف ما أخذوه من تلك الطوائف . ولم يزل القتل فى القفجاق حتى اعتصموا منهم بالجبال والشماب ، وهرب بعضهم إلى بلاد الروس . وأقامت التتار فى بلاد القفجاق ، واستطيبوها لكثرة خيرها وخصبها ، وطيبة هوائها . ولها أماكن دافئة فى الشتاء ، وأماكن باردة للصيف . ثم ساروا إلى مدينة شروان شاه[٣]، وهى كرسى مملكه القفجاق عند بحر منسك بخليج القسطنطينية العظمى[٤] ، فمشوا إليها وملكوها فى مدة يسيرة ، وتفرق أهلها ، وتمزقوا كل ممزق . وسار بعضهم إلى بلاد السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان السلجوقى صاحب الروم . ثم سارت طائفة كبيرة [من التتار] إلى بلاد الروس ، وهى بلاد طويلة عريضة، وهم قوم نصارى[٥] . ولو شرحنا جميع ما فعلوه لم تسع ذلك دفاتر ولا أوراق، وإنما لخصنا من ذلك جهد الطاقة وقدر الاستطاعة .

---

(١) فى المتن : « مسلمين » .

(٢) فى المتن : « نصرا » .

(٣) كذا فى المتن، ذكر ياقوت (معجم بلدان) أن شروان مدينة من نواحى باب الأبواب، وقيل هى ولاية قصبتها شماخى قرب بحر الخزر : وفى الكامل لابن الأثير (سنة ٦١٧ هـ) أن التتار وصلوا إلى « مدينة سوداق وهى مدينة قفجاق التى فيها مادتهم فإنها على بحر خزرية » .

(٤) فى المتن : « العظما » .

(٥) فى المتن : « نصارا » .

وأما ما ذكره ابن الأثير فى تاريخه قال : لقد بقيت ، عدة سنين معرضاً عن هذه الحادثة استعظامًا لها . أقدم رجلا وأؤخر أخرى[١] ، فمن الذى يسهل عليه أن يسطر نعى الإسلام ؟. فياليت أمى لم تلدنى ! ويا ليتنى كنت نسياً منسيًّا ! . لكنى حثنى على ذلك جماعة من الأصدقاء الكبار الأعيان ، وأنا متوقف . وتكلم كلام كثير ، معناه التنصل مما سطره فى أمر هذه الحادثة وعظمها . ولعمرى إنه لمعذور فيما اعتذر منه . والعبد أيضا يعتذر عن ما لا بدّ كان من تسطيره ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ذكر تملك السلطان جلال الدين منكبرتى بن السلطان علاء الدين خوارزم شاه

وفى هذه السنة تولى الملك السلطان جلال الدين منكبرتى بن السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه بن تكش — وباقى نسبه قد تقدم — بعد وفاة أبيه فى تلك القلعة المقدم ذكرها . وكان تمليكه بوصيةٍ من أبيه ، فركب فى الحالة الراهنة ، وتوجّه إلى خوارزم طالباً لإخوته ، ومعه سبعون[٢] نفراً ، فالتقوهم أهل خوارزم بالخيول والسلاح والقماش والعدة . وتباشر الناس بقدومه ، واجتمع إليه العساكر الإسلامية ، فعاد فى سبعة آلاف فارس ، فملك . ثم إن أخويه[٣] عملا على مسكه ، فأعلمه بعض أصحابه ، فرحل طالباً خراسان فى ثلثمائة فارس ، وأقام[٤] بقية أصحابه بخوارزم . فورد عليهم الخبر بحركة التتار نحو خوارزم ، فهربوا على أثر جلال الدين إلى خراسان .

وأما السلطان جلال الدين فوصل إلى نيسابور ، وكان جكزخان لما بلغه أن

(١) فى المتن : «أخرا» .
(٢) فى المتن : « سبعين » .
(٣) فى المتن : « أخواه » .
(٤) فى المتن : « وأقاموا » .

جلال الدين مشى مكان أبيه[1] علاء الدين أمَر التتار أن يتفرقوا عليه فى سائر الطرق، فوقع جلال الدين فى طريقه على سبعمائة منهم قد مسكوا له تلك الطريق ، فأيقع معهم جلال الدين وكسرهم كسرة عظيمة ، لم يسلم منهم مخبر . وهذا كان أول سيف خُضب بدمائهم بالنصر فى الإسلام . ثم ساق جلال الدين إلى نيسابور ، وكتب إلى العساكر المشتتة فى الأطراف بسرعة الاجتماع ، والقدوم عليه . وأقام ينتظر الجيوش بنيسابور شهراً ، والعساكر ترد وتتواصل أولًا فأولا . فعلم جكزخان بذلك ، فأعجله قبل [أن] تتكامل جيوشه . وأدركته التتار ، فخرج من نيسابور بمن انضم إليه ، يطوى المراحل إلى كرمان ، ثم إلى غزنة . فأتاه الخبر أن أمين الملك[2] ـ وهو ابن خال السلطان جلال الدين صاحب هراة ـ قد أخلى هراة ، وأن التتار قد قربوا منها ، وأن مع أمين الدين عشرة آلاف فارس . فنفذ إليه ، واجتمع به ، وانضمت العساكر بعضها إلى بعض ، والتقى السلطان جلال الدين بالتتار الذين كانوا طالبين هراة ، وكان مقدمهم تولوخان بن جكزخان فى عشرين ألف من المغل ، فجرى بينهم من القتال مايشيّب الأطفال . ونصر الله تعالى السلطان جلال الدين، وانهزم[3] التتار ، وركب المسلمون أكتافهم قتلًا بالسيف . وقتل تولوخان بن جكزخان فى هذه الوقعة .

ولما بلغ جكزخان قتل ولده ، وكسر جيشه، رمى سراقوجه[4] على الأرض . وجمع سائر جيوشه ، وسار مجدًّا حتى وافى[5] السلطان جلال الدين على حافة السند . وكان جلال الدين قد فارقه أخوه وخاله وجماعة من عساكره ، فضاق عليه الوقت فى استرجاعهم

---

(١) فى المتن : «أبوه» .

(٢) فى المتن: «أمين الدين أمين الملك» . وجاء فى نهاية الأرب للنويرى (حوادث سنة ٦١٧ هـ) مانصه: «فبلغه أن أمين ملك ـ وهو ابن خاله متولى هراة ومقطعها ـ بالقرب منه وقد أخلى هراة ... » وتكرر الاسم بعد ذلك فى صيغة « أمين الملك » فى حين كرره النويرى فى صيغة «أمين ملك» .

(٣) فى المتن: « وانهزموا » .

(٤) السراقوج ـ الطاقية أو العمامة ـ لباس الرأس عند التتار ، انظر : (Dozy: Supp. Dict. Ar) .

(٥) فى المتن : « وافا » .

لمناجلة الملعون له ، فركب يوم الأربعاء لثمان خلون من شهر شوال من هذه السنة ــ وقيل من سنة تسع عشرة ــ والتقى (١) مع جنكزخان . وثبت جلال الدين مع قلة أصحابه ، ثم حمل بنفسه على قلب جنكزخان فمزقه بدادا ، وكادت تكون النصرة له ، لولا ظهر للتتار كمين كان لهم فيه عشرة آلاف من المغل من أجود فرسانهم ، فخرجوا على ميمنة جلال الدين ، وكان فيها ــ على قول ــ أمين الملك خاله ، فكسروها وطرحوها على القلب. وتبدد نظام جلال الدين ، وتزعزعت أقدامه ، وأُسر ولده . وعاد جلال الدين إلى حافة السند هارباً ، فرأى والدته وزوجته وأخته وأولاده أطفالاً مع جماعة من حَشَمه ، وهن يصحن بأعلا أصواتهن : « بالله عليك اقتلنا وخلصنا من الفضيحة والأسر » . فأمر بهن فغرقن فى السند ، وهذه من عجائب البلايا ، ونوادر المصائب ، فلاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . ثم إنه لما سدت عليه المذاهب ، وأحاطت به النوائب ، ومن خلفه السيوف ، ومن قدامه البحر العجاج ، رفس فرسه وطاب الغرق ولا يُسلِّم نفسه لسيوف التتار . وكان الجواد من جياد الخيل ــ مع لطف الله عز وجلّ ــ فقطع به النهر إلى الجانب الآخر . وكذلك تخلص معه من أصحابه تقدير أربعة آلاف رجل ، حفاة عُراة . ثم وصل إليه مركب (٢) من بعض الجهات ، وفيه مأكول وملبوس . فوقع ذلك عنده موقعا عظيما .

ولما علم صاحب الجُودى (٣) أن جلال الدين وصل إلى بلاده مكسورا ، طلبه بالفارس والراجل ، لما كان بينه وبين أبيه السلطان علاء الدين خوارزم شاه من الدخول القديمة ، والحُروب . فبلغ ذلك جلال الدين ، فعظم عليه الحال ، إذ لم يكن معه من أصحابه من يمانع عن نفسه ، لما فيهم من الجراحات وعُريهم من العدد والسلاح ، وعدم المركوب ، ولا فيهم نجمة للذب . فجفل من مكانه ، وأمر كل من

(١) فى المتن : « والتقا » .

(٢) فى المتن : « مركبا » .

(٣) فى نهاية الأرب للنويرى (مخطوط) : « ولما علم زانهشيره صاحب جبل الجودى بما كان من أمر جلال الدين . . . » . ومن الواضح أن جبل الجودى المقصود كان يقع على الضفة الأخرى لنهر السند .

فيه قوة ونجدة يتبعه وإلا يقطع رأسه . وسار عازماً أن يقطع السند مختفياً فى بعض الجبال بمن معه ، ويعيشوا بما تكسبه أيديهم من الغارات . فصادفوا الهنود إليهم قاصدين . فلما رآهم الهنود ظنوا أنهم التتار ، فتأخروا ولم يجد جلال الدين من الموت بُد ، فتقدم بمن معه ، وتقدم ملك الهنود أيضاً . ووقف جلال الدين حتى قاربه ، وكان فى يده قوس . وكان شديد الساعد ، ففوق سهماً ورمى به ملك الهنُود فأصاب صدره ، وخرّ لوجهه يموج فى دمه ، وانهزم جيشه ، وأخذهم[1] أصحاب جلال الدين. وكسب [جلال الدين] خيله ومتاعه ، وقوى نفسه بعد الإياس من الحياة . فسبحان المدبر الحكيم .

ثم رحل [جلال الدين] إلى سجستان ، وأخذ ما كان له بها من الخزائن ، وأنفق على من كان معه . ثم أتاه الخبر أن أيتامش قاصده فى ثلاثين ألف فارس ومائة ألف راجل، فسار جلال الدين نحوه تجلداً منه وصبراً . وقدّم أمامه جاهان بن بهلوان أزبك ، فهجم على أيتامش ، فتأخر له . ونفذ رسُول إلى السلطان جلال الدين يطلب الصلح ، ويقول : «ليس يخفاك ما وراءك من عدو الدين ، وأنت سلطان المسلمين وابن سلطانهم . وقد رأيت أن أزوجك بنتى وأكون عضدك» . فمال السلطان جلال الدين لذلك ، وسير مع رسوله نفر من أصحابه ، فطاب لهم المقام عند أيتامش . ثم وردت الأخبار عليه أن أيتامش وقباجه وسائر ملوك الهند اتفقوا على السلطان جلال الدين ، وأن يمسكوا عليه حافة السند ، فعظم عليه ذلك وأخفاه ، واستناب جاهان ابن بهلوان على ما بيده من ممالك الهند ، وسار طالباً للعراق . فلما وصل إلى كرمان ، وهو فى أشد الأحوال مما قاساه ومن معه فى تلك البرارى والصحارى التى بين الهند وكرمان ، ووصل فى أربعة آلاف ، منهم من هو راكب البقر والحمير وغير ذلك . وكان ذلك فى سنة إحدى وعشرين وستمائة .

---

(١) فى المتن : «وأخذوهم» .

ذكر سنة إحدى وعشرين وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم ثلاثة أذرع فقط . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعاً وأصبعان .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين بحاله . والسلطان الملك الكامل سلطان الإسلام بالديار المصرية . وباقى الملوك إخوته بحالهم .

وفى شهر المحرم دخل الملك المسعود بن الكامل ــ صاحب اليمن ــ إلى القاهرة المحروسة ، وبين يديه الفيلة ، وعدتهم ثلاثة(١) ؛ وأخلى له القصر وسكن فيه .

وفيها قبض السلطان الملك الكامل على جماعة من أمرائه البحرية ، مماليك والده الملك العادل ، وأودعهم الجب الكبير .

والسلطان جلال الدين قد وصل من الهند إلى كرمان ــ حسبما تقدم. وكان بكرمان فى ذلك الوقت بُراق الحاجب ينوب بهـا عن أخيه السلطان غياث الدين ، فتلقاه ، وخدمه ؛ لكن لم يذعن له بالطاعة ، لأجل أخيه غياث الدين . فأقام أياما(٢) حتى استراح من وعك الطريق ، ثم رحل إلى شيراز . وورد عليه الأتابك سعد صاحب فارس ، وكان قد استوحش من أخيه غياث الدين ، فرغب جلال الدين فيه ، وخطب ابنته فأجاب إلى ذلك . واستظهر جلال الدين بمصاهرة الأتابك . ثم رحل من شيراز إلى أصبهان ، فخرج إليه القاضى زكى الدين مسعود ، وتلقاه ، وكذلك أعيان البلد ، وأتوه بالخيول والعدد ، وفرحوا بقدومه .

ولما بلغ غياث الدين توسط جلال الدين البلاد، ركب إليه فى ثلاثين ألف فارس، فرجع جلال الدين حين بلغه ذلك ، وسير إلى أخيه [غياث الدين] أمير أخوره ،

(١) فى المتن : « ثلاث » .
(٢) فى المتن: « أيام » .

يقول : « إن الذى قاسيته بعد السلطان من الشدائد والهوان لو أعرض على الجبال لأشفقن من حملها . وحين ضاقت علىّ الأرض بما رحبت قصدتك لأستريح عندك أياماً . وحيث علمت أن ما عندك للضيف قرى غير السيف رجعت » . فلما بلغ غياث الدين الرسالة رجع عما كان عزم عليه ، وتفرقت عساكره .

وكان جلال الدين قد سير مع أمير أخوره عدة خواتم، وأمره إيصالها إلى جماعة من الأمراء السلطانية ؛ فمنهم من تناول الخاتم وأجاب، ومنهم من أسرع به إلى غياث الدين. فأمر بالقبض على الرسول . فركب جلال الدين مسرعاً فى ثلاثة آلاف فارس وأعجل غياث الدين عن الاستعداد . فركب غياث الدين فرس النوبة وهرب. ودخل جلال الدين إلى خيمته وبها والدة غياث الدين ، فزاد فى احترامها وإكرامها ، وأنكر هروب غياث الدين ، وقال: « أنا مابقى لى من بنى أبى سواه » . فسيرت والدته إليه بذلك ؛ فعاد إلى الخدمة ، فعطف عليه جلال الدين وأكرمه . وحضر إلى طاعة السلطان جلال الدين سائر ملوك الأقاليم من المتغلبين على البلاد، ودخلوا تحت الطاعة. وفرّق العمال على الأقاليم . وسار نحو خوزستان . وسير رسولا إلى بغداد ، فأحلوه محل الإكرام . ولم يزل الرسول ببغداد إلى أن ملك جلال الدين مراغة ، فعاد الرسول مكرما .

ثم رحل السلطان جلال الدين إلى دقوقا[1] فغلقوا أبوابها فى وجهه ، وطلع أهلها على السور ، وسبّوا جلال الدين ولعنوه . فأغاظه ذلك ، وأمر بالزحف عليها ، فلم يكن سوى ساعة حتى صعدت أعلامه عليها ، وأوقع فيهم السيف .

ورحل إلى أذربيجان . وسير الكتب والرسل إلى ملوك الشام ومصر ، يتضمن إعلامهم بما فتح الله عليه ، وما ملك من البلاد . ثم رحل إلى أرجان[2] ، ثم إلى تبريز . فخرج إليه الرئيس نظام الدين أخو شمس الدين الطغرائى ، وكان بها بنت السلطان طغريل ، فسيرت تطلب الأمان مع الرئيس نظام الدين ، فأجاب إلى ذلك . وتسلم تبريز فى هذه السنة ، والله أعلم .

(١) فى المتن : « دقاقا » .

(٢) أرجان ، مدينة كبيرة بينها وبين شيراز ستون فرسخا (ياقوت ، معجم البلدان) .

وكان توفى الملك المنصور صاحب حماة ، وهو محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب . وكان ملكا شجاعا مقداما عالما فاضلا أديبا شاعرا محبا للعلماء والفضلاء . وكان عنده جماعة من كبار الفضلاء ، مثل سيف الدين على بن أبى على الآمدى مصنف كتاب المضمار ، جمع فيه جملة جيدة من تواريخ العالم فى عشرة أجزاء ، وردَّ على مثل الإمام فخر الدين الرازى المعروف بابن خطيب الرى، أحد فلاسفة الإسلام صاحب التصانيف العجيبة فى كل فن ، مما يطول شرح ذكرها ، وهو صاحب كتاب السرّ المكتوم فى علم الأسماء والطلسمات . ومثل الإمام أبى حامد الغزالى المشهور، وله من التصانيف مائة مجلد . ولو شرحت فضائل هؤلاء السادة المذكورين لكان جزءا بذاته ، ولا نصل إلى بعض محاسنهم وعلومهم وتصانيفهم ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وكانت وفاة السلطان الملك المنصور المشار إليه فى شهر شوال من هذه السنة[1] . ودفن بحماة عند قبر أبيه ، وقام بعده بمملكة حماة ولده الأكبر يسمى قليج أرسلان ، ولقب بالملك الناصر . وجرى له بعد ذلك مع السلطان الملك الكامل أمور وعجائب ، وأخذ منه حماة وأعطاها لأخيه الملك المظفر ، واعتقل قليج أرسلان بمصر فى الجب .

ومن شعر الملك المنصور ــ رحمه الله ــ مما لخصناه قوله :

سُحًّا الدمُوع فإنّ القوم قد بانوا   وأقفر الصبر لمــا أقْفَر البانُ
وأسعدانى بوجدٍ بعد بينهم   فالشان لما نأوْا عنّى له شان
ياظبيةَ البان هل وصل أُسر به   فينجلى بلذيذ الوصل أشجان

منها :

لا تبعثوا مع نسيم الريح نشركم   فإننى من نسيم الريح غيران
كيف السلو ولى قلب[2] يخالفنى   وفى الهوادج أقمار وغزلان

---

(١) أمام هذه العبارة جاء فى حاشية المخطوط ما نصه : « قرأت فى تاريخ القاضى جمال الدين ابن واصل ــ رحمه الله ــ أن وفاة الملك المنصور صاحب حماة فى سنة سبعة عشر وستمائة ، ولعله الصحيح ، والله أعلم » .

(٢) فى المتن : « صبر » والصيغة المثبتة من مفرج الكروب لابن واصل .

سقاهم الغيثُ من قبلى كاظمة   سحا وروى ثراهم أينما كانوا

وله :

الفخر بالفضل ليس الفخر بالنسب   والناس فى ذاك من درٍّ ومن خشب
وكل فخر سوى فخرى فمختلق   زور وقائله ينمى إلى الكذب
أنا الذى لم ينل فى الورى أحد   ما نلته قط من عجمٍ ومن عربِ
سموت فيهم بأصل لايقاومه   أصل ومن بعده بالفضل والأدب
بآل شاذى ملوك الناس كلهم   أكْرِم بذلك من فخر ومن حسب
أيوب جدى حقيقا حين تنسبنى   يا حسنها نسبةً تعلو على الرتب
نحن الملوك الذرى والناس كلهم   لنا عبيد وليس الرأس كالذنب
كم قد أبدت بسيفى كل مفتخر   حامى الحقيقة يوم الجحفل اللجب
وكم تركت بنى الإفرنج فى رُعبٍ   فصرت أدْعى لديهم جالب الرعب

منها :

من كل منتسب بالله محتسب   مؤيد بجميل الصبر مرتقب
أغرّ أبلج وضاح لغرته   فضل على الأنجم السيارة الشهب

وله فى صدر كتاب إلى عمه الملك العادل يقول :

سلام محب فى الولاء محقق   يكاد لفرط الشوق بالدمع يشرقُ
وينشد بيتاً قيل فى مدح مجدكم   له بثنا كم حين ينشد رونق
تقول لى الآمال إن كنت نازلًا   بباب ابن أيوب فأنت موفق

وفيها توفى الملك الصالح ناصر الدين محمد[1] بن محمد بن قرا أرسلان بن أرتق ، صاحب آمد . وكان شجاعا مقداما . وقام بالملك بعده ولده الملك المسعود . وكان بالضد من أبيه . حصره بعد ذلك السلطان الملك الكامل فى آمد وأخذها منه . ووجد عنده فى قصره خمسمائة حُرة من بنات الناس يطؤهنّ حراماً . وأحضره الكامل إلى مصر ،

---

(١) كذا فى المتن ، وفى معجم الأنساب لزامباور (ص ٣٤٤) : « محمود بن محمد » .

وأحسن إليه . فـكاتب الروم ، وسعى[١] فى هلاك السلطان الـكامل ، فسجنه مدة ثم أطلقه ، فهرب إلى التتار ، فقتلوه .

وفيها توفى الشريف قتادة بن إدريس صاحب مكة شرفها الله تعالى . وما كان لا يلتفت إلى أحد ، ولا داس للخليفة بساطا قط. وكان يقول أنا أحق بها من غيرى، ـ يعنى الخلافة . وكان الحاج فى أيامه طيبين ، لايستحسن بظلامة أحد . وكتب إليه ـ قبل وفاته ـ الخليفة يقول له: «أنت ابن العم العزيز وقد أحببت زيارتك » . فـكتب يقول من قصيدة :

ولى كف ضرغامٍ أذل ببطشها　　　وأشرى بها بين الورى وأبيعُ
تظل ملوك الأرض تلثم ظهرها　　　وفى وسطها للمُجْدِبين ربيع
أأجعلها تحت الرجا ثم أبتغى　　　خلاصاً لهـا إنى إذًا لوضيع

منها :

وما أنا إلا المسك فى كل بقعة　　　يضوع وأما عندكم فيضيع

وكانت وفاته فى شهر جمادى الأولى فى هذه السنة بمكة شرفها الله تعالى . وقيل كانت وفاة الشريف المذكور فى سنة عشرين ، فإن فى هذه السنة توجه الملك المسعود أقسيس بن الـكامل إلى مكة وملـكها . وكان قد تولى أمرها حسن بن الشريف قتادة[٢] فأساء السيرة ، فسار الملك المسعود ، وملـكها رابع شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين ، وهو الصحيح ، والله أعلم .

وفيهـــا نُقل السلطان الملك العادل من القلعة بدمشق إلى تربته ، وهى المدرسة العادلية .

وفيها خرج الملك الأشرف من مصر قاصداً للشرق ، والتقاه الملك المعظم وعرض

---

(١) فى المتن : « وسعا » .
(٢) جاء أمام هذه العبارة فى هامش المخطوطة مانصه: « وكان هذا حسن بن قتادة قتل عمه ثم أخاه راجح ، ثم وثب على أبيه قتادة فخنقه حتى مات ، واستولى على الأمر بعده » .

عليه النزول بالقلعة فأبى[1] ونزل بجوسق أبيه العادل. وبدت الوحشة بين الإخوة، وأصبح الأشرف فى السحر وركب وساق، ونزل ضمير، ولم يعلم المعظم برحيله. ثم سار مسرعاً حتى نزل حران، وكان قد استناب أخوه شهاب الدين غازى صاحب ميافارقين على أخلاط، لما سافر إلى مصر، وجعله ولى عهده بعد غيبه. ومكنه فى جميع بلاده بالشرق، فسولت له نفسه العصيان. ولما وصل الأشرف إلى حران بلغه خبر عصيان أخيه غازى، فكتب إليه يستدعيه، فامتنع، فجمع الأشرف عساكر الشرق وسار إلى أخلاط. وكان صاحب حمص ــ وهو الملك المجاهد ــ قد مال مع الأشرف؛ والمعظم مال إلى نصرة غازى، فجمع وخرج حتى نزل على حماة، فلم يخرج إليه صاحبها ولا فتح له باب، فعاد إلى حمص. فخرج إليه عسكر حمص، فأوقعوا به، وظهروا عليه، ونهبوا عسكره. ورجع إلى دمشق ولم ينل طائلا. ثم إن الأشرف توجه إلى أخلاط بجيوشه ليسترجعها من يد أخيه غازى. وكان قد حشد وجمع، فخرج إلى الأشرف، ووقع القتال بينهما، وقاتل غازى أشد قتال. وكان أهل أخلاط يحبون الأشرف. فلما خرج غازى وقاتل أطلع أهل أخلاط سناجق الأشرف على الأبراج، وصاحوا: «يا أشرف يا منصور». فعند ذلك هرب غازى إلى القلعة، فأقام يومين ثم نزل إلى أخيه الأشرف، فأقبل عليه ولم يؤاخذه بما فعل. وأقام الأشرف بأخلاط ثلاثة أيام، وجعل فيها مملوكه أيبك والحاجب على. ورد غازى إلى ميافارقين مكانه ــ مريضا من جراحاته ــ ورجع الأشرف إلى رأس العين.

وفيها نزل السلطان جلال الدين على أذربيجان واستولى عليها، فبعث إليه الملك المعظم رجلاً يقال له الملق، واتفق هو وجلال الدين والمظفر على الملك الأشرف. وبعث المعظم بولده الناصر داود إلى مظفر الدين صاحب إربل رهينة.

وكان قد ظهر فى الشام جراد كثير فأظهر المعظم أن ببلاد العجم طيراً يأكل الجراد، وأرسل الصدر البكرى يُعرف بالملق محتسب دمشق ورتب معه صوفية،

(١) فى المتن: «فأبا».

وقال : «يمضون إلى العجم فهناك عين ماء يجتمع عليها هذا الطير المعروف بالسمرمر فتأخذوا من مائها فى قوارير ، وتعلقونه على رءوس الرماح . فكلما رآه الطائر يتبعكم». وما كان مقصوده إلا بعث البكرى إلى جلال الدين يتفق معه . وقرر معه الأمر وجعله له عضدا ، لما علم أن الأشرف والكامل اتفقا عليه . وكان الجراد قد قل، فلما عاد البكرى كثر . وفهموا الناس مقصوده فى ذلك . وعاد جلال الدين ذخرا للمعظم، وعاد بينهما معاقدة وأيمان .

وفيها استولى بدر الدين لؤلؤ على المُلك ولقب الملك الرحيم . وفيها بنى[1] السلطان الملك الكامل مدرسته ببين القصرين بالقاهرة المحروسة .

وأمّا التتار ، فإن جكز خان قسّم أصحابه فى هذه السنة عدة أقسام ،فنفذ قسماً منها إلى بلاد فرغانة[2]، وقسما إلى بلاد ترمذ[3]، وقسماً إلى قلعة كلام[4] وهى قلعة عظيمة على نهر جيحون . ففعلت كل طائفة أقبح من أختها . ثم عاد الجميع إلى جكز خان ، وهو نازل بسمرقند . فعند ذلك جهز جيشا عظيما وقدّم عليه إحدى بنيه ، وسيره إلى إقليم خوارزم . وجهز آخر وسيره إلى خراسان ، فقطعوا جيحون ووصلوا بلخ ، فتسلموها بالأمان ، وجعلوا بها شحنةً من جهتهم. وعادوا يقاتلون برجال كل إقليم إقليم آخر ، وهم يتفرجون عليهم، ففتحوا أكثر البلاد كذلك . ثم وصلوا إلى طالقان[5] وفيه قلعة حصينة تسمى منصور كوه ، فحاصروها أربعة أشهر ، فلم يبلغوا فيها غرض. وقاتل أهلها قتالا عظيما[6]، وأنفذوا إلى جكز خان فأعلموه بذلك . فسار إليهم بنفسه فى عالم عظيم ، وحاصرها . ثم أمر بالأخشاب والأحطاب فجمعت ، وعادوا يعملون صفًّا من خشب ثم يردمونه بالتراب ، حتى واروا القلعة . وصعد التتار عليه ونصبوا

(١) فى المتن : « بنا » .
(٢) فرغانة : مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان (ياقوت) .
(٣) مدينة مشهورة راكبة على نهر جيحون من جانبه الشرقى (ياقوت) .
(٤) كلام ، بالضم : قلعة قديمة فى جبال طبرستان (ياقوت ، معجم البلدان) .
(٥) طالقان : مدينة كبيرة بين مرو وبلخ (ياقوت ، معجم البلدان) .
(٦) فى المتن : « قتال عظيم » .

المناجنيق ، وعادوا يرمون فى وسط[١] القلعة . فعند ذلك اجتمع أهل القلعة وفتحوا الباب ، وحملوا على التتار حملة واحدة . وسَلِمت الخيالة بأنفسهم ، وتعلقوا فى الجبال. وأما الرجالة فقتلوا عن آخرهم . وملك جكزخان القلعة بجميع ما فيها .

ثم إنه جمع سائر الرجال الذين كان أعطاهم الأمان من سائر الأمصار ، وسيرهم مع ولده إلى مدينة مرو ، وبها يومئذ ما يزيد عن مائتى ألف مقاتل من جند وعرب وأكراد وتركمان ومن سائر الأجناس . فلما وصلت إليهم التتار التقوا معهم ، واقتتلوا قتالًا شديداً . ثم انكسر[٢] أهل مرو ، ووضعوا فيهم السيف ولم يبقوا على أحد منهم . ثم فتحوا مرو بعد أربعة أيام ، بعد ما كانوا أعطوا أهلها الأمان . قال جكزخان لواليها : « أعرض علىّ أصحابك حتى ننظر من يصلح للخدمة نستخدمه عندنا » . فلما حضروا قبض على الجميع . وطلب الأموال من كبار البلد ، وكتب أسماءهم فى جريدة ، ثم قال: « اكتبوا أرباب الصنائع » ففعلوا ذلك . فلما وقف جكزخان على النسخ أمر بجميع أهل البلد ، وجميع أهاليهم وأموالهم ، فأوقفوا بين يديه ، وقد جلس على كرسى ذهب. وأمر بحضور الجند، فضرب أرقاب الجميع . كل هذا والناس قيام ينظرون إليهم ويبكون عليهم . ثم قسّم أرباب الأموال ، وضرب رقابهم . ثم وضع السيف فى بقية الناس . وتعالت[٣] أصوات النساء والأطفال .

قال صاحب التاريخ : ومما أجمعوا عليه أن من جملة تسليط هؤلاء القوم على العالم أنهم إذا نزلوا على مدينة أو قلعة ولم يقدروا على أخذها ورحلوا عنها ، يرسل الله ــ عز وجل ــ على أهل تلك البقعة الوخم والفناء ، فيموتون ، فيرجع التتار إليهم فيأخذوهم بأسهل الأحوال. وهذا كان سخطاً[٤] من الله تعالى، فنعوذ بالله من الخذلان. ثم أمر بحريق البلد فأُحرق . وفى جملة الحريق تربة السلطان سنجر السلجوقى . أجمع

(١) فى المتن: « وصط » .

(٢) فى المتن : « انكسروا » .

(٣) فى المتن : « وتعالى » .

(٤) فى المتن : « سط » .

أهل التاريخ أن عدة القتلى[1] بمدينة مرو وأعمالها سبعمائة ألف أو يزيدون. ثم سار[2] التتار إلى سابور فحاصروها خمسة أيام، ثم ملكوها، وفعلوا بهم كما فعلوا بأهل مرو. ثم سارت منهم طائفة إلى طوس، ففعلوا كذلك، وأحرقوا المشهد الذى فيه على بن موسى الرضى[3] رضى الله عنه؛ وفيه قبر الرشيد رحمه الله. ثم ساروا إلى هراة، وهى من أحسن البلاد، فحاصروها مدة عشرة أيام، فملكوها، وقتلوا منهم البعض، وأمنوا الباقى، وجعلوا عندهم شحنة من جهتهم. ثم ساروا إلى غزنة، فلقيهم السلطان جلال الدين فكسرهم كسرة عظيمة، وقويت قلوب الإسلام، فعاد كل من كان عندهم شحنة من جهتهم قتلوه. فلما ردت التتار إلى جكزخان، وهو بمدينة الطالقان، تجهز بجموع التتار لقتال السلطان جلال الدين.

هذا ماجرى[4] للتتار. وأما السلطان جلال الدين فإنه بعد كسره التتار عظم أمره، وقوى سلطانه، وتكاثرت جيوشه، وعزم على طلب بغداد، وقتل الخليفة الإمام الناصر لدين الله. وكان قد تقدم القول بما كان من الاتفاق بين الملك المعظم صاحب دمشق، وبين السلطان جلال الدين، والمعاقدة والأيمان.

قال أبو المظفر: حكى لى الملك المعظم قال: كتب إلىَّ جلال الدين يقول: « تحضر أنت وجميع من عاهدنى واتفق معى، حتى نقصد الخليفة، فإنه كان السبب فى هلاك السلطان علاء الدين أبى، وجسَّر التتار لدخول البلاد، وصغَّر عندهم أمر المسلمين، حتى أخربوا الدنيا ». قال المعظم: فكتبت إليه نقول: « أنا معك على كل أحد إلا الخليفة. فإنه إمام المسلمين ». فبينما هو على عزم بغداد، وكان قد سير جيشا إلى تفليس فسيروا إليه يقولون: « أدركنا فما لنا بالكرج طاقة، وبغداد ماتفوت ». فسار إلى تفليس، وخرج إليه الكرج، وضرب معهم مصافاً، وقتل منهم سبعين ألفا.

(١) فى المتن: « القتلا ».
(٢) فى المتن: « ساروا ».
(٣) فى المتن: « الرضا ».
(٤) فى المتن: « ماجرا ».

وفتح تفليس عنوة بالسيف ، وقتل منها ثلاثين ألف ، تكملة المائة ألف . وكان فى سلخ شهر ذى الحجة من هذه السنة، وقوى سلطان جلال الدين أضعاف ما كان ، وطاعته جميع المتغلبين على الأقاليم .

وفيها كان له وقعة عظيمة مع فرقة من التتار ، وكانوا فى ثلاثين ألف فارس ، مع إحدى بنيه ـ أعنى جكزخان ـ يسمى قطوخان ، فكسرهم كسرة شنيعة ، وقتل منهم اثنى عشر ألف من خيار مُغلهم . وكانت هـــذه الوقعة على نصيبين . وسَلِم قطوخان ، وعاد مهزومًا إلى أبيه جكزخان ، فغضب عليه ، وقيده ، وأعاده إلى بلادهم تحت الاحتراز . ثم إن جكزخان استهمّ فى التجهيز ، وجمع جيوشاً[1] عظيمة لقتال السلطان جلال الدين منكبرتى . ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وستمائة .

---

(١) فى المتن : « جيوش » .

ذكر سنة اثنتين وعشرين وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم أربعة أذرع ونصف أصبع. مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا وخمسة أصابع.

ماخص من الحوادث

الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، إلى أن توفى فى هذه السنة ـ حسبما يأتى ذكر ذلك فى تاريخه .

وفى ذى القعدة ضربت فلوس بالقلعة ، وعادت من جملة النقود المتعامل بها ، وتحرر القيمة عنها عن ستة عشر فلساً درهماً من نقد مصر . ثم ضربت دراهم مستديرة ، وهى هذه الدراهم المتعامل بها يومئذٍ المعروفة بالكاملية . وأمر السلطان الملك الكامل أن لا يتعامل بالدراهم القديمة المصرية . وصار كلما تحصل منها شىء يُسبك ويعمل من الضرب الجديد .

وتوفى الإمام الناصر لدين الله ، سلخ شهر رمضان المعظم من هذه السنة، وله من العمر تسع وستين سنة وأشهر . وكانت خلافته سبع وأربعين سنة . ولم يكن بلغ هذه المدة فى الخلافة قبله أحد من الخلفاء . وقام بالأمر بعده الإمام الظاهر بأمر الله ولده ـ حسبما يأتى من ذكره .

ذكر بعض شىء من سيرة الإمام الناصر

كان شهماً ، أبىّ النفس ، حازماً ، متيقظا ، ذا رزانة ودهاء ومكر . ذو هيبة عظيمة جدًّا . وكان أهل العراق تخافه فى بيوتها . وكان فيه تشيع كثير ، وميل إلى مذهب الإمامية ، وذلك بخلاف ما كان عليه سلفه من القادر إلى المستضىء . وقيل إنه سأل الشيخ جمال الدين بن الجوزى بمحضر من الخليفة : « مَن أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ » فخشى أن يصرح ، فقال: « أفضلهم بعده من كانت ابنته تحته » . وهذا القول يحتمل أمرين . وسئل أيضا فأنشد يقول :

لا تسألونى إلا عن أواخرهم ... فأول الركب ما عندى له خبرُ

وكان الناصر لدين الله أديباً فاضلًا شاعراً . ذكر أنه اعتقل بعض كتّابه فكتب إليه يقول :

القنى فى لظًى وإن غيّرَتْنى ... فتيقّن أنْ لستُ بالياقوت
عرف النسج كلّ من حاكَ لكن ... نسج داود ليس كالعنكبوت

قال ، فأجابه الخليفة يقول :

نسج داود لم يُفد صاحب الغا ... ر وكان الفخار للعنكبوت
وبقاء السمند فى لهب النا ... ر مزيل فضيلة الياقوت

وهذا جواب فائق ، وشعر مفلق .

ذكر خلافة الإمام الظاهر بأمر الله[1] بن الإمام الناصر لدين الله وسيرته

هو أبو نصر ، عدة الدنيا والدين ، محمد ، الظاهر بأمر الله بن الإمام الناصر لدين الله أحمد ، أمير المؤمنين ، وباقى نسبه قد تقدم . أمه أم ولد .

بُويع يوم عيد الفطر ، وجلس للخلافة ثانيه ، وعليه ثياب البياض وطرحة ، وعلى كتفه البردة النبوية ، وهو جالس فى شباك القبة ، والوزير قائم بين يديه ، وكذلك أستادار ، وهما يأخذان البيعة على الناس ، ونسخة المبايعة ؛ يقول : « بايع سيدنا ومولانا المفترض الطاعة على جميع الأنام أبا نصر محمد الظاهر بأمر الله على كتاب الله وسنة نبيه ورسوله — صلى الله عليه وسلم — واجتهاد أمير المؤمنين ، وأن لا خليفة سواه فى مشارق الأرض ومغاربها » .

وكان الوزير والأستادار وأرباب الدولة قد توجهوا إلى بيت النوبة نهار العيد ، وجلسوا للعزاء وقراءة القرآن . وتكلم محيى الدين بن الجوزى . ثم توجهوا جميعا إلى

(١) فى المتن : « لأمر الله » .

جامع القصر ، وصلوا صلاة العيد . ثم خطب بعد الصلاة ، ودعى للإمام الظاهر . ولما كان نهار الثلاثاء ، دخل من تخلف عن البيعة ، وتكلم محيي الدين بن الجوزى ، ودعا للإمام الظاهر . ثم أذن للشعراء فى إنشاد المراثى التى صنعوها فى الإمام الناصر ، والتهانى بالإمام الظاهر . ولبس كافة أرباب الدولة ثياب العزاء ، وكذلك الزعماء والمماليك والولاة . ورفع القضـــاة والمدرسون[1] ومشايخ الرباطات الطيالس والطرحات . ثم قُرِئ على الناس فى الجامع توقيعاً نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم

« اعلموا أيها الناس ــ رحمكم الله ــ أنه حيث توفى الله تعالى الإمام السعيد الناصر لدين الله أمير المؤمنين إلى فسيح جناته ، وأفاض عليه ملابس رحمته ورضوانه ، بعد أن جاهد فى الله حق جهاده ، وأدى الأمانة فى بلاده وعباده ، استخلف عليكم أشرف مُستخلفٍ ، وأبرّ خليفةٍ وأرأف ، فنصح الأمة فى اختياره ، وقام فى استخلافه بواجب شريف نظره واجتهاده . وهو سيدنا ومولانا الإمام الظاهر بأمر الله أمير المؤمنين ، ولد سيدنا ومولانا الإمام المفترض الطاعة على جميع الأنام ، الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، لا زالت أوامره مُطاعة فى جميع أقطار الآفاق ، مستعلية على السبع الطباق ، بأن ينادى فى جانبى مدينة السلام[2] بالإفاضة بالعدل والإحسان ، فى عموم الرعايا بالطول والامتنان ، وكف كل يد عادية عن الظلم والعدوان ، وإزالة ما أحدثه عمال السوء ، ولبسوا فيه من المؤن والتقسيطات ، والطرُوح والتأويلات ، فليقبلوا هذه الرحمة العميمة ، وليؤدوا حق هذه النعمة الجسيمة ، ولتشكروا الله على ما منحكم به فى[3] هذه الأيام التى هــــذا عنوان شريف مراحمه ، ومبادئ عواطفه المقدسة ومكارمه ؛ ثم أخلصوا الأدعية فى دوام دولته ، والثبات على مفترض طاعته ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى وآله الطاهرين وسلامه » .

(١) فى المتن : « المدرسين » .
(٢) فى المتن : « مدينة السلم » .
(٣) فى المتن : « من » .

وقرئ بعد ذلك فى الأسواق ، ونثر عليه الفضة والذهب ، وارتفعت الأصوات بالأدعية .

وفى يوم السبت ثالث عشر شوال وصل رسول الملك الرحيم بـــدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، معزياً بالإمام الناصر ، ومهنياً بالإمام الظاهر ، وهـو الوزير ضياء الدين أبو الفتح نصر بن الأثير الجزرى ، وأدّى[1] الرسالة بين يدى الوزير مؤيد الدين بن العلقمى ، نسختها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، العبد يقوم بعذره قبل قوله ، فإن هذا المقـام مقام مهابة ، لا تجد الخواطر فيه شبحاً ، فإذا بلغ البليغ جهده ، كان قصاراه أن يسأل صفحاً ــ ثم أشار بيده إلى الوزير مؤيد الدين يقول :

إن كان لا يرضيك إلّا محسناً فالمحسنون إذا لديك قليل

عبد الديوان العزيز النبوى ، لؤلؤ ، يعزّى نفسه خاصة ، والمسلمين كافة ، بفقد مَن الإسلام له فاقد ، ومن لم نشك الوحدة لمصليه إلّا إلى واحد، وهو سيدنا ومولانا الإمام الناصر لدين الله ، أمير المؤمنين ، الذى التفت الأرض منه على سجى ثراها ، ومِسْك عُراها ، ونادى سُنَّة العدل والإحسان كما أن الله يراها ، فأى سحاب يصب عنها سبل مـواهبه ، وأى جبل حفت جنوبها لمزايلة مناكبه ، لـكن تلافى الله تعالى بقيام ولى عهده من بعده ، سيدنا ومولانا الإمام الظاهر بأمر الله أمــير المؤمنين ، فعطف الله هذه النعمة على تلك البؤسى ، وأنست من كلمها الذى لولاها لما كان يوسى . وفى الحى الميت الذى غيّب الثرى فلا أنت مغبون ، ولا الدهر غابن ، وما من أحد إلا فاستبدل عزاءه بهنائه ، ورأى عمود الإسـلام قائماً بعد هدم بنائه ، وعلم أن الدهر أذنب ثم اعتذر ، وقال هذه الشمس طالعة إذ غيّب القمر، وأشبه لديه رتق هذا الفتق برتق فتق أبى بكر بعمر. وقد حضر العبد نائباً عن مرسله فى إعطاء صفقة يمينه وثمرة قلبه ، أخذاً بقول الله تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق

(١) فى المتن : « وأدا » .

أيديهم »[1] ولو حضر البيعة سعد لرأى مطلعها سعدا ، ولم يجد من الدخول فيها بدًّا ، ولما غم فى قطيفته غما ، ونأى عن دار قومه بعدا ، فهى أخت بيعة الرضوان ، دائمة الشرائط المشروطة وعقود الأيمان ، والموكب الذى التجأه بين صفوته وعيانه ، ومطية النجاة بين صهوة وعنان . وللسابق فى مثل هذا المقام فضيلة سبقه ، كما أن للصادق مزية صدقه ، وكلاهما مجموع لمرسل العبد فى الفوز بقصب المضمار ، والذى إسراره كإعلانه ، وقليلا ما يستوى حالتا الإعلان والإسرار . ولئن غاب عن الحضور بنفسه فهو فى عِداد من حضر ، والتعويل إنما هـو على صدق النية التى أثرها هو الأثر . قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن وراءكم قوماً بالمدينة ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم » . فليعول الديوان العزيز على القوى الأمين ، وليضنّ به وإنما يضن بالضنين » .

وفيها توفى الملك الأفضل نور الدين على بن السلطان صلاح الدين . توفى بسميساط[2] فجأة ، فى شهر صفر . ونقل إلى حلب ودفن بها . وعمره يومئذ سبع وخمسين سنة. وملك بعده سميساط أخوه الملك المفضل قطب الدين موسى .

ومن كتاب « جَنى[3] النحل » ، قال صاحبه : حضرت يوماً بمدينة سميساط[4]، وملكها يومئذ الملك الأفضل نور الدين على بن السلطان صلاح الدين ، وهو يعرض جيشه ، وأنا جالس معه ، فنظر إلى صبي تركى حسن الشباب ، وهو لابس الزّرد ، فقال لى : قد قلت فى هذا شيء على البديهة ، وأنشد :

وذى قلبٍ حـديدٍ ليس يقوى ... على هجـرانه القلب الجليـد
تدرع للورى درعا فأضحى ... وظاهـره وباطنه حـديد

ومن شعره أيضا :

يا من يسوّد شعره بخضابه ... لعساه من أهـل الشبيبة يحصل
ها فاختضب بسواد حظى لحظة ... ولك الأمـان بأنه لا ينصل

(١) سورة الفتح آية رقم ١٠

(٢) فى المتن : « بشميصات » .

(٣) فى المتن : « جنا النحل » .

(٤) فى المتن : « شميصات » .

وله فى المعنى :

أى صـــديق سألت عنه ففى الـ خمـــول وتحت الذل فى الوطن
وأى ضـــد سألت عنـــه سمعت ما لا تحبـــه أذنى

ومن كتاب « جنى النحل » أيضا ، قال : إن بمدينة الرُّها باب من جملة أبواب المدينة ، يُعرف بباب إقساس ، متى فسد عندهم الشراب وصار خلًّا يدخلون به من ذلك الباب ، فيعود شرابا كأحسن مما كان . وقال إن الملك كيكاوس السلجوق ــ المقدم ذكره مع رسول نور الدين الشهيد ــ قال: دخل إلينا إلى الروم فى وقت رجل ادعى أنه نبى، فقيل له: «ما علامة قولك وبيانه ؟» قال: «أقيم اليوم والعشرة بغير أكل ولا شرب ، وأظل عند ربى يطعمنى ويسقينى » . فامتحنوه ، وتركوه عشرة أيام بغير زاد ولا شراب فى بيت عريانا ، ثم أخرجوه وهو كأصح ما يكون . فتعجب الناس منه ، وتبعه قوم كثير ، واعتقدوه . ثم إنه فتش فوجد معه خاتم فى أصبعه بوفق قد صُنع ، فانتزع منه الخاتم ، فاستغاث الجوع العطش . وكان السر فى خاصيّة الخاتم .

ومن ذلك أن الملك كيكاوس المذكور ، كان قد حضر إليـــه ناصر الدين ابن أبى النجيب ، وكان من الحكماء الكبار يعرف خواص الطلسمات ، فأدناه منه وقربه إليه ، حتى عاد يدخل على الحريم بطريق الطب . فهوِيَتْهُ حظية من حظايا السلطان المذكور ، فوشى به للسلطان ، وتحقق أمره . وحمَلت الجارية منه ، فأمر السلطان بقتلها وقتله . فأما الجارية فإنها قتلت لوقتها ، وأما ناصر الدين فإنه ضرب بالسيف فلم يعمل فيه شىء ، ثم ضرب بالسكاكين فلم تعمل فيه . ورأى نفسه أنه يجد الألم ويعذب ، ولا بد من موته ، فأمرهم أن يأخذوا من شعره حرزًا مشمعا صغيرا محروزاً عليه . فلما أخذوه وقع لوقته ميتا . وكان ذلك الحرز يمنع السيف أن يعمل فيه، والله أعلم .

وفيها توفى جعفر بن شمس الخلافة الشاعر ، نسبته إلى الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش ، المقدم ذكره فى دولة الفاطميين . وكان فاضلا أديبا شاعرا . وله تواليف وديوان شعر ، فمن ذلك قوله :

هى شدة يأتى الرخاء عقيبها وأسى يبشر بالسرور العاجل
وإذا نظرت فإن يوماً زائلا بالبؤس خـــير من نعيم زائل

وله فى الوزير شكر :

مدَحَتْك ألسنة الأنام مخافةً وتشاهدت لك بالثناء الأحسن
أترى الزمان مؤخرا فى مُدتى حتى أعيش إلى انطلاق الألسن

وحُـكى عنـه أنه أصابته ضائقة شديدة فى أيام السلطان الملك العادل أبو بكر ابن أيوب ، فعمل قصيدة هجا بها الملك العادل وولده الـكامل ، أولها يقول :

يا ظالماً لُقِّب بالعادل ويا ناقصاً لُقِّب بالـكامل
أهلـكْتُما كل جميع الورى لاعشتما دهرًا إلى قابل

وهى طويلة ، وفيهـا سب قبيح فى مثل تلك الملوك الحسان ، أضربتُ عنها . وكتبها ، وأتى بها إلى دار الوزارة بالقاهرة . قال : وأعطيتها إلى الطواشى صواب العادلى ، وكان يومئذ أستادار السلطان ، فجعلها فى جملة القصص ، فدخل بها إليـه فقرأها السلطان ، وجعلها تحت فخذه إلى أن قام من مجلسه ، وقد صار وقت الظهر ، وخرج جميع الناس من بين يديه . فسير من كشفـ أمرى ، فوجدنى جالسا أنتظر الجواب بما يكون ، فاستدعانى ، فدخلت عليه ، فقال : « هذا نظمك ؟ ». قلت: « نعم» . قال: « فما حملك على هذا؟ ». فقلت: « الفقر والفاقة، إما تقتلنى فأستريح ، وإما أن تشملنى صدقاتك» . قال: فأمر لى بمائة دينار. فقلت: « ولابد من مركوب» . فأمر لى ببغلة . فخرجت من بين يديه. ثم خطر ببالى الزيادة . فقلت للطواشى: «أعدنى إليه». فشاور علىّ فدخلت عليه . فقلت: « لم يشملنى إنعام السلطان بقوت العائلة » . فأمر لى بخمسين أردب قمح . قلت : « وعليق البغلة » ، فأمر بعشرين أردب شعير . فخرجت ، ثم قلت للطواشى : « أريد العودة إليه » . فقال الطواشى: « أظنك مجنون، ورب الـكعبة» . فقلت : « لابد من العود إليه » . قال : فدخلت عليه ثالثة ، فقلت : « لابد من خلعة

أكمد بها العدو، وأسر بها الصديق » . فقال : «أما هذا فلا تسمع الناس أنك هجوتنا ونخلع عليك » . قلت : « فليكن هـذا الإنعام الذى تصدق به السلطان مقرراً راتباً فى كل سنة » . فقال : « أولا تعيش لذلك . لـكن احضر لنا مسودة هـذه القصيدة التى أحسنت فيها وتفضلت » . فقلت : « ليس لها مسودة ، إلا حفظى لها بلسانى » . فقال : « قطعه الله » . ثم خرجت من بين يديه وقبضت جميع ذلك . وهذا مما يعتد به من حلم الملك العادل ، رحمه الله .

وفيها فتح السلطان جلال الدين الخوارزمى مدينة تفليس . وهذه كرسى مملـكة الـكرج . وعجز عن فتحها سائر الملوك المتقدمة من آل سلجوق وغيرهم ، من حيث غلبت عليها الـكرج . وكان[1] الـكرج لما افتتحوها أبقوا من بها من المسلمين . فلما قوى سلطان جلال الدين وتتبع الـكرج وقتلهم بكل مكان ، طلب تفليس ، وافتتحها عنوة بالسيف ، بمساعدة من كان بها من المسلمين ، وقتل جميع من كان فيها من الـكرج .

وفيها كانت الوقعة بين عسكر جلال الدين وبين عسكر الملك الأشرف موسى . وكانت النصرة لجماعة الأشرف ، ومقدمهم حسام الدين على الحاجب .

---

(١) فى المتن : « وكانوا » .

ذكر سنة ثلاث وعشرين وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

المـــاء القديم أربعة أذرع وعشرون أصبعا . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعاً واثنى عشر أصبعا .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام الظاهر بأمر الله أمير المؤمنين ، إلى أن توفى فى هذه السنة ــ حسبما يأتى من ذكر ذلك فى تاريخــه . والسلطان الملك الـكامل بحاله . وكذلك الملوك إخوته ــ حسبما تقدم من ذكرهم . والسلطان جلال الدين سلطان الشرق ، والحروب بينه وبين التتار سجال .

وفى ربيع الآخر وصل القاضى محيى الدين بن الجوزى ، والأمير سيف الدين ألب رسلان، رسلا من جهة الإمام الظاهر بأمر الله ، ولقيهم السلطان الملك الـكامل من القصير[(١)] الذى بظاهر القاهرة ، وضرب له مخيم ، وجلسوا فيه، واجتمع الناس، وكان يوما مشهودا . وقرأ ابن الجوزى التقليد ، وألبس السلطان الفرجية المذهبة ، والجبــة والعمامة السوداء ، وطوق ذهب مرصع بالجواهر الثمينة . وقلد بسيف محلى مرصع ، وعلم مذهب . وقدم له حجْرة صفراء منعلة بذهب ، وعدتها جميعها ذهب عين مصرى مرصع . وقومت الخلعة بعد ذلك بخمسين ألف دينار . وخلع على أولاده ، الملك المسعود والملك الصالح ، وقلدوا ، ومنطقوا ، وعلى جماعة من أعيان الدولة .

وفى جمادى الآخرة زوّج السلطان الملك الـكامل ابنتــه من ابن صاحب الروم .

وفى سابع عشر شعبان خرج السلطان متوجها إلى الشام . ثم عاد إلى القاهرة ، ولم يتعد[(٢)] بلبيس . وكانت[(٣)] عودته سابع وعشرين رمضان المعظم .

(١) القصير : الاسم القديم لقرية أبى زعبل خارج القاهرة . وقد عرف القصير باسم «أبوزعبل» فى أواخر أيام دولة المماليك . انظر : محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ق ٢ ج ١ ص ٣١ .

(٢) فى المتن : « ولم يتعدا » .

(٣) فى المتن: « وكان » .

وفيها توفى الإمام الظاهر بأمر الله . وعمل السلطان عزاءه فى بركة الحجاج ، كما يأتى ذكر ذلك فى تاريخه ، إن شاء الله تعالى .

وفى سابع ذى القعدة سافر الملك المسعود أقسيس إلى اليمن ، وودعه والده السلطان الملك الكامل إلى قلعة صدر ، ثم توجه إلى ثغر الإسكندرية .

وفيها وصل جمال الدين يوسف بن الجوزى رسولا إلى الملك المعظم صاحب الشام ، يقول له عن الخليفة : « تخرج عن موافقة هذا الخارجى جلال الدين ، ونحن نصلح بينك وبين إخوتك » . وكان المعظم قد سير مملوكه إلى السلطان جلال الدين ، فرحله عن تفليس ، وأنزله على أخلاط . وكان الأشرف على حران ، نازل بها .

قال أبو المظفر ــ وكان ابن أخت الشيخ جمال الدين بن الجوزى ــ : قال لى المعظم : « قلت لخالك جمال الدين ، إذا أنا رجعت عن جلال الدين الخوارزمى ، وقصدنى[1] إخوتى ، تنجدونى أنتم ؟ . قال : نعم . فقلت : والله ما لكم عادة بنجدة أحد قبلى حتى تنجدونى أنا . هذه كتب الإمام الناصر عندى ، ونحن على دمياط فى حرب الإفرنج ، وهو الجهاد الأعظم المفترض على كل مسلم ــ دع أن يكون إمام المسلمين ــ ونحن نستصرخ به ، ونقول : « واغوثاه ! أنجدنا ! أنجدنا ! أدرك الإسلام ! » ، فيجيء الجواب بعد التوقف ، أن قد كتبنا إلى ملوك الجزيرة فلم يقبلوا . ثم قلت له : مثلى معكم كمثل رجل شيخ كبير ، كان يخرج وقت السحر ليصلى بالمسجد وفى يده عكاز ، خوفا من الكلاب ، فقال له بعض أصحابه : « أنت شيخ كبير تحمل هذا العكاز يتعبك حمله » . فقال : « إنى أخشى الكلاب » . فقال له الرجل : « كن اقرأ سورة يس ، واخرج من بيتك ، مايقربك كلب » . ثم رآه بعد مدة والعكاز فى يده ، فقال : « ألم أعلمك شيء[2] يريحك من حمل العكاز » . فقال : « سورة يس أقرأها إذا لقينى كلب يعرف القرآن ، وهذا العكاز لكلب لا يعرف القرآن » . وأنا فقد اتفق إخوتى علىّ ، وقد أنزلت

---

(١) فى المتن : « وقصدونى إخوتى » .

(٢) كذا فى المتن .

جلال الدين الخوارزمى على أخلاط ، فإن قصدنى الأشرف منعه الخوارزمى ، وإن قصدنى الـكامل كان فىّ ـ إن شاء الله ـ له ». ثم وقع الصلح بين الأشرف والمعظم، وحضر الأشرف إلى دمشق، وسأل المعظم أن يُرحّل الخوارزمى عن أخلاط، فكتب إليه ورحّله. ونزل الثلج ، وأقام الأشرف عند المعظم بدمشق . وكان المعظم يلبس خلعة جلال الدين الخوارزمى ، ويركب فرسه ، ويحلف برأسه فى مجلس ملكه . وكان عند الأشرف من هذا الحال المقيم المقعد ، وهو ساكت على مضض ، ولا يتكلم .

وكانت[1] وفاة الإمام الظاهر بأمر الله يوم الجمعة ثالث عشر رجب الفرد من هذه السنة . وتولى الخلافة المستنصر بالله .

توفى الظاهر بأمر الله وله من العمر ثلاث وخمسين سنة كان شبيه بأبيه، ذو طباع خيرة ، جميل الذكر ، ووزيره مؤيد الدين بن العلقمى .

قال ابن واصل فى تاريخه فى سيرة الظاهر بأمر الله : ولقد تباعد بينه وبين أبيه الناصر لدين الله تباعداً جدًّا فى عدة أمور ، منها مدة خلافته وقصرها عن طول خلافة أبيه. ومنها أنه كان فى غاية العدل والإحسان إلى الخَلْق . وكان أبوه بالضد مريد . ومنهـا أنه كان فى غاية التعصب لمذهب السنة ، وكان أبوه فى غاية التعصب لمذهب الروافض . ومن كلامه يقول : « ليس غرضنا أن يقال رد مرسُوم أو تقدم مثال ، ولا يبين له أثر ، بل أنتم إلى إمام فعالٍ أحوج منكم إلى إمام قوال » .

مدة خلافته تسعة أشهر وأربع عشر يوما .

ذكر خلافة الإمام المستنصر بالله بن الإمام الظاهر بأمر الله

هو أبو جعفر المنصور بن محمد الظاهر بأمر الله ، وباقى نسبه قد تقدم . أمه أم ولد، يقال إن اسمها غريب. بويع له عند وفاة أبيه ـ رحمه الله ـ فكانت خلافته سبع عشرة

(١) فى المتن : « وكان » .

سنة ، إلى أن توفى فى تاريخ ما يأتى ذكره إن شاء الله تعـــالى . قال تاج الدين ابن الساعى ـ رحمه الله ـ فى تاريخه: حضرت مبايعة المستنصر بالله ـ وقيل المستظهر بالله ـ وقد حضر أهل العقد والحل من القضاة والعلماء والفقهاء والوزراء والأمراء . ولما رفعت الستارة ، شاهدته وقد كمّل الله صورته ومعناه ، وحسَّن باطنه وظاهره ومحيّاه. قال : نخطر لى فى الحال أبيات الحسن بن هانىء ، وهى :

رفع الحجاب لنا فبان الناظر … قمر تقطع دونه الأوهام
ملك أغر إذا شرفت بوجهه … لم يروك التبجيل والإعظام
والدهر مشتمل بنور خليفة … لبس الشباب بعدله الإسلام
داوى بها الله القلوب من الجوى … حتى شرعن وما بهن سقام

ذكر سنة أربع وعشرين وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

المـــاء القديم أربعة أذرع وعشرون أصبعاً . مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا وعشرة أصابع .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين . والوزير مؤيد الدين بن العلقمى .

وسلطان مصر الملك الـكامل ناصر الدنيا والدين محمد بن السلطان الملك العادل .

وصاحب دمشق والـكرك وعجلون ــ مع الشام ــ الملك المعظم عيسى بن العادل .

وصاحب الشرق ــ أخلاط وحران والرُّها وسنجار ــ الملك الأشرف أخوهما .

وصاحب ميافارقين وأعمالها شهاب الدين غازى بن الملك العادل أيضاً .

وصاحب قلعة جعبر وأعمالها ــ وما ينسب إليها ــ الحافظ أرسلان شاه .

وصاحب بصرى وأعمالها ــ وما هو منسوب إليها ــ الصالح إسماعيل أبو الخيش .

وسلطان الروم علاء الدين كيقباذ السلجوقى بن كيخسرو السلجوقى .

وصاحب الموصل وجزيرة ابن عمر الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ النورى .

وسلطان العجم جلال الدين منكبرتى بن السلطان علاء الدين خوارزم شاه .

وصاحب بعلبك الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن أيوب .

وصاحب حمص الملك المجاهد أسد الدين شيركوه .

وصاحب حماه الملك الناصر بن الملك المنصور ، المقدم ذكره .

وملك التتار جكزخان ، وهو يتجهز الجيوش لحرب جلال الدين .

وصاحب اليمن والحجاز الملك المسعود أقسيس بن الملك الـكامل .

وصاحب المغرب أبو يعقوب بن عبد المؤمن ، المقدم ذكره فيه .

وفيها وسَّع السلطان الملك الـكامل على جميع المدارس ، وجميع الرباطات والخوانق . وجعل فيهم سماطات تُمد ، وأطلق لـكل فقيه الخبز واللحم والحلوى والسكر .

وفى شهر شوال من هـذه السنة كان طهور الملك العادل بن السلطان الملك الـكامل . وركب السلطان وجميع العسكر ، ومَدّ سماطا عظيما بالميدان الذى تحت القلعة . ثم توجه السلطان إلى ثغر الإسكندرية فى ذى القعدة .

وفيهـا قدم رسول الأنبرور ملك الإفرنج(١) على الملك المعظم صاحب الشام ، بعد اجتماعه بالملك الـكامل ، يطلب الفتوح الصلاحى . قال أبو المظفر : وأغلظ له المعظم فى الجواب ، وقال : « قل لصاحبك ما أنا مثل الغير ما له عندى إلا السيف » .

وفيها كانت الوقعة بين التتار وبين السلطان جلال الدين . وكان أولاد جلال الدين وحريمه بتبريز . وبلغه أن التتار قاصدين أصبهان ، نخشى على أولاده وحريمه ، وقصد ردهم عن مقصدهم ، فوصل إلى أصبهان ، وأزاح أعداد النـــاس من العدد والسلاح . ثم جرد أربعة آلاف فارس إلى مدينة الرىّ ودامغان(٢) برسم الترك الذين هناك ، فـكانت الأخبار تصل من جهتهم يوما بعد يوم ، وهم يتأخرون ، والتتار يتقدمون ، إلى أن وصلوا إلى عند السلطان جلال الدين ، وأخبروه بذلك ، وعرفوه بمـا فى عسكر التتار من الفرسان والشجعان ، مثل ياجى نوين ، واسطمغان ، وجنـكزنوين ، وأرشاق بغان ، وغيرهم(٣) . وهؤلاء المذكورين كانوا جمرة التتار الوقادة ، وصاعقتهم المحرقة . ثم وصل(٤) التتار المذكورون(٥) فى جموع كثيفة ، ونزلوا شرق أصبهان. وكان المنجمون قد أشاروا على السلطان جلال الدين بمصابرتهم ثلاثة أيام ، بعد نزولهم ، ويكون الملتقى(٦) فى اليوم الرابع . فلزم البلد يترقب مضى

(١) يقصد الأمبراطور فردريك الثانى أمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، انظر : العينى ، عقد الجمان ـ حوادث سنة ٦٢٤ هـ ؛ سعيد عاشور ، الأمبراطور فردريك الثانى والشرق العربى (بحث نشر فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الحادى عشر ـ ١٩٦٣) .

(٢) فى المتن : « أمغان » .

(٣) ذكر النويرى (نهاية الأرب ـ مخطوط) : « ومنهم ناجن نوين ، وبانال نوين ، وباقوا نوين ، وأمسن طغان نوين ، وبايغاس نوين ، وناشاور نوين وغيرهم » .

(٤) فى المتن : « وصلوا » .

(٥) فى المتن : « المذكورين » .

(٦) فى المتن : « الملتقا » .

الثلاثة أيام . وكان الناس اضطربوا اضطرابا عظيما ، وكثر انزعاجهم من التتار ، والسلطان يظهر قوة النفس ، وشدة البأس . ثم إنه استحلف جيوشه أنهم يختارون الموت على الحياة ، ولا يولون الأدبار ، ثم حلف هو أيضا كذلك ، تبرعا منه وإحسان . ثم إنه عيّن لهم يوم المصاف، وأحضر قاضى أصبهان ورؤساءهم ، وأعرض الرجال من عامة أصبهان ، وفرّق عليهم العُدد . وهؤلاء أهل أصبهان لايقاسون بغيرهم من أهل الأقاليم ، لما فيهم من الشجاعة والشدة وقوة البأس .

ولما رأى التتار أن السلطان أبطأ(١) عنهم ، وتقاعد عن خروجه إليهم ، ظنوا أنه امتلأ منهم رعباً وخوفاً، فجردوا ألفى فارس منهم إلى الجبال، ليجمعوا لهم مايمونهم للحصار ، فدخلوا الجبال التى فى أعمال أصبهان . فبلغ السلطان جلال الدين ذلك ، فجرد خلفهم ثلاثة آلاف فارس، يأخذون عليهم فم المضيق . فلما انصرفوا من الغارة، واقعوهم . ونصر الله الطائفة الإسلامية عليهم ، وقتلوا منهم جماعة ، وأحضروا منهم أسرى(٢) ، فسلموا منهم جماعة للقاضى ، فقتلوهم فى شوارع المدينة ، وضرب السلطان رقاب بقيتهم بين يديه فى صحن الدار ، وجروهم إلى ظاهر المدينة . فلما كان اليوم الرّابع خرج السلطان ، ورتّب الجيوش للمصافّ . فلما تراءى الجمعان ، خذله غياث الدين أخوه ، وفارقه بجيشه ، وتبعه جهان بهلوان ، لوحشة حدثت فى تلك الساعة . وتغافل السلطان عنه . وامتدّت عساكره ، ووقف(٣) التتار أطلاباً متفرقة مترادفة قبال السّلطان . وكان عسكره أضعاف التتار، وتباعد ما بين الميمنة والميسرة ، حتى عاد لايُعرف حال الواحدة من الأخرى . ثم حملت ميمنة السلطان على ميسرة التتار ، فشالوها شيلًا ، وانهزمت التتار بين أيديهم ، وكذلك فعلت الميسرة بميمنة التتار . ولم يزل السيف يعمل فيهم إلى المساء . ورأى السلطان انهزام التتار ، فترجل وسجد شكراً لله تعالى ، ونزل على حافة جرفٍ كان فى المعركة قاطع بينه وبين العدو ،

(١) فى المتن : « أبطىء » .
(٢) فى المتن : « أسرا » .
(٣) فى المتن : « ووقفوا » .

فأتاه أحد أمرائه ، وقال : « قد تمنينا دهراً أن نرزق يوما نفرح فيه مثل هذا اليوم . وأنت جالس! »، ولم يزل به حتى ركب، وقطع النهر، وكان آخر النهار. فلما شاهد[1] التتار السواد الأعظم ، تجرد جماعة من شجعانهم ، وكمنوا لهم وقد أجنحت الشمس للغروب . ثم خرجوا على السلطان يداً واحدة[2] ، كالنار المحرقة ، والصاعقة المبرقة . وكان خروجهم على ميسرة السلطان ، فلم يكن بأسرع أن زالت الأقدام وانهزموا . ولم يبق مع السلطان غير ثلاثة نفر ، وهم : كوج تكين ، وبهلوان ، وخان بردى[3] . وقتل من الأمراء أياخان ، وكندكين . وماج الفريقان بعضهم فى بعض كالجراد المنتشر . وأسر فى ذلك الوقت علاء الدولة والحاجب الكبير . وثبت السلطان جلال الدين فى القلب ، وقد تبدد شمله ، وانحل نظامه ، وتفرقت جيوشه وأعلامه ، وأحاطت التتار به من كل جهة ، فصار المخلص من تزاحم الأخلاط أضيق من سم الخياط . ولم يبق معه غير أربعة عشر نفر من خواص مماليكه ، فانهزم بعد ذلك وقد طُعن طعنةً ما سلم منها إلا بحراسة الأقدار وتحصين الأجل . ثم أفرج له المضيق عن سعة الطريق ، فمرق من بين الجيوش والأطلاب مروق السهم والنشاب . وتفرقت جيوشه فى الأقطار كل فرقة تطلب إقليما للنجاة ، فمنهم من وقع إلى فارس ، ومنهم من امتدت به الجفلة إلى كرمان ، ومنهم من قصد أذربيجان ، ومنهم من دخل أصبهان . وعادت ميمنة السلطان بعد يومين وهم يظنوا أنهم منصورون. والتتار أيضا أكثرهم انهزم ، ولا رجع إلا بعد مدة . فلم يسمع بمثلها وقعة لانهزام الفريقين . وهمت عامة أصبهان أن يمدوا الأيدى إلى عورات نساء الخوارزمية وإلى أموالهم ، فمنعهم القاضى والرئيس من ذلك . وكان هذا المصافّ فى الثانى والعشرين من شهر

---

(١) فى المتن : « شاهدوا » .

(٢) فى المتن : « يد واحدة » .

(٣) جاء فى نهاية الأرب للنويرى : « ولم يسلم منهم إلا ثلاثة وهم : كوج تكين بهلوان ، والحاجب الخاص خان بودى ، وأدل أمير أخور » .

رمضان المعظم من هذه السنة(١) . ثم إن السلطان جلال الدين دخل أصبهان ونجا إليها متحصنا فلم يبلغوا فيها أرب ، فتوجهوا إلى خراسان ، فوجدوا قافلة فيها جماعة من التجار بأموال جمة ، فأخذوها وأطلقوا التجار من غير قتل ، وقاموا يخربون ويأسرون من وجدوه .

وفيها توفى الملك المعظم عيسى صاحب دمشق — كما يأتى ذكره فى تاريخه .

وبعد هذه الوقعة جهز جكزخان طائفة من التتار إلى خوارزم. وكان أهل خوارزم رجال شجعان لا يعرفون الموت ، فنزل التتار عليها ، وأقاموا بقية هذه السنة يحاصرونها ، وقتل من الفريقين عالم عظيم . وكان القتل فى التتار أعم وأكثر . وأقاموا عليها خمسة أشهر . فلما عجزوا عن أخذها بعثوا إلى جكزخان ، فأنجدهم بعسكر كثيف ، وفيهم من أهل البلدان عالم عظيم . ثم إنهم زحفوا على البلد يداً(٢) واحدة فأخذوها ، وقتلوا جميع من كان بها ، ونهبوها . وفتحوا الجسر الذى كان يحجب جيحون عنها ، فغرقت .

وتوفى الملك المعظم شرف الدين عيسى — رحمه الله — فى شهر ذى القعدة من هذه السنة، وله من العمر على ما ذكر سبع وأربعين سنة .

وكانت مدة ملكه لدمشق — استقلالا بعد أبيه العادل — تسع سنين وشهورا . وكان رحمه الله ملكا جليلا شجاعا مقداما . وكانت مملكته مابين حمص وعريش مصر . وكان عسكره قريب أربعة آلاف فارس ، ولم يكن عند أحد من إخوته جند مثلهم فى فرط تجملهم وحسن زيهم . وكان بهذا العسكر القليل يقاوم إخوته . وكان الملك الكامل يخافه ويتحاماه لميل عسكره إليه ومحبتهم له . وكان كثير التواضع جدًّا يمشي وحده بغير طرادين ، إذا فعل فعلا كان بغير تكلف حتى ضرب به المثل فيقال : معظمى بلا كلفة .

---

(١) ذكر النويرى فى نهاية الأرب (مخطوط) أن هذا المصاف كان سنة ٦٢٥ هـ .

(٢) فى المتن : « يد واحدة » .

وكان شيخه فى الفقه الشيخ جمال الدين الحصرى .

وكان سائر ملوك بنى أيوب كلهم شافعية ، وانفرد هـــــو من بينهم بالانتماء إلى مذهب أبى حنيفة . وقال له والده ذات يوم فى ذلك ولامه ، فقال لأبيه على سبيل المداعبة : « ياخوند ما ترضون أن يكون فيكم رجل واحد مسلم » .

ذكر سنة خمس وعشرين وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

المـــاء القديم خمسة أذرع وتسعة عشر أصبعا . مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا ، وعشرون أصبعا .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين . والمـــلوك حسبما تقدم من ذكرهم فى السنة التى قبلها .

وفى يوم الأحد تاسع عشر شعبان ، سافر السلطان الملك الكامل إلى الشام ، واستناب ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وركب بالسناجق والسيوف الجـدية فى دست المملـكة ، فى يوم الخميس سلخ شعبان المكرم .

وفى عشية السبت حادى عشرين شوال، سافر الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، وصحبته رسول الأنبرور ملك الفرنج . هـــذا والسلطان الملك الكامل مخيّم على تل العجول .

وفيها كانت وقعة السلطان جلال الدين مع التتار . وذلك أن التتار لما فرغ أمرهم من خوارزم ، تجهز منهم جيش عظيم إلى غزنة ، وقد كان السلطان جلال الدين انتقل من أصبهان إليها ، واجتمع إليه الجيوش بها . فلما وصل التتار إليه ، خرج فى ستين ألفاً[1] ممن اجتمع إليه من مماليـكه وخواصه ، وممن يعتمد عليه . وكانت عدة التتار الواصلين[2] إليه عشرون ألفا ، فالتقاهم بأرض تعرف بتلف ، وهى أرض وطِئة فاقتتلوا هناك قتالا شديدا مدة ثلاثة أيام. ونصر الله الإسلام على الـكفرة اللئام، عبّاد التماثيل والأصنام ، وانـكسرت التتار ، وقتل منهم فى هـــذه النوبة جماعة

---

(١) فى المتن: « ألف ».

(٢) فى المتن: « الواصلون » .

من الكبار . وعاد المنهزمون[1] إلى جكزخان ، وهو نازل على طالقان . فعند ذلك جهز ولده توسيخان ـ وقيل بل تولوخان ـ بعساكر كثيفة من المغل من عظم ألب قرا أرسلان ، فوصلوا إلى كابل وهى بلد العجم . وتوجه إليهم السلطان جلال الدين وضرب معهم مصافا عظيما ، واقتتلوا أشد قتال . ثم إن السلطان جلال الدين حمل بنفسه على القلب الذى كان فيه تولوخان بن جكزخان ، فبدد شمل القلب ، وقتل تولوخان فى هذه النوبة ، وانكسرت التتار كسرة عظيمة ، لم يكسروا مثلها من قبل ذلك اليوم ، وغنم[2] المسلمون أموالهم وخيولهم . وكانت نوبة عظيمة على التتار ، لم يمرّ بهم منذ خرجوا من بلادهم أشنع منها .

ثم اختلف المسلمون وتفرقت كلمتهم . وسبب ذلك أنه كان من ملوك المسلمين فى جيش السلطان جلال الدين ملك يُعرف ببلغاق ، وكان تركيا شجاعا مقداما فى الحروب ، وله مع التتار عدة وقعات ينتصر فيها عليهم . وكان قد فعل فى هذه النوبة فى التتار ما لا تفعله الجبابرة الجاهلية الأولون[3] . وكان فى المسلمين أيضا ملكا آخر كبير القدر يقال له ملك خان . وكان بينه وبين السلطان جلال الدين حشائف قديمة ، فإنه كان صاحب هراة وملكها ، فأخرجه جلال الدين منها ، وصار فى جملة جيشه . فاختلف هذان الملكان[4] لأمر يريده الله تعالى ، ولسعادة التتار على كسب كان من التتار . وقوى الأمر والشر بينهما حتى اقتتلا ، وقتل بينهما جماعة كبيرة . وقتل فى الجملة أراق أخو الملك بلغاق التركى . وعجز السلطان جلال الدين أن يوقف بينهما ، وقال : « بلغاق يقتل أخى على سحت الدنيا » ، وغضب وفارق جلال الدين ، وسار إلى الهند فى ثلاثين ألف فارس، فأضعف المسلمين. فركب السلطان جلال الدين واسترضاه بكل ما أمكنه ، فلم يقدر على رده ، وفارقه . ووردت الأخبار

---

(١) فى المتن : « وعادوا المنهزمين » .

(٢) فى المتن : « وغنموا » .

(٣) فى المتن : « الأولين » .

(٤) فى المتن : « فاختلف هذين الملكين » .

على جلال الدين أن جكز خان لما بلغه قتل ولده تولوخان(١) ، رمى سرقوجه إلى الأرض ، وركب بنفسه فى سائر جموع التتار ، وقصد نحوه فى خلق لا يعلم عددهم إلا الله تعالى . فلما علم جلال الدين ذلك ، وتحقق ضعفه عن ملتقاه ، سار إلى نحو ماء السند ، وكانت الوقعة العظيمة بينهما . وانكسر فيها جلال الدين وغاب فيها خبره . أجمعت الرواة من أرباب التواريخ أن السلطان جلال الدين ضرب مع التتار فى مدة ستة عشر سنة أربعة عشر وقعة ، لم ينكسر فيها غير مرتين ، والثالثة التى(٢) عدم فيها ، حسبما يأتى من ذكرها إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى المتن : « توليخان » .

(٢) فى المتن : « الذى » .

ذكر سنة ست وعشرين وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم أربعة أذرع وثلاثة أصابع . مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا وعشرة أصابع .

مالخص من الحوادث

الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين . والوزير ابن العلقمى بحاله . والسلطان الملك الكامل مخيم بتل العجول . والملك الصالح نجم الدين أيوب نائبا عن أبيه بالديار المصرية ، وولده الملك العادل يوقع فى الأموال .

وفى شهر المحرم كانت المراسلة بين السلطان الملك الكامل وبين الأنبرور . قال ابن واصل : اسمه الأنبرطور وتفسيره بالعربى ملك الأمراء ، ومملكته جزيرة صقلية ، ومن البر الطويل بلاد أنبولية والأنبردية ، ملك الإفرنج .

وفى شهر صفر وصل صاحب حمص إلى خدمة الملك الكامل ، بتل العجول .

وفى شهر ربيع الأول تقرر الصلح بين السلطان الملك الكامل وبين الأنبرور ملك الإفرنج ، وتسلم القدس الشريف ـ حسبما يأتى من ذكر ذلك ـ وشرط أن يكون فى المسجد الأقصى الخطيب والإمام والمؤذن ، ويقام فيه الجمعة والصلوات الخمس فى كل يوم .

وكان لما توفى الملك المعظم ، رحمه الله ، وقام بالملك بدمشق الملك الناصر داود ولده ، بعث الفخر بن بصاقة إلى الملك الأشرف عمه يستدعيه إليه خوفا من الكامل . وكان الأمير عز الدين أيبك أستادار ـ المعروف بصاحب صرخد ، جدنا ـ قال للناصر داود ـ لما جلس ـ بطريق النصيحة : « دارى عمك الكامل واستعطفه ، ولا تبعث إلى الأشرف ، وداوى الأخطر » . فخالفه فى ذلك ، وحضر الأشرف ، ونزل بستانه ، وقال للناصر : « أنا أمضى إلى الكامل وأصلح حالك معه » . وحضر الأشرف فوجد الكامل قد أعطى الأنبرور القدس ، فشق عليه ذلك أمر عظيم[1] ،

---

(١) كذا فى المتن .

وعتب الملك الكامل فى ذلك ، فقال: « ما أحوجنى إلى ذلك إلا المعظّم ، فإنه أعطى الأنبرور من الأردن إلى البحر ، والضياع التى من باب القدس إلى يافا ،فاحتجت أنا أن أعطيه القدس أيضا ». ووصلت الأخبار إلى سائر بلاد الإسلام أن الملك الكامل أعطى القدس للإفرنج ، فقامت الدنيا على ساق واحد ، وعظم ذلك على سائر المسلمين، وأقاموا المآتم . وكان الملك الناصر داود منحرفا عن الأمير عز الدين أيبك صاحب صرخد، فتركه وقدم على السلطان الملك الكامل وهو على تل العجول . وكان عزمه العود إلى مصر .: فلما أتاه الأمير عز الدين أيبك المشار إليه ، قال : « قد جاءنى مفتاح الشام » وأقبل عليه ، وأعطاه عشرة آلاف دينار .وجمع رأيه على السّير إلى دمشق ، فتوجه إليها ، واحتاطت العساكر بهـــا من كل جهة. وقبض الناصر على الفخر بن بصاقة وابن عمه ، ورماها فى الجب . وكان قد اتهم الفخر بالأشرف ، وأنه واطأ على الملك الناصر .

وفيها دخل الأنبرور ملك الفرنج إلى القدس الشريف ، وجرى له فيها عجائب ، منها أنه لما دخل الصخرة رأى قسيسا جالسا عند الصخرة عند القدم،يأخذ من الفرنج القراطيس ، فجاء إليه كأنه يطلب منه الدعاء ، ثم لكمه رماه إلى الأرض ، وقال له : « يا خنزير ، السلطان قد تصدق علينا بزيارة هذا المكان ، وتفعلوا فيه هذه الأفاعيل القباح ! إن عاد منكم أحد إلى هذا الفعل قتلته » .

قال أبو المظفر : حكى لى قوّام الصخرة، قال: نظروا إلى الكتابة التى على الصخرة، وهى:«طهر هذا البيت المقدس صلاح الدين من المشركين». فقال:«ومن هم المشركين؟». ثم قال للقوّام:« ماهذه الشبابيك التى على أبواب الصخرة؟ » قالوا: «تمنع العصافير». فقال: « قد أتى[١] الله إليكم بالخنازير ». وقالوا عنه أيضاً : ولما أتى وقت الظهر أذّن المؤذنون ، فقام هو ومن كان معه من جماعته ، فصلوا . وكان معلمه الذى أتى معه

(١) فى المتن : « أتا » .

من صقلّية ، يقرأ عليه المنطق ، وقيل إنه كان مسلما[1] فى الباطن . وكان الأنبرور من صفته أنه أشقر ، أمعط ، أعمش ، لو كان عبداً ما ساوى سبعين درهما . وقيل إنه كان دهريا ، وإنما كان يتلاعب بالنصرانية . قال أبو المظفر : وكان السلطان الملك الكامل قد أمر القاضى شمس الدين قاضى نابلس بأن يقول للمؤذنين ــ ما دام الأنبرور فى القدس ــ لا يصعدوا المنابر ، وإنما يؤذنون فى الحرم . فسها[2] القاضى عن ذلك ، ولم يقل للمؤذنين شيئا[3] . فصعد فى تلك الليلة عبد الكريم المؤذن ــ وكان حسن الصوت لذيذ النغمة ــ وسبّح وقت السحر ، وجعل يقرأ الآيات المختصة بالنصارى[4] ، مثل قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم »[5] . وقوله تعالى : « ما اتّخذ الله من ولدٍ »[6] ، وما أشبه ذلك من الآيات الشريفة . فلما طلع الفجر أذّن ونزل ، فاستدعاه القاضى وقال : « يا عبد الكريم ماذا الذى صنعت ؟ السلطان رسم بكيت وكيت » . فقال : « ما عرفتنى بشىء . والتوبة » . فلما كانت[7] الليلة الثانية لم يصعد عبد الكريم المئذنة ، ولا تكلم . فلما كان باكر النهار ، طلب الأنبرور القاضى ، وقال : « ياقاضى أين ذاك الذى كان البارحة وذكر ذلك الكلام الحسن ؟ » . فقال القاضى : « مرسُوم السلطان لنا بكيت وكيت » . وعرفه ما وقع من السهو فى ذلك . فقال الأنبرور : « لقد أخطأ ياقاضى . تغيرون أنتم شعائركم وشرعكم ودينكم لأجلى ؟ . فلو كنتم عندى فى بلادى كنت أبطل ضرب الناقوس لأجلكم ؟ الله الله لا تفعلون ذلك » . ثم إنه فرق على القوام والمؤذنين والمجاورين جملة كبيرة ، وطلب عبد الكريم المؤذن وأعطاه مائة دينار . ولم يقم بالقدس غير ليلتين ، وعاد إلى يافا ، وخاف من الديوية ، فإنهم أرادوا قتله .

(١) فى المتن : « مسلم » .
(٢) فى المتن : « فسهى » .
(٣) فى المتن : « شىء » .
(٤) فى المتن : « النصارا » .
(٥) سورة آل عمران ، آية ٥٩ .
(٦) سورة المؤمنون ، آية ٩١ .
(٧) فى المتن : « كان » .

قال ابن واصل فى تاريخه : أن لما تسلم الأنبرطور القدس الشريف رسم الملك الناصر داود لشمس الدين سبط الشيخ جمال الدين بن الجوزى أنه يصعد المنبر ويعزى الناس على عهد الكامل بسبب تسليمه القدس للفرنج ، ليجتمع(١) الناس على معاضدة الناصر داود على عمه الملك الكامل . قال : فصعد وجلس للوعظ ، وذكر مناقب صلاح الدين فى تطهيره للقدس الشريف من الفرنج، ولوّح بما صار إليه فى ذلك الوقت وأنشد قصيدة ، منها يقول :

على قبة المعراج والصخرة التى تفاخر ما فى الأرض من صخرات
مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحىٍ مقفر العرصات

قال : فلم ير ذلك اليوم إلا باكٍ وباكية .

وفيها اشتد الحصار على دمشق وألجأت الضرورة أن الناصر داود خرج إلى عمه السلطان الملك الكامل ، وأعطاه الكرك وعجلون والصلت ونابلس والقدس وقلعة الخليل ، صلوات الله عليه ، وأخذ منه الشوبك . وتسلم السلطان الكامل دمشق فى شهر ربيع الأول من هذه السنة . ثم سار السلطان إلى مدينة حماه وانتزعها من الناصر قليج أرسلان ، وأعطاها لأخيه الملك المظفر تقى الدين محمود ، وهو شقيق الناصر قليج أرسلان ، وهما أبناء أخت السلطان الملك الكامل ، ولدى الملك المنصور محمد بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب .

وفيها توجه الملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبو بكر ابن أيوب إلى الكرك ، وأقام الأشرف موسى بدمشق، وملكها له أخوه ، فدخل عليه ابن عُنين الشاعر(٢) وامتدحه . فلم يتفق عنده كما كان عند المعظم . وكان

---

(١) فى المتن : « ليجتمعوا » .

(٢) هو أبو المحاسن محمد بن نصر الدين، الملقب شرف الدين ، الدمشقى المولد، توفى سنة ٦٣٠هـ (انظر وفيات الأعيان لابن خلكان) .

ابن عُنين هجاء خبيث اللسان ، فشرع يفعل عنده ما كان يفعله فى مجالس المعظم ، فنهره الأشرف ، فخرج من عنده مكسورا فقال :

وكنا نُرجِّى بعد عيسى محمداً   لينقذنا من شدة الضُّرِّ والبلوى
فأوقعنا فى تيه موسى كما ترى   حيارى[(١)] فلا منّ لديه ولا سلوى

فبلغ الأشرف ، فغضب، وأمر بقطع لسانه . فدخل عليه جماعة ، فحلف لابد من قطع لسانه ، فحلفوا له أنه لم يقل هذا ، وإنما الأعداء تَقَوَّلوا عليه . فقال الأشرف : « هذا ما يسلم أحد[(٢)] من خبث لسانه ، ولا بد من قطعه » . فهرب ابن عنين إلى بلاده بزرع وحوران ، وتغافل الأشرف عنه .

وفى أول شهر ذى القعدة راسل السلطان جلال الدين الإمام المستنصر بالله ، وسأله أن ينعم عليه بلباس الفتوة . وذلك أن جلال الدين كان قد قصد مشهد الإمام على رضى الله عنه . وكان نقيب الفتوة يومئذ الجلال عبد الله بن المختار ، فاجتمع به ورغبه فى ذلك . فأجاب الخليفة سؤاله ، ووكل الإمام المستنصر بالله فخر الدين أبا طالب أحمد ابن الدامغانى[(٣)] فى الفتوة ، ونفّذ معه الشيخ شمس الدين عبد الرحمن بن شيخ الشيوخ . وسيّر معهما التشاريف والخلع ، وأصحبهما بالأمير سعد الدين بن الحاجب على ، فوصلوا إلى السلطان جلال الدين وهو على أخلاط محاصراً لها، فألبسوه الفتوة وتشاريف الخلافة ، ودخل تحت الطاعة .

وفيها قصد ملك بكران[(٤)] وبلاد سيف[(٥)] ، البحر وركبه ، وقصد جزيرة

---

(١) فى المتن : « حيارا » .

(٢) فى المتن : « أحداً » .

(٣) فى المتن : « الدمغانى » .

(٤) كذا فى المتن ، وربما المقصود «مكران» وهى على فم بحر فارس من غربيه (أبو الفدا ، تقويم البلدان) .

(٥) بلاد سيف : بلاد مطلة على سواحل بحر فارس منها سيف بنى زهير ، وسيف بنى الصفار ، وسيف آل المظفر (ياقوت ، معجم البلدان) .

قيس التى تعرف بكيش[١] ، وكان فى جمع كثير من المقاتلين ، ونازلها ، وملكها ، وغنم منها أموالاً عظيمة ، ما لا يقع عليه الحصر . وولى عليها رجلا[٢] من خاصته ؛ ورحل عنها .

وفيها توفى الملك المسعود أقسيس بن السلطان الملك الكامل صاحب اليمن . وكان لما بلغه موت عمه الملك المعظم فى سنة خمس وعشرين طمع فى الشام ، وفعل أقبح فعل ، لم يسبقه إليه أحد من الملوك . وذلك أنه نادى فى بلاد اليمن فى جميع التجّار : « من أراد السفر صحبة السلطان إلى الديار المصرية والشام فليتجهز ليأمن من الحقوق الموجبة عليه » . فجاءت التجار من الهند والسند بأموال الدنيا ، من كل صنف عجيب . فلما تكاملت التجار فى زبيد ، أمرهم أن يكتبوا له سائر ما معهم ، وقال: «إنما القصد حمايتكم من الزكاة بالديار المصرية» . فكتبوا له جميع ما معهم، فصار يكتب لكل تاجر رأس ماله ، وأخذ الباقى باليد عسفا، فأجموا[٣] التجار رأيهم ، واجتمعوا ببابه ، واستصرخوا ، وقالوا : « نحن قوم من بلاد شتى ، ولنا سنين عن أهالينا ، فكيف تأخذ أموالنا ؟ » ، فلم يلتفت إليهم . قال أبو المظفر : بلغنى أن كان ثقله فى خمسمائة مركب ، ومعه ألف وسبعمائة خادم ، ومائة قنطار عنبر خام ، ومائة قنطار عود قاقلى ، ونوافج مسك ، وبرانى مسك ، ومائة ألف ثوب حرير ، ومائة صندوق من الجواهر والأموال . ثم ركب الطريق إلى مكة ــ شرفها الله تعالى ــ فمرض فى الطريق مرضا شديدا ، فما دخل مكة إلا وقد انفلج ، ويبست يداه ورجلاه ، ورأى فى نفسه العبر . فلما احتضر ، بعث إلى رجل مغربى من المجاورين بمكة ، وقال له : « والله ما أرضى لنفسى من جميع ما معى كفنا أتكفن فيه ، فعسى تتصدق علىّ بكفن » . فأرسل إليه نصفيتين ومائتى درهم ، ودفن فى المعلى . وقيل : إن الهواء ضرب بعض المراكب ، فعادت إلى زبيد ، فأخذوها[٤] أصحابها.

---

(١) جزيرة قيس أو كيش جزيرة فى بحر عمان تشتهر باللؤلؤ ، وكانت مرفأ مراكب الهند وبحر فارس (ياقوت، معجم البلدان) .

(٢) فى المتن : « رجل » .

(٣ــ٤) كذا فى المتن .

قال أبو المظفر : وسر الملك الكامل بموته . ولما حضر خازنه إلى بين يديه ، ماسأله كيف مات ، بل قال : « كم معك من المال والتحف » . وكان هـذا الملك
٣ المسعود أقسيس ، رجل مجنون ، عديم الدين ، وفعل فى الحرم الشريف قبل ذلك أفعالًا[١] قبيحة ، من جملتها أنه كان يرمى الطيور التى فى الحرم بالبندق فى وسط[٢] الحرم الشريف ، مع أشياء لايطاق سماعها ، فعوقب ، ولم يمهل . فنعوذ بالله من
٦ الاعتقاد الفاسد ، والتجاسر على المحارم ، والتعرض إلى ما نُهى عنه ، والتخلى عما أمرنا به . ونسأله العافية فى الدين والدنيا والآخرة .

---

(١) فى المتن : « أفعال » .
(٢) فى المتن: « وصط » .

ذكر سنة سبع وعشرين وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم ذراعان فقط. مبلغ الزيادة ثلاثة عشر ذراعا وثلاثة وعشرون أصبعا.

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين . والوزير ابن العلقمى بحاله . والملوك حسبما ذكرناه فى السنة الخالية من ممالكهم ، كل منهم بحاله .

وفيها ملك السلطان جلال الدين أخلاط ، وفيها إخوة السلطان الملك الكامل فخر الدين وتقى الدين ، مع أهل الملك الأشرف ، بعد حصار شديد . وأكل أهلها الميتة ، وأبيعت قطعة من جلد بألف درهم . وكانت[1] مدة إقامته عليها عشرة أشهر ، ثم دخلها بالسيف عنوة ونهبها ، وأسر الملكين ، والكرجية زوجة الأشرف ، ودخل بها من ليلته .

هذا والسلطان الملك الكامل كان بحران ، ثم إنه نزل الرقة ، وبلغه خبر أخذ أخلاط فيها . وبلغ الملك الأشرف ذلك وهو بدمشق، فخرج على وجهه حتى أتى الرقة. وكتب صاحب الروم الملك كيقباذ إلى الملك الأشرف يقول : « تحضر إلى عندى لنتفق على هذا الذى أخرب البلاد وأهلك العباد ، فعندى المال والرجال » . فشاور الأشرف الكامل على ذلك ، فقال : « مصلحة » . ورجع الملك الكامل قاطعاً[2] الفرات[3] فى سبعة آلاف فارس ، طالبا إلى ديار مصر . وسار الأشرف إلى حران فى سبع مائة فارس ، وعدوه السلطان جلال الدين خوارزم شاه . فأقام بحران ، وكتب إلى حلب وإلى الموصل والجزيرة ، فجاءته العساكر . ورحل يريد الروم وصحبته أخويه شهاب الدين غازى والملك العزيز عثمان ، وكذلك الملك الجواد وشمس الدين

(١) فى المتن : « وكان » .

(٢) فى المتن : « قاطع » .

(٣) فى المتن : « القراة » .

صواب ، وبقية الأمراء الكبار . ووصل إلى الروم واجتمع بصاحبه الملك كيقباذ . قال أبو المظفر: حكى لى الأمير عمادالدين بن مُوسك ، قال : لما وصلنا إلى الروم، خرج إلينا عسكر أرزنكان[١] فى اثنى عشر ألف فارس ، فكان نجدة لنا . ونزلوا فى مرج يستريحون ، وقد أرموا سلاحهم، وأطلقوا خيولهم للمرعى. فمرّ بهم الخوارزمى ــ وهو السلطان جلال الدين ــ ولم يعلموا به ، فهجم عليهم فقتلهم وأسرهم ، ولم ينج[٢] منهم إلّا القليل . وضعفت قلوب الناس لذلك . قال : وأقمنا مكاننا إلى عشية يوم الخميس ، فوصل قاصدنا ، وأخبر أن العدو يخرج علينا صباح يوم الجمعة . قال : فرتبنا العساكر والشاليش فى الأول ، ثم العرب ، ثم الحلبيين ، ثم شمس الدين صواب ، ثم الملك الجواد ، ثم العزيز عثمان وشهاب الدين غازى . ثم تبعنا أطلاب الروم ، وكيقباذ فى الطلب الخاص ، والملك الأشرف فى الطلب الخاص أيضا . قال: وكنا فى أرض وعرة ، فخرجنا إلى أرض سهلة وطئة ، وإذا بطلائع جلال الدين الخوارزمى وقد طلعت . قال : فالتقوهم العرب وكسروهم، وأخذوا منهم مائة فارس ، وقتلوا مائة أخرى . ولم يتقدموا إلينا ، ونزلوا ونزلنا ، وبيننا وبينهم جبل عظيم . وخفنا خوفا عظيما . وليس معنا ماء ولا زاد ولا علف لدوابنا. فقال الأشرف: «أين المفر؟ ». فلما كان وقت السحر ــ قبل طلوع الشمس ــ أمر جلال الدين الخوارزمى لمن بقى من عسكر أرزنكان فكانوا نيف وخمسمائة نفر ، فضرب رقابهم . فلما كان بكرة يوم السبت ثامن شهر رمضان المعظم ، قطعوا إلينا الوادى ، ووقف الخوارزمى على رأس الجبل ، وسنجقه فى الوادى. ووقع القتال ، فأرسل الله تعالى ضبابا ، فلم ير أحد[٣] كفه ، ووقعت الكسرة على جلال الدين الخوارزمى وجيشه ، ونصرنا الله عليهم ، وولوا منهزمين ، ووقع بعضهم

(١) فى المتن : « أرزكان » ؛ جاء فى معجم البلدان لياقوت أن أرزنكان ـ أو أرزنجان بلدة مشهورة من بلاد أرمينية بين بلاد الروم وخلاط ، قريبة من أرزن الروم .

(٢) فى المتن : « لم ينجا » .

(٣) فى المتن : « أحداً » .

فى الوادى من قوة الضبـاب ، ما رأوه . وأصبحوا ما بين أسرى[1] وقتلى . وغنم المسلمون ـ منا ومن الروم ـ جميع أموالهم وأثقالهم وخيلهم وسلاحهم ، وامتلأت تلك الأودية من قتلاهم . وقال الأشرف لصاحب الروم : « لابد لى من أخلاط » ، فأعطاه ولأصحابه من الأموال والخيل والنجب والقماش ماقيمته ألفى ألف دينار. ورجع الرومى إلى بلاده . وجرد من الملك الأشرف بعض عسكره ، فنزل أرزن[2] الروم ، وكان صاحبها مع جلال الدين ، فأخذها الأشرف منه ومسكه ، ونفذه إلى صاحب الروم ، وسلم أرزن إلى نوابه . وسار إلى أخلاط . ولما وصل الخوارزمى مكسورا إلى أخلاط أخذ جميع ما كان له فيها ، والكرجية [زوجة الأشرف] ، وإخوة السلطان ونزل على أرجيش[3] . وجاء الأشرف إلى أخلاط ، وسار خلف الخوارزمى ، فأبعد عنـه . وتراسلوا ، واصطلحوا على أن الخوارزمى يطلق من عنده من الأسرى[4] ، فأطلق إخوة السلطان ، وبعث بهما إلى الإمام المستنصر بالله ، فأنعم عليهما الخليفة ، وأرسلهما إلى أخيهما مع رسول من جهته . وأقام الأشرف شهراً ، ثم عاد إلى أخيه الكامل ودخل مصر . وتسلم أخلاط شهاب الدين غازى بعـد أخذها من نواب الخوارزمى . وترك الطواشى شمس الدين صواب بحـران والرها .

وفى شوال سيّر السلطان الملك الكامل الطغتكين واليا على مكة ، شرفها الله تعالى.

وفيهـا بعث الأشرف أخاه الملك الصالح إسماعيل المعروف بأبى الخيش إلى بعلبك وحاصرها ، وصاحبها الملك الأمجد . ثم قدم الأشرف بنفسه إليها . ثم دخل بينهما فى الصلح الصاحب صفى الدين . وأخذت بعلبك من الملك الأمجد . ثم إنه قتل بعـد ذلك بخمسة أشهر ، قتله مملوك له . ثم إن ذلك المملوك رمى بنفسه من أعلى القصر فهلك . وكان مدة مملكته ببعلبك تسع وأربعين سنة ، ملكها سنة ثمان وسبعين وخمسمائة . وكان جيد الشعر حسنه .

(١) فى المتن : « أسرا » .

(٢) فى المتن : « أزرف » .

(٣) أرجيش ، بالفتح ثم السكون وكسر الجيم : مدينة قديمة من نواحى أرمينية الكبرى قرب خلاط ، وأكثر أهلها أرمن نصارى (ياقوت ، معجم البلدان) .

(٤) فى المتن . « الأسرا » .

ذكر سنة ثمان وعشرين وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

المـــاء القديم ذراع واحد ونصف أصبع . مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا وعشرة أصابع .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين . والوزير ابن العلقمى . والسلطان الملك الـكامل بالديار المصرية . ووصل الملك الأشرف وصحبته صاحب الجزيرة إلى القاهرة المحروسة .

وفيها كانت كسرة جلال الدين من التتار . وقُتل ، وانقطع سلطانه . وسبب ذلك أن التتار لما بلغهم كسرة جلال الدين من الأشرف وصاحب الروم ، طمعوا فيه ، وطلبوه وقصدوا توريز . فانهزم منهم إلى ديار بكر . وكان قد استحلف صاحب آمد أنه يفتح له الباب إذا حصره[1] التتار ، ويكون ظهراً له ، فجاء إلى آمد ، فغلقوا فى وجهه الباب ، ورموه بالحجارة من فوق الأسوار ، فأخذ على وجهه . هـــذا بعد ما كسره[2] التتار فى شهر شوال من هذه السنة ، وهى الـكسرة التى لاجبر لها ، بعد عدة وقائع قد تقدمت أخبارها بحكم التلخيص . ووصل الخوارزميون مكسورين[3] من التتار ، وخرج عسكر حران والرُّهَا ، وقاتلوهم ونهبوهم .

وأما جلال الدين فإنه وصل إلى أطراف الجبال ، فوصل إلى قرية من أعمال ميافارقين ، فطلبه[4] التتار من شهاب الدين غازى ، فقال : « والله ماأعلم أين هو » . فقاتلوا ميافارقين أياما ، فلم يقدروا على شىء منها ، فعادوا إلى الفاضلية ، فقتلوا نيفاً[5]

---

(١) فى المتن : « حصروه » .

(٢) فى المتن : « ما كسروه » .

(٣) فى المتن : « مكسورون » .

(٤) فى المتن : «فطلبوه» .

(٥) فى المتن : « نيف » .

وعشرين ألف نفراً[1] من المسلمين وأحرقوها . وعادوا إلى أخلاط ، وكانت بوادر الشتاء قد أقبلت ، ووصلت طائفة منهم إلى نصيبين . وكان جلال الدين لما وصل إلى تلك القرية التى من عمل ميّافارقين وحده ، وليس معه غيره ، أنزله بعض الأكاريد[2] عنده ، وطمعت نفسه فى ما كان عليه من القماش ، فقتله عندما نام فى الليل . فبلغ المظفر شهاب الدين غازى ذلك ، فنفَّذ أحضر الكردى ، وأحضر قماش السلطان جلال الدين وفرسه ، وتأسف عليه ، وأمر بقتل جميع أهل تلك القرية كبيرهم وصغيرهم ، تأديبا لغيرهم ، بحيث لايعود أحد يجسر على الملوك . وانقطع ملك جلال الدين ، وتشتت الخوارزمية وتمزقوا كل ممزق .

قال المنشى[3] فى تاريخه ـ وهو مصنف سيرة السلطان علاء الدين وولده جلال الدين ـ : إن الذى ملكه السلطان جلال الدين بعد أبيه علاء الدين أربع مائة مدينة ، مثل خراسان وأصبهان وسمرقند وبخارا ، وأنظارهم ، فشرهت نفسه حتى قتله شرهه . وكان قد أساء السيرة فى آخر وقت ، وبدت منه أمور تلى إلى الجنون ، لابل هو الجنون بعينه . منها أنه كان له مملوك[4] يسمى قاشى[5] ، وكان يحبه محبة عظيمة ، فمات ذلك المملوك ، فحزن عليه حزنا شديدا حتى أخرجه عن حدّ الاعتدال . وأمر أن يُجعل فى تابوت وصُبّر . وكان يحضر تابوته على الطعام والخوان ، ويقول ساعة ساعة : « اطلبوا قاشى ! جيبوا قاشى ! » . ويسيّر إليه الطعام من قدامه ، والفاكهة والحلوى ،

---

(١) فى المتن : « نفر » .

(٢) الأكاريد ، جمع كردى .

(٣) فى المتن : « المنتشى » وهو تحريف ، والمقصود نورالدين محمد بن أحمد بن على بن محمد المنشى النسوى ، كان كاتبا للسلطان جلال الدين منكبرتى خوارزمشاه ، وأنجز كتابه هذا عن سيرة السلطان المذكور سنة ٦٣٧ هـ . (حقق هذه السيرة الأستاذ حافظ حمدى ونشرت فى القاهرة سنة ١٩٥٣) .

(٤) فى المتن : « مملوكا » .

(٥) ورد أمام هذه العبارة فى هامش الصفحة مانصه : « قرأت فى تاريخ ابن واصل أن اسم هذا المملوك قليج »

ولا يقدر أحد[١] أن يفوه بموته . فلما رأى كبار دولته ووزرائه ذلك علموا أنه خولط فى عقله ، فتخلى عنه كثير من جموعه .

وفيها كان الغلاء بمصر .

وفى خامس عشر شعبان أمَر السلطان الملك الكامل بحفر البحر الذى من دار الوكالة بمصر إلى صناعة التمر[٢] . واستعمل فيه الملوك والأمراء والعوام . وعمل هو بنفسه فيه . وكان البحر فى نقصه قد صار طريقاً من مصر إلى الجزيرة ، نخشى عليه من ردمه ، فاجتهد فيه ، وغرّق عدة مراكب ، وغرم جملة أموال ، حتى سلط البحر ، واستقر بين مصر والجزيرة .

وفيها نفَّذ ملك الكرج ــ المعروف بابن البهلوان ــ إلى الملك الأشرف ، بقصد اجتماع الكلمة على ملتقى[٣] التتار ، لما بلغه أنهم قاصدين نحوه ، فلم يحصل بينهما اتفاق لأمر أراده الله عز وجل فى تسليط هؤلاء القوم ، فلا مفر من حكمه .

وفيها كان وصول السترين الرفيعين فاطمة خاتون بنت الملك الكامل إلى زوجها الملك العزيز صاحب حلب، وغازية خاتون بنت السلطان الملك الكامل أيضاً إلى زوجها الملك المظفر صاحب حماه . وكان خروجهما صحبة ركاب السلطان لما توجه إلى بلاد الشرق . وكان لوصولهما همم عالية يقصر عنها الوصف ، فأضربت عنه لطوله ، وكون تاريخنا تاريخ تلخيص .

---

(١) فى المتن : « أحداً » .

(٢) كذا فى المتن ، وفى كتاب السلوك للمقريزى: « فيها شرع الملك الكامل فى حفر بحر النيل الذى فيما بين المقياس وبر مصر ، وعمل فيه بنفسه » (السلوك ج ١ ص ٢٤١) .

(٣) فى المتن : « ملتقا » .

ذكر سنة تسع وعشرين وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم ثلاثة أذرع وثمانية أصابع . مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا فقط .

مالخص من الحوادث

الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين. والوزير ابن العلقمى بحاله. والسلطان الملك الكامل سلطان الإسلام . وسائر الملوك حسبما تقدم من ذكرهم، خلا السلطان جلال الدين الخوارزمى ، فإن ملكه زال . فسبحان من لا يزول ملكه ولا تغيره الليالى .

وفيها – فى شهر المحرم – وصل(١) رسل الخليفة الإمام المستنصر بالله ، وهما الأمير عز الدين أبقرا(٢) ونجر الدين رفيقه ، واجتمع بهما السلطان عند وصوله من ثغر الإسكندرية ، وخرج إلى لقائهما فى الحراقة إلى شُبرا ، بسبب وجع رجله . وألبسوه التشريف اللائق بمثله على عادته ، وأركبوه فرسا أشهبا منعولا بالذهب الأحمر ، وسيفين مجوهرين ، وثلاثة أخر للسلاح دارية ، وترس مرصّع بأنواع الجواهر . وكذلك لكل واحد من أولاده خلعة مزركشة ، وسيفا محلاه ، ومركوبا حسنا . وخلع كثيرة للأمراء الكبار بالدولة . وظنوا أن له وزيرا فسيّر إليه خلعة سنية ، وبغلة ، ودواة ، فقال السلطان : « ليس لى وزير » ، فحمل ذلك إلى خزانته .

وفى هذه السنة اجتمع بباب السلطان من الرسل من سائر أقطار الأرض ما لم يجتمع بباب ملك قبله ؛ وهم رسل الخليفة ، ورسل صاحب الموصل ، ورسل صاحب الكرج ، ورسول صاحب حلب ، ورسول صاحب حماة وحمص ، ورسل ملك الهند ، ورسل الإفرنج ، ورسول صاحب شيراز، ورسول صاحب جزيرة الأندلس، وغيرهم .

---

(١) فى المتن : « وصلوا » .

(٢) كذا فى المتن ، وفى السلوك للمقريزى (ج ١ ص٢٤٣) : « عز الدين بيقرا ونجر الدين ابن الدامغانى » .

فأحضر الجميع فى يوم واحد ، وكان يوما مشهودا . ثم عقب رسل الخليفة الشيخ بهاء الدين [اليزدى][١] ـ شيخ رباط الأخلاطية ـ من بغداد فى جماعة من النجابين ، يحثون السلطان على الغزاة للتتار .

وفى ثامن عشر جمادى الآخرة توجه السلطان الملك الكامل طالبا للشام بنية الغزاة للتتار ، وجعل نائبه بالديار المصرية ولده الملك العادل . وفى تاسع جمادى الآخرة توجه الأمير فخر الدين إلى مكة ـ شرفها الله تعالى ـ ودخلها خامس شهر رمضان المعظم بالسيف عنوة . وهرب راجح ، وقتل جماعة من أقاربه . وقتل من كان بها من العسكر اليمنى .

وفى سادس عشرين ذى الحجة ملك السلطان الملك الكامل آمد، وأخذ صاحبها منها، وملّكها لولده الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وفى ثامن عشر ذى الحجة توفى فخر الدين عثمان [بن قزل][٢] أستادار السلطان ، وكانت وفاته بظاهر حرّان .

وفيها ملك بدرالدين لؤلؤ ـصاحبالموصلـ قلعة سوس، وكانت لتقى الدين زنكى ابن نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن مظفر الدين مودود بن عماد الدين زنكى بن آق سنقر ، صاحب الموصل قديما . ولما ملكها عظمت كلمته ، وقمع أولاد أستاذه ، واستقام له الملك ، ونعت نفسه الملك الرحيم . وبعث إليه الخليفة تقليدا بالملك . ولم يزل ملكا حتى أخذت التتار بغداد ، ودخل تحت طاعة هلاوون ، واستولى على عدة ممالك من العراق والجزيرة . حكى لى والدى ـ رحمه الله ـ عن مخدومه الأمير سيف الدين بلبان الرومى الدوادار ـ رحمه الله ـ قال : كان لما تحكمت التتار على البلاد ،ودخل بدر الدين مملوك لؤلؤ صاحب الموصل تحت طاعة هلاوون ، كان له مملوك يسمى أيان ـ أرمنى الجنس ـ وكان له عندهمزية كبيرة . قال أيان : فبلغ

(١) مابين حاصرتين إضافة من السلوك للمقريزى (ج ١ ص ٢٤٣) .

(٢) مابين حاصرتين إضافة من السلوك للمقريزى (ج ١ ص ٢٤٤) .

الرحيم بدر الدين لؤلؤ أن الوزير خواجا رشيد ــ وزير هلاوون ــ يسعى فى تغيير خاطر هلاوون عليه ، فقال بدرالدين: «والله لأقتلنه ولأمكنّ أُذن هلاوون بيدى». قال أيان: فلما سمعت ذلك وكنت أدل عليه بالكلام، فقلت: «سبوح قدوس». فالتفت إلىّ وقال: « سوف تنظر ذلك بعينك يا أرمنى نجس » . قال : وكان عنده رجل يُعرف بالصوفى ، وكان أوحد أهل زمانه فى المنادمة وأخبار الناس. فقال له بدر الدين: « تتوجه إلى الأردوا، وتتوصل إلى صحبة خواجا رشيد، فإذا ملكته بحلاوة منادمتك. أنا أعلم أنه يقبل عليك. وتتفق عنده وهو رجل شره النفس فى المآكل ،ويحب الفواكه يجنيها من على شجرها على الندوة. ولابد أن تسير معه فى بعض البساتين . فخذ هذه الثلاث إبر معك ، واجتهد إن تشكّهم فى بعض ما يتداوله منك من الفاكهة . فإذا علمت أنه حصل فى أمعائه[1] من تلك الفاكهة ــ ولو ثلاث ــ فقد حصل الغرض ، فتوجه إلينا فقد جعلت لك البريد فى سائر الطرقات حتى تصل إلى عندى إن شاء الله سالما».

قال : فكان الأمر كذلك ، ووصل الصوفى عائدا بعد أن قضى الشغل فى الخواجا رشيد . ووردت الأخبار بعد ذلك بموته . فقال بدرالدين لؤلؤ لمملوكه أيان : « كيف رأيت ؟ » . فقال: « أمّا قتل الوزير فقد صح لك . فكيف تمسك أُذن هلاوون؟ » . فقال : « سوف تنظر يا أرمنى نجس » . ثم إن بدر الدين تجهز وتوجه إلى خدمة هلاوون ، وأخذ صحبته من الزراكش والمصاغات والملابس وما أشبه ذلك للخواتين . واستصحب معه ماشِطتَين حذاق بزينة النساء ، وتقديمهما إلى خواتين المغل من الأمراء الكبار ، ومعهما لكل واحدة من ذلك الزركش والمصاغ والقماش والزينة مايليق بها. وأصلحوهن المواشط وزينوهن أحسن زينة، ولبسوهن ذلك القماش المذكور، فعادوا كأنهن البدور الطلّع . ونظروا وجوههن فى المرآة فأعجبهن أنفسهن . وخرجن لأزواجهن فقالوا : « ما هذا المليح؟ » . فقلن: «بدر الدين لؤلؤ» . فأعجب أزواجهن ذلك كل الإعجاب ، وشكروا بدر الدين عند هلاوون شكراً كثيراً .وكذلك خواتين هلاوون ، وولده أبغا ، ومنكتمر . قال أيان : فحضر بدر الدين بين يدى هلاوون ،

(١) فى المتن : « معاه » .

فقربه ، وأخلع عليه ، وأجلسه فوق من عادته . فقام إليه منكتمر بن هلاوون ، وضرب قدامه جوك ، وناوله هناب مشروب . فقام بدر الدين وتناوله ، وقبل يده ، وأخرج له زوج حلق فيهما جوهرتين فجعلهما فى أذنه . فقام بعده أبغا أخوه ، وفعل كذلك ، فأخرج له زوجا(١) آخر أحسن من الأول ، وجعلهما فى أذنه . فقال هلاوون: « يابدر الدين هؤلاء الشباب لهم هذا وأنا؟ » . فقام بدرالدين وقبل الأرض، وأخرج زوج يشعل كالشمس ، لا قيمة له . وتقدم إلى هلاوون وجعل رأسه على فخذه ؛ وعاد يعمك فى أذنه وينظر إلىّ . فقال هلاوون : « أباه ! أباه ! » . فقال بدر الدين : « الله يحفظ(٢) القان، إنما فعلت هذا حتى يخدر ويجوز الحلقة من غير ألم » . ثم ركب الحلق فى أذنه بعد معكهما مَعْكاً جيداً . قال أيان : فلما عدنا من عنده مكرمين(٣)، قال لى : « كيف رأيت ياأرمنى ؟ » . قلت : « والله ما يخلفك الزمان أبدا » .

قال ابن واصل فى تاريخه : فى هذه السنة كانت صلة الملك الناصر داود بن المعظم صاحب الكرك بعمه الملك الكامل وزوّجه بابنته عاشورا خاتون وهى شقيقة الملك العادل سيف الدين أبى بكر .

قال : وفيها كان توجه السلطان الملك الكامل والملك الأشرف(٤) أخوه إلى بلاد الشرق من الديار المصرية ، وملكا مدينة آمد من صاحبها وهـــو الملك المسعود ابن الملك الصالح محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن سقمان بن أرتق . وذلك لما بلغ الملك الكامل ما كان عليه من قبح السيرة وتعرضه لحرمة الناس وارتكابه المحارم .

واستصحب الملك الكامل معه فى هذه السفرة ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ورسم له بالإقامة ببلاد الشرق ، وأقام الملك العادل بالديار المصرية عناية به ، لمحبته أمه ، ومحلها من قلبه(٥) .

(١) فى المتن : « زوج » .

(٢) فى المتن : « يحفش » .

(٣) فى المتن : « مكرومين » .

(٤) فى المتن : « السلطان الملك . . . أخوه » والتصحيح من مفرج الكروب لابن واصل، حوادث سنة ٦٢٩ هـ .

(٥) ذكر ابن واصل (مفرج الكروب، حوادث سنة ٦٢٩ هـ) أن أم الملك العادل كانت أحظى الناس عند زوجها السلطان الكامل .

ذكر سنة ثلاثين وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم أربعة أذرع وعشرون أصبعا . مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا وعشر أصابع .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين. والوزير ابن العلقمى بحاله. والسلطان الملك الكامل ببلاد الشرق .

وفى تاسع وعشرين شعبان توفى صاحب إربل ، وتسلمها — وجميع حصونها وقلاعها — نواب الخلافة .

وفى شهر صفر وصل راجح صاحب مكة ، وصحبته عسكر كثيف من اليمن ، وعدتهم ستمائة فارس وأربعة آلاف راجل ، مع خلق كثير من عربان الحجاز . فلما تحقق الأمير فخر الدين وصولهم ، خرج بأصحابه من مكة سالما ، وتحصّن بالينبع ، وتسلم راجح مكة سِلْما .

وفيها عاد السلطان الملك الكامل إلى الديار المصرية بعد ما رتّب بالشرق ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب ومعه الأمير شمس الدين صواب ، وهو الحاكم فى البلاد الشرقية، لأنه كان أكبر الخدام العادلية، وأوثقهم عنده. وأقام الملك الأشرف بدمشق. ورجع كل ملك إلى بلده ، وأقام الكامل بالديار المصرية .

وفى شوال منها قدم الملك الناصر داود صاحب الكرك إلى خدمة عمه الملك الكامل بالديار المصرية وصحبته جماعة من العلماء ، وأقام إلى آخر هذه السنة .

وقدم علاء الدين أقسنقر الزاهد وتوجه إلى مكة ، شرفها الله . ووصل إلى

فخر الدين بن الشيخ وهو بالينبع وصحبته الطغتكين ، واجتمعوا يداً[١] واحدة ثم قصدوا مكة . فلما علم بهم راجح ، والعسكر اليمنى ، خرجوا منها سالمين ، وتولاها قطب الدين بن مجلى فى ذلك التاريخ .

وفى تاسع عشر رمضان سلطن السلطان الملك الكامل ولده سيف الدين أبو بكر ، ولقبه العادل . وركب وشق القاهرة فى دست الملك ، وكان نهارا مشهودا .

وفيها ظهر نور عظيم من السماء ، فكان يُرى مستطيلا عن يسار مطلع الشمس ، ويُرى فى أواخر الليل . فقال المنجمون إنه كوكب له ذؤابة طويلة .

وفيها غلت الأسعار ببغداد ، حتى بلغ ثمن الكر[٢] من الحنطة نيف وثمانين دينار ، والشعير خمسة وأربعين دينار . وغلت جميع الحبوب ، فأخرج الخليفة فى كل يوم مائة كر من أربعة أصناف الحبوب . فرخصت الأسعار قليلا . ومن جملة ماحُكى أن أهل بغداد من العامة لما غلا السعر كتبوا أوراقا ورموها بدار الخلافة ، فيها مكتوب : « وحياة فضة وحجر الدوادار ، افتح لنا المنابر[٣] وأرخص لنا الأسعار » ، فقيل إنه كتب على رأس رقعة منهم : « وإنه لقسم لو تعلمون عظيم »[٤] . ثم أمر بإخراج الغلال حسبما ذكرناه ، والله أعلم .

وفيها توفى الملك المعظم مظفر الدين كوكبورى بن زين الدين على كوجك صاحب مدينة إربل . وكان ملك إربل بعد وفاة أبيه على كوجك المتحكم فى الدولة الأتابكية وصرف عنه المُلك إلى أخيه . ولما ظهر أمر السلطان صلاح الدين التجأ إليه ، فملّكه ، وجمع له بين الرها وحران . ثم توفى زين الدين يوسف صاحب إربل ، فنزل مظفر الدين عن ما كان بيده ، ويُعوض إربل . واستمر بها إلى هذه السنة ، فتوفى إلى رحمة الله تعالى . هذا ما ذكره ابن واصل فى تاريخه .

(١) فى المتن : « يد » .
(٢) الكر ، وجمعه كرار وكرور : مكيال للعراق (القاموس المحيط) .
(٣) كذا فى المتن ولعله يقصد الأنبار : بيت التاجر الذى يجمع فيه الغلال . والأنبار أيضا أكداس البر ، ومفردها نبر وجمعها أيضا أنابير (المعجم الوسيط) .
(٤) سورة الواقعة ، ٧٦ .

ذكر سنة إحدى وثلاثين وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم خمسة أذرع فقط ، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا وعشرة أصابع .

ماخص من الحوادث

الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين . والوزير ابن العلقمى بحاله . والسلطان الملك الكامل بالديار المصرية .

وفى مستهل صفر سافر السلطان إلى ثغر دمياط . وفى ربيع الأول وصل الملك الأشرف ، وخرج السلطان إلى لقائه فى البحر إلى الطينة[1] ، ولقيه من منزلة المطيلب[2] ، ودخلا إلى القاهرة المحروسة .

وفى جمادى الأولى برز المرسوم للعساكر بالتجهيز إلى الشرق ، ونفق فى الجيش كل جندى عشرين ديناراً مصرية ، وللخاصة وكبار جنده من الخمسين إلى الأربعين . وجاء حساب مبلغ ما نفقه ستمائة ألف دينار .

وفى ليلة السبت خامس شعبان توجه السلطان الملك الكامل وصحبته الملك الأشرف ووصل إلى [بـــلاد] الروم إلى النهر الأزرق[3] . ووصل إليه صاحب خرتبرت ، وسير معه بعض العسكر ، ودخلوا خرتبرت ، وكان معهم صاحب حماه . وحاصرهم صاحب الروم[4] ، وأخذ منهم جماعة قبل دخولهم خرتبرت .

قال ابن واصل فى تاريخه : إنه لم يجتمع للملك الكامل قط جيش مثل هذه النوبة ،

---

(١) الطينة : موضع بين الفرما وتنيس من أرض مصر ، شرق مدينة بور سعيد الحالية . (ياقوت ، معجم البلدان ؛ محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ق ١ ص ٨٠) .

(٢) ذكر القلقشندى المطيلب بوصفها مركزا من مراكز البريد بين دمياط والعريش (صبح الأعشى ، ج ١٤ ص ٣٧٨) .

(٣) النهر الأزرق : أحد روافد الفرات الأعلى ، ويجرى بين بهسنا وحصن منصور (ياقوت ، معجم البلدان) .

(٤) يقصد السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو السلجوقى ، صاحب بلاد الروم . انظر (المقريزى ، السلوك ، ج ١ ص ٢٤٧ ــ ٢٤٨) .

فكان فيه أربعة عشر دهليزا لأربعة عشر ملكا، منهم من جهة الملك العزيز صاحب حلب الملك المعظم فخر الدين توران شاه بن الملك الناصر صلاح الدين، وهو عم أبي الملك العزيز. والملك الزاهر مجير الدين داود بن الملك الناصر صلاح الدين ، وهو يومئذ صاحب البيرة . والملك المفضل موسى بن صلاح الدين ، وهو يومئذ صاحب سميساط . والملك صلاح الدين أحمد بن الملك الظاهر صاحب عين تاب . والملك المظفر شهاب الدين غازى صاحب ميافارقين . وأخوه الملك الحافظ نور الدين أرسلان شاه صاحب قلعة جعبر . والملك الأشرف شاه أرمن أخو الملك الكامل، وأخوه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل. وكان الملك العزيز قد توفى سنة ثلاثين وستمائة ، وملك بانياس وأعمالها ولده الملك الظاهر ، ثم توفى بعده بأيام يسيرة وولى الملك السعيد أخوه، وهو الذى كان قد حضر مع عسكر التتار ــ حسبما ذكر . وإنما أصابتهم عين فنفرت القلوب من بعضها بعض ، لما يريده الله عز وجل.

وفى شهر ذى القعدة وصل راجح بن قتادة مع عسكر من اليمن من جهة المظفر ابن رسول صاحب اليمن إلى مكة ــ شرفها الله تعالى ــ وخرج عنها ابن مجلى . وقتل راجح جماعة من أهل مكة وغيرهم (1) . ولم يصل فى تلك السنة إلى مكة من الحاج سوى الركب اليمنى لا غير .

وفى شوال أضيف إلى قاضى القضاة بلاد الساحل ، واستناب فيها من جهته .

وفيها قدم رسول الأنبرور ملك الفرنج على السلطان الملك الكامل ، ومعه هدية سنية ، وفى الجملة دب أبيض ، شعره مثل شعر الأسد ، وهو ينزل إلى البحر ويصيد السمك ويأكله . وكذلك طاووس أبيض . وديك قدر الجدى الكبير ، أخضر كأنه درة .

وفيها ألزم الملك الكامل للملك الناصر داود بطلاق ابنته ، وذلك لما توجس منه لما بلغه عنه من المواقعة للملوك عليه . وكان ذلك قبل دخولها عليه ووصولها إليه .

(1) انظر يحيى بن الحسين : غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، ص ٤٢١ .

ذكر سنة اثنتين وثلاثين وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

[الماء القديم خمسة أذرع سواء . مبلغ الزيادة ست عشر ذراعا وثلاث عشرة أصبعا](١) .

ما لخص من الحوادث

الخليفـة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين . والوزير ابن العلقمى بحاله . والسلطان الملك الكامل سلطان الإسلام ، وقد عاد من الشرق إلى مصر . وبقية الملوك بحالهم ، حسبما تقدم من ذكرهم .

وكان عود السلطان إلى الديار المصرية من الشرق فى جمادى الأولى . واحتاط على صاحب آمد واعتقله بالقاهرة . وكان سبب عودة السلطان سريعا إلى مصر لما بلغه أن الملوك اتفقوا عليه ؛ وهم الأشرف ، والناصر داود ، والأمجد صاحب بعلبك . فلما تحقق ذلك عاد إلى الديار المصرية مسرعا ، وقبض على صاحب آمد لاتفاقه معهم بمكاتباته لهم .

وفيها هدم الملك الأشرف خان ابن الزنجارى(٢) بالعقيبة بظاهر دمشق ، وبناه جامعا ، وسمى جامع التوبة ، لما كان يجرى فى هـذا الخان من الأمور القباح ، من ارتـكاب المحرمات والفسق والفجور .

وفيها توجه أسد الدين جغريل ـ أحد المماليك الـكاملية ـ وصحبته سبعمائة فارس إلى مكة ـ شرفها الله تعالى ـ ودخلها ، وهرب راجح بن قتادة ومن كان معه من العسكر اليمنى .

(١) مابين حاصرتين بياض فى المتن وقد أكملناه من النجوم الزاهرة لأبى المحاسن (ج ٦ ص ٢٩٢) .

(٢) فى المتن : « الزنجيلى » والصيغة المثبتة من مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى (ج ٨ ص ٤٥٩ ـ طبعة شيكاغو » ؛ وكذلك من شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى (ج ٥ ص ١٤٨) ؛ وكذلك من وفيات الأعيان لابن خلـكان ترجمة الملك الأشرف موسى بن الملك العادل (ج ٤ ص ١٧ : ٤) .

وفيها عهد السلطان الملك الكامل لولده نجم الدين أيوب ، ونعته الملك الصالح . ونزل دار الوزارة بالقاهرة المعزية . وكان مولد الملك الصالح فى سنة ثلاث وستمائة .

وفيها — فى ثالث ذى القعدة — سافر السلطان الملك الكامل متوجها إلى الشام ، وذلك عندما سمع بخبر صاحب الروم علاء الدين كيقباذ ، وقصده بلاد حران والرها ، وأخذه بعض قلاعها . ونزل السلطان على منزلة تل العجول ، وبعث نوابه إلى نابلس والقدس . ووصل إلى خدمة السلطان الملك الكامل الملك العزيز بن العادل ، وعرفه اتفاق الملوك عليه ، فحصلت بينهما المراسلة بقية هذه السنة .

وفيها توفى القاضى بهاء الدين بن شداد صاحب السيرة الصلاحية ، رحمه الله تعالى ، وذلك يوم الأربعاء الرابع عشر من صفر . وكان عمره نحو ثلاث وتسعين سنة ، لأن مولده فى سنة تسع وستين وخمسمائة . وكان بعد وفاة السلطان صلاح الدين فى خدمة ولده الملك الظاهر صاحب حلب ، ولم يزل عندهم العزيز المفدى . وبنى بحلب مدرسة جليلة وأوقف عليها أوقافا جيدة . واسمه بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم ؛ ولعل شداد الذى عرف به كان من أمه ، فإنه لم يكن فى نسبه لأبيه شداد ، وأصله من الموصل . وكان إقطاعه على السلطان ما يزيد على مائة ألف درهم فى السنة . ومات ولم يعقب .

وفيها ولد الملك المنصور جمال الدين محمد بن الملك المظفر تقى الدين محمود صاحب حماة ، الخامسة من يوم الخميس لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول .

ذكر سنة ثلاث وثلاثين وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم خمسة أذرع وسبعة عشر أصبعا . ودخلت سنة أربع وثلاثين والذى تنتهى إليه الزيادة يذكر فى سنة أربع وثلاثين ، إن شاء الله .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين . والوزير ابن العلقمى بحاله . والسلطان الملك الكامل سلطان الإسلام . واتفق الحال بينه وبين الأشرف ، لما بلغهما ما فعله صاحب الروم فى ممالكهما ، فإنه استولى على حران ، والرها ، والسويداء[1] ، وقطينا[2] ، أخذها ممن كان فيها من النواب مخامرة ، وباعوها له بيعا . وتوجه السلطان بالعساكر المصرية . وصحبته الملك الأشرف بالجيوش الشامية . فلما بلغ العسكر الرومى ذلك نزل فى القلاع من يحفظها من جهته ، ودخل بلاده . ثم نزل السلطان على حران وأخذها بالسيف عنوة ، فى الرابع عشر من ربيع الآخر . وأسر من كان فيها من العسكر الرومى ، وعدتهم سبعمائة وخمسة عشر نفراً ، فيهم جماعة من أمرائه ومقدميه . وفى نهار ثالث عشر جمادى الأولى فتح قلعة الرها عنوة بالسيف ، وأسر أيضا جميع من كان فيها من العسكر الرومى من الأمراء والمقدمين وغيرهم ، وعدتهم تزيد عن ثمانمائة نفر . وكذلك تسلم قلعة السويداء عنوة بالسيف ، وأسر أيضا من كان بها ، وذلك فى سابع عشر جمادى الآخرة ، وهدمها إلى الأرض ، وكذلك قلعة الرها . وفى رجب تسلم قلعة قطينا ، وأسر أيضا من كان بها . وفى التاسع عشر منه سيّر جميع الأسرى الذين أخذوا من تلك القلاع إلى الديار المصرية ، وعدتهم تزيد عن ثلاثة آلاف نفر .

---

(١) السويداء : بلدة مشهورة قرب حران بينها وبين بلاد الروم، كان أهلها نصارى أرمن فى الغالب (ياقوت ، معجم البلدان) .

(٢) قطينا : بلدة على نهر الزاب الأعلى ، شمالى الموصل .

ثم عاد السلطان إلى دمشق ، وسلم جميع بلاد الشرق لولده الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وفيها نزل السلطان على دُنيسر[١] . وكان العسكر الرومى قد أحرقها ، فبينما السلطان ينظر فى أحوالها ، إذ ورد عليه كتاب من الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، يعرفه أن التتار قد قطعوا دجلة فى مائة طلب ، كل طلب خمسمائة فارس ، ووصلوا إلى سنجار ، فخرج إليهم معين الدين بن مهاجر ، فقتلوه على باب سنجار . فرجع السلطان والملك الأشرف ، وقطعا الفرات إلى دمشق . ثم إن التتار رجعوا .

ولما عاد السلطان الكامل من الشرق ، كرّ صاحب الروم راجعا بعساكره ، ونزل على آمد وحاصرها . ووصل من عسكره شرذمة إلى بلاد حران وأخربوها ، وأخربوا بها دار العافية ، وأحرقوا عدة منازل بحران . وكان لما بلغ أهل حران بمجيء الروم إليهم ، خرجوا عنها ، وتبقى فى القلعة من يحفظها . ثم نزل الرومى بعسكره على آمد فى خامس ذى القعدة .

وفيها سير ابن رسول عسكرا كثيفاً من اليمن إلى مكة . وخرج إليهم الأمير أسد الدين جغريل[٢] الكاملى وكسرهم كسرة عظيمة ، وأخذ منهم جماعة كثيرة أسرى ، وسيّرهم إلى مصر .

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وستمائة ، وزيادة سنة ثلاث وثلاثين مستمرة . والذى انتهى إليه النيل المبارك من الزيادة يذكر فى سنة أربع .

---

(١) دنيسر : بلدة كبيرة من نواحى الجزيرة ، قرب ماردين (ياقوت ، معجم البلدان) .

(٢) فى المتن : « جغريل » ، انظر ما سبق ص ٣١٣ .

ذكر سنة أربع وثلاثين وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم استقر على سبعة أذرع . مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا وتسع أصابع .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين . والوزير ابن العلقمى بحاله .

وفيها توجه السلطان الملك الكامل إلى ثغر دمياط ، ثم إلى ثغر الإسكندرية فى وجهة واحدة . ووصل إليه ابن الجوزى رسولا من الخليفة ، واجتمع بالسلطان فى ثغر دمياط . وعاد ابن الجوزى إلى صاحب الروم ، وصحبته رسول من قبل السلطان ، وهو الفقيه عبد العظيم المحدث .

وفى شوال توفى صاحب الروم علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو السلجوق ، من قبل اجتماعه بالرسل المذكورين .

وفيها وصل الملك الناصر صلاح الدين داود بن الملك المعظم عيسى ، وتلقاه السلطان بنفسه إلى منزلة قطيا ، وزينت له مصر والقاهرة والقلعة ، وسلطنه السلطان . وركب من دار الوزارة إلى القلعة بالسناجق والسيوف . وحمل الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن السلطان الملك الكامل الغاشية ، راجلا عند ما ركب الملك الناصر . ثم حملها الأمراء بعده ، واحداً بعد واحد .

وفى تاسع عشر ذى الحجة زوج السلطان الملك الكامل المذكور ابنته الست عاشوراء من الملك الناصر المذكور .

وفيها مرض الملك الأشرف مرضة شديدة ، ثم عوفى .

وفيها سير السلطان الكامل الهيجاوى مع جماعة من الأمراء فى جيش كثيف إلى الساحل .

وفيها وقع الخلف بين الأشرف والسلطان الكامل؛ وذلك أن الملك الأشرف استخدم الخوارزمية الذين كانوا فى عسكر السلطان جلال الدين ، وقويت شوكته ،

فسير طَلَبَ من السلطان الرقة . وكان الملك الكامل لما عزم على أخذ الروم ، قال أسد الدين صاحب حمص للأشرف : « متى أَخَذَ الروم تعبنا به ، وبقينا بين يديه يقلبنا كيف شاء » ، فاتفقا عليه . وفهم الكامل منهما ذلك ، فعجل فى عودته إلى مصر ـ حسبما تقدم من الكلام . وبعث الأشرف يقول له : « أخذت الشرق منى وأعطيته لولدك . وقد افتقرت . وإيش هى دمشق إلا بستان ؟ ومالى فيها رزق » . فبعث إليه الكامل بعشرة آلاف دينار ، فردها الأشرف عليه ، وقال : « أنا أعطى هذه لأمير عندى » . فغضب الكامل وقال : « إيش يعمل الأشرف بالملك ؟ تكفيه عِشْرته المغانى ، وتعليمه صناعتهم » . فبلغ ذلك الأشرف فقال : « والله لأعرفنَّه قَدْره » . وأرسل إلى حلب وحماة وبلاد الشرق . واتفق الملوك معه على الأذية للكامل . وبلغ الملك الكامل فخاف خوفاً كثيراً(١) ، لما كان يعلمه من الأشرف . ولو استمرت حياة الأشرف سنة أخرى انفسد حال الكامل ، لكن إذا أراد الله أمراً بلغه . وكان هذا الخلف وقع فى أواخر هذه السنة . وتوفى الأشرف ـ رحمه الله ـ فى سنة خمس وثلاثين ، حسبما يأتى من ذكر ذلك فى تاريخه ، إن شاء الله تعالى .

ولما بلغ الكامل موت الأشرف سجد شكرا لله عز وجل ، وقال : « والله لقد كنت أيقنت بخروج المُلك عنى » . فقيل له : « لك من باب الموصل إلى باب اليمن ، فإيش كنت تلتفت به » . فقال : « دعوا هذا الكلام ، فإنه كان كريما شجيعاً(٢) ، وهاتان خصلتان(٣) ما معهما حديث » .

وفى شهر ربيع الأول من هذه السنة ، ولد الملك المغيث فتح الدين عمر بن العادل أبو بكر بن السلطان الملك الكامل .

وفيها توفى الملك العزيز بن الملك الظاهر [غازى] بن الملك الناصر صلاح الدين [يوسف] بن أيوب . وهو ابن بنت الملك العادل الكبير سيف الدين أبو بكر

(١) فى المتن : « خوف كثير » .
(٢) فى المتن : « كريم شجيع » .
(٣) فى المتن : « وهاتين خصلتين » .

ابن أيوب ، حسبما سقناه . ومات ولم يكمل أربع وعشرين[١] سنة . ووصل زين الدين ابن الأستاذ ، وابن أبى الهيجاء إلى السلطان ، وأخبراه بموته ، وعمل السلطان عزاه . وقام بالمملكة الحلبية الملك الناصر يوسف ـ الذى قتله هلاوون ـ حسبما يأتى من ذكر ذلك فى تاريخه ، إن شاء الله تعالى .

وفيها توفى الملك كيقباذ علاء الدين بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود ابن قليج أرسلان بن سليمان بن قتلمش[٢] بن سلجوق ، ملك الروم . وكان ملكا عاقلا شجاعا ميمونا فى حروبه ، كسر الخوارزمية ، واستولى على الشرق . وقام بمملكة الروم ولده غياث الدين .

وفيها ملك الملك الصالح نجم الدين أيوب بن السلطان الملك الكامل سنجار ونصيبين والخابور .

وفيها نزل التتار على إربل ، وحاصروها ، وملكوا المدينة عنوة بالسيف ، وقتلوا منها خلقا كثيرا[٣] ، وتحصن العسكر بالقلعة ، وقاتلوا قتالا عظيماً[٤] ، وعجز التتار عنها ، ورجعوا خائبين .

وفيها سير السلطان الملك الكامل الفقيه أفضل الدين [محمد][٥] الخونجى إلى بلاد الروم ، يعزى السلطان غياث الدين بأبيه علاء الدين كيقباذ المتوفى . وسير معه ذهباً برسم الصدقة ، وثياب أطلس برسم أغشية الضريح . وكان ذلك استجلاباً منه له ، ليحرفه عن الأشرف .

---

(١) فى المتن : « ولم يكمل أربع وعشرون » .

(٢) فى المتن : « قيتمش » .

(٣) فى المتن : « خلق كثير » .

(٤) فى المتن : « قتال عظيم » .

(٥) مابين حاصرتين إضافة من السلوك للمقريزى (ج ١ ص ٢٥٤) .

ذكر سنة خمس وثلاثين وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم خمسة أذرع وعشرون أصبعا . مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا وعشرون أصبعا .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين .والوزير ابن العلقمى بحاله .والسلطان الملك الكامل بالديار المصرية ، والسكة والخطبة له بسائر الممالك . والملك الأشرف صاحب دمشق، إلى أن توفى فى هذه السنة، حسبما يأتى. وصاحب بعلبك الملك الأمجد. وأسد الدين الملك المجاهد صاحب حمص . وصاحب حماة الملك المظفر تقى الدين محمود بن الملك المنصور . وصاحب حلب الملك الناصر يوسف بن العزيز بن الظاهر . وصاحب ميافارقين المظفر شهاب الدين غازى بن الملك العادل الكبير . وصاحب الشرق الملك الصالح نجم الدين أيوب بن السلطان الملك الكامل . وصاحب الموصل والجزيرة الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ النورى . والتتار مُلّاك الدنيا بالمشرق، من حدود مطلع الشمس إلى بغداد. وصاحب الروم غياث الدين بن علاء الدين كيقباذ السلجوقى ، المقدم ذكره. وصاحب الهند السلطان غياث الدين بن شهاب الدين الغورى ، المقدم ذكره . وصاحب اليمن المظفر يوسف بن رسول الخارجى ، المقدم ذكره . والأمير أسد الدين جغريل الكاملى بمكة ، والحروب بينه وبين راجح . وصاحب المدينة ــ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ــ جماز بن شيحة . والمغرب فى يد عدة ملاك متفرقة ؛ البعض من بنى عبد المؤمن ، والبعض من غيرهم .

وفى شهر المحرم من هذه السنة توفى الأشرف ، رحمه الله .

ذكر وفاة الملك الأشرف موسى رحمه الله

هو أبو الفتح السلطان الملك الأشرف مظفر الدين موسى شاه أرمن بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب بن شاذى بن مروان . ولد بالقاهرة المعزية،

وقيل بالكرك المحروس ، سنة ست وسبعين وخمسمائة . وقيل إنه ولد قبل أخيه المعظم عيسى بليلة واحدة . وكان مبتدأ أمره بالقدس الشريف ، تحت حكم ابن الزنجيلى عثمان . قال أبو المظفر : قال لى المعظم عيسى : « أنا أخذت له حران والرها والشرق من السلطان الملك العادل رحمه الله ، أبى ، وجهزته من عندى بالأموال والخيل والعدد والمماليك » ، وتقلبت به الأحوال حتى صار شاه أرمن[1] ، وكسر المواصلة والروم ، والسلطان جلال الدين الخوارزمى ، وأخاه شهاب الدين غازى . وكان جواداً سمحا شجاعا ميمونا ، ما كسرت له راية قط . ولما كان فى نزعه أخذ بعض مماليكه سنجقه ليكسره ، وقال : «لا يحمله غيره» ، ففتح له عينه وهو فى غمرات الموت، وقال بكلام لا يكاد يفهم من الضعف: «لا تفعل يافلان، فوالله ما كسرت قط» . وكان عفيفا طاهر الذيل.

قال أبو المظفر : اجتمعتُ به فى أخلاط ـ بالقلعة ـ فجلسنا للمحادثة ، فأعاب أخاه[2] المعظّم فى شىء بلغـه عنه . ثم قال : والله ما مددت عينى إلى محرم قط ، لا ذكر ولا أنثى . ولقد كنت يوما جالسا فى هـذه المنظرة التى نحن فيها ، فلم أشعر حتى دخل علىّ الخادم، وقال: «على الباب امرأة عجوز ، تذكر أنها من عند بنت شاه أرمن صاحب أخلاط» . فأذنت لها فدخلت ، ومعها ورقة من عند بنت شاه أرمن ، تذكر فيها أن الحاجب ـ عليًّا[3] قد غلبها على ضيعة لها . فكتبت لها على قصتها بردّ ضيعتها ، ونهى الحاجب عنها . فقالت العجوز : «وهى تسأل الحضور بين يديك ، فعندها كلام فيه سر ، لا يمكن ذكره إلا للسلطان ، منها له» . فأذنت لها بالحضور ، فحضرت امرأة ما رأيت فى الدنيا أحسن منهـا ، ولا أظرف من قدّها وشكلها ، كأنّ الشمس تحت نقابها . فخدمت ووقفت ، فقمت وقفت لها إجلالا كونها بنت ملك شاه أرمن . ثم سفرت عن وجهها ، فأضاءت منه المنظرة ، يبهت من نظره . فقلت: « استرى وجهك ، واخبرينى حالك» . فقالت : «أنا بنت شاه أرمن

(١) شاه أرمن : لقب أطلق على حكام خلاط .
(٢) فى المتن : « أخيه » .
(٣) فى المتن : « علىّ » .

صاحب هذه البلد ، مات أبي واستولى بكتمر على البلاد ، وتغيّرت الدّول، ولى ضيعة أعيش منها ، أخـذها الحاجب علىّ ، وما عُدت أعيش إلا من عمل النقش للناس ، وساكنة فى دار بالأجرة » . قال : فبـكيت ، ورقيت لها رقة عظيمة ، وأمرتُ أن يُـكتب لها توقيع مؤبد[١] بضيعتها ، ملعونا من يغير عليها أو يتعرض لها . وأمرت لها بقماش ، ومال جيـد ، ودار تسكنها تصلح لها ، وخادم وجاريتين . وقلت : « بسم الله ، ومهما كان لك من الحوائج والأشغال سيّرى هذه العجوز » . فقالت العجوز : « يا خوند ! ما جاءت إلى هاهنا إلّا لخدمتك . تقـدم نفسها لتحظى بك الليلة » . قال : فوالله لقد غاب صوابى ، وأوقع الله تعالى فى قلبى تغيّر الزمان ، وأنه يملك أخلاط غيرى . ويحتاج[٢] أهلى إلى مثل ذلك . قال فقلت: « ياعجوز ! معاذ الله! والله ما هو شيمتى ، ولا خلوت قط بغير حلالى . فخذيها وانصرفى فى دعة الله . وهى العزيزة الـكريمة » . فقامت وهى تقول : « صان الله عواقبك » .

والذى بنـــاه الأشرف من الأبنية الحسنة ، مسجد أبو الدرداء بقلعة دمشق وزخرفه ، والمسجد الذى عنـــد باب الصغير ، ومسجد القصب الذى بظاهر باب السلامة ، وأوقف عليهم الأوقاف الحسنة . ودار الحديث ، وهى النورية . والتربة التى له بالـكلاسة . جميع هـــذا بدمشق خارج أعماله فى الشرق وفى أخلاط وغيرها. ومع عـــدة خانات للسبيل فى سائر البلاد . وكان حسن الظن بالله تعالى ، يزور الصالحين ويتفقدهم بالمال والأطعمة الطيبة والحلاوات الحسنة ، شىء كثير مما يطول شرح ذلك .

قال أبو المظفر : مرض الملك الأشرف فى شهر رجب مرضتين مختلفتين ، فى الأعالى والأسافل ، حتى كان الجرائحى يخرج العظام من رأسه وهو يسبّح الله تعالى ويقدسه ويحمده . ثم قوى عليه ذلك فى آخر سنة أربع . فلما يئس[٣] من نفسه قال

(١) فى المتن : « توقيعا مؤبداً » .
(٢) فى المتن : « ويحتاجوا » .
(٣) فى المتن : « يأس » .

لوزيره جمال الدين بن جرير: « فى أى شىء تكفنونى؟ ». فقال: « حاشاك ياخوند ». فقال: « دعنى من هذا الكلام. لا تكفنى من هذه الخزائن فى شىء؛ فإنهن لا يخلون من الجنايات » . وكان عماد الدين موسك حاضرا فقال له: « قم واحضر الوديعة التى عندك » . قال: فمضى، وعاد على رأسه ميزر صوف أبيض، يلوح منه نور الرضى، ففتحه فإذا فيه خروق الفقراء، وطاقيات الأولياء مثل الشيخ مسعود الرهاوى، والشيخ يونس البيطار، والشيخ على الفاسى، وجماعة من الأولياء الكبار. وكان فى جملتهم إزار عتيق، ما يساوى خمسة دراهم[1]. فقال: هذا يكون على جسدى، ألقى به ربى، فإن صاحبه كان من الأبدال. أقام بالرها يزرع قطعة زعفران يتقوت منها برهة من الزمان. وكنت أزوره وأعرض عليه المال يمتنع، فقلت له يوما: « أنا أعرض عليك المال ولا تقبل فأريد من أثرك شيئا[2] أجعله كفنى » ، فدفع إلىّ هذا الإزار وقال: « لقد أحرمت فيه عشرين حجة » . وكان آخر كلام الملك الأشرف يقول: « لا إله إلا الله » . وتوفى يوم الخميس رابع المحرم من هذه السنة. ودفن بالقلعة. ثم نقل إلى تربته بالكاملية، فى جمادى الأولى، رحمه الله تعالى.

قال أبو المظفر: حكى لى الفقيه محمد اليونانى ببعلبك فى سنة خمس وأربعين وستمائة، عند عودى من بغداد، قال: حكى لى فقير صالح من جبل لبنان، قال: رأيت الأشرف بعد موته فى النوم، وعليه ثياب خضر، وهو يطير بين السماء والأرض، مع جماعة من الأولياء، فقلت له: « ياموسى إيش تعمل مع هؤلاء، وأنت كنت تفعل فى الدنيا ما كنت تفعل » . قال: فالتفت إلىّ وتبسّم وقال: « الجسد الذى كان يفعل تلك الأفاعيل تركناه عندكم. والروح التى كانت تحب هؤلاء صارت معهم » . رحمه الله.

ولم يخلف الملك الأشرف من الأولاد غير بنت واحدة تزوجها الملك الجواد

(١) فى المتن: « خمس الدراهم ».

(٢) فى المتن: « شىء ».

مظفر الدين يونس بن مودود بن الملك العادل الكبير ، وهو ابن عمها ، وذلك لما ملك دمشق بعد وفاة الملك الكامل ـ حسبما يأتى من ذكر ذلك فى تاريخه إن شاء الله تعالى . ثم لما ملك الملك الصالح إسماعيل ـ عمها ـ دمشق المرة الثانية ، فسخ نكاحها من الملك الجواد بأنه أثبت عند الحاكم بدمشق أن الجواد حلف بطلاقها فى أمر وحنث فيه ، ثم زوجها لابنه الملك المنصور ، واستمرت فى صحبته إلى آخر وقت . وهذا الملك المنصور اسمه نور الدين محمود .

قال أبو المظفر : وكان قد عهد إلى أخيه إسماعيل الملك الصالح المعروف بأبى الخيش. فلما انقضى عزاء الأشرف ، ركب الملك الصالح المشار إليه فى دست السلطنة ، وترجل الأمراء فى خدمته ، وصاحب حمص إلى جانبه ، والأمير عز الدين أيبك صاحب صرخد ـ جدنا ـ قد حمل الغاشية بين يديه . ونزل القلعة ، وأخلع ، وأنعم ، وأعطى . ثم توجه أسد الدين الملك المجاهد إلى حمص ، والأمير عز الدين إلى صرخد .

هذا جرى[١] والسلطان الملك الكامل يتجهز الجيوش أولا فأول إلى الشام . ووردت الأخبار بوصول العساكر من مصر ، فقسم الملك الصالح الأبراج على الأمراء وحصنها ، وغلّق أبوابها ، واعتد للحصار . وحضر الأمير عز الدين وأمر أن تفتح الأبواب . ثم جاء الناصر داود من الكرك فنزل المزّة . ونزل مجير الدين وتقى الدين القابون[٢] . ونزل السلطان الملك الكامل مسجد القدم . وأحدقت العساكر بالبلد من كل جهة . وقطع الكامل المياه عن دمشق ، واشتد الحصار ، وغلت الأسعار ، وسدوا جميع أبواب البلد ، خلا باب النصر وباب الفرج . ثم إن الصالح أحرق العقيبة[٣] والطواحين . ثم زحف الناصر داود إلى باب تُوما ، وعلق النقوب ،

---

(١) فى المتن . « جرا » .

(٢) قابون : موضع بينه وبين دمشق ميل واحد ، فى طريق القاصد إلى العراق (ياقوت ، معجم البلدان) .

(٣) العقيبة : قرية من ضواحى دمشق (ياقوت ، معجم البلدان) .

ولم يبق إلا فتحها . وأحرق الصّالح أيضاً قصر حجاج ، والشاغور ، وأخرب خرابا كثيرا . وجرت قبائح كثيرة لا تشرح ، حتى أُحرقت أناس كثيرة فى منازلهم . فلما رأى الصالح عين الغلبة نفَّذ إلى السلطان الملك الكامل يقول : « متى فتحتَها عنوة قهراً أرميت النار فى أربع جوانبها ، فأحرقتها جميعا ، ولا لى ولا لك » . وكان الكامل يتحقق منه قوة النفس والإقدام على كل شىء ، فمشى الناس بينهم فى الصلح ، وتقرر أن السلطان يعطى للصالح بعلبك وبصرى وسلمية .

ثم تسلم السلطان دمشق ، ودخلها . فلما طلع القلعة ودخل دار رضوان ، رأى فى الإيوان قبر أخيه الأشرف ، فرفسه برجله وقال : « انقلوا هذا المكتفر أخ[1] ، الساعة الساعة » ، فنقلوه إلى تربته فى الكلاسة .

وكان نزول السلطان على حصار دمشق ثالث وعشرين ربيع الأوا . ووقع الصلح يوم الثلاثاء تاسع جمادى الأولى . وخرج إلى السلطان مستأمنا ، فقربه . وأقبل عليه وأعطاه ما وقع عليه الأيمان ، والله أعلم .

(١) العبارة غير واضحة فى المتن ، وجاء فى لسان العرب أن فلانا اكتفر أى لزم الكفور ، وهى القبور . ولعل المقصود بأخ « أخى » .

ذكر سنة ست وثلاثين وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

المـــاء القديم أربعة أذرع وعشرون أصبعا . مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا وثمانية أصابع .

ما لخص من الحوادث

الخليفة المستنصر بالله أمير المؤمنين . والوزير مؤيد الدين بن العلقمى بحـــاله . والسلطان الملك الكامل بدمشق . وولده الملك العـــادل بمصر . والملك الصالح بالشرق . والملوك بحالهم ، حسبما ذكرناه فى السنة الخالية .

وفيها توفى السلطان الملك الكامل ، رحمه الله تعالى .

ذكر وفاة السلطان الملك الكامل

توفى إلى رحمة الله تعـالى ليلة يسفر صباحها عن نهار الأربعاء ، حادى عشرين شهر رجب الفرد من هذه السنة . ولا حضر أحد[1] موتته من شدة هيبته ، وإنما دخلوا عليه وجدوه ميتا . وكان قد مرض مدة عشرين[2] يوما بالإسهال والسعال ، ونقرس كان فى رجليه . ولم يحزن أحد عليه ، ولا لُبس عليه حداد ، وإنما لحقت[3] الناس بهتة .

وكان مولده سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وهو أكبر ولد الملك العادل ، بعد مودود . وكان العادل قد عهد إليه ، لما رأى من عقله وتدبيره وسداده . ووصل من عدله أن ركبداراً شكى أستاذه أنه لم يعطه جامكية ستة أشهر ، فأحضر أستاذه ، وأنزله عن فرسه ، وقلّعه قماشه ، وألبسها للركبدار ، وألبس الجندى ثياب الركبدار ،

---

(١) فى المتن : « أحداً » .

(٢) فى المتن : « عشرون » .

(٣) فى المتن : « لحق » .

وقال : « احمل مداسه واخدمه ستة أشهر » ، فشفع فيه حتى أعتق ، وأعطى الغلام حقه ، وزاده .

وكان إذا سافر لايجسر أحد[1] أن يتناول من فلاح بيضة ولا عليقة بغير حقها، وربما شنق من الجند على شيء من ذلك .

وكان لما مرض انقطع أياما ، وشنع بموته . ثم انصلح قليلا ، فأمر بالسماط ، فمد بين يديه ، وجلس مجلسا عاما ، وأمر بالدخول عليه . وفرح ذلك اليوم فرحاً شديداً ، وأخلع وأنعم ، وأعطى . وتقدمت الأدباء والشعراء وامتدحوه . وأجاز جوائز سنية . ثم نظر إلى ابن النابلسى ، وهو بين يديه جالس ، وهو يومئذ صاحب ديوان الإنشاء، فقال له : « وأنت ماذا تقول ؟ » ، فأنشده على البديهة يقول :

ولما شكوت شكا كل ما   على الأرض واعتلّ شرقا وغربا
وتاه بذاك قلوب الأنام   ولم يبق للناس عقلا ولبا
لأنك قلب لهذا[2] الزمان   وهل صح جسم إذا اعتلّ قلبا

قال : فأعجبه ذلك ، ووقع على كل سطر بمائة دينار . ثم انتكس من ليلته .
قال العدل عماد الدين يحيى الحسنى البصرى : حدثنى الخادم مجير الدين خادم السلطان الملك الكامل ، قال : طلب منى السّلطان الطست ليتقيأ . قال : فأحضرته . وكان الناصر داود جالساً[3] على الباب ، فطلب الإذن للعبور إليه . فقلت للسّلطان: « داود على الباب » . فقال : « ينتظر موتى ! » وانزعج. فخرجت وقلت له : « ماذا أوقفك ياخوند ؟» فقام وتوجه إلى دار أسامة[4] ، وكان نازلا بها. ثم جلست ساعة ودخلت فوجدته قد مات ، والطست بين يديه ، وهو مكبوب على المخدة ، رحمه الله تعالى .

قال ابن واصل فى تاريخه: إن وفاة السلطان الملك الكامل فى سنة خمس وثلاثين.

(١) فى المتن : « أحداً » .
(٢) فى المتن : « قلب هذا الزمان » .
(٣) فى المتن : « جالس » .
(٤) دار أسامة هى دار الملك المعظم ؛ انظر النجوم الزاهرة لأبى المحاسن، ج ٦ ص ٣٠٣ .

والذى نقلته فى جميع هـــذا التاريخ عن أبى المظفر محيى الدين يوسف بن الشيخ جمال الدين أبى الفرج بن الجوزى ، وفيه مناقضة لتاريخ ابن واصل .

قال ابن واصل : إن مدة مملـكة الملك الـكامل استقلالا بالديار المصرية وما معها ــ من حين توفى السلطان الملك العادل أبوه ــ عشرون سنة . وكان فيها نائبا عن أبيه فى حيــاته عشرين سنة أخرى[1] . وأشبه حاله فى ذلك حال معاوية بن أبى سفيان ــ رضى الله عنه ــ فإنه ولى الشام أميراً عشرين سنة ، وخليفة عشرين سنة أخرى .

ثم اجتمع الأمراء ، وهم : الأمير سيف الدين على بن قليج ، والأمير عز الدين أيبك ، والأمير ركن الدين الهيجاوى ، والأمير عماد الدين بن موسك ، والأمير فخر الدين وأخوه عماد الدين أبنــاء الشيخ ، فتشاورُوا ، وانفصلوا على غير شىء . وافترقت الأغراض والأهواء ؛ فنهم من أشار بالناصر داود ، ومنهم من أشار بالجواد . وأشاروا على الناصر داود أن يخرج الأموال ، ويرغِّب النــاس . وكان عماد الدين بن الشيخ يكره الناصر ، فأشار بالجواد ، ووافقوه الباقى ، وأرسلوا الركن الهيجاوى يوم الجمعة يقولوا للناصر داود ــ وهو نازل بدار أسامة ــ : « إيش قعادك فى بلد القوم ؟ » ، فخرج وركب ، والعامة تظن أنه صاحب المُلك ، حتى خرج من باب الفرج، فصاح العامة : « لَا ! لَا ! لَا ! ». وانقلبت دمشق، ووقع [بهاء الدين] ابن ملـكيشو فى الناس بالدبابيس ، وهو يومئذ والى دمشق ، وهم لا يكادون يرجموا .

ذكر تملك الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود ابن السلطان سيف الدين الملك العادل لدمشق

قال أبو المظفر ــ رحمه الله ــ: ثم إن الملك الجواد لما اجتمعت آراء الأمراء عليه ، فتح الخزائن ، وأخرج الأموال، وحسب تقدير مافرقه فـكان ستمائة ألف دينار. وخلع،

---

(١) فى المتن : « أخرا » .

وأعطى ، وبطَّل المكوس والخمور . وأما الناصر ، فإنه أقام بالقابون أياماً ، ينتظر النوائل والفرصة ، فأجمع[1] الأمراء رأيهم على القبض عليه ، فسير إليه فى الباطن عماد الدين بن موسك يعرفه ، فرحل ونزل قصر حجاج ، ثم قصر عفرا ، وأقام . فجردوا إليه عز الدين أيبك الأشرفى ليمسكه . فلما بلغه سار إلى عجلون ، ثم سار من عجلون إلى غزة ، واستولى على الساحل . فتجهز الملك الجواد ، وخرج إليه فى عسكر مصر والشام ، وقال للأشرفية : « كاتبوه وطمعوه » ، ففعلوا واغترّ بذلك ، فساق من غزة فى سبع مائة فارس بجميع خزائنه وأثقاله ـ وكانت على سبع مائة جمل ـ وترك عساكره منقطعة خلفه ، وضرب دهليزه على سبسطية[2]، والجواد على جينين[3] . ثم ساق عليه الجواد ، وأحاط بالناصر ، فهرب فى نفر قليل إلى نابلس ، وترك أمواله وأحماله ، فأخذها الملك الجواد بأحمالها ، واستغنى بها ، وافتقر الناصر إلى آخر الأبد .

قال أبو المظفر : وبلغنى أن عماد الدين بن الشيخ وقع بسَفَطٍ فيه اثنا عشر قطعة من الجوهر مع فصوص ليس يعرف لهم قيمة فيعبر عنها ، فدخل على الجواد ، واستوهبه منه ، فوهبه له . ثم سار الناصر لا يلوى على شىء حتى طلع الكرك . وكانوا قد أشاروا عليه أن ينفذ خزائنه إلى الكرك ، ويتقدم ، فإذا حصل له الغرض كانت[4] الأموال قدامه ، فلم يلتفت إلى مشورة من أشار ، واغترّ بمكاتبة الأمراء الأشرفية ، ولله فى خلقه أسرار خفية ، وحكم مطوية . ثم توجه فخر الدين بن الشيخ إلى الديار المصرية ، وبها يومئذ الملك العادل الصغير سيف الدين أبو بكر بن السلطان الملك الكامل .

واستقر الملك الجواد نجم الدين أيوب بن السلطان صلاح الدين ملكا بدمشق .

---

(١) فى المتن : « فأجمعوا » .

(٢) سبسطية : بلدة من نواحى فلسطين، بينها وبين بيت المقدس يومان، بها قبر زكريا ويحيى عليهما السلام (ياقوت : معجم البلدان) .

(٣) جينين : قرية قرب غزة (ياقوت ، معجم البلدان) .

(٤) فى المتن : « كان » .

وكذلك كل ملك على ما بيده من البلاد . وكان صاحب حمص خائفاً[1] من الملك الكامل بسبب اتفاقه مع الأشرف عليه . فلما توفى الكامل ، كاد يجن من الفرح ، وركب إلى الميدان ، ولعب الأكرة . ولم تكن له بذلك عادة .

وأمّا صاحب حماة ، فإنه لما بلغه موت الكامل انقطع ظهره ، واشتد خوفه من صاحب حمص .

وفيها نزل عسكر حلب على المعرات وملكهما[2] ، واستولوا على تلك الأعمال .

ولمّا توفى الملك الكامل ـ رحمه الله ـ كان الملك الصالح نجم الدين أيوب ـ ولده ـ بالشرق ، وقد فتح سنجار ونصيبين والخابور . ثم إنه توجه إلى الرحبة ، وهى يومئذ فى مملكة الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص ، فهو فى حصارها ، وقد عزم أن ينتقل إلى حمص بمكاتبة كانت بينه وبين أبيه فى ذلك ، إذ ورد عليه الخبر بموت السلطان والده ، فرحل عنها . وخرجت الخوارزمية عن طاعته ، ورجع هارباً إلى سنجار ، ولله در قول العرب : « الخيل ترعى بالحصان المربوط » . ثم إن الملك الصالح سيّر إلى بعض الخوارزمية واسترضاهم ، وأنعم عليهم، وعادوا إلى خدمته .

وفى هذه السنة وقع الخلف فى سائر الأقاليم ، شرقاً وغرباً[3] .

وفيها اتفق الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب ، مع الملك غياث الدين كيخسرو بن علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو السلجوقى، صاحب الروم ، على الملك نجم الدين أيوب . وخطب غياث الدين بنت الملك العزيز أخت الملك الناصر يوسف صاحب حلب ، وأرسل رسله إلى الصاحبة الست خاتون والدة الملك العزيز ، فوقع الاتفاق على ذلك . واجتمع الناس بقلعة حلب ، وعقدوا عقد غازية خاتون على

---

(١) فى المتن : « خائف » .

(٢) من الواضح أنه يقصد بالمعرات وبصيغة المثنى فى « وملكهما » معرة مصرين ، ومعرة النعمان ، وهما على مقربة من حلب (ياقوت ، معجم البلدان) .

(٣) فى المتن : « شرق وغرب » .

السلطان غياث الدين كيخسرو المذكور ، وتولى العقد القاضى كمال الدين بن العديم ، على مذهب أبى حنيفة ــ رضى الله عنه ــ وذلك لصغر سنّ الزوجة . ووقع العقد على صداق مبلغه مائة ألف درهم ، ونثروا الذّهب والفضة ، واللؤلؤ . وفى تلك الساعة وصلت البطاقة أن عسكر حلب أخذوا الرّها ، فضربت البشائر بحلب . ثم سير الملك الناصر القاضى كمال الدين بن العديم رسولا إلى غياث الدين صاحب الروم ، وكتب على يده توقيعاً أنه قد أوهبه الرّها وأعمالها ، وسروج وأعمالها ، وملكها له تمليكا صحيحا شرعيا ، وأشهد عليه فيه بذلك . وهذان البلدان[1] لم يكونا تحت أمره ولا فى سلطانه ، وإنما كانا فى مملكة الملك الصالح . فلما بلغ الملك الصالح ذلك صعُب عليه ، وحصل التنافس فى ذلك .

وفيها نزل الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل على سنجار ، وبها الملك الصّالح ، وحاصره ، ولم يظفر بطائل . وسيّر الملك الصالح القاضى بدر الدين يوسف ابن الحسن إلى الخوارزمية ، يستدعيهم إليه ويسترضيهم ، وضمن لهم القاضى عن الملك الصالح كل مايريدون منه ، وأقطعهم البلاد ، من جملتها حرّان والرّها وسروج ، فعادت الخوارزمية إلى خدمته . فلما بلغ بدر الدين لؤلؤ ذلك من رجوع الخوارزمية إلى خدمة الملك الصّالح ، هرب إلى الموصل ، فتبعوه وكسروه كسرة شنيعة . ثم جهز لهم صاحب الروم جيشا كثيفا ، فالتقوا معه أيضاً ، وكسروه ، واستقام مُلك الملك الصّالح بهم ، وعظم شأنه ، وخشيته الملوك .

وفيها خُطب للسّلطان غياث الدين صاحب الروم بحلب ، مع الناصر ، وضُرب اسمه على الدرهم والدينار مع اسم الملك الناصر .

وفيها حصل الاتفاق بين الملك الجواد صاحب دمشق والملك الصالح صاحب الشرق ، بالمقايضة : دمشق بسنجار وعانة . وسبب ذلك أن الملك الجواد ضاق ذرعه وعجز عن القيام بمملكة الشام .

---

(١) فى المتن : « وهذين البلدين » .

قال أبو المظفر : قال الجواد : « أنا إيش أعمل بالملك ؟ باز وكلب عندى خير من ملك الأرض » . وكان أسد الدين قد جاء إلى دمشق ، وأقام بها ، وقتل عماد الدين ابن الشيخ بقلعة دمشق . وانحصر منه الجواد انحصاراً عظيماً . وكان الجواد يظهر أنه نائب العادل صاحب مصر . فلما قتل ابن الشيخ ـ فى حديث طويل السّبب ـ اختشى الجواد على نفسه من أسد الدين الملك المجاهد صاحب حمص ، فخرج الجواد من دمشق بحجة الصيد ، وضرب فى البرية ، وسيّر كاتب الملك الصّالح نجم الدين أيوب ، وسأله على المقايضة . وعَلِم صاحب حمص بذلك ، فرحل من دمشق ، ودخل حمص . وكان فى قلب الملك الصّالح منه قلوب وحقائد دفينة ، لما جرى منه فى حق أبيه الكامل .

ودخل الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى دمشق فى العشر الأول من شهر جمادى الآخرة ، والملك الجواد حامل الغاشية بين يديه . ثم حملها الملك المظفر تقى الدين محمود صاحب حماة . واتفق أن سنجق الملك الصّالح انكسر عند باب القلعة ، فتطيّرت الناس من ذلك . وكان فألًا لما ناله الملك الصّالح بعد ذلك من تغلب إسماعيل الملك الصالح على دمشق ، واعتقال الملك الصالح بالكرك ، حتى فرّج الله عز وجل عنه ، وملك الأرض ، حسبما يأتى من ذكر ذلك فى تاريخه إن شاء الله تعالى .

قال أبو المظفر ـ رحمه الله ـ : ونزل الملك الصالح بالقلعة ، ونزل الملك الجواد دار فرخشاه . ثم إن الجواد ندم على ذلك ، فاستدعى[1] القدمين والجند ، واستحلفهم . وجمع الملك الصّالح أصحابه عنده بالقلعة ، وأراد أن يحرق دار فرخشاه ، فدخل جمال الدين [على بن][2] جرير فى الصلح بينهما ، وخرج الجواد إلى النّيْرب[3] . واجتمع الخلق على باب النصر يدعون على الجواد ويسبونه، ويشتمونه[4] فى وجهه .

---

(١) فى المتن : « فاستدعا » .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من شذرات الذهب .

(٣) النيرب : قرية مشهورة على نصف فرسخ من دمشق (ياقوت ، معجم البلدان) .

(٤) فى المتن : « ويشتموه » .

وسبب ذلك أنه كان سلَّط عليهم خادما(١) يقال له الناصح، فأخذ أموال الناس باليد ، وصادرهم ، وضربهم بالسياط ، وعلَّقهم بأرجلهم، واستخرج منهم ستمائة ألف درهم. فلمّا خرج الجواد من دمشق وقف(٢) الناس للملك الصّالح ، فسيّر إليه يقول له : « رُدّ على الناس أموالهم » ، فلم يلتفت لذلك . ومات والأموال فى ذمته .

وكان قبل ذلك ــ وقبل المقايضة ــ قد قبض الجواد على صفى الدين بن مرزوق وأخذ منه أربع مائة ألف دينار ، واعتقله فى قلعة دمشق ، فأقام ثلاث سنين .

حكى الشيخ إبراهيم المرزوقى قال : لما توفى السلطان الملك الكامل ، وتولى الملك الجواد ، وعاد لايفعل شيئا(٣) إلا برأى الملك المجاهد صاحب حمص ، استشعر صفى الدين بن مرزوق من الملك المجاهد أنه قاتِله ، لما كان بينهما من العداوة لما استوزره الأشرف ، فصَنع صفى الدين تابوت خشب ، وترك فيه جواهر عظيمة ، ولؤلؤاً وفصوصا وياقوتا(٤) ، لهم صورة كبيرة ، وأظهر أن إحدى سراريه قد ماتت ، وهى عزيزة عنده ، وأنه يريد دفنها فى داره التى داخل مدرسة نور الدين الشهيد ، بالقرب من الخواصين، التى تعرف اليوم بالنجيبية الشافعية . وفيها قبة، ولها شباك إلى الطريق. ثم أطلع التابوت على رقاب غلمانه إلى الجامع ، وحضرت كبار دمشق ، وصلوا على الميتة التى زعم أنها فى ذلك التابوت ، وعمل العزاء والمآتم . وانفصل الحال ، وعاد المقرئ يتردد للقراءة على ذلك القبر الذى فيه التابوت . وسلم الصفى مفتاح القبة للشيخ إبراهيم المرزوقى ــ ناقل هــذا الحديث ــ ثم مُسك الصفى بعد ذلك بأشهر يسيرة ، وأخذوا منه ما ذكرناه ، واحتمل أموراً كثيرة ، ولم يعترف بذلك التابوت ، واعتقل بقلعة دمشق . فلما مضى على ذلك قليل(٥) ، اختصم خادم كبير للصفى مع خادم صغير،

---

(١) فى المتن : « خادم » .

(٢) فى المتن : « وقفوا » .

(٣) فى المتن: « شيء » .

(٤) فى المتن : « لؤلؤ وفصوص وياقوت » .

(٥) فى المتن : « قليلا » .

فضرب الكبير الصغير ، فتوجه لما حمله حنقه إلى القلعة ، وقال : « معى نصيحة » . فدخلوا به إلى الجواد وأسد الدين الملك المجاهد ، وأخبرهما بخبر التابوت . فبعثوا القاضى ، والشهود ، وأمير جاندار ، وأستادار ، وأخرجوا التابوت ، وأحضروه بين أيديهم بختمه ، ففتحوه ، فطلع منه شىء يبهر العقول ، من جواهره ولآليه وفصوصه ، فأحضروا الجوهريين فقوموه بمائتى ألف دينار وستين ألف دينار . وكان قد أحضروا الصفى قبل ذلك ، وحَلَف برأسيهما أنه لم يكن بقى له موجود . فلما طلع هـذا التابوت ، سلمه الجواد للملك المجاهد أسد الدين ، وحكّمه فى دمه ، فنفذه إلى حمص .

وفيها انقطعت الخطبة باسم الملك العادل صاحب مصر من دمشق ، واستقرت باسم الملك الصالح نجم الدين أيوب . ثم وقع الصلح بين الملك الصالح وبين أسد الدين الملك المجاهد صاحب حمص ، وحضر إلى خدمته بدمشق ، وحضر الملك المظفر أيضاً صاحب حماة .

وفيها توجه الملك الناصر صاحب الكرك إلى مصر ، واتفق مع الملك العادل على الملك الصالح . ثم خرجت السنة .

ذكر سنة سبع وثلاثين وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

المـــاء القديم خمسة أذرع وثمانية أصابع . مبلغ الزيادة سبع عشر ذراعاً ، وخمسة عشر أصبعا .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين . والوزير بحاله . والسلطان بالديار المصرية الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن الملك الـكامل .

وصاحب الشام الملك الصّالح نجم الدين أيوب بن السلطان الملك الـكامل .

وصاحب الـكرك الملك الناصر داود بن الملك المعظم شرف الدين عيسى .

وصاحب حماه الملك المظفر تقى الدين محمود بن الملك المنصور ، المقدم ذكره .

وصاحب حمص الملك المجاهد أسد الدين شيركوه ، المقدم ذكره أيضا .

وصاحب بعلبك الملك الصّالح إسماعيل المعروف بأبى الخيش ، المقدم ذكره .

وصاحب حلب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز بن الظاهر .

وصاحب سنجار الملك الجواد نجم الدين أيوب بن السلطان صلاح الدين .

وصاحب ماردين الملك المظفر قرا أرسلان ، المقدم ذكره أيضا .

وصاحب الموصل الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ النورى ، المقدم ذكره .

وصاحب الجزيرة العمرية الملك المنصور محمد بن سنجر شاه ، المقدم ذكره .

وصاحب الروم غياث الدين غازى كيخسرو بن علاء الدين كيقباذ .

والتتار جائلون[1] فى أقطار الأرض ، حيث سقطوا لقطوا ، وإن حلوا .

وفيها هجم الملك الصالح إسماعيل دمشق وملكها . وسبب ذلك أن الملك الصالح نجم الدين أيوب كان قد توجه إلى نابلس ، فاتفق الصالح إسماعيل ، والملك المجاهد صاحب حمص ، والأمير عز الدين أيبك صاحب صرخد ، فإنه كان منحرفاً عن

(١) فى المتن : « جائلين » .

الصالح أيوب ، ولم يأته ولادخل فى طاعته . وكان متفقاً مع الصالح إسماعيل . وكان الصالح أيوب قد نفّذ الحليم سعد الدين من نابلس ، ومعه طيور البطائق، يعرفه أحوال الصّالح إسماعيل ، وقتاً[(١)] بوقت . فكان سعد الدين يكتب البطائق بما يراه من تغير الأحوال ، ويربطها على أجنحة الحمام ، ويعطيهم للبراج ، فيمضى بهم إلى السامرى الذى عاد وزير الصالح إسماعيل ، وكان له بدمشق عينا ، فيأخذ السامرى تلك البطائق ويكتب للملك الصالح أيوب بالعكس مما كتبه سعد الدين ، فيطيب خاطره بذلك . وكان الملك الصّالح أيوب ــ رحمه الله ــ سليم الباطن ، عديم المكر . هذا والصالح إسماعيل يبعث الأموال إلى المقدمين وكبار الناس من الجيوش ، ويفسد الحال على الملك الصّالح فى الباطن . فلما أتقن أمره خرج من بعلبك بالفارس والراجل ، على أنه طالب نابلس إلى خدمة الملك الصالح أيوب، على طريق بانياس. فبات بالجدل[(٢)] ، وكتب بطاقة إلى الصالح أيوب أنه واصل إليه ، فتهيأ[(٣)] لملتقاه ، وركب وقت السحر ، وقصد دمشق . ووصل إلى عقبة دمر[(٤)] ووقف حتى لحقه صاحب حمص ، ثم هجما دمشق ، ودخلا من باب الفراديس فى ساعة واحدة ، من غير مانع ولا مدافع . ونزل الصالح إسماعيل داره بدرب الشعّارين ، ونزل صاحب حمص داره . وأصبحوا يوم الأربعاء ثامن وعشرين صفر على القلعة، ونقبوها من ناحية باب الفرج. وكان فيها الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك الصالح أيوب ، فاعتقله الصّالح إسماعيل بالبرج ، واستولى على القلعة . ولم يكن[(٥)] بها ذخائر ولا نجدة . وكان الصالح أيوب قد ركن إلى أيمان الصالح إسماعيل وعهوده ومواثيقه. ولم يعلم أن المُلك عقيمٌ عقوقٌ . وبلغ الصالح أيوب ما جرى ، وقيل له لم تؤخذ القلعة ، فخلع على خمسة نفرٍ ممن ذكر

(١) فى المتن : « وقت بوقت » .
(٢) فى المتن : « فبات الجدل » .
(٣) فى المتن : « تهيء » .
(٤) عقبة دمر : مشرفة على غوطة دمشق ، وهى من جهة الشمال فى طريق بعلبك (ياقوت ، معجم البلدان) .
(٥) فى المتن : « ولم يكن كان » .

ذلك له . ثم ساق طالباً دمشق . فلما وصل القُصير ، بلغه أخذ القلعة . ثم مال[١] الناس عنه بأسرهم ، وخافوا على أهاليهم ، وكان أكثرهم قد لعب الفساد بعقولهم ، فرحل[٢] الناس طالبين دمشق . وعاد الملك الصّالح فى مماليكه وغلمانه ، فرحل من القصير يريد نابلس على طريق جينين ، فطمع فيه أهل النور والعشير ، وكان مقدمهم رجلا جاهلا[٣] يقال له تبل[٤] من أهل بيسان ، مفسداً سفاكاً للدماء ، فتبع الملك الصالح فى جمع من أصحابه ، وعاد يحمل عليهم بمماليكه قلبة بقلبة ، وأخذوا بعض ثقله . وكان الوزيرى قد عاد إلى نابلس ، فأرسل إليه يقول: « قد مضى ما مضى[٥] وما زالت الملوك كذا ، وقد جئت الآن مستجيراً بابن عمى » . ونزل فى الدار بنابلس . واتفق عَوْد الملك الناصر داود من مصر على غير رضى من العادل ، فوصل إلى الكرك ، وكتب الوزيرى إلى الناصر يعرفه ذلك ، فبعث الناصر الأمير عماد الدين بن موسك ، والظهير بن سنقر الحلبى ، فى ثلثمائة فارس إلى نابلس . فركب الملك الصالح ، والتقاهم لخدموه، وقالوا له : «طيب قلبك فقد بلغ ابن عمك قولك أنا مستجير به ، وقد أجارك ، ونحن قد سيرنا إلى خدمتك خوف عليك من يد الغير » . فشكر لهم ذلك ، ونزل داره ، ونزلوا . فلما كان بعد ذلك بأيام قلائل ضرب النفير ، وقالوا : « قد جاءت الفرنج إلى الظهر » . فركب الناس ومماليك الملك الصالح ، ووصلوا إلى سبسطية ، فاغتنم عماد الدين الفرصة ودخل على الصالح ، وكذلك الظهير ، وقبضوا عليه ، وأخذوا سيفه ، وقالوا : « أجب ابن عمك الملك الناصر » . قال أبو المظفر ــ رحمه الله ــ : وبلغنى أن جاريته كانت حاملا ، فطرحت فى تلك الساعة . وأخذوه وتوجهوا به إلى الكرك . قال أبو المظفر : لما اجتمعت بعد ذلك بالملك الصالح فى سنة تسع وثلاثين ،

(١) فى المتن : « مالوا » .
(٢) فى المتن : « فرحلوا » .
(٣) فى المتن : « رجل جاهل » .
(٤) كذا فى المتن ، وكذلك مرآة الزمان وعقد الجمان للعينى . وفى النجوم الزاهرة لأبى المحاسن (ج ٦ ص ٣٠٧) : « مسبل » .
(٥) فى المتن : « قد مضا ما مضا » .

وهو يومئذ سلطان الإسلام ، حكى لى صُورة الحال ، قال : ركبونى بغلة بغير مهاميز ولا مقرعة ولا دبوس ، وساروا بى إلى البرية[1] فى ثلاثة أيام ، فوالله ما كلمتهم كلمة واحدة ، ولا أكلت لهم زاداً[2] ، حتى حضر خطيب الموتة[3] ومعه دجاجة فأكلتها، وأقاموا بى فى البرية يومين ، ولا أعلم مقصودهم ماهُو . وكان قصدهم أن يطلعونى الكرك فى طالع نحس ، يقتضى ألا أخرج من الكرك . ثم أدخلونى الكرك ليلاً ، على الطالع الذى اختاروه لنحسى ، فاختاره الله عز وجلّ لسعادتى ونحسهم . ووُكِّل بى مملوك فظ غليظ يقال له زُرَيْق . وكان علىّ أضر من كل شىء أنا فيه ، فأقمت عندهم إلى شهر رمضان ، سبعة أشهر . ولقد كان عندى خادم صغير، فأكل كثيراً[4] فتخم ، وبال على البساط ، فأخذت البساط بيدى وخرجت إلى الدهليز ، وقلت : « يا مقدمين هذا الخادم قد أتلف هذا البساط ، لعل تأخذوه وتغسلوه فى النهر بالوادى » . قال : فنفر فىّ زريق ، وقال : « إيش خروجك إلى هاهنا ؟ » وصاحوا علىّ . وكان قد وكل بى ثمانين رجلا[5] ، فعدت إلى موضعى وبكيت ، وتوسلت إلى الله عز وجل . ثم إن الوزيرى طلع بخزائنى وخيولى وحريمى إلى قلعة الصلت[6] ، وأقام مماليكى بنابلس . وحضر ابن النابلسى من مصر من عند العادل ، يطلبنى من الناصر ، وأبذل له فىّ مائة ألف دينار ، فما أجاب لذلك . وكذلك كاتبه الصالح إسماعيل وأسد الدين صاحب حمص ، وأبذلوا له أموالاً عظيمة ، فلم يجبهما إلى ذلك . فلما طال مقامى عنده ، استشار عماد الدين بن موسك ، وابن قليج والظهير ، وسخره الله عز وجل لما كان لى كامن فى الغيب من السعادة ، فاتفقوا على إخراجى ، فأخرجنى

(١) كذا فى المتن ، وفى عقد الجمان للعينى « وساروا بى إلى الموتة فى ثلاثة أيام » . والموتة قرية على مرحلة من الكرك (ياقوت ، معجم البلدان) .

(٢) فى المتن: « زاد » .

(٣) فى المتن : « البرية » .

(٤) فى المتن : « كثير » .

(٥) فى المتن : « رجل » .

(٦) الصلت : بليدة وقلعة فى جبل الغور الشرقى جنوبى عجلون بالأردن (أبو الفدا ، تقويم البلدان) .

فى آخر شهر رمضان، وحلفنى على أشياء ماتقدر عليها ملوك الأرض، وهو أن آخذ له دمشق وحمص وحماة وحلب والجزيرة والموصل وديار بكر ، ويكون له نصف ديار مصر ، ونصف ما فى هذه الخزائن التى لملوك هذه الأقاليم . قال : فحلفت له من تحت القهر والسيف ، والله مطلع على ضميرى. ولما بلغ العادل من مصر والصالح من دمشق مع بقية الملوك أنه أخرجنى ، رماه[1] الجميع عن قوس واحدة ، وعزموا على قصده ، فكان أول من برز إليه العادل من مصر إلى بلبيس جريدة بالعساكر القوية ، فاختلفوا عليه ، وقبضوه يوم الجمعة ثامن ذى القعدة ، وأرسلوا إلى الصالح يعرفونه[2]. وكانت[3] مدة ملك العادل الديار المصرية سنتين وشهورا .

* * *

ذكر سلطنة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب

وذلك لما وصل إليه رسول الأمراء المصريين يستحثونه فى سرعة القدوم عليهم، ظن أن ذلك خديعة من العادل ، فسأل الناصر أن يتوجه معه ، فأنعم[4] ، وسارا جميعا طالبين مصر ، مع عسكر الكرك ، وجماعة من الأمراء . وكان وصول الملك السلطان الصالح أيوب إلى بلبيس يوم الأحد رابع عشرين ذى القعدة ، فنزل فى خيمة العادل ، والعادل معتقل فى خركاة[5] .

قال أبو المظفر : قال لى الملك الصّالح أيوب : « ما قصدت مجىء الناصر صاحب الكرك معى إلا[6] خشية أن تكون[7] معمولة علىّ من جهة العادل. ثم إن الناصر

(١) فى المتن : « رموه » .

(٢) فى المتن : « يعرفوه » .

(٣) فى المتن : « وكان » .

(٤) أى وافقه وقال : « نعم » .

(٥) الخركاة : لفظ فارسى ، يعنى خيمة .

(٦) فى المتن : « إلى » .

(٧) فى المتن : « لاتكن » .

تغيّر علىّ ، وطمعت نفسه بالملك ، وطمعته(١) حاشيته بذلك ، فأراد قتلى ، فسلم الله منه » . ثم إن الناصر شرب تلك الليلة وطاب ونحن على بلبيس ، فشطح إلى عند العادل ، فخرج إليه العادل وقبل له الأرض . فقال له : « كيف رأيت ما أشرت به عليك ؟ » فقال : « ياخوند العفو والتوبة على يديك . وأنا فى جيرتك » . فقال : « طيب قلبك . الساعة أخلصك » . ثم جاء إلى عندى ، فدخل الخيمة ، ووقف . فقلت : « بسم الله اجلس » . فقال : « ما أجلس حتى تطلق العادل الساعة » . فمازلت ألاطفه حتى نام . فما صدقت بنومه [وقمت فى باقى الليل](٢) . ولو أطلقت العادل تلك الساعة ضربت رقبتى ورقبته جميعا . ثم قمت فى باقى الليل ، فأخذت العادل فى محفة ودخلت القاهرة أذان الصبح . وبعثت(٣) إلى الناصر بعشرين ألف دينار ، ورجع من بلبيس إلى الكرك .

وفيها سلم الناصر داود صاحب الكرك القدس الشريف للفرنج ، فلم يزل فى أيديهم إلى أن فتحها الله على يد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز بن الظاهر ابن السلطان صلاح الدين ، فى تاريخ ما يأتى ذكره . فلما عادت دار إسلام كما كانت عليه ، فقال فيه بعضهم :

المسجد الأقصى له عادة صارت وسارت مثلاً سائر
إذا غدا بالكفر مستوطنا أن يبعث الله له ناصر
فناصر طهره أولا وناصر طهره آخر

(١) فى المتن : « وطمعوه » .
(٢) مابين حاصرتين تكملة من النجوم الزاهرة لأبى المحاسن (ج ٦ ص ٣١١) .
(٣) فى المتن : « بعث إلى الناصر » ، والتصحيح من النجوم الزاهرة لأبى المحاسن (ج ٦ ص ٣١١) .

ذكر سنة ثمان وثلاثين وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

المـــاء القديم خمسة أذرع وعشرون أصبعا . مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا وعشرون أصبعا .

مالخص من الحوادث

الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين . والوزير بحاله . والملوك كذلك ، خلا صاحب حمص ، فإنه توفى إلى رحمة الله تعالى . وقام بمملـكة حمص الملك المنصور ولده إبراهيم بن أسد الدين شيركوه ، وباقى نسبه قد تقدم .

وفيها كانت[(١)] الوقعة بين الحلبيين والخوارزمية . وكان الجواد مع الخوارزمية ، وكذلك صاحب حمص . ونزلوا على باب بزاعة[(٢)] فى خمسة آلاف فارس ، فخرج إليهم عسكر حلب فى ألف وخمسمائة فارس ، فـكسروهم كسرة عظيمة ، وأسروا أمراءهم ، ونهبوا أثقالهم ، وساقوا إلى جيلان ، وقطعوا المياه عن حلب ، ثم رجعوا إلى منبج ، فنهبوا وقتلوا ، ثم إلى حرّان . ثم إن الحلبيين استدعوا صاحب حمص إليهم ، فمال معهم ، ونزل بعسكره على حلب . والسبب فى مجىء الخوارزمية أن الملك الحافظ صاحب قلعة جعبر لحقه مرض الفالج ، فخاف من الخوارزمية لينزعوا[(٣)] منه قلعة جعبر، فسيّر إلى الصاحبة أم الملك العزيز صاحب حلب يسألها أن تتسلم منه القلعة، وتعوضه بنظيرها[(٤)] من أعمال حلب . فلما تم ذلك ، حمل الخوارزمية الغيظ ، حتى قصدوا حلب ، وفعلوا ما فعلوا . وهذا تلخيص الـكلام .

---

(١) فى المتن : « كان » .

(٢) الباب ، ويعرف بباب بزاعة : بليدة من أعمال حلب (أبو الفدا ، تقويم البلدان ص ٢٦٧) . وبزاعة بلدة من أعمال حلب ، بينها وبين منبج (ياقوت ، معجم البلدان) .

(٣) فى المتن : « لاينزعوا » .

(٤) فى المتن : « بنظارها » .

وفيها وصل رسول التتار إلى ميّافارقين، إلى عند المظفر غازى ، وقال الرسول له : « قد جعلك القان سلحداره ، وأمرك أن تخرب أسوار بلادك جميعها » . وعلى يد الرسول كتاب من جكزخان عنوانه يقول : « من نائب رب السماء ، ماسح وجه الأرض ، ملك الشرق والغرب ، طولا وعرض ، قاقان » . فقال المظفر غازى : « أنا من جملة الملوك ، وبلادى حقيرة بالنسبة إلى الروم والشام ومصر ، فتوجه إليهم، ومهما فعلوه أنا موافق » . وكان هذا الرسول شيخاً لطيفاً من أهل أصبهان .

ذكر عجائب مما ذكر رسول التتار

منها أنه قال أن بالقرب من بلاد القان يأجوج ومأجوج ، وهم صور مختلفة ، ربما رأوا منهم جماعة على أعلى السد مراراً . وقد تقدم ذكرهم فى هذا التاريخ فى عدة أماكن منه ، مما يغنى عن تكرار القول فيهم ها هنا .

ومنها أن بجوارهم على البحر المحيط أقوام ليس لهم رءوس ، وأعينهم وأفامهم فى مناكبهم . وإذا رأوا الناس هربوا منهم ، وعيشهم أكل السمك . وقد ذكرنا ذلك أيضا فى هذا التاريخ عندما ذكرنا ملوك السامانية فى الجزء الرابع منه ، وأصل هؤلاء القوم ، واسمهم الذى يعرفون به ، من أبيهم[1] الأول ، مما يغنى إعادته ها هنا .

ومنها أن فى تلك النواحى أناس يزرعون فى الأرض بزراً فيتولد منه الغنم ، كما يتولد دود الحرير ، وأن الخروف لايعيش غير شهرين ، مثل إقامة سائر النباتات فى الأرض، وأنها لا تتناسل .

ومنها أن بماء زيدان عين ماء، وهى بركة واسعة، تطلع فى كل ستة وثلاثين سنة، صفة خشبة غليظة ، شبه المنارة العالية ، فتقيم طول ذلك النهار إلى أن تغرب الشمس، فتغوص فى الماء ، فلا تعود تظهر إلى مثل ذلك الحين [إلا][2] بعد ستة وثلاثين سنة.

---

(١) فى المتن : « أبهم » .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة لسياق المعنى .

وأن بعض ملوك العجم حضر سنة فى ذلك الوقت الذى فيه ظهورها وطلوعها، فربطها بسلاسل من حديد فى غاية القوة ، وأوثقها وثقا جيدا فى أساطين من حديد قد ضربت فى الأرض من أربع جوانبها ، واستوثق منها بأشد ما يكون . فلما كان وقت غوصها ، قطعت تلك السلاسل ، وغاصت على عادتها . قال : وهى إلى الآن إذا طلعت رأى[١] الناس السلاسل فيها مشدودة فى وسطها .

وفيها اختلف عسكر مصر على السلطان الملك الصالح أيوب ، فمسك كثيراً[٢] منهم . فمن الأمراء الذين قبض عليهم الملك الصالح الأمير عز الدين أيبك الأسمر[٣] الأشرفى ، مع سائر الأشرفية . ومن الخدام الكبار الذين كانوا حكام الدولة العادلية؛ جوهر النوبى ، وشمس [الدين] الخواص[٤] . وانتظم الملك له بعد ذلك . واستوزر معين الدين بن شيخ الشيوخ ، ومكنه ، وفوض إليه تدبير المملكة ، وشرع فى شراء المماليك[٥] الترك .

وفيها تسلم عسكر الروم آمد بعد حصار شديد . وكان بآمد يومئذ الملك المعظم غياث الدين توران شاه بن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فتوجه منها إلى حصن كيفا ، واستمر به إلى قدومه إلى الديار المصرية ، بعد وفاة أبيه ، حسبما يذكر من بعد . واستقر بحصن كيفا ولده الملك الموحّد عبد الله ، فاستمر الملك الموحد بحصن كيفا تحت حكم التتار . وله بحصن كيفا عدة أولاد . وكان لما توجه والده الملك المعظم إلى الديار المصرية عمره عشر[٦] سنين .

---

(١) فى المتن : « رأوا » .

(٢) فى المتن : « كثير » .

(٣) كذا فى المتن ، وكذلك فى مفرج الكروب لابن واصل (حوادث سنة ٦٣٨ هـ ــ مخطوط) . أما فى النجوم الزاهرة لأبى المحاسن (ج ٦ ص ٣٢٠) فقد جاء الاسم «أيبك الأشقر» .

(٤) فى النجوم الزاهرة لأبى المحاسن (ج ٦ ص ٣٢٠) : « شمس الدين الخاص » .

(٥) فى المتن : « المماك » .

(٦) فى المتن : « عشرة » .

وفيها [كانت] كسرة الحلبيين للخوارزمية(١) ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً(٢) ، وهرب مقدمهم بركة خان إلى الخابور . وأخذ المنصور إبراهيم صاحب حمص حران ، وعصت(٣) عليه القلعة .

وفيها – خامس شعبان – حفر أساس قلعة الجزيرة(٤) بمصر .

وفى عاشر ذى القعدة هدمت الدُّور التى بالجزيرة ، وتحول(٥) سكانها عنها .

ولما كمل بناء القلعة ، قال فيها على بن سعيد الأندلسى :

تأمل لحسن الصالحية إذ بدت وأبراجهـا مثل النجوم تلالا
ووافى إليها النيل من بُعد غاية كما زاد مشغوفا يروم وصـالا
وعانقها من فرط وجدٍ لحسنها فمدّ يمينا نحوهـا وشمالا

وفى رابع المحرم شرع فى بناء القنطرة التى على الخليج ، وهى التى تعرف بقنطرة السد .

وفيها – خامس شهر رمضان المعظم – قبض السلطان الملك الصالح على الأمراء الأشرفية الذين كانوا بالديار المصرية ، لما بلغه عنهم ما عزموا عليه من فساد الدولة . ونودى فى مصر والقاهرة من اختفى عنده أحد من الأشرفية شُنق ، وغُلقت أبواب القاهرة مدة أيام ، خلا باب زويلة ، وذلك حرصاً على مسكهم ، ثم قيدوا واعتقلوا .

وفى سابع عشرين ربيع الأول تولى(٦) بدر الدين بن باخل ثغر الاسكندرية . وكان قبل ذلك متولى مصر .

وفى ربيع الآخر وردت الأخبار أن الملك الناصر صاحب الكرك والملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق يومئذ اصطلحا وتحالفا ، واتفقا مع الفرنج ، وسلموا لهم القدس

(١) العبارة فى المتن : « وفيها كسرت الحلبيون للخوازمية . . . » .
(٢) فى المتن : « خلق كثير » .
(٣) فى المتن : « وعصى » .
(٤) يقصد قلعة جزيرة الروضة ؛ انظر المقريزى ، المواعظ ، ج ٢ ص ١٨٣ .
(٥) فى المتن : « وتحولوا » .
(٦) فى المتن : « تولا » .

الشريف وصيدا وبيروت . ولم تزل فى أيديهم إلى أن فتحها الله على يد الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب فى سنة إحدى وخمسين وستمائة . ثم إنه صالح الفرنج أن يكون القدس بينهم مناصفة . ولم تزل كذلك إلى أن خرجت البلاد عنه ، واستقر للفرنج صفد وطبرية وهونين .

قال ابن واصل : وفيها قدم القاضى بدر الدين يوسف بن الحسن الزرزارى ، المعروف بقاضى سنجار ، على السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، بالديار المصرية ، من بلاد حماة ، فالتقاه أحسن ملتقى[1] . وكان له عنده يد متقدمة ، لما أنجده بسنجار وهو محصور وقدم عليه بالخوارزمية بعد خروجهم عنه عند وفاة الملك الكامل ، تخلصوه من حبائل الأسر الذى كان قد تعاين له من بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، فأحسن مكافأته ، وولاه القضاء بالديار المصرية بمصر والوجه القبلى ، بكماله . وكان القضاء بكماله للقاضى شرف الدين المعروف بابن عين الدولة الإسكندرى ، فأبقى بيده قضاء القاهرة مع الوجه البحرى . وكان شرف الدين قد طالت مدة ولايته من أيام الكامل ، وإلى هذا التاريخ .

وكان القاضى شرف الدين بن عين الدولة ــ مع حرمته ورياسته وسكونه ــ كثير المزايد ، مليح الأجوبة ، حسن المحاضرة ، يقول الشعر الجيد ، فى شعره يقول :

وليت القضاء وليت القضاء   لم يكن شيئا توليته
فأوقعنى القضاء فى القضاء   وما كنت قدما تمنيته

ومن زوادره أن حضرت بين يديه امرأة المحاكمة فقال لها : « ماسمك؟ » . قالت : « ست من يراها ! » ، نوضع كمه على عينيه . وقال بعض العدول يوماً بين يديه : « إن هذا المكان قليل الهواء ، كثير الناموس » . فقال القاضى : « هكذا ينبغى تكون مجالس الحكام » .

وفيها توفى مجد الدين بن اللمطى[2] بمنية بنى خصيب . وهو أبو الطاهر إسماعيل

---

(١) فى المتن : « ملتقا » .

(٢) انظر كتاب السلوك للمقريزى (ج ١ ص ١٧١) .

ابن أبى الفوارس أحمد بن الحسن المنعوت بالمكرم . وكان قد ولى عدة ولايات بالديار المصرية . ومولده سنة خمس وأربعين وخمسمائة .

٣ وفيها ملك الناصر صاحب حلب قلعة جعبر ، بتدبير الزين الحافظى على الملك الحافظ صاحبها . وهو نور الدين أرسلان شاه ، وأخرجوه منها ، ودخل حماه .

وفيها كانت عدة حروب بين ملوك الإسلام . وكل ذلك لما أراده الله عز وجل
٦ من تملك التتار وتحكمهم فى البلاد .

وفيها استولت الخوارزمية على بلاد كثيرة ، وفعلوا أقبح مما فعلوه التتار . هذا قبل كسرتهم من الحلبيين .

ذكر سنة تسع وثلاثين وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم أربعة أذرع وعشرون أصبعاً . مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا، وسبعة عشر أصبعا .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين . والوزير بحاله . والسلطان الملك الصّالح نجم الدين أيوب سلطان الإسلام بالديار المصريّة. والصالح إسماعيل بدمشق. والناصر داود بالكرك . والمنصور إبراهيم بحمص . والمظفر محمود بحماه . والناصر يوسف بحلب . وباقى الملوك حسبما ذكرناه من قبل .

وفيها شرع السلطان الملك الصّالح فى عمارة المدارس بالقاهرة .

وفيها كان دخول الشيخ عز الدين بن عبد السلام إلى الديار المصرية ، وولاه الملك الصّالح نجم الدين القضاء والخطابة معاً بمصر مع الوجه القبلى . ثم إنه عزل نفسه وانقطع ، رضى الله عنه .

قلت : هذا ما ذكره أبو المظفر من تولية القاضى عز الدين بن عبد السلام .

وفيها توفى الملك الحافظ أرسلان شاه صاحب قلعة جعبر ، بمرض الفالج .

وفيها كان توجه كمال الدين بن شيخ الشيوخ بعسكر المصريين . وكانت الوقعة بينه وبين صاحب الكرك . وانكسر ابن الشيخ وأسره الملك الناصر صاحب الكرك . ثم منّ عليهم الملك الناصر وأطلقهم من الأسر .

وفيها تسلم الفرنج صفد والشقيف ، وهما من جملة الفتوح الصّلاحى . وسبب ذلك الخلف بين الملكين صاحب مصر وصاحب الشام . وذلك أن الملك الصالح إسماعيل لما خاف من الملك الصالح أيوب قصد معاضدة الفرنج، فلم يجيبوه حتى سلم لهم هذين الحصنين .

وفيها كان مرض الملك المظفر صاحب حماه بالفالج ، وبطل شقه ، وعجزت الأطباء عن مداواته ، وهو لا يُورى الأعداء إلّا تجلدا .

ذكر سنة أربعين وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

المـــاء القديم أربعة أذرع وأربعة عشر أصبعا . مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا وثمانية أصابع .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى حين وفاته فى هذه السنة ، بكرة يوم الجمعة عاشر جمادى الآخرة ، وله أحد وخمسون سنة وأربعة أشهر وسبعة أيام . وكتم موته ، ولم يشعر بوفاته ، ودعاء الخطباء فى ذلك اليوم له . ثم خرج شرف الدين إقبال الشرابى ومعه جماعة من الخدام إلى التاج الشريف ، وحضروا بين يدى ولده .

ذكر خلافة الإمام المستعصم بالله وأخباره وما لخص من سيرته

هو أبو أحمد عبـد الله المستعصم بالله بن المستنصر بالله بن الظاهر بأمر الله ابن الناصر لدين الله . وباقى نسبه قد علم . أمه أم ولد ، يقال إنها روميّة ، تعرف بقوت القلوب . بويع يوم وفاة أبيه . ودخل عليه شرف الدين إقبال الشرابى وبقية الخدام ، وسلموا عليـه بأمير المؤمنين . ثم عرَّف الوزير وأستادار . وحضر القضاة وبدر الدين بن القمى وبايعوه ، وعزوه بأبيه . وكذلك باقى أولاد الخلفاء ، ثم سائر الأمراء والأعيان . ثم أعرضت عليه ألقاب[1] الخلفاء ، فاختار المستعصم بالله .

وفى صبيحة ذلك اليوم رأى الناس أبواب الخلافة مغلقة . وجلس عبد اللطيف ابن عبد الوهاب الواعظ ، ثم أخبرت الناس بوفاة الإمام المستنصر ، وبيعة الإمام المستعصم . فكان من جملة ما قاله الواعظ من الكلام : « أيها الناس إن إمامكم المستنصر بالله قد درج إلى رحمة الله ورضوانه . وقد بُويع ولده الإمام المستعصم بالله

(١) فى المتن : « اللقاب » .

أبو أحمد عبد الله أمير المؤمنين » . ثم استدعى إلى دار الخلافة الولاة والزعماء والمدرسون ، ومشايخ الرباطات ، والأعيان . وفتح باب العامة ، فدخل المذكورون وعليهم ثياب العزاء . وانتهى بهم المشى إلى بستان التاج الشريف . وقد نصب بين يدى شباك المبايعة كرسى بدرج ، والوزير جالس على أعلى درجة ، ومن دونه الأستادار يأخذ البيعة على الناس . ونصها : « بايع سيدنا ومولانا أمير المؤمنين على كتاب الله وسنة نبيه واجتهاد رأيه الشريف ، وأن لا خليفة للمسلمين سواه » . فبايع الناس أولًا فأولًا على قدر درجاتهم . ثم أسبلت الستارة ، واحتجب بها . ولم تزل المبايعة إلى يوم الاثنين ثالث عشره .

ثم تقدم من حضر من الناس ، وأمر بالحضور بين يديه إلى دار النوبة . ووصلت محفة الوزير إلى باب الرّواق . وجلست الصدُور حوله على قدر مراتبهم ، وقرئ القرآن العظيم ، وختمت الختمة الشريفة . وتكلم الإمام جمال الدين بن الجوزى ، وهو أبو الفرج عبد الرحمن بن محيي الدين يوسف . وانقضى المجلس .

واستقر خليفة إلى حين أخذ التتار بغداد ، فى سنة ست وخمسين وستمائة ، فى شهر المحرم ، فكانت خلافته خمس عشرة سنة ، وثمانية أشهر . وأخرج من خلافته ومحلّ سلطانه [فى] السابع والعشرين من الشهر المذكور ، حسبما يأتى من ذكر ذلك فى تاريخه .

وكان لهما أخ يعرف بالخفاجى ، كان يزيد على المستنصر بالله فى الشهامة . وكان يقول : « إن ملّكنى الله أمر الأمة لأستنقذن من التتار جميع ما ملكوه من بلاد المسلمين » . فأضرب(١) عنه أرباب الدولة لشهامته ، ومالوا للمستعصم ، للينه ، ليكونوا الحكام عليه . وكان ذلك لأمرٍ قد قدر .

وكان فيه هوج ، وطيش ، وظلم ، مع بلَهٍ ، وضعفٍ ، وانقياد إلى أصحاب السخف . يلعب بطيور الحمام ، ويركب الحمير المصرية الفره ، غير ناظرٍ إلى أمر مصالح

(١) فى المتن : « فأضربوا » .

المسلمين ، ولا مفكر فى عواقب الزمان . وهو آخر خلفاء بنى العباس ببغداد . وعدتهم من السفاح إليه أربعة وثلاثون[١] خليفة ، بعدما أسقطنا من جملتهم إبراهيم ابن المهدى ، وعبد الله بن المعتز ، فإن حُسبا فى الجملة كانوا ستة وثلاثين[٢] خليفة ، مُدة ملكهم إلى حين انتقاض أمرهم على يد التتار من العراق ـ بحكم التقريب لا بالتحرير ـ يكون خمس مائة سنة ، تزيد قليلا أو تنقص قليلا ، فإن العبد جَمَل عدة سنين تملكهم ـ من السفاح إلى المستعصم هذا على رأى الجماعة أصحاب التواريخ ـ فكانت خمس مائة سنة وتسع سنين . وأضفت ذلك إلى أيام ملك بنى أمية ، وأيام الخلفاء الراشدين ، وأيام الهجرة . وأضفت إلى تلك السنين إلى سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة ، فنقصت عن الجملة ، تقدير عشر[٣] سنين . ولعلها متداخلة فيما بين المدد ، واختلالها من جهة الأشهر والأيام التى لم تحصر ، والله أعلم .

وفى هذه السنة توفى سيدى الشيخ أبى السعادات بن أبى العشائر الواسطى ، قدس الله روحه ، ونوّر ضريحه ، شيخى وقدوتى ، والوسيلة بسيدنا رسُول الله صلى الله عليه وسلم إلى الله عز وجل ، أن يحشرنى على ملته ، ويمتنى على محبته ، بمنه وكرمه ورحمته . ودفن سيدى الشيخ المشار إليه بالقرافة ، بسفح المقطم ، نفع الله ببركته .

قال ابن واصل : وفى هذه السنة كانت الوقعة بين الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص وبين الملك المظفر شهاب الدين غازى صاحب ميافارقين . وكان مع الملك المنصور التركمان ، ومقدمهم يسمى ابن دودا[٤] . وكان مع المظفر غازى الخوارزمية ، فكانت الكسرة على المظفر والخوارزمية ، ونهب أموالهم ونساءهم ، وذلك يوم الخميس لثلاث بقين من صفر . ورجع المنصور إبراهيم إلى حلب منتصراً ، وهو يومئذ منتظم فى سلك الصاحبة [ضيفة خاتون] أم الملك العزيز صاحب حلب .

(١) فى المتن : « وثلاثين » .
(٢) فى المتن : « وثلاثون » .
(٣) فى المتن : « عشرة » .
(٤) كذا فى المتن ، وفى مفرج الكروب لابن واصل (حوادث سنة ٦٤٠ هـ ـ مخطوط) جاء الاسم : « ابن دودى » .

وفيها توفت الصاحبة [ضيفة خاتون][(١)] المذكورة ، واستبد بالأمر الملك الناصر صلاح الدين ، وله يومئذ من العمر ثلاث عشر سنة ، مراهقا للبلوغ ، والرأى راجع إلى الأمير جمال الدولة إقبال الخاتونى ، والوزير القاضى الأكرم جمال الدين بن القفطى .

وفيها ـ أعنى سنة أربعين وستمائة ـ كانت عدة وقعات بين عسكر حلب وبين الخوارزمية ، ومعهم شهاب الدين غازى ، وكذلك صاحب ماردين الملك السعيد إيلغارى[(٢)] . وآخر الأمر أن صاحب الروم أصلح بينهم ، وقعد كل منهم ببلاد ونواحى . وسير صاحب الروم يستخدم الرجال لأجل التتار وما فعلوه ، وبطلت النجدة عليهم .

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من ابن واصل (مفرج الكروب ـ حوادث سنة ٦٤٠هـ) .

(٢) كذا فى المتن ؛ وفى مفرج الكروب لابن واصل : « الملك السعيد نجم الدين غازى صاحب ماردين » .

ذكر سنة إحدى وأربعين وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم خالٍ ، لم يكن به ماء يذكر . مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا وثمانية أصابع .

ماتخص من الحوادث

الخليفة الإمام المستعصم بالله أمير المؤمنين . والوزير بحاله . والسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب سلطان الديار المصرية وما معها .

وفيها كان ابتداء الصلح بين الملك الصالح أيوب والملك الصالح إسماعيل. وكان السفير بينهما فى ذلك من قبـــل الخلافة الأصيل الخطيب . وأطلق الصالح إسماعيل المغيث عُمر بن الملك الصّالح . ثم إن السّامرى وزير الصالح إسماعيل أعكس الرأى ، وقال لإسماعيل : « هذا خاتم سُليمان فى يدك لاتنزعه » . فتوقف الأمر ولم يتم الصلح بينهما . ومُنع المغيث من الركوب ، وجلس فى برج بقلعة دمشق . وكتب الملك الصالح أيوب إلى الخوارزمية ، فعبروا الفرات[1] ، وانقسموا قسمين : قسمة أتوا على بقـاع بعلبك وقسمة على غوطة دمشق ، ينهبوا ويسبوا ويقتلوا ، وسد الصالح إسماعيل أبواب دمشق ، ونزلوا غزة .

وفيها صالح صاحب الروم التتار[2] ، على أن يدفع لهم فى كل يوم ألف دينار ، وفرسا ومملوكاً وجاريةً وكلب صيدٍ . وكان عقله ناقصا يلعب بالكلاب والسباع ، ويسلطها على الناس ، فعضه أسد ، فمات منه . واستولى[3] التتار على مملكة الروم . وأكسروا عساكرها . وكان قبل ذلك قد اصطلح صاحب الروم مع الخوارزمية ، واتفقوا مع صاحب ميافارقين وصاحب حلب وصاحب ماردين . واجتمعوا جميعهم

---

(١) فى المتن : « الفراة » .

(٢) فى المتن : « للتتار » .

(٣) فى المتن : « واستولوا » .

وضربوا مع التتار مصافا . وكان التتار فى جمعٍ عظيمٍ ، فكانت الكسرة فى الأول على التتار . ثم ردوا ردة على المسلمين ، فانكسروا كسرة عظيمة ، وقتل منهم خلق كثير ، وهرب كل ملكٍ إلى جهة . واستولى[١] التتار على البلاد . ورجع عسكر حلب فى أنحس حالٍ . واستولى على الممالك التتار .

واستقر بملك الرُّوم بعد وفاة صاحبه عز الدين كيكاوس ، وأخوه ركن الدين قليج أرسلان . ثم هرب كيكاوس إلى قسطنطينية ، واستقل قليج أرسلان بملك الرُّوم . هذا والخوارزمية بغزة ، تحت أوامر الملك الصّالح نجم الدين أيوب صاحب مصر ، ومقدموهم يومئذ أربع خانات وهم : حسام الدين بركة خان ، وزين الدين خان بردى ، وعز الدين صاروخان ، وبهاء الدين كشلوخان . وكانوا فى عشرة آلاف فارس . وأفسدوا فى طريقهم ــ حتى أتوا إلى غزة ــ ماوصلت إليه قدرتهم من كل فعلٍ قبيحٍ . وكان عسكر دمشق مجرّداً[٢] على غزة ، فلما بلغهم مجىء الخوارزمية ، هربوا إلى دمشق . وهرب الملك الناصر داود إلى الكرك . وهربت الفرنج الذين كانوا ببيت المقدس إلى عكا . ونهبت الخوارزميّة القدس ، وقتلوا كل من وجدوه فى طريقهم من النصارى[٣] ، ودخلوا كنيسة قمامة ، وأخربوا القبور التى فيها ، وأحرقوا عظام الموتى . ثم نزلوا غزة بعد فسادٍ كثير . ثم سيروا رسلهم إلى الملك الصّالح أيوب بمصر ، يستأذنونه فى محاصرة دمشق ، ومحاربة الصالح إسماعيل عمه . فأخلع على رسلهم وأعطاهم الأموال ، وسير الخلع والأموال الجزيلة إلى مقدمى الخوارزمية . وجهز من عنده عسكراً[٤] من المصريين ، نجدة للخوارزمية، مع أمراء كبار من الأكراد ، وكانوا أيضاً أتوا من الشرق نجدة للملك الصّالح أيوب . وتوجهوا إلى نحو دمشق .

(١) فى المتن : « واستولوا » .
(٢) فى المتن : « مجرد » .
(٣) فى المتن : « النصارا » .
(٤) فى المتن : « عسكر » .

وأما الصالح إسماعيل فإنه سيّر إلى الفرنج يطلب منهم النجدة . واتفق الحال بينه وبين الفرنج أن تكون مصر والشام بينهم بالمساواة . ثم خرجت عساكر الشام ، ومعهم فرسان الفرنج ، والتقوا مع عساكر مصر ومعهم الخوارزمية . وكانت وقعة عظيمة ، قتل من الفريقين خلق كثير . ثم انتصر(١) المصريون والخوارزمية على الشاميين والفرنج . ثم إن الفرنج ركبوا أقفية أصحابهم الشاميين المنهزمين ، قتلا وأسرا .

ووصل الخبر إلى الديار المصرية بكسرة الفرنج ومن معهم من عسكر الشام ، فضربت البشائر بذلك . وجمع الملك الصالح أيوب الأمراء عنده بقلعة المقياس ، وفرّق الأموال والخلع ، وكان نهاراً مشهوداً . ثم بعد أيام قلائل دخل الأمير حسام الدين بن أبي على بالأسرى(٢) من الفرنج على الجمال ، وشقوا بهم القاهرة . ثم سير السلطان الملك الصّالح أيوب مملوكه الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري(٣) ، في عسكر كثيف من المصريين والتركمان ، ثم أمره أن ينزل على غزة .

وفى هذه السنة انتظمت مملكة السلطان الملك الصالح أيوب ، ووصل إليه جميع عساكر السّواحل ، وعسكر القدس ، والخليل ، وبيت جبريل ، والأغوار ، وغيرهم.

وفيها رسم السلطان لوزيره معين الدين(٤) بن شيخ الشيوخ أن يكون نائبه بدمشق ، وحكمه فيها ، وأقامه مقام نفسه . ووصل إلى الخوارزمية وصار مقدماً عليهم . واشتد الحصار بدمشق ، فسيّر الصالح إسماعيل إلى ابن الشيخ سجادة وعكاز وإبريق(٥) .

---

(١) فى المتن : « ثم انتصروا » .

(٢) فى المتن : « بالأسرا » .

(٣) ركن الدين بيبرس هذا غير السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الظاهرى ؛ انظر أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٣٢٢ .

(٤) فى المتن : « صفى الدين بن شيخ الشيوخ » وأمامها فى هامش الصفحة : « قال ابن واصل اسمه معين الدين » . وهو معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه (انظر كتاب السلوك للمقريزى ، ج ١ ص ٢٢١ ، والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن ، ج ٦ ص ٣٢٢) .

(٥) السجادة والعكاز والإبريق هى أدوات الانقطاع للعبادة والزهد والتصوف .

وذلك يوم الاثنين ثامن المحرم سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، وقال له : « اشتغالك بهذا أولى من اشتغالك بحرب الملوك وأبناء الملوك » . فنفذ إليه ابن الشيخ جنك[١] وزمر وغلالة[٢] حرير أحمر وأصفر وقال له: « السجادة وما معها تصلح لى، وأنت أولى بهذا من الملك » . وأصبح فقوّى الحصار ، حسبما يأتى من تتمة الكلام فى تاريخه .

---

(٣) الجنك بكسر أوله وسكون ثانيه، المشتغل بالرقص والغناء والطرب. أو هى من أدوات الغناء والطرب . (Dozy : Supp. Dict . Ar.)

(٤) الغلالة : قميص يرتديه الرجال أو النساء (Dozy : Supp . Dict. Ar.) .

ذكر سنتى اثنتى وثلاث وأربعين وستمائة

النيل المبارك فى هاتين السنتين

الماء القديم لسنة اثنتين أربعة أذرع . مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعاً واثنى عشر أصبعاً .

الماء القديم لسنة ثلاث أربعة أذرع وعشرين أصبعاً . مبلغ الزيادة ثمانية عشرة ذراعاً وأربعة أصابع .

الحوادث

الخليفة فيهما الإمام المستعصم بالله . والوزير مؤيد الدين بن العلقمى بحاله .

والسلطان الملك الصّالح نجم الدين أيوب بالديار المصرية . والحصار مستمر[1] على دمشق . وملكُها الصّالح إسماعيل أبوالجيش. وابن الشيخ مقدم العساكر المصرية وقد شدد الحصار وأحرق قصر حجاج . ولم يزل مشدداً فى ذلك حتى فتحها فى أول شهر جمادى الأولى . وهرب الصالح إسماعيل ، والأمير عز الدين أيبك صاحب صرخد . واستقر الصاحب صفى الدين نائباً بها من قبل السلطان الملك الصّالح نجم الدين أيوب .

وفيها بعث الإمام المستعصم بالله أمير المؤمنين خلع السلطنة والتقليد بمصر والشام وما معهما للملك الصّالح نجم الدين أيوب ؛ واستقام سلطانه .

قال ابن واصل: وفى سنة اثنتى وأربعين توفى الملك المظفر تقى الدين محمود صاحب حماه إلى رحمة الله تعالى . وذلك يوم السبت لثمان بقين من جمادى الأولى ، وكانت مدة ملكه خمسة عشر سنة وسبعة أشهرٍ وعشرة أيامٍ . أقام مريضاً بالفالج سنتين وتسعة أشهر . وكان عمره نحو ثلاثة وأربعين سنة ، لأن مولده سنة تسع وتسعين وخمسمائة. ولم يخلف من الذكور غير الملك المنصور ناصر الدين محمد وأخيه الأفضل نور الدين على أبى الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل الآتى ذكره فى الجزء المختص بسيرة مولانا

(١) فى المتن : « مستمرا » .

السلطان الأعظم الملك الناصر عز نصره . وكان الملك المظفر المذكور ، رحمه الله ، ملكا شجاعا ، ذا[1] قوة وافرة ، ذكيًا ، فطناً ، لوذعياً. وقام بأمر الملك ولده السلطان الملك المنصور ناصر الدين محمد ، وعمره يومئذ عشر سنين وشهرا واحداً وثلاثة عشر يوماً . وقام بتدبير ملكه الأمير سيف الدين طغريل أستاذ دار والده ، والمشير إليه فى الدولة شرف الدين عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الأنصارى ، والطواشى شجاع الدين مرشد المنصورى ، والوزير بهاء الدين بن تاج الدين . والجميع يرجعون إلى ما تأمر به الصاحبة غازية خاتون بنت السلطان الملك الكامل ، رحمه الله .

وفيها أيضا توفى الملك المظفر شهاب الدين غازى بن الملك العادل. وملك بعد المظفر غازى ميافارقين وأعمالها ولده الملك الكامل ناصر الدين محمد ، ولم يزل مالكها إلى أن تملكها التتار .

[وتوفى] الملك المغيث بن السلطان الملك الصّالح نجم الدين أيوب . وكانت[2] وفاة الملك المغيث وهو معتقل عند الصالح إسماعيل بدمشق . واتهم أنه قتله ، فتغير لذلك الملك الصالح أيوب على الصالح إسماعيل .

(١) فى المتن : « ذو » .
(٢) فى المتن: « وكان » .

ذكر سنة أربع وأربعين وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم ستة أذرع . مبلغ الزيادة سبعة عشرة ذراعا وسبع أصابع .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام المستعصم بالله أمير المؤمنين . والوزير بحاله . والسلطان الملك الصّالح نجم الدين أيوب سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية . وابن الشيخ النائب بدمشق .

وفيها استمال الخوارزمية الصالح إسماعيل ، وانحرفوا عن ابن الشيخ ، وعن خدمة الملك الصّالح نجم الدين . وسببه أنه لما كثر فسادهم بأعمال دمشق ، كاتب فيهم ابن الشيخ للملك الصّالح ، فكتب إليه بردعهم ، فتنمروا عليه ، ومالوا إلى الصالح إسماعيل بمكاتبته لهم ، وترغيبهم فيما أحبوا . واستمال الملك الصّالح نجم الدين أيوب الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص ، واقتطعه عن الصالح إسماعيل .

وفيها كانت الوقعة بين الملك المنصور صاحب حمص ـ وكان معه الحلبيون[1] ـ وبين الخوارزمية ، والصالح إسماعيل والناصر داود ، وعز الدين أيبك ، على بحيرة حمص ، يوم الجمعة تاسع المحرم . وانكسرت الخوارزمية كسرة شنيعة ، ما كسروا مثلها قط . وقتل مقدمهم بركة خان. وهرب الصالح إسماعيل، والأمير عز الدين أيبك، عرايا جياعا ، على فرس ، فرس ، ونهبت أموالهم . ووصلوا إلى حوران . وساق صاحب حمص إلى بعلبك ، وأخذ الربض[2] وسلمه للأمير ناصر الدين القيمرى والأمير جمال الدين هارون ، وودّع الحلبيين وعاد إلى حمص.

وفيها حضر السلطان الملك الصالح أيوب إلى دمشق ، وأتى إلى خدمته صاحب

(١) فى المتن : « الحلبيين » .

(٢) يقصد ربض بعلبك ، والربض هو ماحول المدينة من الخارج ، وقلّ ما تخلو مدينة من ربض (ياقوت ، معجم البلدان) .

حمص ، ونزل بستان شامة ، ونزلت طائفة من الخـــوارزمية بأرض البلقاء . ونزل إليهم الملك الناصر داود صاحب الـكرك وصاهرهم واستخدمهم وأنزل غائلتهم الصلت .

وفيها مرض المنصور صاحب حمص بدمشق ، وتوفى بها ، وحُمل إلى حمص ، ودفن بها . وقام بمملـكة حمص ولده الملك الأشرف موسى بن المنصور إبراهيم .

وفيها كانت وقعة ابن الشيخ مع الخوارزمية ، وكسرهم وبدد شملهم . وكان الناصر ـ فيهم ـ صاحب الـكرك ، وتبعه الخوارزمية ، فلم يمكنهم من صعود القلعة بالـكرك ، ولا الربض . وأحرق ابن الشيخ الصلت ، وساق إلى الـكرك . وطلع الأمير عز الدين أيبك إلى قلعة صرخد ، واعتصم بها . وكانت كسرة الخوارزمية من ابن الشيخ فى سابع عشر ربيع الآخر من هذه السنة .

ونزل ابن الشيخ على الـكرك فى الوادى. وتسلم الأمير حسام الدين بن أبى(١) على قلعـة بعلبك ، باتفاق واليها . وبعث عيال الصّالح إسماعيل إلى مصر ، وفيهم الملك المنصور نور الدين محمود بن الملك الصالح عمـــاد الدين إسماعيل ، وأمين الدولة السامرى ، وزين الملك الصالح إسماعيل ، وأستاذ داره ناصر الدين بن يغمور ، فاعتقلوا بالقلعة المحروسة .

وكان حسام الدين بن أبى على ـ لما اعتقله الصالح إسماعيل بقلعة بعلبك مع جماعة من أصحاب الملك الصالح أيوب ـ تمنى ذات يوم على الله تعالى أن يمكنه من أهل الملك الصالح إسماعيل ، ويملـكه بعلبك . ثم قال فى نفسه : « هـذا أمل بعيد » . فلم تمض الأيام والليالى حتى بلّغه الله أمنيته .

وفى هذه السنة ـ أعنى سنة أربعة وأربعين(٢) وستمائة ـ [كان] الأمير حسام الدين بن أبى على ، نائبا بدمشق للسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب .

---

(١) فى المتن: « أبو » .

(٢) فى المتن : « أربعة وعشرين » .

ثم إن الصالح إسماعيل وفد على حلب فى جماعة من الخوارزمية، منهم كشلوخان ، هاربين من الملك الصالح أيوب . ولم يبق لإسماعيل مكان بالشام يؤويه ، فتلقاهم الملك الناصر يوسف صاحب حلب ، ونزل الصالح إسماعيل فى دار جمال الدين الخـــادم . ثم قبض على كشلوخان ومن معه من الخوارزمية ، وملأ بهم الحبوس .

ثم إن السلطان الملك الصالح أيوب توجه إلى بعلبك ورتب أحـــوالها ، ورجع إلى نحو صرخد . ومشى الأمير ناصر الدين القيمرى فى الصلح ، وكذلك جمال الدين ابن مطروح ، بين السلطان وبين الأمير عز الدين صاحب صرخد ، بوساطة شمس الدين بن العميد أيضاً . وخرج الأمير عز الدين عن صرخد ، ونزل فى ميدانها ، وتسلمها السلطان ، و رجع عز الدين فى خدمته إلى دمشق . ونزل النيرب[1] وكتب له منشوراً بقرقيسيا[2] والجدل ، وضياعها فى الخابور ، فلم يحصل له منها شىء . ثم إنه أحسن إلى أهل دمشق ، وتصدق على فقرائها بجملة مالٍ ، وخلع على أعيان الدماشقة . ثم توجه السلطان إلى ديار مصر ، ودخل القدس الشريف ، وتصدق على فقرائه وقوّامه ، ومجاوريه ، بألفى دينار . وأمر بعمارة سوره ، وقاسه ، فكان ستة عشر ألف ذراع ، فقال: « اصرفوا مغل القدس فى عمارته ، وإن عازه شىء بُعث من مصر » . وأمنت البلاد واطمأنت أهلها ، بعد قتله بركة خان مقدم الخوارزمية .

وحكى الشيخ تقى الدين أبو بكر بن الجوزى ــ رحمه الله ــ قال : حكى لى بعض كتاب الخوارزمية بالقاهرة فى سنة خمس وستين وستمائة قال : كان لبركة خان منجِّم نصرانى ينظر فى لوح كتف الغنم ، فنظر له يوما فقال : « لابد ما تطلع حلب ، وتعلو قلعتها فى الشهر الفلانى» . واطمأن بركة خان ، وركن لقوله . ثم إنه حرّر عليه المسألة

---

(١) نيرب : قرية مشهورة بدمشق ، على نصف فرسخ ، فى وسط البساتين ، ذكر عنها ياقوت أنها « أنزه موضع رأيته » (معجم البلدان) .

(٢) قرقيسيا أو قرقيسياء ، بلد على نهر الخابور عند مصبه فى الفرات ، فهو فى مثلث بين الخابور والفرات (ياقوت ، معجم البلدان) .

فى أى يوم يكون فى ذلك الشهر طلوعه إلى قلعة حلب ، فنظر وحرّر ، وقال له : « فى اليـــوم الفلانى من الشهر الفلانى » . فلما قتل بركة خان وأُتى برأسه إلى شمس الدين لؤلؤ نائب الناصر بحلب ، أمر بنصبها على قلعة حلب ، فنصبت فى ذلك اليوم الذى قال له المنجم إنه يملك فيه حلب ويعلو القلعة ، والله أعلم .

ذكر سنة خمس وأربعين وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم ستة أذرع . مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا وأربع أصابع .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام المستعصم بالله أمير المؤمنين . والوزير ابن العلقمى بحاله .

والسلطان الملك الصّالح نجم الدين أيوب سلطان الإسلام بمصر والشام وما معهما .

والكرك الناصر داود .

وحمص الأشرف موسى بحكم وفاة والده الملك المنصور إبراهيم فى هذه السنة بمرض السل . وكانت مدة مملكته حمص وأعمالها نحوا من سبع سنين . وكان قد رجع إلى مناصحة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وقام فى خدمته أتم قيام . ولما قام بالملك بعده ولده مظفر الدين موسى ، ولقب بالأشرف ، كان صبيا ، فقام بتدبير الأمور عنه ووزارته القاضى مخلص الدين إبراهيم بن إسماعيل بن قرماص ، وهو من أكابر أهل حماه .

وحماه المنصور بن المظفر .

وحلب الناصر يوسف .

وباقى الملوك حسبما تقدم من ذكرهم .

والتتار قد أخربوا البلاد وأكثروا فيها الفساد . وغاراتهم واصلة إلى بغداد والأنبار ، وإلى ديار بكر . والشرق جميعه منهم فى شغل شاغل .

وفيها توفى الشيخ على الحريرى ـ قدس الله رُوحه ـ وكان مقيماً بقرية بُسْرى[1] ، وزاويته مجاورة لزرّع . وفى هذه القرية قبر اليشع عليه السلام .

---

(١) ذكر ياقوت أن بسرى اسم قرية (معجم البلدان) .

وفى سنة خمسة وأربعين توفى الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن السلطان الملك الكامل وهو بالاعتقال . كانت(١) مدة اعتقاله نحـواً من ثمان سنين . وكان عمره نحو ثلاثين سنة . [وخلف ولدا صغيرا ــ وهو الملك المغيث فتح الدين عمر ــ فأنزل إلى القاهرة فكان عند عماته بنات الملك العادل المعروفات بالقطبيات](٢) .

وفيها توفى الأمير عز الدين أيبك ــ رحمه الله ــ صاحب صرخد ، مسقيًّا ، حسبما يأتى من ذكر ذلك فى شهر ذى الحجة .

وفيها توفى قاضى القضاة بالديار المصرية فى شهر رمضان .

وفيها احترقت مأذنة جامع دمشق .

وفيها أيضاً توفى بقلعة الجبل بدر الدين سليمان بن داود بن العاضد ، الذى كان آخر الخلفاء العبيدين بمصر ، وهو أحد من كان يعتقدونه الشيعة بالإمامة .

---

(١) فى المتن : « كان » .

(٢) العبارة مختلطة وناقصة بالمتن ، وما بين حاصرتين من مفرج الكروب لابن واصل (حوادث سنة ٦٤٥ هـ ــ مخطوط) .

ذكر سنة ست وأربعين وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم خمسة أذرع وأربعة عشر أصبعا. مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا وثلاثة وعشرون أصبعا .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام المستعصم بالله أمير المؤمنين . والوزير ابن العلقمى بحاله. والسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب سلطان الإسلام بمصر والشام . وكذلك بقية الملوك بحالهم ، حسبما تقدم من ذكرهم .

وفيها ولدت ببغداد امرأة فقيرة أربعة أولاد فى بطن واحدة ، ذكرين وأنثيين ، وأحضروا إلى الإمام المستعصم بالله أمير المؤمنين ، فأنعم عليهم بإنعام مبلغه ألف دينار، وأوقف عليهم وقفا ، والله أعلم .

ذكر سنة سبع وأربعين وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

المـــاء القديم خمسة أذرع وستة أصابع . مبلغ الزيادة تسعة عشرة ذراعاً وثمانية أصابع .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام المستعصم بالله أمير المؤمنين . والوزير بحاله . والسلطان الملك الصّالح نجم الدين أيوب سلطان الإســلام بمصر والشام . وكذلك بقية الملوك كل منهم فى محل ملــكه ومملــكة سلطانه .

والنائب فى هذه السنة بالديار المصرية الأمير حسام الدين بن أبى على ، وبدمشق الأمير جمال الدين بن يغمور ، وكلاهما نواب السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وفيها كان مرض السلطان الملك الصّالح بالسقية ، التى يأتى ذكرها .

وفيها كان نزول الفرنسيس ملك الفرنج[1] على ثغر دمياط المحروس بالديار المصرية . وخرج السلطان الملك الصالح ونزل بالعساكر على أشموم الرمان ، وهو مريض لايستطيع الركوب ، وقد وقعت بعض محاشمه على ما ذكر . وكان الحرب بينهم ، حسبما يأتى من ذكر ذلك .

ذكر سبب مجىء الفرنسيس وما تم فى هذه الوقعة

كان سبب ذلك أنه لما افترق ملك الفرنج الأنبرور[2] من السلطان المرحوم الملك الكامل ، وهما أصحاب ، وعادت بينهما المراسلات والكتب والهدايا . واستمر ذلك فى سلطنة الملك الصالح أيضا . وهـــذا الفرنسيس أكبر ملوك الفرنج الداخلة ، وأكثرهم قلاعاً وجموعاً ، فحشد حشوده ، وجمع جموعه ، وقصد الديار المصرية ،

---

(١) يعنى لويس التاسع ملك فرنسا .

(٢) يعنى الأمبراطور فردريك الثانى أمبراطور الدولة الرومانية المقدسة .

لما حدثته نفسه الخائنة ، وأطاعه الكاذبة . ولم يكن له طريق[١] إلا على بلاد الأنبرور . فلما حسّ به الأنبرور كتب كتاباً إلى السلطان الملك الصالح يعرّفه بوصُول الفرنسيس إليه ، وهو طالب[٢] لثغر دمياط . وهذا الفرنسيس يسمى ريدافرنس[٣]. ثم قال الأنبرور فى كتابه للسلطان : « إنه قد وصل فى خلقٍ كثيرٍ ، وقد اجتهدت غاية الاجتهاد على رده عن مقصده وخوفته ، فلم يرجع لقولى ، فكن منه على حذر » . فلما وصل كتاب الأنبرور إلى الملك الصالح احترز ، وجهز الآلات برسم القتال وتحصين دمياط ، وجعل الأمير حسام الدين بن أبى على مشدًّا على عمارة الشوانى ، ورسم لفخر الدين بن الشيخ أن ينزل على دمياط .

ولمّا كان يوم الجمعة لسبعٍ بقين من صفر من هذه السّنة ، وصل إلى دمياط مراكب سدت البحر كثرة ، الفرنسيس وجموعه ، لعنه الله . ولما وصل البر بالفم[٤] لم يعبره حتى نفّذ رسول ، وعلى يده كتاب فيه ما هذا نسخته . يقول بعد كلمة كفرهم: « بسم الإله النصيح ، صاحب الدين الصحيح ، عيسى بن مريم المسيح . أمّا بعد فإنه لم يخف عليك ولا على كل ذى عقلٍ ثاقب ، وذهنٍ لازب ، أنك أمين هذه الملّة الحنيفية ، وأنا أمير هذه الملة النصرانية . وليس خفى عنك ما فتحنا من بلاد الأندلس والسبارا ، وأخذنا النساء والعذارى[٥] ، وفرقناهم على ملة النصارى[٦] ، وجعلنا رجالهم أسارى[٧] ، ونساءهم عليهم حيارَى . وقد علمت ما نحن فيه من حق الرعيّة ، لما فتحنا بلاد الهديّة ، وعفونا على ثغر الإسكندرية ، فلا تلجىء العالم إلى العسف ،

---

(١) فى المتن : « طريقا » .

(٢) فى المتن : « وهو طالبا » .

(٣) من الواضح أن هذه التسمية التى أطلقتها المصادر العربية على لويس التاسع ، إنما هى ترجمة للفظ Roi de France

(٤) أى فم النيل عند مصب فرع دمياط فى البحر المتوسط .

(٥) فى المتن : « والعذارا » .

(٦) فى المتن : « النصارا » .

(٧) فى المتن : « أسارا » .

ولا تسيمهم بسيماء الخسف . نقتل العبّاد ، وندوس البلاد ، ونطهّر الأرض من الفسّاد ، فإن قابلتنا بالقتال ، فقد أوجبت على نفسك ورعيتك النكال ، وأرميتهم فى أشرّ الوبال ، يكثر فيهم العويل . ولا نرحم عزيز ولا ذليل ، ولا تجد إلى نصرتهم من سبيل . ونحن نشرح لك ما فيه الكفاية ، وأبذلنا لك غاية النصيحة والهداية ، أن تنقل إلى عندنا ماعندك من الرهبان ، وتحلف لنا بعظائم الأيمان ، أن تكون لنا نائبا على ممرّ الأزمان ، وتعجل لنا بما عندك من مراكب وطرائد وشوانى ، ولا تكون فيك فترة ولا توانى ، لتكون قلوبنا راضية عليك ، ولا تسوق البلاء بيدك إليك ، وتكون على نفسك وجيشك قد جنيت ، وتعود تقل « ياليت » . وتضع الحرب أوزارها ، وتشعل نارها ، ويتعالى شرارها ، ويقتم فنارها ، وتأخذ منكم بثارها ، فسُيوفنا حداد ، ورماحنا مداد ، وقلوبنا شداد ، ويحكم بيننا وبينكم رب العباد . فإن كانت لك فهدية ألقت بين يديك ، وإن كانت لنا فيدُنا العليا عليك ، إذاً استحق بالإضافة إمارة الملتين ، وحكم الشريعتين ، وبيد الله تعالى السعادة ، وهو الموفق للإرادة » . ثم كتب فى آخره يقول :

ستسلم إن سلمت غير محارب فإنك لترجو[1] أموراً ترومُها
أتيناك فى خلق كرام وعصبة مسيحية لم تخف عنك عاومها
وها أنا قد أنشدت بيتا مهددا مخافة أن لاتلتقى النفس ضيمها
ستعلم ليلى أىّ دينٍ تداينت وأىّ غريم للتقاضى غريمها

ولمّا وصلت هذه المكاتبة للسلطان الملك الصّالح كان فى أشدّ ما يكون من المرض ، فكتب الجواب ، ونفذه . وهو ما هذا نسخته :

بسم الله الرحمن الرّحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على القوم الظالمين ، من عند الدارىْ عن حرم المسلمين ،

(١) فى المتن : « لا ترجو » .

والقارئ كتاب رب العالمين ، المنزّل على خير المرسلين ، محمد صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه الأنصار والمهاجرين ، صلاةً دائمةً إلى يوم الدين . أمّا بعد فقد وصل كتابك ، وفهمنا لفظك وخطابك ، وها أنا قد أتيتك بالخيل والرجال ، والخزائن والأموال ، والعساكر والأثقال ، والقيود والأغلال ، فإن كانت لك فأنت السّاعى ، وقد أمنت الناعى ، وإن كانت عليك فأنت الباغى لحتفك ، والجادع أنفك بظلفك . فإن رأيت أن لاتقيم بين الفئتين ضغنا ، فلذلك منّ الله علينا وعليكم مننا ، وإن غير ذلك فقد قال الله تعالى: « أفمن زين له سوء عمله فرءاه حسنا »(١) . ولما وصل إلينا كتابك أعطيناك جوابك ، « من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليًّا مرشدا(٢) » . وفى كتابك تهددنا بجيوشك وأبطالك ، وخيلك ورجالك ، أو ماتعلم أن نحن أرباب الحتوف ، وفضلات السيوف ، ما نزلنا على حصن إلا هدمناه ، ولا عدم منا فارس(٣) إلّا جددناه ، ولا طغى(٤) علينا طاغ إلا دمرناه . فلو نظرت أيها المغرور جَدَّ قلوبنا وجدّ خروبنا ، لرأيت فرسانا أسنّتهم لاتعل ، وسُيوفهم لاتكل ، وقلوبهم لاتذل ، ولعضيت على يدك بسن النّدم ، ولأخرك تحريك قدم عن قدم ، فلا تعجبك العساكر التى بين يديك ، فهو يوم أوله لنا وآخره عليك . إذا أتاك كتابى هذا فلتكن منه بالمرصاد ، على أول سورة النحل وآخر سورة ص ، « أتى أمر الله فلا تستعجلوه »(٥) ، « ولتعلمن نبأه بعد حين »(٦) ، هنالك تطاول نحوك الأعناق ، وتشخص صوبك العيون ، ويشوبك الويل ، وتسوءك الظنون . « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون »(٧) وفى آخره يقول :

---

(١) سورة فاطر ، آية ٨ .

(٢) سورة الكهف ، آية ١٧ ؛ وفى المتن : « من يهدى الله فهو المهتدى » .

(٣) فى المتن : « فارسا » .

(٤) فى المتن : « طغا » .

(٥) سورة النحل ، آية ١ .

(٦) سورة ص آية ٨٨ .

(٧) سورة الشعراء ، آية ٢٢٧ .

ألا يامليك الرُّوم هل أنت سامعُ وهل أنت عمّا فى ضميرك راجعُ
تروم بلاد القدس بالسيف عنوة ودون بلاد القدس دينك ضائعُ
لقد حفظ البيت المقدس عصبة كما حفظ الكف اليمين الأصابعُ
جمعت بنى الإفرنج شرقاً ومغرباً تشتت شملًا كان قبلك جامعُ
فلا أنت ترجو بعض ما قصدته ولا من أتى مستنصرا لك راجعُ
أتطمع من ليلى بوصلٍ وإنما تضرّب أعناق الرجال المطامعُ

فلما وصلت هذه المكاتبة إلى الفرنسيس أمر بنزول العساكر إلى البرّ ، وضرب خيمة عظيمة حمراء . وفى ثانى يوم كان الملتقى بين الجيشين ، وقتل بين الفريقين عالم لايحصى ، بعدد الرمل والحصى . ومن جملة من استشهد من المسلمين فى ذلك اليوم الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام(١) ، وأمير يُعرف ببدر الدين بيليك الوزيرى .

وأمّا ما فعله فخر الدين بن الشيخ من سوء التدبير ، فإنه لما أمسى الليل توجه إلى الجسر الذى فى ناحية الجرف فقطعه ، ثم أخرج جميع من كان فى دمياط من النساء والرجال ، ثم تركها تصفر . وكان رأياً ذميماً ، فلو أقاموا مع مشيئة الله عز وجلّ فى دمياط ، ما قدر(٢) عليها الفرنج ، لما كان فيها من الرجال المقاتلة من الكنانية وشجاعتهم . ثم لو كانوا الكنانية الذين تبقوا فيها غلقوا بابها بعد رحيل ابن الشيخ عنها، لم تقدر الفرنج على أخذها فى تلك السرعة . لكنهم لما رأوا خروج الناس منها، ضعفت نفوسهم ، وظنوا أن مدة الحصار تطول عليهم ، فلذلك سلموها . فلما كان صباح يوم الأحد لسبع بقين من صفر ، جاءت الفرنج إلى دمياط ، فوجدوها خالية ، لم يكن بها مانع فملكوها . وكانت هذه من أعظم الحوادث . واستشعر الناس أن الفرنج تأخذ الديار المصرية ، وخامر ذلك عقولهم . ولم يعلموا أن هذا الدين مؤيد(٣) بالله

---

(١) فى المتن : « سيف الإسلام » ، والعبارة مصححة من مفرج الكروب لابن واصل (حوادث ٦٤٧ هـ ـ مخطوط) .

(٢) فى المتن : « ماقدروا » .

(٣) فى المتن : « مؤيداً » .

عز وجل ، وهذه الديار محروسة بالإيمان بالله وحده ، فإن هذه النصرة التي جرت نوبة الفرنسيس ، كانت من آيات الله عز وجل العظيمة ، وصـدقاته الجسيمة ، نصرة الإسلام على الـكفرة اللئام ، من غير ملك ولا جيوش ، وقُتل من الفرنج ما أشبع الطيور والوحوش .

فلما علم السلطان بأن الفرنج أخذوا دمياط ــ وكان سبب أخذها الـكنانية ــ أمر بشنقهم ، فشنقوا على النخل جميعهم . ثم كانت بين المسلمين والفرنج عدة وقعات.

ذكر وفاة السلطان الملك الصالح ، رحمه الله تعالى

لما كان لأربع ليال خلت من شهر رمضان المعظم ، توفى السلطان الملك الصّالح نجم الدين أيوب بن السلطان الملك الـكامل ناصر الدين محمد بن السلطان الملك العادل سيف [الدين][١] أبو بكر بن أيوب ، رحمهم الله أجمعين . وكان عمره يوم وفاته أربع وأربعون سنة وشهور وأيّام . وكان مولده فى سنة ثلاث وستمائة ، ولم يتحرر عندى الشهر .

قال ابن واصل: إن وفاة السلطان الملك الصالح لأربع عشرة ليلة خلت من شعبان فى السنة المذكورة . وقال : وعمره يومئذ أربعين سنة. وقال : مولده سنة ثمان وستمائة والأول أصح .

وكان ملـكاً مهيباً ، عزيز النفس، بعيد الغضب، عفيفاً ، طاهراً فى فرجه ولسانه، كثير الصمت ، عديم السفّه . اشترى من المماليك الترك ما لم يشتر[٢] أحد من الملوك مثله من قبله ، حتى عاد أكثر جيشه مماليـكه ، وذلك لـكثرة ما جرّب من غدر الأكراد والخوارزمية وغيرهم من الجيوش . وكان إذا مات أحد[٣] من مماليـكه ،

---

(١) مابين حاصرتين ساقط من المتن .

(٢) فى المتن : « ما لم يشترى » .

(٣) فى المتن : « أحداً » .

وكان له ولد[1] ، أنعم بإقطاع والده عليه ، وإن لم يكن له ولد أنعم به على خشداشه . واستسن[2] مماليكه الترك من الملوك هذه السُنَّة منه ، رحمه الله تعالى .

وأمّا أوصافه المعنوية ، فإنه كان إذا جلس بين مماليكه لا يقدر أحد[3] أن ينطق بحرفٍ ، ولا ينقل قدم عن قدم ، ولا يلتفت يميناً ولا شمالًا ، وهم يرعدون منه هيبة وجلالة . وكان مع هذه العظمة لا يكاد يرفع عينه من الأرض ، ولا ينظر إلى شىء من محارم الله عز وجل ، ولا يسمع أحد من لفظه شتمة . وإذا غضب على أحد من غلمانه أو مماليكه يقول : « يا سبحان الله ، ما كان الأمر كذا وكذا » .

وكان حسن الدين، جيّد العقيدة ، كثير الميل إلى مطالعة الكتب والعلوم وأخبار الناس ، يحب أرباب الفضل والأدب ، كثير الميل إلى العلماء وأرباب كل فضيلة ، ويحب تشييد العمائر ، وبناء القصور والمناظر ، والنزهة . وكان يباشر البناء بنفسه ، ويهندسه بعقله ما لا تصل إليه المهندسُون . وبنى[4] قلعة المقياس ، والكبش ، والصّالحية ، مع عدة أماكن وقصور ومستنزهات .

وكان سبب موته السقية التى صنعها له الأمير عز الدين أيبك صاحب صرخد . وذلك أن السلطان الملك الصالح لما أخذ صرخد من الأمير عز الدين ـ رحمه الله ـ وأعطاه تلك البلاد المقدم ذكرها ، لم يتحصّل له منها شىء ، وخشى السلطان عاقبة أمره ، لما كان يعلمه منه من التدبير وحسن السياسة ، فأعاده إلى صرخد، وأنعم عليه، وأفكر فى قتله . وكان الأمير عز الدين سليم الصدر ، حسن اليقين ، فظن أن باطن السلطان صفى له . ثم إن السلطان يتحقق من الأمير عز الدين الدين المتين ، وحبه لتلاوة القرآن . وكان يختم فى كل يوم وليلة ختمة ، فصنع له السلطان ختمة عظيمة ، بخطٍّ منسوبٍ ، مكتوبة بالذهب ، وسمَّ جميع أوراقها ، وأهداها للأمير عز الدين

---

(١) فى المتن : « ولداً » .

(٢) فى المتن : « واستسنوا » .

(٣) فى المتن : « أحداً » .

(٤) فى المتن : « وبنا » .

فى جملة تحفٍ أُخر . فلما وصلت إليه افتتن بها ، وعاد لايفارقها غمضة عين ، وعاد يقرأ فيها ليلًا ونهاراً . ثم إنه كان كلما تصفح أوراقها وضع يده فى فيه وعلى لسانه ، فعمل فيه السُم . وتحقق أن ذلك من السلطان وعلم أنه ميّت لا محالة ، فأخفى أمره وطلب الصنّاع ، وعمل سرج ما رأت الناس مثله ، نقّد عليه عشرة آلاف دينار . وسمّ الميّترة التى للسرج ، وتركه فى خزانته ، وتوفى إلى رحمة الله تعالى . فلما بلغ السلطان ذلك ، ركب من فوره ، وتسلم صرخد ، وأخذ سائر أمواله وذخائره ، وأباع مماليكه وجواريه[1] بأقل الأثمان ، وأباع فى الجملة أم الوالد[2] ، وهى حامل به من الأمير عز الدين ، فاشتراها رجل من أهل صرخد من كبارها ، يقال له عمر بن الأسعد ، وكان ديناً ، واستبرأها فوجدها حاملا . وكانت تسمى كمش خاتون ، خطائية الجنس . فولدت الوالد[3] عند ذلك الرجل ، ورباه كالولد إلى هذه السنة ، التى أخذ السلطان الملك الظاهر فيها صفد ، وهى سنة أربع وستين وستمائة . وكان الأمير حسام لاجين الدرفيل مملوكًا للأمير عز الدين أيبك وهو طفل صغير . وكانت هذه كمش خاتون قد ربّته عندها مثل الولد ، فأبيع أيضا الأمير حسام الدين الدرفيل مع من أبيع ، وتنقل به الحال إلى أن عاد دوادار السلطان الملك الظاهر . فلما كان سنة فتح صفد ــ الآتى ذكرها ــ والسلطان بدمشق ، حضرت الصراخدة بتقادم للأمير حسام الدين الدرفيل ، وأحضروا له الوالد ، وهو يومئذ ابن سبعة عشر سنة ، فعرف له حقّه وربّاه كالولد . ثم ارتجع الوالد من عند الأمير حسام الدين إلى بيت السلطان الملك الظاهر ، فى حديثٍ طويلٍ . ثم إن السلطان أنعم عليه بإقطاع عبرة ألفى وأربع مائة دينار ، وسلمه للأمير سيف الدين بلبان الرومى الدوادار ، وقال له : « علمه وخليه يمشى معك » . فعرف الوالد بالدوادارى . ثم إن السلطان الشهيد الملك الأشرف خليل بن قلاوون أعطاه تقدمة . ثم إن مولانا وسيدنا السلطان الأعظم الملك الناصر أمّره وولاه بلبيس والعربان ،

(١) فى المتن : « وجواره » .

(٢) يعنى أم والد المؤلف .

(٣) أى والد المؤلف .

وذلك فى سنة ثلاث وسبعمائة ، فأقام إلى سنة عشر وسبعمائة ، نقله إلى الشام بسؤاله ، وجعله مهمنداراً . ثم ألزم بشاد الدواوين بدمشق ، فأقام سنة ، ثم تخلص ، إلى إن توفى رحمه الله ، فى شهر رجب سنة ثلاث عشرة وسبعمائة .

وخرج بنا تلاوة الكلام بعضه ببعض عن الغرض المقصود ، من ذكر وفاة السلطان الملك الصالح ، رحمه الله تعالى . قال والدى ـ رحمه الله ـ : حدثنى هذا الرجل الذى شرى أمى ، وكان رجلًا فقيهاً ، صوفيًّا ، فاضلًا ، محققاً ، له عندى كتاب تأليفه بخطه فى التصوف ، سماه « لباب اللباب فى علم التصوّف والآداب » ـ ولقد أحسن فيه كل الإحسان ، قال: لما أعرض السلطان الملك الصّالح ذخائر الأمير عز الدين أيبك ، رأى ذلك السرج ، فركب فيه من يومه ، ولعب الأكرة فى ميدان صرخد ، فرحاً بموت عز الدين ، فعلقت فيه السقية من تلك الساعة ، ولم تزل تعمل فيه حتى مات ، فكان عز الدين قاتل قاتله .

ولمّا توفى السلطان الملك الصالح ، رحمه الله ، على ثغر دمياط فى التاريخ الذى ذكرناه ، أُخفى موته ، وقام الأمير فخر الدين بن الشيخ مدبر الدولة ، وجمع الأمراء ، وقال : إن السلطان رسم أن تحلفوا لولده غياث الدين توران شاه ، ولقب بالمعظم ، فامتثلوا ذلك . وعاد ابن الشيخ القائم بأمور المملكة ، وغياث الدين بعد فى حصن كيفا . وسير خلفه الأمير فخر الدين ، وسيَّر إلى القاهرة أن يحلِّفوا من كان بها من الأمراء والجند للملك المعظم غياث الدين توران شاه . هذا كله والناس لايعلمون بموت السلطان الملك الصّالح ، رحمه الله .

وكانت تخرج علامته على الكتب ، وهى أيوب بن محمد بن أبى بكر بن أيوب ، يكتبها عنه خادم يُعرف بالسهيلى .

قال ابن واصل: أن كان الأمير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى عند السلطان أوثق وأمكن من الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ . وكان لما ملك السلطان الديار

المصرية ركب فخر الدين بن الشيخ ركبة عظيمة ، فتخيل منه واعتقله ، وما أخرجه حتى توفى أخوه[1] معين الدين الوزير بدمشق، فاضطر السلطان إلى إخراج فخر الدين . فهذا كان سبب تميز ابن أبى على عليه . ثم إنه حكم فى الدولة إلى حين ما قتل ، حسبما يأتى من ذكر ذلك .

كان للسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، رحمه الله، ثلاث ذكور من الأولاد ، الكبير الملك المغيث الذى توفى فى اعتقال الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بقلعة دمشق ، واتهم به أنه قتله . والملك القاهر ــ وهو الأصغر ــ توفى أيضاً فى حياة أبيه بدمشق . والملك المعظم ــ وهو الأوسط ــ وكان مقيماً بحصن كيفا إلى أن توفى السلطان فأحضر ، حسبما ذكرنا . وكان هذا الملك المعظم يميل إلى العلوم ، ويجتمع بالفقهاء ويباحثهم ، مع هوج فيه ، حسبما نذكره إن شاء الله تعالى . وكان وُلد له[2] من شجر الدر ولد[3] فسماه خليلا[4] وهو يومئذ بحبس الكرك ، وحضر معه إلى ديار مصر ، وتوفى فى حياة أبيه .

ذكر بيعة الملك المعظم توران شاه بن الملك الصالح ، رحمه الله

ولما كان يوم الخميس الثانى عشر من شهر رمضان المعظم من هذه السنة ، حضر القاضى بدر الدين يوسف بن الحسن قاضى سنجار ، وصحبته القاضى بهاء الدين كاتب المملكة الصالحية، وحلفوا الأمراء وسُراة الناس للملك المعظم توران شاه غياث الدين ابن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب . ثم إن الكتب أقامت أياما وهى تخرج بعلامة السلطان الملك الصالح ، ولا يستجرئ أحد أن يفوه بموته . وكان الذى

(١) فى المتن : « أخيه » .

(٢) أى للسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب .

(٣) فى المتن : « ولداً » .

(٤) فى المتن : « خليل » .

يعلّم العلامة خادم(١) يسمى(٢) سُهيل . ثم إن الأمير فخر الدين بن الشيخ تصرّف فى الملك ، وأطلق للأمراء ، وبذل الأموال ، وأخلع الخلع السنية . فعند ذلك تحققت الناس موت السلطان. وبلغ الفرنج ذلك ، فجدوا فى القتال ، وزحفوا إلى المسلمين ، ووصلوا إلى فارسكور . ثم تقدموا منزلة أخرى ، ليأخذوا الديار المصرية .

ولما كان يوم الخميس مع يوم الجمعة ورد كتاب(٣) إلى القاهرة المحروسة ، فى جملته: « انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله »(٤) الآية . وفيه تحريض كثير ، وحث على الناس . وكان ذلك يوماً عظيماً بالقاهرة من البكاء والعويل ، وخرج(٥) الناس على وجوههم قاصدين الجهاد .

فلما كان يوم الثلاثاء سلخ شهر رمضان المعظم كانت الوقعة العظيمة بين المسلمين والفرنج ، قتل من الفئتين خلق كثير . ثم نزل الفرنج قبال المسلمين على المنصورة ، وعاد بينهما بحر أشموم . وكان فى البر الغربى من ناحية جوجر(٦) أولاد الملك الناصر داود صاحب الكرك ، وإخوته . وفى ذلك النهار عملت الفرنج خندقاً عظيما ، وداروا عليه سُور ، ونصبوا المناجنيق يرمون بها المسلمين . وشوانى الفرنج وغرابانهم بإزائهم على المنصورة . ثم استمر القتال بين الفريقين ليلاً ونهاراً إلى يوم الأربعاء ، هرب من الفرنج ستة نفرٍ من فرسانهم ، وأتوا إلى الأمير فخر الدين بن الشيخ مدبر الدولة ، وأخبروا أن الفرنج فى ضائقةٍ عظيمة من عدم القوت عندهم .

وفى يوم الجمعة وصل الخبر أن الملك المعظم توران شاه وصل إلى عانة وحديثة . ثم ورد الخبر أنه وصل دمشق ، ثم نزل القصير . ثم وصل للفرنج ملك كبير

(١) فى المتن : « خادما » .
(٢) فى المتن: « يسما » .
(٣) فى المتن : « كتابا » .
(٤) سورة التوبة ، ٤١ .
(٥) فى المتن : « وخرجوا » .
(٦) جوجر : من القرى القديمة ، على الضفة الغربيــة للنيل قرب طلخا (محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ، ق ٢ ج ٢ ص ٨٦) .

ومراكب عدة ، فيها مأكول وسلاح ، ووقع القتال بينهم وبين المسلمين ، وكانت الفرنج تخاف من الحرافيش[١] أكثر من العساكر .

ثم وردت الأخبار أن السلطان غياث الدين الملك المعظم توران شاه وصل الصالحية ، ونزل فى قصر أبيه . ووقعت البطائق مخلقة . فضربت البشائر فى العسكر المنصور ، وكذلك بالقاهرة .

ولمّا كان يوم الخميس النصف من شوال المبارك ، ركبت الفرنج ، وركب المسلمون ، ودخلوا بر الفرنج ، واقتتلوا قتالاً عظيماً . وقتل من الفئتين عالم عظيم . وسيروا إلى القاهرة عدة أسرى[٢] من الفرنج ، وفيهم ثلاثة من كبارهم وهم من الديوية . وكان لما دخل المسلمون إلى بر الفرنج ، ركب من المسلمين جماعة ، وقصدوا مخيمهم . وكذلك ركبت جماعة كبيرة من الفرنج ، وهم جمرتهم المحرقة ، وقصدوا مخيم المسلمين . فلم يشعر المسلمون المقيمون[٣] بالخيام إلّا بالفرنج معهم ، وكبسوا عليهم يداً[٤] واحدة ، وعادت ضجة عظيمة . وكان الأمير فخر الدين فى الحمام ، فخرج ولم يلحق يلبس لامته ، وركب فرسه ، وحمل على الفرنج ، فجاءه سهم فقتل إلى رحمة الله. وتفرق المسلمون[٥] يميناً وشمالًا ، وكادت تكون كسرة ، لولا لطف الله عز وجل بدين الإسلام . ووصل الفرنسيس إلى باب القصر الذى للسلطان الملك الصّالح . ثم إن الله تعالى أغاث المسلمين بطائفة من المماليك الصّالحية المعروفين بالبحرية . وركب الأمير فارس الدين أبو الهيجاء ، والأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى ، فى عدة جيدة من الترك ، فكانوا سبباً لإخماد جمرة الشرك . وحملوا على الفرنج حملة منكرة ، فبددوا شملهم يمينا وشمالا . قال بعض من حضر هذه الوقعة : والله لقد كنت أسمع زعقات

---

(١) حرافيش ومفردها حرفوش : الدهماء من العامة ؛ انظر: سعيد عاشور، المجتمع المصرى فى عهد سلاطين المماليك ، ص ٣٧ .

(٢) فى المتن : « أسرا » .

(٣) فى المتن : « المسلمين المقيمين » .

(٤) فى المتن : « يد » .

(٥) فى المتن : « وتفرقت المسلمين » .

الترك كالرعد القاصف ، ونظرت إلى لمعان سيوفهم وبريقها كالبرق الخاطف ، فلله درّهم لقد أحيوا فى ذلك اليوم الإسلام من جديد ، بكل أسدٍ من الترك قلبه أقوى من الحديد . فلم تسكن إلا ساعة وإذا بالأفرنج قد ولوا على أعقابهم منهزمين ، وأسود الترك لأكتاف خنازير الأفرنج ملتزمين . وأحصى من قتل من الفرنج فى تلك الساعة ، فكانت[1] عدتهم ألفين[2] وخمسمائة فارس ، من كنودهم وشجعانهم ، ولیوثهم وفرسانهم . وأما من الرجالة فلا يحصى عدتهم إلّا الله عز وجلّ . وانهزم[3] الملاعين أقبح هزيمة . ومن ذلك النهار احترزوا على أنفسهم ، وانقطع من الطمع أملهم ، وبنوا عليهم سُوراً عظيماً ، وخافوا من سيوف الترك . وضربت البشائر بسبب هذا النصر العظيم ، والإنعام الجسيم .

وكانت هـــذه الوقعة أول وقعة ظفرت أسود الترك بكلاب الفرنج . ثم رردت البشائر بذلك على الملك المعظّم توران شاه ، وهو بالصّالحية .

ولمّا كان يوم السبت لأربع عشرة ليلة مضت من ذى القعدة ، وصل المعظم إلى المنصورة ، وقد استصحب معه القاضى الأسعد شرف الدين الفائز ، وكاتبه النشو بن حشيش النصرانى ، كان كاتب المعظم بحصن كيفا . فلما دخل المعظم الرمل[4] طالباً للديار المصرية، أسلم النشو المذكور على يده ، ورشحه للوزارة. وأما الفائز فإن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب كان جعله ناظراً بدمشق فى الديوان السلطانى. فلما وصل المعظم إلى دمشق سأل أن يكون فى الركاب السلطانى ، فأجيب إلى ذلك . ونزل [توران شاه] بقصر أبيه ، وتحقق[5] الناس موت السلطان الملك الصّالح. ثم إن المسلمين عملوا مراكب وحَملوها على الجمال ، وأرموها فى بحر المحلة ، فلما زاد النيل أرموها فيه.

---

(١) فى المتن : « فكان » .

(٢) فى المتن : « ألفى » .

(٣) فى المتن : « وانهزموا » .

(٤) أطلق اسم الرمل على الصحراء الشرقية ، بين الدلتا وغزة .

(٥) فى المتن : « وتحققوا » .

ولما تقدّمت مراكب الفرنج خرجت عليهم مراكب المسلمين ، واشتد بينهم القتال . ثم انتصر[١] المسلمون على الكافرين ، وأخذت مراكبهم ـ وعدتهم اثنتين وخمسين مركباً ـ وأسروا جميع من بها ، ودخلوا بالأسرى[٢] إلى القاهرة .

وفى يوم الاثنين لسبع بقين من ذى الحجة ، خرجت مراكب المسلمين أيضاً على مراكب الفرنج، وكانت مملوءة غلالا ومأكولا[٣] ، فالتقى الجمعان عند مسجد النصر، فنصر الله الإسلام ، وأيّد أمة النبي عليه السلام ، وأخذوا من مراكب الفرنج عدة اثنين وثلاثين مركباً . فعند ذلك ذلت نفوس الملاعين ، واشتد عندهم الغلاء ، وعدم القوت ، وشرعوا يسألون الصلح . وترددت الرسل بينهم ، وتوجه إليهم رسول من المسلمين يسمى زين الدين قراجا أمير جندار ، وصحبته القاضى بدر الدين السنجارى ، فأجابه[٤] الفرنج ، ولكن على شرط أن يكون لهم القدس الشريف وبعض بلاد الساحل ، ويسلموا دمياط . فلم يرض المسلمون[٥] بذلك . ثم خرجت هذه السنة .

(١) فى المتن : « انتصرت » .
(٢) فى المتن : « بالأسرا » .
(٣) فى المتن : « غلال ومأكول » .
(٤) فى المتن : « فأجابوه » .
(٥) فى المتن : « فلم يرضوا المسلمين » .

ذكر سنة ثمان وأربعين وستمائة

النيل المبارك فى هذه السنة

الماء القديم خمسة أذرع وأربعة أصابع . مبلغ الزيادة سبعة عشرة ذراعاً وأصبعان .

ما لخص من الحوادث

الخليفة الإمام المستعصم بالله أمير المؤمنين . والوزير بحاله .

ذكر الليلة الغراء المسفرة عن الصباح الأزهر بالنصر والظفر

وذلك لما كانت ليلة الأربعاء لثلاث ليالٍ بقين من المحرّم ، رحل[١] اللاعين ، فارسهم وراجلهم ، هاربين إلى نحو دمياط . وهربت مراكبهم فى البحر . وركب[٢] المسلمون يداً[٣] واحدة خلفهم ، ولحقوهم ، وأدركهم الصباح من كل جانبٍ ومكانٍ . وتمكن منهم المسلمون قتلًا وأسراً ، فكانت عدة القتلى[٤] فى تلك الليلة نيفاً[٥] وثلاثين ألف . ثم ساق خلفهم الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى الصّالحى ، فى جماعة من العصابة التركية . وحازوا الفرنسيس ومن معه من أمراء الفرنج وملوكها على تل هناك ، فاستسلموا وطلبوا الأمان ، فلحقهم الطواشى محسن الصّالحى ، فأمّنهم ونزلوا على أمانهم . وأحاطت بهم المسلمون[٦] وأخذوهم ، وعادوا بهم إلى المنصورة . وضربت للفرنسيس خيمة كبيرة ، وأنزلوه بها . ثم رحل الملك المعظم ، ونزل على فارسكور ، وضرب دهليزه . وجدّ فى أخذ دمياط ، ولو كان طلبها من الفرنسيس

(١) فى المتن : « رحلوا » .

(٢) فى المتن : « وركبوا » .

(٣) فى المتن : « يد » .

(٤) فى المتن : « القتلى » .

(٥) فى المتن : « نيف » .

(٦) فى المتن : « المسلمين » .

لم يمنعها ، ولكن كان المعظم صبي العقل ، ضعيف الرأى ، لا يرجع لرأى أحدٍ . وقد ذكر(١) جماعة من المؤرخين أن عدة من قتل من الفرنج فى هذه النوبة مائة ألفٍ أو يزيدون .

ووصل كتاب السلطان الملك المعظم إلى الأمير جمال الدين يغمور نسخته :

بسم الله الرّحمن الرّحيم :

ولده توران شاه .

الحمد لله الذى أذهب عنا الحزَن . وما النصرُ إلّا من عند الله . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الحكيم . وأما بنعمة ربك فحدث . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصُوها . نبشر المجلس السامى الأميرى الجمالى ، بل نبشر الإسلام كافة ، بما منَّ الله به على المسلمين ، من الظفر بأعداء الله وعدو الدين ، وأمكن من ناصية طاغيتهم، بعد ما استفحل أمره ، واستحكم شره ، ويئس(٢) العباد من البلاد ، ومن الأهل والأولاد ، فنودوا لا تيئسوا(٣) من رَوح الله .

ولمّا كان يوم الأربعاء ، لثلاث ليالٍ مضين من المحرم من هذه السنة المباركة ، تمم الله على الإسلام بركاتها ، فتحنا الخزائن ، وبذلنا الأموال ، وفرقنا السلاح على الرجال ، وجمعنا الجيوش من كل مكان ، حتى من سائر الأقطار العربان ، فاجتمع خلق لا يحصى عددهم إلّا الله تعالى ، وجاءوا من كل فج عميق ، ومن كل مكان سحيق . ولما عاين العدو المخذول ذلك ، وتحقق المهالك ، أرسل يطلب الصلح على ما كان وقع عليه الاتفاق مع الملك الكامل ، وقصدوا أن يبلغهم من ذلك ما يأمله منهم كل آمل . ولم نوافقهم على قصدهم ، وعملنا على حصدهم . فلمّا يئسوا أركنوا إلى الفرار ، ولبسوا سواد الليل لئلا يفضحهم ضوء النهار ، وتركوا خيامهم خالية ، وعلى عروشها خاوية ، وكذلك أموالهم وعددهم وأثقالهم ، وقصدوا دمياط هاربين .

(١) فى المتن : « ذكروا » .
(٢) فى المتن : « ويأس » .
(٣) فى المتن : « فنود لا تيأسوا » .

وما زال السيف يعمل فى أدبارهم إلى الليل ، وقد حل بهم الحزن والويل . ولما أصبح نهار الأربعاء ، وناعى الشتات بهم قد نعى[١] ، قتلنا منهم مائة ألف أو يزيدون ، ومزقناهم كما مزق الضحاك أفريدون بالسيف ، غير من ألقى نفسه فى اللجج . وأمّا الأسرى[٢] فحدث عن البحر ولا حرج . والتجأ الفرنسيس إلى الميمنة وطلب الأمان فأمنّاه ، وأخذناه أسيراً ، وعلى عوائدنا الجميلة أجريناه ، فليأخذ حظه من هذه البشرى[٣] ، وليعلم أن مع العسر يسرا .

وفيه كلام كثير هذا زبدته ، ثم بعث مع الكتاب بغفارية[٤] الفرنسيس ملك الفرنج ، وهى سقلاط[٥] أحمر تحت فرو سنجاب ، وفيها بُكلة[٦] ذهب .

ولمّا كان يوم الجمعة سلخ المحرّم ورد المرسُوم من السلطان الملك المعظم إلى الأمير حسام الدين بن أبى على يأمره بالحضور إليه ، وسير مكانه الأمير جمال الدين أقوش النجيبى الصّالحى .

وفيها قتل الملك المعظم توران شاه .

ذكر قتلة الملك المعظم وتمليك أم خليل شجر الدُّر وسبب ذلك

وسبب ذلك أنه كان صبى العقل ، عديم الرأى ، أهوج ، كثير العجب ، زائد السفه ، بالضّد مما كان فى أبيه من الخصائل المحمودة . وأطرح جانب الأمراء الكبار ،

(١) فى المتن : « نما » .
(٢) فى المتن : « الأسرا » .
(٣) فى المتن : « البشرا » .
(٤) الغفار المعطف وجمعها غفائر ؛ انظر : (Dozy ; Supp. Dict. Ar.) .
(٥) سقلاط : نوع من القماش الحرير الموشى بالذهب اشتهر منه مايصنع فى بغداد ، وذاع صيته فى غرب أوربا فى العصور الوسطى (Dozy : Supp. Dict. Ar.) هذا وجاء اللفظ فى كتاب السلوك للمقريزى « اشكر لاط » ، وقيل فى شرحه إنه نوع من القماش كان يرد من بلاد أيرلندة لونه قرمزى (السلوك ، ج ١ ص ٣٥٧) .
(٦) البكلة معرب اللفظ الفرنسى boucle ومعناه المشبك .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

الذين كانوا فى دولة أبيه لهم الحل والعقد والأمر والنهى ، وصرف وجهه عنهم . وعاد يبلّغهم عنه كل كلام يشين ، من التهديد والوعيد . واعتمد على جماعة كانوا قد جاءوا معه من حصن كيفا . وكان ذلك لأمر يريده الله . وكان هؤلاء الذين قد اعتمد عليهم من أطراف الناس وأراذلهم ، وصار إليهم الأمر والحل والعقد . ومن جملة ضعف رأيه ، وقلة تصرفه ، وكثرة هوجه ، وذلك الذى أوجب قتله وعدمه ، أنه كان فى الدهليز إذا شرب وسكر ، وتعين له النلمان بالشموع ، يجذب النمشة[1] ، ويضرب الشمع ، ويقول : « هكذا أضرب رقاب البحرية » ، ويسمى كل شمعة واحداً[2] من الأمراء البحرية ، مماليك أبيه[3] .

ومن أسباب قتله أنه كان أوعد الأمير فارس الدين أقطاى بوعد ، وأبطأ عليه ، فذكره به على لسان بعض خواصه ، فقال : « أعطيه ــ إن شاء الله ــ جُبا مليحاً يليق به »[4] . فبلغه ذلك .

ومن أسباب قتله أن شجر الدرّ ــ زوجة أبيه ــ كانت قد توجهت إلى القدس الشريف ، ثم عادت إلى القاهرة ، فنفذ إليها يهددها ويتوعدها ، ويطالب منها الأموال والجواهر ، فخافت منه ، وكاتبت فيه الأمراء ، وحرضتهم على قتله ، فاتفقوا عند ذلك على قتله . فلمّا كان يوم الاثنين سابع شهر صفر ــ وقيل سابع عشر منه ــ وثب عليه بعض المماليك البحرية ، وهو جالس على الكرسى ، وضربه بالسيف ، قطع يده من أشاجعه . فقام وولى هاربا ، ودخل القصر ، وصاح : « مَن يجيرنى ؟ » . فقال[5] البحرية : « لا والله ما نبقيك ، فإنك لا تبقينا » . ثم قالوا فيما بينهم : « ما تنتظرون فيه ؟ » ثم هجموا عليه ، فهرب إلى أعلى البرج ، فأطلقوا فيه النار ، ورموه بالنشاب ،

---

(١) النمشة ــ وهى أيضا النمشاه والنمشا والتمجة والتمجاه والنمجا ــ : خنجر مقوس يشبه السيف الصغير (Dozy:Supp. Dict. Ar.) .

(٢) فى المتن : « واحد » .

(٣) فى المتن : « مماليك أبوه » .

(٤) فى المتن : « أعطيه إن شاء جب مليح يليق به » .

(٥) فى المتن : « فقالوا » .

فرمى بنفسه إلى الأرض، وعاد يعدُو بينهم، ويقول: « ماأريد لـكم ملك، أعيدونى[١] إلى موضعى بحصن كيفا. يامسلمين ! مافيـكم من يجيرنى ؟ مافيـكم من يصطنعنى؟ » وهو يستغيث فلا يغاث . وجميع العساكر واقفين ينظرون إليه . فلم يجره[٢] أحد ، فقتلوه بالنشاب ، ثم بضعوه بضماً فى ذلك التاريخ المذكور .

قال ابن واصل : إن قتلة الملك المعظم المذكور كانت لليلتين بقيتا من المحرّم من هذه السنة . وقال : إن أول من ضربه الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى .

وقال : إن من الأمراء الـكبار مثـل الأمير فخر الدين بن أبى ذكرى ، والأمير سيف الدين القيمرى ، والأمير عز الدين القيمرى ، والأمير فخر الدين حسين، والأمير مجير الدين بن حسين وغيرهم ، كانوا حاضرين ما فعله[٣] البحرية بالمعظم . ولم ينكروا عليهم ولا أغاثوه ، لما كان فى أنفسهم منه من تغيير منازلهم عنده. وقتل وله من العمر دون الثلاثين سنة .

ثم اجتمعت الأمراء على تمليك أم خليل شجر الدُّرّ ، وأن يكون نائبها الأمير عز الدين أيبك التركمانى الصالحى ، وحلفوا على ذلك . ثم ورد الأمير عز الدين أيبك الرومى إلى القاهرة ، وحلَّف بقية الناس ، وعادت التواقيع تخرج[٤] بعلامة شجر الدرّ ، والتدبير للأمير عز الدين أيبك التركمانى أتابك الجيوش . واستقر الأمر كذلك . وكانت علامة شجر الدرّ على التواقيع ما هذا صفته : « أم خليل » .

ثم بعد ذلك وقع الحديث مع الفرنسيس فى تسليم دمياط ، وأن يجودوا عليه بنفسه . وكان الأمير حسام الدين بن أبى[٥] على يتردد إلى الفرنسيس ــ وهو تحت

(١) فى المتن : « عيدونى » .
(٢) فى المتن : « فلم يجيره » .
(٣) فى المتن : « ما فعلوه » .
(٤) فى المتن : « تخرجوا » .
(٥) فى المتن : « أبو » .

الاحتراز فى قاعة تعرف بقاعة ابن لقمان، ومترسم عليه خادم فظ غليظ يسمى صبيح، فكان أشد على الفرنسيس من كل شيء، وجرت[١] له مع الفرنسيس أمور كثيرة — حتى قال الفرنسيس للأمير حسام الدين بن أبى على : « سألتك بدينك ألا[٢] ماقتلتمونى وأرحتمونى من حس هذا الخادم ونظره، فإنه أصعب علىّ من كل ما أنا فيه» . وكذلك جرى للأمير حسام الدين بن أبى على مع الفرنسيس محاورات ، من جملتها أنه قال له يوماً فى جملة كلام : « أنت رجل عاقل ، وملك عظيم الرأى ، رزين الرأس ، وفعلت بنفسك ما لا يفعله المجانين » . قال: « وكيف ذلك ياحسام الدين؟ » . قال: « غررت بنفسك وأموالك وجيوشك وركبت هذا البحر المهلك ، وتأتى إلى مثل هذا الإقليم العظيم ،الذى فيه هذا العالم الكثير ، فإن سلمت من البحر وغرقه ، لم تسلم من هذه الطوائف العظيمة . ونحن فى ملتنا إن أى من ركب البحر مرّة بعد مرّة لا يقبل الحاكم له شهادة » . قال: فضحك الفرنسيس ، ورفع رأسه إلى الأمير حسام الدين ، وقال : « وكيف ما يقبل شهادته ؟ » . قال : « فإنه يكون ناقص العقل ، ومن كان ناقص العقل لا تقبل شهادته » . قال الراوى : فاستغرق الفرنسيس فى ضحكه ، ثم قال:«والله لقد صدقت، ولقد صدق قائل هذا الكلام من قبلك ». ثم وقع الاتفاق على تسليم دمياط ، ويفرج عن الفرنسيس ومن معه من أصحابه .

فلما طلع السنجق السلطانى على دمياط ، ورفع على الأسوار ، وتسلمها المسلمون[٣] ، أطلقوا الفرنسيس وجميع من كان معه ، وركبوا من ساحل دمياط إلى عكا . وفى ذلك يقول القاضى جمال الدين بن مطروح ، وهى القصيدة المشهورة التى من جملتها يقول :

قل للفرنسيس إذا جئته   مقال ذى نصح[٤] وقولٍ صحيح

(١) فى المتن : « وجرى » .
(٢) فى المتن : « إلى » .
(٣) فى المتن : « وتسلموها المسلمين » .
(٤) فى المتن : « مقال ذو نصح » .

آجــرك الله على ما جــرى من قتل عُبّــاد يسوع المسيح
أتيت مصر تبتغى مُلكهــا تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحــين إلى أدهم ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكلُّ أصحــابك أودعتهم بنحس تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفــاً لا تَرى منهم إلّا قتيلًا أو أسيراً أو جريح
وفقك الله إلى مثلها لعل عيسى منهم يستريح
إن كان باباكم بــذا راضياً فرُبَ غشٍّ أتى من نصيح
وقــل لهم إن أضمروا عــودة لأخــذِ ثأرٍ أو لقصدٍ صحيح
دار ابن لقمان على حالهــا والقيد باق والطواشى صبيح

ولمّا رحل الفرنسيس إلى عكا دخلت العساكر إلى القاهرة فى أسرِّ حال، وأنعم بال. وكان عبور العساكر إلى القاهرة لثلاث عشر بقين من صفر. ثم خرجت الخلع للأمراء، والأموال، من شجر الدر.

وفيها استولى الملك المغيث على الكرك والشوبك. وهو الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن السلطان الملك الكامل بن العادل الكبير. وكان قد قعد واعتقل بقلعة الشوبك. فلما قتل المعظم أخرجه بدر الدين الصوابى الصالحى، وكان نائب الكرك عن السلطان الملك الصالح، والشوبك مضافة إليه، وسلمه الكرك، فقام الملك المغيث بملكها، وعاد الصوابى مدبر أمر دولته. واستمر كذلك إلى حين أخذه السلطان الملك الظاهر البندقدارى، حسبما يذكر من ذلك.

وفيها ملك الملك الناصر دمشق، ولم يجد بها مانعاً، فى يوم السبت لثمان مضين من ربيع الآخر. وأخلع على جماعة من الأمراء القيمريّة، وعلى الأمير جمال الدين بن يغمور. وقبض على جماعةٍ من الأمراء المصريين من المماليك الصّالحية المقيمين بدمشق. وعصى عليه بعض البلاد مثل بعلبك وسرمين وعجلون. ووصل الخبر إلى مصر

بما فعله الملك الناصر من القبض على المماليك الصّالحية، فانتحوا[١] البحرية لخشداشيّتهم الذين مسكهم الملك الناصر ، فاجتمعوا وجددوا بينهم الأيمان ، وجهزوا العساكر إلى الشام ، يقدمهم الأمير حسام الدين بن أبى على . هذا كله والأمير عز الدين أيبك التركمانى نائب[٢] لأم خليل شجر الدر ، كما يأتى بقية الكلام فى الجزء الذى يتلوه إن شاء الله تعالى .

انتهى الكلام فى هذا الجزء بحول الله ، وقوته ، وبركة إلهامه ، وحسن توفيقه. وهو الجزء السابع[٣] من هذا التاريخ المبارك ، المسمى بكنز الدرر وجامع الغرر . ونتلو ذلك بذكر الشعراء المختصين به ، وهم شعراء المائة السادسة ، من أهل المشرق والمغرب ، وشعراء المائة السابعة منهم ، حسبما اشترطنا فى جميع أجزاء هذا التاريخ ، موفقا لذلك إن شاء الله تعالى .

ذكر الشعراء بالمائة السادسة من أهل المشرق ، والمختار من أشعارهم فى طبقتى المرقص والمطرب

١ — ابن الخياط الدمشقى ، له فى المرقص ، ظعن فى السادسة فحُسب منها :

ومحتجبٍ بين الأسنة معرض   وفى القلب من إعراضه مثل حجبه
أغارُ إذا آنست فى الحىّ أنَّه   حذاراً وخوفاً أن تكون لحُبه

٢ — أبو الحسن الباخرزى ، له فى المرقص :

ما للمُميل وللمعالى إنّما   يسعى إليهنّ الأديب القادرُ
فالشمس تجتاب السماء فريدةً   وأبو البنات النعش[٤] فيها راكدُ

(١) كذا فى المتن .
(٢) فى المتن : « نائبا » .
(٣) فى المتن : « السادس » .
(٤) بنات نعش : سبعة كواكب ، تشاهد جهة القطب الشمالى ، شبهت بحملة النعش .

٣ — أخوه أبو على الباخرزى ، له فى المرقص ، وقد أصابه مع محبوبه :

لمــا جرينا بين البنـــان بحكةٍ   رضينا بها والكاشحون غضابُ
وكنا معاً كالمـــاء والخمر صحبةً   علانا لفرط الامتزاج حبـــابُ

٤ — الوزير البيهقى أبو الحسن ، له فى المرقص :

كأنّما بغـــداد فى جانبى   بنيتها جب له عاشقُ
والجسر ما بينهما قايد   والنهر من غـــيرته خافق

٥ — الخطيرى ، صاحب كتاب الزينة[1] ، له فى المرقص :

أقول والليـــل فى امتـــدادٍ   وأدمـــع العـــين فى انسياح
أظن ليـــلى بلا اختــــلافٍ   قـــد بات يبـــكى على الصباح

٦ — القاضى الأرجانى ، من جملة مرقصاته :

وما يـــنزل الغيث إلّا   ليقبل بين يـــديك الـــثرى

وقوله :

واصلت جُودك بعد مـــا أغنيتنى   سح الغمام على الغدير المـــترع

وقوله :

شمس إذا غـــربت غـــداة نَوَى   فالدمـــع فى آثارهـــا شفق

وقوله :

وتحـــدثا سرًّا لخـــول قبابها   سُمْر الرمـــاح يملن للإصغـــاء

وقوله :

تلوم قلبى إن أصماه ناظره   فما اعتراضك بين السّهم والهـدف

ومن مطرباته البديعة ، قوله :

أعينىّ كفّا عن فؤادى فإنه   من البغى سَعْىُ اثنين فى قتل واحدِ

---

(١) فى المتن : « الحصرى صاحب كتاب الريه » ويبدو أنه يقصد الخطيرى صاحب كتاب زينة الدهر ، وهو أبو المعالى سعد بن على بن القاسم الأنصارى ، المعروف « بدلال الكتب » (ت ٥٦٨ هـ) ؛ انظر مفتاح السعادة ، لأحمد بن مصطفى ، ج ١ ص ٢٦٣ .

وقوله :

يزيد دمعى على مقدار سيرهم   تزايد الشهب إثر الشمس فى الأفق

وقوله :

ويراد صونك بالتبرقع ضَــلة   وأرى السفور لمثل وجهك أصْونا
كالشمس يمنع نُورها من أن يُرى   فإذا اكتست برقيق غيمٍ أمكنا

وقوله :

ولقد شربت مع الحبيب مدامةً   عذراء إلَّا أنهـا شمطاء
والروض بين تـكبرٍ وتواضعٍ   شمخ القضيب به وخرّ الماء

وقوله :

سقيتنيهـا يا نديمى   بين بنيّات الـكرُوم
فى رياضٍ رائقـاتٍ   مثـــل جنات النعيم
نهرها يَجرى مداماً   كالصّراط المستقيم
أذّن القمرىّ فيهـــا   عنـد تهويم النجوم
فانثنى الغصن يصـلى   بتحيـــات النسيم

٧ — أبو إسحاق العزى ، له فى المرقص :

لو لم أمت فى هواك قال العذّلُ   ما قيمة السيف الذى لا يقتل

وقوله :

وضقت يداً فجدت وكل جارٍ   يضيق يزيد جدوله انصبابا

وقوله

مدحت الورى قبله كاذباً   وما صدقَ الفجر حتى كذب

٨ — فضل الدولة الأبيوردى ، لهُ [فى] المرقص :

وسقانى الـكأس مترعة   كضرام النــــار تلتهبُ
ولها من ذاتها طرب   فلهـذا يرقص الحببُ

٩ — محمد بن نصر القيصرانى ، له فى المرقص :

وأهوى الّذى يهوى له البدر ساجداً   ألستَ ترى فى وجهه أثر الترب

وقوله :

ما عليهم لو أتاحوا فى الهوى   ما حوهُ من صفات المستّهام
من خصورٍ وشّجوها بالضنا   وجفونٍ ملّؤوها بالسقام

وقوله :

ما أنت حين تغنى فى مجالسهم   إلّا نسيم الصبا والقوم أغصان

١٠ — أبو الحسن بن مُنيِّر ، له فى المرقص :

أرق من الماء لولا الشماع   لأفنته رشفاً شفاة القبل
وكالنّار من وهج تيه الصِّبا   فلولا تبسمه لاشتعل

١١ — الحيص بيص ، لهُ فى المرقص ، فى جواب ابن أبى الفضل البغدادى :

لا تضع من عظيم قدرٍ وإن   كان مشارا إليه بالتعظيم
فالشريف الكريم يصغر قدرًا   بالتعدى على الشريف الكريم
ولع الخمر بالعقول رَمى الخمـ   ـر بتنجيسها وبالتحريم

وقوله :

صاحِب أخا الشر لتسطو به   يوماً على بعض صروف الزمان
فالرمح لا يرهب أنبوبه   إلّا إذا ركب فيه السنان

١٢ — ابن الهبّاريّة ، له فى المرقص :

ولولا نداهُ خفت نار ذكائه   عليه ولكن الندى مانع الوقد

١٣ — ابن جكينا البغدادى ، له فى المرقص :

تبرّم بالعذار وظن أنى   أقاطعه وأخلص من يديه
فخافت عارضاه خلاص قلبي   من التبريح فانفلقت عليه

١٤ — ابن المياد البغدادى ، له فى المرقص فى فرس أشمل محجلٍ :

وأشمل الذيل ذى حجولٍ   قد عقدت صبحه بليله
كأنّما البرق خاف منـــهُ   فجاء مستمسكاً بذيله

١٥ — النقاش البغدادى ، له فى المرقص :

إذا وجد الشيخ من نفسه   نشاطا فذلك موت خفى
ألست ترى أن ضوء السرا   ج له لهب عندما ينطفى

١٦ — ابن سيَّار ، قاضى هراة ، له فى المرقص :

ماشانَها والله زرقة عينها   بل صار ذلك زائداً فى حسنها
كادت أساود شعرها تسطو على   مهج الورى لولا زمرد جفنها

١٧ — الأمير أسامة بن منقذ ، له فى المرقص :

خلع الخليع عذاره فى فسقه   متهتكاً فى غاية الإفراط
يأتى ويُؤْتى ليس يُنـكر ذا   ولا هذا كذلك إبرة الخيّاط

١٨ — ابن أبى حُصين المغربى ، له فى المرقص فى كوز الفقاع :

ومحبوس بلا جرمٍ جناهُ   له قفل وباب من رصاص
يضيّق بابه خوفاً عليـــه   ويوثق بعد ذلك بالعقاص
إذا أطلقته خرج اندفاعاً   يقبل فاك من فرح الخلاص

١٩ — ابن البداء المغربى ، له فى المرقص :

لا غرو إن كان مَن دونى يفوز بكم   وأنثنى عنـكم بالويل والحرب
يدنى الأراك فيضحى وهو يكرع من   ثغر القناة ويلقى العود فى اللهب

٢٠ — أبو طامة البغدادى ، له فى المرقص :

حتى إذا ضحك الزجاج لقربها   منه بكى لفراقها الراوُوق

٢١ — أبو الفضل البغدادى ، له فى المرقص :

خطرت فـكاد الورق تسجع فوقها   إن الحمام لمغرم بالبان
من معشر نشروا على هام الربى   للطارقين ذوائب النـيران

٢٢ — ابن سلامة الحصكفى ، له فى المرقص :

قلت إن الخمر مخبثةٌ   قال حاشاهَا من الخبث
قلتُ منها القىء قال نعم   شرفت عن مخرج الحدث

٢٣ — التعاويذى ، له فى المرقص :

بين السيوف وعينيه مشاركةً   من أجل ذا قيل للأغماد أجفانُ

٢٤ — الواسطى بن العلم ، له فى المرقص :

واستقبلوا الوادىفأطرقت المَها   وتمايلت بغصُونها الـكثبانُ
فـكأنّما اعترفت لهم بعيونها الا   غزلان أو بقدودها الأغصان

٢٥ — العماد الأصفهانى الـكاتب ، له فى المرقص :

يا رب حتّـام أعانى الهوى   فى ذنب المغرب وَلا أرتقى
غارت فى الشمس فمن أجل ذا   لم تبقنى أطلع فى المشرق

٢٦ — القاضى الفاضل البيسانى ، له فى المرقص ، فى وكيله الـكحال :

رجـل توكل لى وكحلنى   فأُصبت فى عينى وفى عينى

وقوله فيه :

عادى بنى العباس حتى أنه   خلع السواد من العيون بكحله

وحُـكى أن القاضى الفاضل المذكور والقاضى العماد الأصفهانى المذكور تسايرا ، فعثر فرس الفاضل ، فقال له العماد على البديهة :

سِر فلا كبا بك الفرس

فقال القاضى الفاضل فى جوابه سرعةً من غير توقفٍ :

دام علا العماد

وهذا مما يقرأ مستقيماً ومقلوباً(١) فيصح فى كلاها ، فللّه درها .

---

(١) فى المتن : « يقرأ مستقيم ومقلوب » . والمقصود أن أية عبارة من العبارتين السابقتين لو حللت حروف كلماتها فإنها تقرأ من أولها إلى آخرها ، أو من آخرها إلى أولها دون أى تغيير فى بناء الـكلمات .

٢٧ — عمارة اليمنى ، له فى المرقص فى مصلوبٍ ، وكأنه كان لسان حاله فى نفسه :

ورأت يداه عظيم ماجنتا ففرّن ذا شرقاً وذا غربا
وأمال نحو الصدر منه فمًا ليلوم فى أفعاله القلبا

٢٨ — سعادة الأعمى الحمصى ، له فى المرقص :

والورد ما بين أغصانٍ يحاربها عند القطاف بأظفار السنانير

ومن المطرب الجيد ، قول الآخر :

وما بلى الندمان قط بمثلها أوائل وردٍ فى أواخر شعبان

* * *

ذكر شعراء المائة السادسة من أهل المغرب ، والمختار من أشعارهم فى طبقتى المرقص والمطرب

١ — أبو إسحاق بن خفاجة ، له فى المرقص :

وعشى أنس أضجعتنا نشوة فيها تمهد مضجعى وتدمثُ
خلعت علىّ بها الأراكة ظلها والغصن يصغى والحمام يحدثُ
والشمس تجنح للغروب مريضة والرّعد يرقى والغمامة تنفث

وقوله :

يا هذه لا تروى خدا ع من ضاق ذرعه
تبكى وقد قتلتنى كالسـ ـيف يقطر دمعه

٢ — ابن أخيه أبو جعفر ، لهُ فى المرقص :

رعى الله ليلًا لم يرح بمذمم عشية وارانا بجود مؤمل
وغرّد قمرىّ على الدوح وانثنى قضيب من الريحان من فوق جدول
ترى الروض مسروراً بما قد بدا له عناق وضم وارتشاف مقبّل

٣ — أبو الحسن بن صقر ، له فى المرقص :

لو أبصرت عينـاك زورق فتيةٍ يبدى لهم نهج السرور مرّاحهُ
وقد استداروا تحت ظل شراعه كل يمدُّ بكأس راج راحهُ
لحسبته خوف العواصف طـائراً مدّ الجنـان على بنيه جنـاحهُ

٤ — أبو عبد الله البَلَنْسى له فى المرقص ، فى غلام حائك :

جذلان يلعب بالحواك أنملهُ على السد لعب الأيام بالدول
ضمًّا بكفيه أو فحصاً بأخمصه تخبّط الظبى فى إشراك مختبل

٥ — ابن مجير وزير الجزيرة ، له فى المرقص :

تراه عينى وكفى لا تباشره حتى كأنىَ فى المرآة أبصره

٦ — ابن بقى(١) ، له فى المرقص :

حتى إذا مالت به سِنَةُ الكرى زحزحتُه عنى وكان معـانقى
أبعدته عن أضلعٍ تشتاقه كيلا ينام على وسادٍ خافقى

٧ — ابن حسنون الأشبيلى ـ فى اشتراك العين لا يفارقها الدمع :

سترت فقلنـا زورق من فضةٍ مالت بإحـــدى دفتيه الريحُ
وكأنمـا إنسانهـا ملاحها قد خاف من غرقٍ فظل يميحُ

٨ — ابن قلاقس الإسكندرانى :

قرنت بواو الصدغ صـاد المقبل وأعربت فى لام العذار المسلسل
فإن لم يكن وصل لديك لآملٍ فلم لاح فى مرآك المتأمل

٩ — ابن حمديس(١) الصقلى فى النيلوفر(٢) :

---

(١) هو أبو بكر بن بقى من شعراء الجزيرة ، صاحب الموشحات ؛ انظر ابن دحية ، المطرب من أشعار أهل المغرب ـ تحقيق مصطفى عوض ص ١٨١ .

(٢) هو أبو محمد عبد الجبار بن أبى بكر محمد بن حمديس ، شاعر جيد السبك مليح العبارة . (ابن دحية ، المطرب من أشعار أهل المغرب ص ٥٤) .

(٣) النيلوفر : نبات مائى يمتاز بأوراقه العريضة وأزهاره ، له فوائد طبية فى علاج بعض الأمراض ؛ انظر (النويرى ، نهاية الأرب ج ١١ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠) .

أشرب على بِركة نيلوفرٍ   مصفرة الأوراق خضراء
كأنّما أزهارها أخرجت   ألسنة النار مِن الماء

* * *

ذكر شعراء المائة السابعة من أهل المشرق ، والمختار من أشعارهم فى المرقص والمطرب

١ — ابن الساعاتى ، له فى المرقص :

والطير تقرأ والغدير صحيفة   والريح تكتب والغمامة تنقط

وله :

صدأ الظلال يزيد رونق حسنه   أرأيت سيفاً قط يصقل بالصدا

٢ — محب الدين الحلبى ، له فى المرقص :

لا تقولى لا فمكتوب على   وجهك الشرق سطرا نعمُ
من حُروفٍ أبدعت من قدرة   ما جرى [يوما][1] عليها قلمُ
نونها الحاجب والعين بها   طرفك الفتان والميم الفمُ

٣ — راجح الحلى ، له فى المرقص :

يا ليل طلت ولم ترقّ لمغرم   لم يظلموا إذ لقبوك بكافر

٤ — ابن خطيب خوارزم ، فى المرقص :

عرض المشيب بعارضيه فأعرضوا   وتقوضت خيم الشباب فقوضُوا
وكأن فى الليل البهيم تبسطوا   خفراً وفى الصبح المنير تقبضوا
ولقد رأيت وما سمعت بمثله   أبداً غراب البين فيه أبيضُ

٥ — ابن مازه البخارى ، له فى المرقص — فى مملوك وفى يده قوس :

نهانى لما بدت عقرب   على خده أن أرُوم السفر
فقلت وفى يده قوسه   أسير ففى القوس حل القمر

(١) ما بين حاصرتين بياض ، والتكملة لضبط الوزن .

٦ — ابن الفقيه المُحوَّلى ، له فى المرقص :

مذ عقربت صدغاه واستجمع النحل   على شهد اللمى الأشنب
تقدم الحاجب للعارض أن   يكتب بالأدهم فى الأشهب
يا أمراء الحُسن لا تركبوا   فالقمر الأرضىّ فى العقرب

٧ — ابن التكريتى ، له فى المرقص :

أَلِفِيُّ القوام عنى أمالوه فقلـ   ـبى مكسور بتلك الإماله

٨ — ابن عنين الدمشقى ، له فى المرقص ـ يتشوق إلى دمشق :

دمشق فبى شوق إليها مبرح   وإن لجَّ واشٍ أو ألحَّ عذولُ
بلاد بها الحصباء در وتربها   عبير وأنفاس الشمال شمول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق   وصحّ نسيم الروض وهو عليلُ

٩ — الحاجرى ، له فى المرقص :

عجبتُ لخالٍ يعبد النار دائماً   بخدك لم يحرَق بها وهو كافرُ
ومُذ خبرونى أن غصن قوامه   تيقنت أن القلب منى طائرُ

وقوله :

نزلوا برامة قاطنين فلا تسل   ما حلّ بالأغصان والكثبان
لم يعلُ ذاك الخَدَّ خال أسود   إلا لنكث شقائق النعمان

وقوله :

إنى لأعذر فى الأراك حمامهُ الشـ   ـادى كذلك تفعل العشاقُ
حكم الغرام الحاجرىّ بأسرها   فغدت وفى أعناقها الأطواقُ

١٠ — ابن فضل الحلبى ، له فى المرقص :

تواضع إذا نلت المعالى تزد عُلاً   وتكسب الشكر الجميل من الورى
فلن يشكر الغيثُ الرفيع محله   قرين الثريا أو يصير إلى الثرى

١١ — ابن على الحنق ، له فى المرقص :

كأن عـــذاره المسكى لام وفاه من بديع الحسن صَادُ
وطرة شعره لَيــل بهيم فلا عجب إذا سرق الرقادُ

١٢ — العماد السلماسى ، له فى المرقص — يرثى غلاما يلقب بسيف :

ستذرف أجفـانى عليك دمُوعها ولا غرو أن تبكى على السيف أجفانُ
بكتك عيون الشهب إذ كنت بدرها وغالك من بعد التتمة نقصانُ
وشقت يمين الصبح فيك على الدجى قميصاً فأضحى وهو للحزن عُريانُ
بكت فقدك الدنيا قديماً بدمعهـا فـكان بها فى سالف الدهر طوفانُ

١٣ — الشريف الطوسى ، له فى المرقص :

ودولاب إذا دار يزيد القلب أشجانا
سقى الغصن وغناهُ فما يبرح نشوانا

١٤ — البهاء زهير الحجازى ، له فى المرقص :

أيا ظبى هـلا كان فيـك التفاتة ويا غصن هـلا كان فيك تعطفُ
ويا حرم الحسن الذى هو آمن وألبابنا من حوله تتخطفُ
عسى عطفه بالوصل يا واو صدغه علىّ فإنى أعرف الواو تعطفُ

١٥ — القاضى ابن أبى جراد ، له فى المرقص :

يا واحـداً فى الحسن ما أبقى هـواه على أحدْ
لم ينعطف غصن النقا لـكن لقامته سجدْ
لـما تبسّم فى الدجى از شق الصباح من الحسدْ
ما داب إلّا غيرة من دُر مبسمه البرد

وقوله :

واهاً لعقرب صدغه لو لم تـكن للماه تحمى
ولنفـل خط عذاره لو بت أعجمـه بلثمى

وقوله :

طرف وقلبى منزلاه لأنه   قمر وتلك منازل الأقمار
يا ساكن الجفن القريح وليته   يرعى لجارى الدمع حق الجار

وقوله — وقيل لعلاء الدين بن يعيش — فى حرب الأتراك :

ادغموا الذابلات فى مثلها منـ   ـهم وفى المثل يحسن الإدغامُ
وأمالوا إليهم ألفات النبل   حتى لم يحمهم منه لامُ

١٦ — سليمان بن العجمى ، له فى المرقص :

لهيب الخد حين بدا لعينى   هوى قلبى عليه كالفراش
فأحرقه فصار عليه خالًا   وها أثر الدخان على الحواشى

١٧ — ابن زولاق الموصلى ، له فى المرقص :

ومن عجبى أن يحرسُوك بخادمٍ   وخدام ذاك الحسن أبهى وأكثر
عذارك ريحان وخالك عنبر   وخدك كافور ونغرك جوهرُ
وردفك مثقال فكن أنت محسناً(١)   عسى بوصال القرب يأتى مبشرُ

١٨ — ابن عزى الموصلى ، له فى المرقص :

أنا صب وماء دمعى صب   وأسير من الضنا فى قيود
وشهودى على الهوى أدمع العيـ   ـن ولكننى جرحت شهودى

١٩ — ابن الحلاوى الموصلى ، وقد تقدم من شعره شىء :

كتبت فلولا أن ذاك محرم   وهذا حلال قست لفظك بالدُّر
فوالله ما أدرى أزهر خميلةٍ   بطرسك أم در يلوح على نحر
فإن كان زهراً فهو صنع سحابةٍ   وإن كان درًّا فهو من لجّة البحر

٢٠ — ابن الظهير الإربلى ، له فى المرقص :

قلبى وطرفى ذا يسيل دماً وذا   دون الورى أنت العليم بقرحه

(١) فى المتن : « محسن » .

وهما بحبك شاهدان وإنمـا تعـديل كل منهما فى جرحه

وقوله :

غارت مناطقه وأنجد ردفه يابعد شقة غــوره من نجـده

٢١ — ابن الصفّار الدنيسرى ، له فى المرقص :

تعشقته أمّى حسن فما له أتى بكتابٍ ضمنه سورة النمل

وما لى أنا المجنون فيه وشعره إذا مرّ بالـكثبان خط على الرمل

وقوله :

ومتى تقوم قيامتى بوصاله ويضم شملينا معاد شاملُ

وأكون من أهل الخطايا خدّه نارى وصدغاه علىّ سلاسلُ

٢٢ — ابن الحوارى المعرى ، له فى المرقص :

ووالله ما أخرت عنك مـدائحى لأمرٍ سوى أنى عجزت عن الشكر

وقد رضت فـكرى مرةً بعـد مرةٍ فما ساغ أن أهدى إلى مثله شعرى

فإن لم يكن دراً فتلك نقيصة وإن كان دراً كيف يُهدى إلى البحر

٢٣ — التلعفرى ، له فى المرقص :

وإذا الثنية أشرقت وشممت من أرجائها أرجاً كنشر العبير

سل هضبها المنصوب أين حديثها الـ ـمرفوع عن ذيل الصبا المجرور

٢٤ — ابن القمراوى ، له فى المرقص :

ويا ليل الذوائب ما كفانى تطاول حالِكُ الليل البهيم

وحاكمت النسيم على مرورٍ بعطفيه فـمـال مع النسيم

٢٥ — فتيان الشاغورى ، له فى المرقص :

فبطنها حجر الأسباط منبجس وظهرها حجر الإسلام مستلمُ

٢٦ — العفيف المعرّى ، له فى المرقص :

فإن نُحت فى أفنان وجدى يحق لى لأنى بمـا أوليتمونى مطوق

٢٧ — ابن إسرائيل الدمشقي ، له في المرقص :

أنت الأمير على الملاح بأسرهم وعليك من قلبي لواء خافق

٢٨ — ابن بطريق البغدادي ، له في المرقص – في جرب أصابه :

أعاذك الله من همي ومن وصبي وذا جربي أبو معيط وذا قلبي أبو لهب

٢٩ — ابن نجيم الموصلي ، له في المرقص – من جملة مرثية :

فالعضب أبتر والمثقف ذابل حزناً وكل حنية مرتاب

٣٠ — أيدمر ، مملوك صاحب الجزيرة ، في المرقص – في النرجس :

وكأن نرجسه المضاعف خائض في الماء لف ثيابه في رأسه

وقوله :

شكا[1] رمداً جفن الأصيل إلى الدجى فكحله مثل الظلام بإثمد

٣١ — ابن عبد الله الكردي ، له في المرقص :

إذا ما اشتقت يوماً أن أراكم وحال البعد بينكم وبيني
بعثت لكم سواداً في بياضٍ لأنظركم بشيء مثل عيني

٣٢ — ابن العربي الدمشقي ، له في المرقص :

وقالوا قصيرٌ شعر من قد هويته فقلت دعوني لا أرى منه مخلصاً
مُحيّاه شمس قد علَت غصن قده فلا عجب للظل أن يتقلصاً

وله :

عاينت في الحمّام بدرًا مشرقاً يرنو بمقلةِ شادنٍ مذعور
يرخي ذوائبه على أعطافهِ فيريك ظلا لاح فوق غدير

٣٣ — بدر الدين الذهبي ، له في المرقص – في حربٍ وقع :

والخيلُ قد نشرت من نقعها صحفاً قامت كتائبها ما بيننا سطرا
تملي علينا الردينيات ما نظمت فيها ويملي علينا السيف ما نثرا

(١) في المتن : « شكى » .

٣٤ ـ ابن الحيمى اللغوى ، له فى المرقص ـ وقد كتب إلى أبيه :

جننت فعودنى بكتبك أن لى ... شياطين شوقٍ لاتفارق مضجعى
استرقت أسرار وجدى تمردًا ... بعثت إليها فى الدجى شهب أدمعى

٣٥ — نور الدين الأسعردى ، له فى المرقص :

ولم أر شمساً قبلها فى زجاجةٍ ... مكللةٍ من نفسها بنجوم
وتنظر من ستر الزجاج كأنها ... سنا البرق يبدو من رقيق غيوم

٣٦ — ابن خطلج الأرموى ، له فى المرقص :

صَابونةٌ من راحتىّ منعم ... قد أضحَت السحبُ لها جسدًا
تلاطم البحران فى صدرها ... فأصبح الموج بها مُزبدًا

***

ذكر شعراء المائة السابعة من أهل المغرب ، والمختار من أشعارهم فى طبقتى المرقص والمطرب

١ — الأسعد بن مماتى ، له فى المرقص ، من مصر فحُسب من المغرب :

مررتُ بدار الملك والنيل آخذ ... بأطواقها والماء يضربها ضربا

٢ — ابن سناء الملك ، له فى المرقص :

لا تخش منى فإنى كالنسيم ضناً ... وما النسيم بمختبىء على غُصن

وقوله :

وأُملى على ليـل الغدائر غدرها ... وأملى عليه وهو فى الأرض يكتبُ
أغار من القرطين خيفة حُبها ... ألم ترهم مثل قلبى يُعذّب(١)
وأنـكر من تلك الغدائر أنهـا ... إذا أُرسلت ظلت مع الحجل تلعبُ
وما لاح فى الغرب الهلال وإنما ... هو البدر إجلالًا لها يتنقبُ

(١) فى المتن : « يعذبوا » .

٣ — النجيب بن الدباغ ، له فى المرقص :

يا ربّ إن قدرته لمقبـــلٍ ... غيرى فللأكواب أو للأكؤس

وإذا قضيت لنـا بعين مراقبٍ ... فى الحب فلتك من عيون النرْجِس

٤ — ابن شمس الخلافة ، له فى المرقص :

يارب ليلٍ قد طرقت ... وساد من أهواه سِرّا

ففششت قفلًا من عقيـ ... ق أحمرٍ وسرقتُ دُرّا

٥ — ابن النبيه الـكاتب ، له فى المرقص — من قصيدة طويلة :

وكوكب الصبح نجاب على يده ... مخلق تملأ الدنيا بشائره

٦ — ابن الفقيه نصر ، له فى المرقص :

أقتطف السوداء من لمتى ... أخذاً مع البيضاء إذ تسرفُ

فتخلف البيضاء أمثـــالها ... وتخلف السوداء فما تخلفُ

حماقة السوداء من هاهنا ... يعرفها من لم يكن يعرفُ

٧ — سيف الدين المشد ، له فى المرقص :

(بياض فى المتن)

٨ — ابن مطروح ، له فى المرقص :

إذا مااشتهى الخلخال أخبار قُرطها ... فياطيب ما تملى عليه الضفائرُ

وقوله :

وجاء فى حُلةٍ معصفرة ... قومُوا انظروا الغصن فى أصائله

٩ — شرف الدين الديباجى ، له فى المرقص :

شهر الحسام وكالأقاحى خده ... ثم انثنى كشقائق النعمانِ

لو لم يكن طرباً براحته لمـا ... غنى بضرب مثالثٍ ومثانى

١٠ — ابن شاور ، له فى المرقص :

لا تثق من آدمىّ فى ودادٍ وصفاء ... كيف ترجو منه صفوًا وهو من طينٍ وماء

١١ — ابن أبى الأصبع ، له فى المرقص :

ولما رأيتك عنـد المديـ   ـح جهم المحيا لنـا تنظرُ
تيقنت بخلك لى بالندى   لأن الجهامة لا تمطرُ

١٢ — أبو الحسين الجزار :

من منصفى من معشرٍ   كثروا علىّ وأكثروا
صادقتهم وأرى الخرو   ج من الصداقة يعسرُ
كالخط يسهل فى الطرُو   س ومحوه متعذرُ
وإذا أردت كشطته   لـكن ذاك يؤثّرُ

١٣ — ابن غنُوم الإسكندرى :

لا غرو للأعين أن رقرقت   دموعها حين وداع السفرْ
فالنّور أصبح مستعبرًا   وليس إلّا لوداع السحرْ

١٤ — سلطان إفريقية يحيى ، له فى المرقص — فى الجوز :

تفضل بطعمٍ له ملبس   صلابة وجه لئيم حكى
إذا برُّ عن جسمه ثوبه   أتاك كما تمضغ المستكا

١٥ — ابن المفون ، له فى المرقص :

أخواك يابن الأكرمين بجنةٍ   راياتها مالم تـكن فى الجنة
عنباً ملاحيًّا وخمرًا مزةً   وظلالنا من تحت أغصن كرمة
فشرابنا بنت الـكروم ونقلنا   بالأم واستظلالنا بالجـــدة

١٦ — ابن طلحة ، وزير هود صاحب الأندلس :

ياهل ترى أطرف من يومنا   قلّد جيد الأفق طوق العقيق
وأنطق الوُرق بعيـــدانها   مرقصةً كل قضيبٍ وريق
والشمس لا تشرب خمر الندا   فى الروض إلّا بكؤوس الشقيق

١٧ — مرج كحل المغربى ، له فى المرقص :

نهر يهيم بحسنه من لم يهمّ   ويجيد فيه الشعر من لم يشعر
ما اصفرّ وجه الشمس عند غروبها   إلا لفرقة حسن ذاك المنظر

١٨ — مُطرف الغرناطى ، له فى المرقص :

غدوت مفكراً فى سِر أفقٍ   أفاد العلم من بعد الجهالة
فما طويت له شبك الدرارى   إلى أن أظفرتهُ بالغزَالة

١٩ — ابن جودى الغرناطى ، له فى المرقص :

يقول وقد قالوا أطال تأملاً   لحظ عذاريه مقيماً لعذرِه
إذا رمدت عيناى من شمس وجهه   ملأتهما كحلا بأثمد شعرِه

٢٠ — ابن طارق الغرناطى ، لهُ فى المرقص :

سقِّنى والحمام يبكى صباحاً   فتخال الرذاذ من مقلتيهِ
وكأن النسيم جاء إلى الغصـ   ـن دخيلاً مسترفداً ما عليهِ
فانثنى كالكريم وفَّاهُ ضيف   ثم ألقى ما فى يديه لديهِ

٢١ — ابن محبوب كاتب الرميمى ، صاحب المرية ، له فى المرقص ، فى غلام حلقوا شعره :

حلقوك تغييرًا لحسنك غيرةً   فازداد حسنك بهجةً وبهاءَ
كالخمر زال فدامه فتشعشعت   والشمع قط ذبالُه فأضاءَ

٢٢ — ابن طلحة الصقلى ، له فى المرقص :

أيتها النفس إليه اذهبى   فحبه المشهور من مذهبى
مفضض الثغر له نقطة   مسكية فى خده المذهبى
آيسنى التوبة فى حبه   طلوعُه شمساً من المغرب

٢٣ — حمدوس الصقلى ، له فى المرقص ، فى شمعة :

وصعدة لبست سربال مشتهرٍ   بالحب منغمسٍ فى الدمع والحرق

مازال يطعن صـدر الليل لهذَمُها   حتى غـدا سائلًا منه دم الشفق

٢٤ — أبو جعفر بن عياش له فى المرقص :

شربت مُذ دّب فوق الخد عارضه   حتى بـدا شائبًا بالصبح مختضبًا
فلم أدع ذهب الصهباء من قدحى   حتى رأيت خليع الليل قد ذهبـا

٢٥ — عفيف الدين التلمسانى ، له فى المرقص :

ساروا فيـا وحشة الوادى لبعدهم   عنه ولا سيما الأغصان والـكثب

وله :

وأعدلى حديثهم فلسمعى   قُرط وجدٍ باللؤلؤ المنثور
ثم صِف لى ذؤابة منه طالت   ودجّت فهى ليله المهجور

٢٦ — ابن سلمون البلنسى ، له فى المرقص :

ياقائلاً كم أراهُ للحمد فىَّ مـديما   وجدت عرضك روضاً فـكنت فيه نسيما

٢٧ — أبو الحسين القوصى ، له فى المرقص :

ألا لله نهر فى رياض   يحض على الشجاعة من رآهُ
تلاعَب للحباب به فرند   وأدمى بالشقائق جانباهُ

٢٨ — ابن الصّابونى الإشبيلى ، له فى المرقص ، فى العذار :

وما خيَّلت نفسى إلىَّ بأنه   ستفعل أفعال السيُوف الحمائل

٢٩ — أبو الوليد بن الحيان ، له فى المرقص :

والسحب قد نثرت فى الروض لؤلؤها   فضمه الشمس فى ثوب من الذهب

وله :

ودوحـةٍ أطربت منها حمائمهـا   أفق السماء فـلم يبرح ينقطها
تحكى الـكمامة منها راحةً قبضت   يلـق السحاب لهـا درًّا فتبسطها

وقوله :

ودوح بدت معجزات له   تبين عليه وتدعُو إليه

جرى النهر حتى سقى أرضه ... فمال يقبل شكراً لديه
وكف الصَّبَا صبغت حُليه ... فقام الحمام ينادى عليه
كساه الأصيل ثياب الضنى ... فحل طبيب الدياجى لديه
وجاء النسيم له عائدا ... فقام له لاثماً معطفيه

٣٠ — سعيد وزير صاحب إفريقية ، فى المرقص — فى دولاب :

ومحنية الأصلاب تحنو على الثرى[1] ... وتسقى نبات الترب درّ الترائب
تعد من الأفلاك أن نجومها ... نجوم لرجم المحْل ذات الذوائب
وأطربها رقص الغصون ذوابلاً ... فدارت بأمثال السيوف القواضب

٣١ — موسى بن سعيد ، له فى المرقص :

ألا حبذا روض بكرنا له ضحًى ... وفى جنبات الورد للطل ادمعُ
وقد جُعلت بين الغصون نسيمة ... تمزّق ثوب الظلّ منه وترقعُ
ونحن إذا ما صلّت القضب ركّعاً ... نظل لها من هزة السكر ركّعُ

٣٢ — على بن موسى بن سعيد ، له فى المرقص — فى جزيرة الصالحيّة :

وعانقها من فرط شوقٍ لحسنها ... فمدّ يمينا نحوها وشمالا

وقوله :

كأنّ خالًا لاح فى خدّه ... للعين فى سلسلة من عذار
أسود يخدم فى جنة ... قيده مولاهُ خوف الفرار

***

نجزت أسماء الشعراء المختصين بهذا الجزء . وبتمامهم تم الجزء السابع[2] من هذا التاريخ ، المسمى بكنز الدرر وجامع الغرر ، بخط يد واضعه ومصنفه وجامعه

(١) فى المتن : « السرا » .

(٢) فى المتن : « السادس » .

ومؤلفه[١] ، أضعف عباد الله وأفقرهم إلى الله ، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك ، صاحب صرخد ـ كان ـ عُرف الوالد بالدواه دارى . غفر الله له ولوالديه ، ولمن قرأه ، وتجاوز عن كل خطأ يراه ، ولكافة المسلمين أجمعين . وكان الفراغ من نسخ هذا الجزء نهار يوم الثلاثاء سابع شهر شعبان المكرم ، سنة أربع وثلاثين وسبعمائة ، أحسن الله نقصها بخير .

يتلو ذلك فى أول الجزء الثامن ـ وهو آخر هذا التاريخ المبارك ـ ما مثاله : مقدمة فى ذكر بعض محاسن مولانا السلطان ، أعز الله أنصاره . وبعدها ابتداء ذكر الدولة التركية ، أدام الله أيام مولانا مالكها ، وأدام اقتداره ، إلى آخر ما يقف بنا الكلام من السنين والأعوام .

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

---

(١) فى المتن : « ومألفه » .

فهـارس

الجزء السابـع

من كتاب كنز الدرر وجامع الغرر

لابن أيبك الدوادارى

أولا — فهرس الأعلام

(ا)

(ب)

(ت)

(غ)

(ف)

(ق)

(ل)

(م)

(ن)

ثانيا — فهرس الأماكن والبلدان

(ت)

(ج)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

ثالثا — فهرس المصطلحات

(غ)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٤٣٨/١٩٧٢

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

صفحة

صفحة

مقدمة المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

(١)

وبعـد ، فهذا هو الجزء السابع من تاريخ كنز الدرر وجامع الغرر لأبى بكر بن عبد الله بن أيبك الدوادارى ؛ وهو الجزء الذى أسماه مؤلفه « الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب » ، تمشيا مع طريقته فى تسمية كل جزء من أجزاء مؤلفه الـكبير باسم فرعى خاص يوضح العصر ويحدد الدولة التى خصص هـــذا الجزء أو ذاك لعلاج تاريخها .

ولا تخفى على المشتغلين بدراسة تاريخ الشرق الأدنى فى العصور الوسطى أهمية عصر الأيوبيين بالذات ، بوصفه العصر الذى عاين حلقة من أخطر حلقات الحركة الصليبية . ففى ذلك العصر أخذت الصحوة الإسلامية تنطلق لتأخذ شكل موجة جهاد كبرى ضد الوجود الصليبى الغربى فى بلاد الشام ، وهو الأمر الذى ساعد عليه وأدى إلى نجاحه تحقيق الوحدة بين مصر والشام فى ظل ملوك بنى أيوب . وبعبارة أخرى فإن جانبا هاما من جوانب أهمية العصر الأيوبى يبدو فى أنه شهد تحول الصليبيين من الهجوم إلى الدفاع ، وتحول المسلمين ـ وخاصة فى بلاد الشام ـ من الدفاع إلى الهجوم : الأمر الذى جعـل دعاة الحروب الصليبية ، وأصحاب مشاريعها فى الغرب الأوربى يؤكدون حقيقة هامة لم تغب تماما عن أنظار الصليبيين الأوائل ، وهى أن مصر بموقعها وإمكانياتها ومواردها مصدر خطر كبير على الصليبيين بالشام ، وأنه إذا أراد الصليبيون إقامة آمنة هادئة فى بلاد الشام فعليهم بتأمين جبهتهم الجنوبية من ناحية

مصر أولا . وهكذا تعرضت مصر فى أواخر العصر الأيوبى ـ أعنى فى النصف الأول من القرن الثالث عشر للميلاد ـ لحلتين صليبيتين كبيرتين ، ارتبط بهما كثير من الأحداث التى ميزت تاريخ الشرق الأدنى فى عصر الأيوبيين .

فإذا أضفنا إلى ذلك التيارات الأخرى الخارجية التى أثرت فى تاريخ المنطقة فى ذلك العصر، مثل تفكك الدولة الخوارزمية ، وظهور خطر المغول أو التتار فى المشرق، وما صحب هـذا وذاك من ردود فعل حضارية وسياسية واسعة الأصداء ـ وخاصة فى مصر والشام ـ أدركنا بعض الأهمية التى لعصر الأيوبيين فى تاريخ الشرق الأدنى . ففى ذلك العصر انسابت كثير من العناصر ـ وخاصة من الأكراد والأتراك والتركمان ـ داخل المحيط العربى الكبير فى مصر والشام ، لتترك آثار بصماتها واضحة فى التركيب الاجتماعى والتكوين البشرى والجنسى والبناء الحضارى ، وخاصة ما يرتبط بالنظم واللغة والعادات والتقاليد . وحسب عصر الأيوبيين أن مصر والشام شهدتا فيـه انتشار النظام الإقطاعى الحربى ، والتوسع فى استخدام الرقيق الأبيض الذين عرفوا باسم المماليك ، ثم ظهور كثير من الألفاظ والمصطلحات غير العربية لتصبح شائعة الاستعمال ، لا عند العامة فحسب، بل أيضا عند الخاصة من العلماء والكتاب والمؤلفين، فضلا عن الحكام . وهـذه كلها ظواهر أخذت تنمو ويشتد خطرها طوال العصر الأيوبى ، حتى اكتملت صورتها مع قيام دولة المماليك ، التى خلفت دولة الأيوبيين فى حكم مصر والشام .

(٢)

ومن داخل إطار هـذه الصورة المبسطة تبدو الأهمية الخطيرة للحقبة التى يعالجها هذا الجزء السابع من تاريخ كنز الدرر لابن أيبك . ويزيد من هذه الأهمية أن ابن أيبك لم يكن مؤرخا عاديا ، اقتصر فى كتابه على الجمع والتلخيص والنقل عمن سبقه من المؤرخين ؛ وإنما انتمى ابن أيبك إلى أسرة كان لها من مسئولية المشاركة فى صنع الأحداث المعاصرة نصيب مرموق . فإذا أضفنا إلى السنوات التى عاشها مؤلف هذا

الكتاب وشهد أحداثها ، تلك التى عاشها أبوه وجده ـ وكان لهما قسط واضح فى المشاركة فى الأحداث المعاصرة ـ لخرجنا بحقبة زمنية تمتد على وجه التقريب من أوائل القرن السابع حتى قرابة منتصف القرن الثامن للهجرة ـ وهى حقبة لها أهميتها التاريخية البالغة بوصفها تمثل عصر الانتقال من دولة الأيوبيين إلى دولة المماليك ؛ أو بعبارة أخرى الانتقال من العصر الذى اكتمل فيه بناء دولة الأيوبيين وبدأت تنخر فى جسمها العوامل الداخلية والخارجية التى أدت إلى سقوطها من ناحية ، إلى العصر الذى نضجت فيه ملامح ومقومات دولة سلاطين المماليك لتصبح قوة فعالة ، تمثل دولة من أغرب الدول التى عرفها التاريخ سواء من ناحية تكوينها أو من ناحية نظمها أو من ناحية الدور الحربى والسياسى والحضارى الذى قدر لها أن تلعبه على مسرح الشرق الأدنى أواخر العصور الوسطى .

فمؤلف هـذا الكتاب الذى عاصر فترة نشطة حافلة بالأحداث فى صدر دولة سلاطين المماليك ، ربطته ببعض بقايا ملوك بنى أيوب صلات قوية مما جعله يقف على تفصيلات عديدة عن الأيوبيين وحياتهم الخاصة ودقائق ما كان يجرى بين بعضهم وبعض من أحداث وأحاديث تلقى أضواء جديدة على روح العصر من ناحية وعلى حياة ملوك بنى أيوب الخاصة والعامة من ناحية أخرى(١) . بل إن المؤلف يقول فى صراحة عند كلامه عن ابتداء دولة ملوك بنى أيوب فى بداية هـذا الجزء السابع من كتابه كنز الدرر ، إنه صاحب الملك الكامل بن الصالح إسماعيل الأيوبى ، وأن الصداقة بينهما اشتدت إلى درجة أنه « كان يطلعنى على كثير من أسراره » .

وعند ما يشير المؤلف إلى جده عز الدين أيبك صاحب صرخد (ت ٦٤٥) يبدو لنا بوضوح مدى مشاركة هـذا الجد ـ الذى نسب إليه المؤلف ـ فى صنع الأحداث التى كانت تجرى على مسرح بلاد الشام فى النصف الأول من القرن السابع للميلاد(٢) .

---

(١) انظر حوادث سنتى ٦٣٤ هـ ، ٦٣٥ هـ فى هذا الجزء .

(٢) انظر حوادث سنوات ٦١٦ هـ ، ٦٢٦ هـ ، ٦٣٥ هـ ، ٦٤٧ هـ فى هذا الجزء .

ثم إن الأمير عز الدين أيبك ــ جد المؤلف ــ لم يكن مجرد أمير من أرباب السيوف الذين لاشغل لهم فى الحياة إلا المساهمة فى تبعات الحكم ، وإنما يبدو مما كتبه حفيده ــ صاحب هذا الكتاب ــ أن الأمير الجد عرف بشدة التدين والحرص على تلاوة القرآن الكريم[1] ، والاشتغال بالكتابة ، فكانت له كتابات بخط يده كما كانت له خزانة كتب عامرة . وهنا يكشف المؤلف عند إشارته إلى جده فى هذا الجزء عن حقيقة جديدة هامة هى أن أسرة ابن أيبك تنحدر من نسل بنى سلجوق ، وأن عز الدين أيبك اسمه الحقيقى ميكائيل بن بهرام ، أسره الخوارزمية ، وباعوه للملك المعظم الأيوبى ، فنسب إليه وصار يعرف بالمعظمى[2] . ويلقى المؤلف أضواء جديدة على أسرته ــ فى هذا الجزء السابع من كتابه ــ فيروى أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب هو الذى كاد لجده الأمير عز الدين أيبك ودسّ له السم ليتخلص منه ويستولى على أمواله وممتلكاته . فلما أحس الأمير أيبك بالسم يسرى فى جسده ، وتحقق من مؤامرة السلطان الصالح ، دبر للسلطان مؤامرة أدت إلى إصابته بمرض السقية الذى مات به بعد ذلك . وكانت من جملة جوارى الأمير أيبك ــ اللائى استولى عليهن السلطان الصالح ــ أم عبد الله والد المؤلف ، وهى امرأة خطائية الجنس ، فباعها الصالح ــ وهى حامل بوالد المؤلف من الأمير عز الدين ــ إلى رجل من كبار أهل صرخد ، فولدت عنده . ونشأ عبد الله ــ أبو المؤلف ــ عند ذلك الرجل ، حتى بلغ السابعة عشر من عمره وعندئذ انتقل إلى السلطان الظاهر بيبرس فى قصة طويلة ، فأنعم عليه بإقطاع عبرته ألفى وأربعمائة دينار ، وسلمه للأمير سيف الدين بلبان الرومى الدوادار ، وقال له « علمه وخليه يمشى معك » فعرف عبد الله ــ أبو المؤلف ــ بالدوادارى .

ويفهم من سياق هذه القصة أن عبد الله بن أيبك ــ أبا المؤلف ــ نشأ هو الآخر

---

(١) انظر حوادث سنة ٦٤٧ هـ فى هذا الجزء .

(٢) انظر حوادث سنة ٦١٩ هـ فى هذا الجزء .

نشأة قويمة ، حيث أن الرجل الذى اشترى أم عبد الله « كان دينا . . . وكان رجلا فقيها صوفيا فاضلا محققا ، له عندى كتاب تأليفه بخطه فى التصوف » . مما يشير إلى أن والد المؤلف نفسه شب فى بيت علم وأدب . هذا إلى أن عبد الله والد المؤلف كان مقربا من السلطان الأشرف خليل بن قلاون ثم من السلطان الناصر محمد بن قلاون ، الذى أمّره وولاه بلبيس والعربان سنة ٧٠٣ هـ ، فأقام إلى سنة ٧١٠ هـ ، فنقله إلى الشام بسؤاله ، وجعله مهمندارا ، ثم ألزم بشد الدواوين بدمشق . . . وهكذا ظل والد المؤلف يشارك فى شئون الحكم حتى وفاته سنة ٧١٣ هـ[1] .

وهكذا ولد أبو بكر ـ مؤلف كنز الدرر ـ وشب فى بيت عرف قيمة العلم وقدره. وإذا كانت المصادر المعاصرة قد صمتت صمتا غريبا عن ذكر شىء عن حياة أبى بكر ابن عبد الله بن أيبك ، إلا أن مؤلفاته العديدة تشهد على تمرسه فى حياة العلم وسعة معلوماته وأفقه . ومن جملة هـذه المؤلفات التى ألفها صاحب كنز الدرر كتاب فى خطط القاهرة ، أسماه « اللقط الباهرة فى خطط القاهرة »[2] ومعروف عن موضوع الخطط أنه ليس بالموضوع السهل ، وأنه لايجرؤ على الخوض فيـه إلا عالم متمكن واسع المعرفة . كذلك يشير المؤلف فى هذا الجزء السابع إلى أنه كان يرجع إلى مسوداته بين حين وآخر ليتحقق من حدث أو نبأ ، ممـا يوضح أنه كان حريصا على تدوين ما يتوصل إليه من معلومات فى مسودات يرجع إليها وقت الحاجة ، وهـذا أسلوب لايأخذ به إلا صاحب منهج علمى منظم[3] .

(٣)

أما عن كتاب كنز الدرر لابن أيبك فإن الصفة الغالبة عليه هى الإيجاز الشديد، والاكتفاء بالإشارة إلى الأحداث الكبرى الرئيسية دون الدخول فى التفاصيل ،

(١) انظر حوادث سنة ٦٤٧هـ فى هذا الجزء .
(٢) انظر حوادث سنة ٥٥٧هـ فى هذا الجزء .
(٣) انظر حوادث سنة ٥٨٩هـ فى هذا الجزء .

والبعد عن ذكر التفريعات الثانوية التى تتصف بها حوليات العصور الوسطى بوجه عام . وقد توخى المؤلف هـــذا النهج فى كتابة التاريخ متعمدا ، فيقول عن بعض الأحداث « أضربت عنه لطوله ، وكون تاريخنا تاريخ تلخيص » . كذلك نراه يحرص على عدم تـكرار بعض الأحداث فيقول « . . . بعـد عدة وقائع قد تقدمت أخبارها بحكم التلخيص »[1] .

على أننا لا يمكن أن ننزع ابن أيبك من العصر الذى عاش فيه فعلا ، وهو عصر اتصفت عقليته بحب الاستطراد فى الـكلام والـكتابة . وكان المعاصرون يرون فى هـذا الاستطراد نوعا من التنويع لزيادة الفائدة من ناحية والترويح عن المستمع والقارئ ودفع السأم عنهما من ناحية أخرى . ولذا نجد المؤلف فى بعض أجزاء كتابه يجنح أحيانا إلى الاستطراد ، بل ربما انتقل من فن التاريخ إلى فن الأدب ، مثلما حدث فى ترجمته للقاضى الفاضل فى حوادث سنة ٥٩٦ هـ ، إذ لم يكتف بذكر فقرات من بليغ أدبه ، وإنما ساقته المعانى إلى ذكر بعض محفوظاته ـ محفوظات المؤلف نفسه ـ من الشعر الرقيق . وعند ما يتنبه المؤلف إلى أنه خرج عن الموضوع واستسلم للاستطراد ، يبرر سلوكه بأنه فعل ذلك متعمدا « لتنشيط القارئ ، ولا يمل ويسأم من فن واحد ، فإذا خرج به شجون الحديث من فن إلى فن كان لزناد فـكرته أقدح ، ولطير نظرته أصدح . . . » !![2] . على أن ابن أيبك لم يستسغ فى قرارة نفسه هذا الاستطراد الذى وقع فيه أحيانا ، فـكان يعلن بسرعة عودته « إلى سياقة التاريخ بمعونة الله وحسن توفيقه » . وربما أحسّ أنه باستطراده قد وقع فى خطأ فعلًا ، فيعترف بالخطأ الذى وقع فيـه ، ويستغفر الله منه ، ويقولها فى صراحة « وقد خرج بنــا الـكلام وشجونه عن شرط الاختصار ، وأنا أقول استغفر الله من ذلك !! »[3] .

---

(١) انظر حوادث سنة ٦٢٨ هـ فى هذا الجزء .

(٢) انظر حوادث سنة ٥٩٦ هـ فى هذا الجزء .

(٣) انظر حوادث سنة ٦١٩ هـ فى هذا الجزء .

ومع روح الإيجاز الشديد التى سادت كتاب كنز الدرر ، ينبغى أن نعترف بأن ابن أيبك استطاع أن يأتى فى كتابه هذا بجديد فعلا . ويبدو هذا الجانب الجديد فى بعض المعلومات والآراء والحقائق التى يشير إليها ابن أيبك إشارات قد تكون موجزة ، ولكننا لانعثر عليها فى مصدر آخر من المصادر التى تعرضت لتاريخ نفس الفترة . ويبدو السر فى هذه الحقيقة فى أن بعض المصادر التى أخذ عنها ابن أيبك واستقى منها معلوماته قد اندثرت ولم تصل إليها أيدى غيره من المؤرخين الذين عالجوا تاريخ نفس الحقبة الزمنية التى عالجها .

من ذلك ما نجده فى كتابة ابن أيبك من تلميحات طريفة عن أصل التتار وأخبارهم[1] . كذلك نراه يشير فى هذا الجزء إلى أن رسل الصليبيين إلى المسلمين كانوا يدعون أنهم لايعرفون العربية وهم يعرفونها[2] . وإلى سياسة صلاح الدين فى مصانعة الفرنج ـ وخاصة أرناط صاحب الكرك ـ وكيف أنه كان يبذل لهم الأموال فى الدور الأول الذى شغل فيه صلاح الدين بإعادة بناء الجبهة الإسلامية ، وتعبئة جهود المسلمين فى مصر والشام استعدادا لمرحلة الجهاد ، « وكان يعطى الإفرنج شيئا كثيرا لايعلم له قيمة ، ويصانعهم فيما بينه وبينهم ، ويجتهد بكتمان ذلك ، لايسمع عنه أنه يصانع عن نفسه وبلاده »[3] . . . إلى غير ذلك من الإشارات السريعة الخاطفة التى لا نجد لكثير منها أثرا فى بقية المصادر المعاصرة ، والتى تلقى أضواء لها أهميتها على روح العصر .

هذا فضلا عن أن ابن أيبك نفسه ـ بالإضافة إلى أبيه وجده ـ شاركوا فى كثير من أحداث الفترة التى عاشوها ـ كما سبق أن أشرنا ـ مما جعله فى كتابته عن هذه الفترة بالذات يحيط بما لم يحط به غيره علما . ومع هذا فقد تحلى ابن أيبك فى كتابته

---

(١) انظر حوادث سنة ٦٣٨ ﻫ فى هذا الجزء .

(٢) انظر حوادث سنة ٥٨٩ ﻫ فى هذا الجزء .

(٣) انظر حوادث سنة ٥٦٨ ﻫ فى هذا الجزء .

بالتواضع الشديد ، وعدم الاستبداد بالرأى ، والاعتراف بعدم تثبته أحيانا من بعض البيانات. فهو مثلا فى حوادث سنة ٥٩١ هـ يقول إن العادل عاد إلى دمشق « وخلف بعض أولاده بالشرق ، لا أعلم أيهم كان » . وهو عندما يشير إلى واقعة حطين يفعل ذلك ضمن أحداث سنة ٥٦٨ هـ ، ولكنه يذكر أن ابن واصل قال إن هذه الواقعة حدثت سنة ٥٨٣ هـ ، ويؤيد رأى ابن واصل قائلا « وأقول إنه الصحيح » . ويعلل ابن أيبك ذلك بأن المصدر الذى نقل عنـــه أخبار تلك الواقعة ــ وهو أبو المظفر جمال الدين يوسف ــ اتبع طريقة رواية الأحداث والوقائع متكاملة لا مجزأة وفق السنوات التى استغرقتها ، بحيث يذكر الواقعة « واستمر على ذكرها هل يكون فى سنيها أو غير سنيها » . أما ابن واصل فقد اتبع أسلوب تتابع السنين ، بحيث لايذكر فى السنة الواحدة إلا ماتم فيها من أحداث ، ولذا « فالرجوع إليه فى وقائع السنين أولى من غيره . . . » .

وهكذا يبدو لنـا أنه إذا كان البعض قد أخذ على كتاب كنز الدرر لابن أيبك بعض المآخذ ، كالاستطراد حينا ، والإيجاز الشديد أحيانا ؛ فضلا عن ركاكة الأسلوب وكثرة الأخطاء اللغوية . . . فإن هذا كله لاينبغى أن يصرفنا عن مزايا هذا الكتاب ومحاسنه ، بوصفه مصدرا هاما من مصادر الحقبة الزمنية التى تصدى لعلاجها . هذا إلى أننا فى حكمنا على أى عمل تاريخى ينبغى ألا ننظر إليه بأعين العصر الذى نعيش نحن فيــه ، ولا نحكم عليه بمقاييسنا ومثلنا ومستوياتنا نحن ؛ وإنما تتطلب العدالة أن نقيّم هذا العمل أو ذاك فى ضوء المثل والمقاييس والمستويات التى سادت العصر الذى تم فيه إنجاز ذلك العمل فعلا . ولا يخفى علينا أن ابن أيبك عاش وكتب فى عصر شهد زحف الأعاجم على الوطن العربى فى الشرق الأدنى وتغلغلهم فيه وبسط سيادتهم عليه . . . ونجم عن هــذا كله زحف كثير من عادات الترك والتتار وغيرهم من شعوب المشرق ، وانتشار عديد من نظمهم وتقاليدهم فى العراق والشام ومصر بوجه خاص ، وانسياب كثير من ألفاظهم المستغربة فى هذه البلاد ، حتى غدت مألوفة الاستعمال فى الحياة اليومية عند العامة والخاصة سواء ، بحيث صار

لايخلو منها كتاب أو مصدر أو موسوعة مما تم تأليفه بالعربية فى ذلك العصر . وعلى هذا فإن ابن أيبك ـ فيما ظنه البعض مخطئا ـ لم يكن فى حقيقة أمره إلا قطعة من العصر الذى عاش فيه ، وكتب بروحه ، وتأثر بأوضاعه واتجاهاته . وحسب ابن أيبك أنه استطاع أن يقدم لنا فى كتابه كنز الدرر الكثير من المعلومات الجيدة الحبك التى لاتخلو من جديد وطريف .

(٤)

وإذا كان لى أن أختار صفة نصف بها ابن أيبك فى الأجزاء الأخيرة من كتابه « كنز الدرر وجامع الغرر » ؛ فإننى لاأجد أفضل من أن أصفه بأنه « مؤرخ النيل » . قد يقول البعض بأن هذه الصفة ليست من خصائص ابن أيبك وحده فى كتابه كنز الدرر ، وإنما يشاركه فيها ابن تغرى بردى ، المؤرخ الذى عاش فى القرن التاسع الهجرى (ت ٨٧٤ هـ) والذى عنى هو الآخر عناية فائقة بذكر أمر النيل فى كل سنة من سنوات حولياته الشهيرة « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » . ولكن علينا هنا أن نضع أمام أعيننا اعتبارين هامين : أولهما أن ابن أيبك عاش وكتب فى عصر يتقدم من الناحية الزمنية العصر الذى عاش وكتب فيه المؤرخ ابن تغرى بردى ، مما يجعل ابن أيبك فى هذه الناحية مبتكرا ورائدا لا مقلدا ومحاكيا . هذا مع عدم استطاعتنا أن ننفى أن يكون هناك من المؤرخين والمؤلفين من سبق ابن أيبك زمنيا فى العناية بذكر أمر النيل فى كل سنة من السنوات التى تصدى لعلاج تاريخها . ولكننا فيما نعلمه ـ وفوق كل ذى علم عليم ـ لم نتوصل إلى أحد قبل ابن أيبك استن هذه القاعدة فى العناية بذكر أمر نهر النيل سنة بعد أخرى . أما الاعتبار الثانى الذى يميز ابن أيبك عن ابن تغرى بردى فى هذا الصدد فهو أن ابن أيبك جعل للنيل مكان الصدارة فى أحداث كل سنة من حولياته ، فى حين جعل ابن تغرى بردى للنيل مكان الخاتمة أو الذيل . ويبدو لنا فى هذا الجزء السابع من كتاب كنز الدرر كيف حرص ابن أيبك على أن يستهل أحداث كل سنة بعنوان ثابت لايحيد عنه ، هو : « النيل المبارك فى هـذه السنة » . فى حين ينهى ابن تغرى بردى فى حولياته « النجوم

الزاهرة » حوادث كل سنة يذكر من توفى فيها من الأعيان ثم يختتمها بعنوان جانبى نصه « أمر النيل فى هذه السنة » .

وهكذا أدرك ابن أيبك أن نهر النيل « مبارك » وأن الوقوف على حال فيضانه هو المفتاح لدراسة أحوال مصر وأهلها ، ولذا يبدأ يذكر أمر الفيضان . وفى ضوء وضع النيل والفيضان يمكن تفسير ما ألمّ بالبلاد والعباد فى هذه السنة أو تلك من أحداث اقتصادية واجتماعية وسياسية . حقيقة إنه قد يؤخذ على ابن أيبك عدم دقته أحيانا عند تسجيل مدى الماء القديم فى النيل ، ومقدار زيادة ماء الفيضان ؛ ولكننا مرة أخرى نكرر ماسبق أن ذكرناه من أنه علينا قبل أن نحكم على عمل من أعمال التاريخ أن نقدر ظروف العصر الذى تم فيه ذلك العمل ، ومدى إمكانيات المؤلف ، والمصادر التى كان عليه أن يستقى منها معلوماته . . . إلى غير ذلك من الاعتبارات العديدة التى لايقدرها حق قدرها إلا المؤرخ الذى يتمتع بحاسة تاريخية نفّاذة .

(٥)

وأخيرا ، فإنه لايسعنى بالنيابة عن جميع المشتغلين فى حقل تاريخ العصور الوسطى سوى أن أشكر المعهد الألمانى للآثار بالقاهرة لعنايته — وعناية القائمين على أمره — بنشر هذا الكتاب ، كتاب كنز الدرر وجامع الغرر لأبى بكر بن عبدالله بن أيبك الدوادارى ، والحرص على إخراجه فى هذه الصورة السليمة المتكاملة التى تم إخراجه فيها فعلا .

وأرجو أن أكون قد وفقت فى النهوض بنصيبى فى هذا العمل العلمى الجليل ، بتحقيق الجزء السابع من هذا الكتاب ، وهو الجزء الذى أتشرف بتقديمه اليوم للباحثين ، لنضيف به لبنة جديدة إلى صرح بناء حركة إحياء التراث العربى .

والله ولى التوفيق ،،

سعيد عبد الفتاح عاشور
أستاذ كرسى تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب — جامعة القاهرة

ضاحية المعادى بالقاهرة فى { ذى الحجة سنة ١٣٩١
فبراير سنة ١٩٧٢ }

فهرس المحتويات

صفحة

Herausgabe der Chronik *Kanz ad-durar wa-ǧāmiʿ al-ġurar* des Ibn ad-Dawādārī walten ließen, und für die geglückte äußere Form des Buches zu danken.

Ich hoffe, daß es mir gelungen ist, durch die Edition von Band VII, den ich hiermit der wissenschaftlichen Welt vorlege, meinen Teil zu diesem verdienstvollen Projekt beizusteuern und dadurch einen weiteren Beitrag zur Erschließung des arabischen Erbes zu leisten.

Kairo, im Februar 1972

DR. SAʿĪD ʿABD AL-FATTĀḤ ʿĀŠŪR
Professor an der Universität Kairo

IV

Man könnte Ibn ad-Dawādārī in den letzten Bänden seiner Universalgeschichte *Kanz ad-durar wa-ǧāmiʿ al-ġurar* kaum treffender charakterisieren als mit der Bezeichnung „Chronist des Nils". Zwar weisen manche darauf hin, daß Ibn ad-Dawādārī darin nicht allein steht, sondern daß auch Ibn Taġrībirdī, ein Chronist des 9./15. Jhs. (st. 874/1469—70), in jedem Jahr seiner berühmten Chronik *an-Nuǧūm az-zāhira fī mulūk Miṣr wal-Qāhira* sehr sorgfältig die Nildaten aufgezeichnet habe. Zwei wichtige Kriterien jedoch verdienen unsere Aufmerksamkeit: Erstens lebte und schrieb Ibn ad-Dawādārī in einem früheren Jahrhundert, was seine Originalität ausmacht. Zwar gab es vor Ibn ad-Dawadāri Chronisten und Autoren, die den Nilstand erwähnen, freilich nur in den Jahren, deren Ereignisse sie ohnehin berichten, aber soweit wir wissen, stoßen wir vor Ibn ad-Dawādārī auf keinen, der konsequent alljährlich den Nilstand verzeichnet. Der zweite Umstand, der Ibn ad-Dawādārī gegenüber Ibn Taġrībirdī auszeichnet, besteht darin, daß Ibn ad-Dawādārī den Nilstand zu Anfang, Ibn Taġrībirdī am Ende eines jeden Jahresberichtes erwähnt. Ibn ad-Dawādārī läßt die Ereignisse eines jeden Jahres mit der immer gleichbleibenden Überschrift: „Der gesegnete Nil in diesem Jahr" beginnen; Ibn Taġrībirdī beschließt ein Jahr mit den Nekrologen bedeutender Verstorbener und fügt dann erst die Zwischenüberschrift: „Der Nil in diesem Jahr" an.

Ibn ad-Dawādārī hat die Bedeutung des „gesegneten" Nils und der jährlichen Nilüberschwemmung als Schlüssel für das Studium der Geschichte Ägyptens und seiner Bevölkerung erkannt und beginnt daher ein jedes Jahr mit dem Nilstand; die wirtschaftlichen, sozialen und politischen Ereignisse in Ägypten lassen sich aus dem Nilstand und der Höhe der jährlichen Nilüberschwemmung interpretieren. Zwar könnte man gelegentlich Ibn ad-Dawādārī fehlende Genauigkeit bei der Angabe des jährlichen Höchst-und Niedrigwassers des Nils vorwerfen, wir können aber nur nochmals wiederholen, daß wir bei der Bewertung eines historischen Werkes die Zeitumstände, die Möglichkeiten und die Quellen, die dem Verfasser zugänglich waren, und noch weitere Faktoren in Betracht ziehen müssen, die nur ein erfahrener und einfühlsamer Historiker richtig einschätzen kann.

V

Zum Schluß bleibt mir noch die angenehme Pflicht, im Namen aller, die auf dem Gebiet der mittelalterlichen Geschichte arbeiten, dem Deutschen Archäologischen Institut in Kairo und seinen Mitarbeitern für die Sorgfalt, die sie bei der

vieles Einblick, das anderen verschlossen war. Nichtsdestoweniger zeichnet sich Ibn ad-Dawādārī in seinem Buch durch Bescheidenheit und Zurückhaltung in seinen eigenen Urteilen aus. Zuweilen gibt er offen zu, daß er bei einigen seiner Informationen selbst nicht die letzte Gewißheit habe. So sagt er z. B. unter dem Jahr 591/1194—5, daß al-ʿĀdil nach Damaskus zurückgekehrt sei „und einen seiner Söhne im Osten zurückgelassen habe; er wisse jedoch nicht, welcher genau es gewesen sei". Von der Schlacht von Ḥiṭṭīn spricht er unter den Ereignissen des Jahres 568/1172—3, weist aber darauf hin, daß Ibn Wāṣil diese Schlacht in das Jahr 583/1187—8 datiert. Er stützt die Meinung Ibn Wāṣils, wenn er sagt: „Ich aber meine, daß dies das Richtige ist." Ibn ad-Dawādārī erklärt diese Diskrepanz damit, daß sein Gewährsmann für diese Stelle, Abū l-Muẓaffar Ǧamāl ad-Dīn Yūsuf, die Methode verfolgte, sich länger hinziehende Vorgänge und Geschehnisse en bloc zu behandeln statt unter den einzelnen Jahren, auf die sie sich verteilten. Abū l-Muẓaffar erwähnte die Schlacht „und fuhr fort, darüber zu berichten, ob es nun noch in die Berichtsjahre fiel oder nicht" Ibn Wāṣil indessen folgt der streng annalistischen Darstellung; innerhalb eines Jahres behandelt er nur die Ereignisse, die darin abgeschlossen wurden. „Darum", so sagt Ibn ad-Dawādārī, „ist es immer besser, die Geschehnisse der einzelnen Jahre bei ihm statt bei einem anderen nachzuschlagen."

Wenn man auch gegen Ibn ad-Dawādārīs *Kanz ad-durar* das eine oder andere einwenden kann — Weitschweifigkeit hier, allzu große Kürze dort, ganz abgesehen von der Dürftigkeit des Stils und der großen Zahl sprachlicher Verstöße —, vermag dies doch alles nicht die Qualitäten des Buches als einer bedeutenden Quelle der dort beschriebenen Epoche zu schmälern. In unserem Urteil über historische Werke dürfen wir nicht die Maßstäbe unserer Zeit anlegen, vielmehr verlangt die Objektivität, daß wir sie nach den Maßstäben der jeweiligen Zeit bewerten. Ibn ad-Dawādārī lebte und schrieb in einer Zeit, als Nichtaraber, Türken, Mongolen und andere Völker des Ostens in den arabisch sprechenden Vorderen Orient, besonders in den Irak, in Syrien und in Ägypten, einströmten und viele ihrer Institutionen und Traditionen mitbrachten, vor allem aber drangen viele Ausdrücke aus ihren Sprachen ins Arabische ein und wurden sowohl vom einfachen Volk als auch den oberen Schichten alltäglich benutzt. Man findet sie in jeder Quelle, jedem Buch, jeder Enzyklopädie, die damals in arabischer Sprache verfaßt wurden. Was man Ibn ad-Dawādārī als Fehler ankreiden mag, ist im Grunde nichts anderes als ein Zeugnis der Zeit, in der er lebte, in deren Geist er schrieb und deren Verhältnisse und Strömungen ihn beeinflußten. Für uns kommt es darauf an, daß Ibn ad-Dawādārī uns in seinem Buch präzise, interessante und oft neue Informationen gibt.

lehren und ihn zu unterhalten. Auch unser Autor läßt sich gelegentlich zu derlei weit ausholenden Beschreibungen verleiten, manchmal verläßt er sogar das Gebiet der Geschichtsschreibung und wechselt zum Adab über, z. B. in seiner Biographie al-Qāḍī al-Fāḍils im Bericht über das Jahr 596/1199–1200. Dort begnügt er sich nicht damit, ein paar herausragende Beispiele aus dessen literarischem Schaffen beizubringen, sondern führt bei dieser Gelegenheit auch einiges aus seinem eigenen poetischen Fundus an. Als der Verfasser dann bemerkt, daß er sein eigentliches Thema verlassen und sich in anderem verloren hat, rechtfertigt er sich damit, daß er in voller Absicht so gehandelt habe: „zur Ergötzung des Lesers, damit er nicht bei bloß einer Disziplin Langeweile und Überdruß empfinde; denn wenn ihn die Verzweigungen des Vortrags von einer Disziplin zur anderen führen, sprüht der Feuerstahl seiner Gedanken lebhafter und singt der Vogel seines Denkens heller" (vgl. Jahr 596). Dennoch mißbilligt Ibn ad-Dawādārī im Grunde diese Digressionen, in die er manchmal verfällt; sofort kündigt er seine Rückkehr „zum Lauf der Geschichte mit Gottes Hilfe und Gnade" an. Manchmal bekennt er auch offen diesen seinen Fehler: „Die Erzählung mit all ihren Verzweigungen hat uns vom Prinzip der knappen Formulierung abgebracht; daher sage ich: Gott verzeih' mir!" (vgl. Jahr 619).

Trotz der knappen Berichterstattung, die in der Chronik *Kanz ad-durar* vorwaltet, vermochte Ibn ad-Dawādārī in diesem Buch durchaus Neues zu bringen. Dies zeigt sich in einigen Informationen und Stellungnahmen, von denen zwar nur kurz die Rede ist, auf die wir aber in keiner anderen Quelle über diese Zeit stoßen. Der Schlüssel hierzu liegt darin, daß einige Quellen, aus denen Ibn ad-Dawādārī geschöpft hat, keinem anderen diese Zeit behandelnden Chronisten zugänglich waren.

Einmalig ist z. B. der ungewöhnliche Bericht Ibn ad-Dawādārīs über den Ursprung und die Frühgeschichte der Tataren (vgl. Jahr 638). Ebenso erfahren wir, daß die Boten der Kreuzfahrer an die Muslime entgegen ihren eigenen Behauptungen sehr wohl Arabisch verstanden (vgl. Jahr 589). Weiterhin lernen wir die Politik Saladins kennen, die Franken zu umwerben, vor allem Rainald von al-Karak, und ihnen reichlich Gelder zukommen zu lassen, dies zu Beginn der Zeit, als Saladin die Muslime Ägyptens und Syriens gemeinsam für den Heiligen Krieg zu mobilisieren suchte. „Er pflegte den Franken einen großen Betrag von unbekannter Höhe zu geben, um sie für sich einzunehmen; er bemühte sich, dies geheimzuhalten, damit zu niemandes Ohren gelange, daß er seinet- und seines Landes wegen Verhandlungen führe" (vgl. Jahr 568). Wir finden noch mehr derlei Andeutungen, die Licht auf den Geist der Zeit werfen, nach denen wir aber bei anderen Chronisten vergeblich suchen.

Wie oben erwähnt, war Ibn ad-Dawādārī – wie schon sein Vater und Großvater – an den großen Ereignissen seiner Zeit unmittelbar beteiligt und hatte in

Wie Aibak als frommer Mann bekannt war, so wuchs auch sein Sohn ʿAbdallāh in einer religiösen Umgebung auf, denn der Mann, der seine Mutter gekauft hatte, „war ein frommer, gewissenhafter und aufrechter Muslim, bewandert im religiösen Recht und in der Mystik; ich besitze ein Buch über den *taṣawwuf*, das er selbst geschrieben hat" — dem entnehmen wir, daß der junge ʿAbdallāh in einem Hause groß wurde, wo Bildung und Wissen gepflegt wurden. Später gehörte ʿAbdallāh zu den Vertrauten zunächst des Sultans al-Ašraf Ḫalīl und dann dessen Bruders an-Nāṣir Muḥammad. Dieser machte ihn zum Emir und übertrug ihm im Jahre 703/1303—4 Bilbais und das Beduinendepartement; dieses Amt übte er bis zum Jahre 710/1310—1 aus. Auf sein Ersuchen hin versetzte ihn an-Nāṣir nach Syrien, wo er ihn zum Mihmandār ernannte; schließlich übertrug er ihm das Amt des Šādd ad-dawāwīn in Damaskus. Bis zu seinem Tode im Jahre 713/1313—4 nahm der Vater des Autors also aktiv an den Regierungsgeschäften teil (vgl. Jahr 647)

So wurde Abū Bakr, unser Autor, in einem Haus geboren und erzogen, das den Wert und Rang der Wissenschaft kannte. Zwar bewahren die zeitgenössischen Quellen seltsamerweise völliges Stillschweigen über ihn, doch zeugen seine zahlreichen Werke von seiner wissenschaftlichen Erfahrung, von der Weite seines Horizontes und dem Reichtum seiner Kenntnisse. Zu seinen Werken zählt u. a ein Buch über die Topographie Kairos, *al-Luqaṭ al-bāhira fī ḫiṭaṭ al-Qāhira*, (vgl Jahr 557), also über einen gewiß nicht einfachen Gegenstand, an den sich nur ein fähiger Gelehrter mit sehr breitem Wissen wagen konnte. Im vorliegenden siebten Band teilt uns der Verfasser mit, daß er von Zeit zu Zeit in seinen Notizen nachsah, um sich über das eine oder andere Ereignis Gewißheit zu verschaffen. Diese Praxis, alle zu ihm gelangenden Informationen aufzuzeichnen und auf sie im Bedarfsfall zurückzugreifen, kennzeichnet seine saubere wissenschaftliche Methode (vgl. Jahr 589).

III

Die gedrängte Kürze der Chronik *Kanz ad-durar* Ibn ad-Dawādārīs hebt sich von dem Usus der mittelalterlichen Chronisten ab, auf alle Einzelheiten und Nebensächlichkeiten ausführlich einzugehen. Dieser Methode folgt der Verfasser ganz bewußt. Über einige Vorgänge sagt er selbst: „Ich behandele sie nicht ausführlich, weil der Bericht sonst zu lang würde und ich eine zusammenfassende Chronik schreiben will." Ebenso bemüht er sich, Wiederholungen zu vermeiden: „. . . nach einigen Ereignissen, die zuvor schon abgehandelt worden sind und auf deren nochmalige Erwähnung ich um der Kürze willen verzichte" (vgl. Jahr 628).

Doch wir können Ibn ad-Dawādāri nicht von seiner Zeit, die Weitschweifigkeit in Schrift und Rede liebte, trennen. Die Zeitgenossen sahen in dieser Weitschweifigkeit eine Art Abwechslung, um den Leser auf kurzweilige Art zu be-

den späteren Ayyubiden; dies verhalf ihm dazu, zahlreiche Details über die Ayyubidenherrscher und ihr persönliches Leben zu erfahren, z. B. über ihre Handlungen und Gespräche untereinander, die neues Licht auf den Geist der Zeit im allgemeinen und ganz besonders auf ihr privates und öffentliches Leben werfen (vgl. Jahre 634, 635). Zu Beginn des vorliegenden Bandes sagt der Verfasser sogar offen in seinem Bericht über die Anfänge des Ayyubidenstaates, daß er ein Freund des al-Malik al-Kāmil b. aṣ-Ṣāliḥ Ismā'īl al-Ayyūbī sei und die Freundschaft zwischen beiden so eng geworden sei, daß „er mir sogar viele seiner Geheimnisse anzuvertrauen pflegte".

Wenn der Autor über seinen Großvater väterlicherseits 'Izz ad-Dīn Aibak, den Herrn von Ṣarḫad (st. 645/1247—8) spricht, tritt klar die bedeutende Rolle hervor, die dieser Mann bei den Vorgängen in Syrien während der ersten Hälfte des siebten Jahrhunderts der Hiǧra gespielt hat (vgl. Jahre 616, 626, 635 und 647). Der Emir 'Izz ad-Dīn Aibak widmete sich nicht nur der Politik, wie es seinem Offiziersstand entsprach, sondern zeichnete sich — wie wir von seinem Enkel, unserem Autor, erfahren — durch tiefe Frömmigkeit, Begeisterung für die Koranrezitation (vgl. Jahr 647) und seine Beschäftigung mit der Schriftstellerei aus. Von ihm selbst waren Schriften bekannt, die er mit eigener Hand geschrieben hatte; auch besaß er eine reiche Bibliothek. Bei dieser Gelegenheit — der Nennung des Großvaters — erfahren wir als interessante und wichtige Neuigkeit, daß sich die Familie Ibn ad-Dawādārīs auf die Selǧuqen zurückführe und daß 'Izz ad-Dīn Aibaks eigentlicher Name Mīkā'īl b. Bahrām gewesen sei; die Ḫwārazmier hätten ihn gefangengenommen und an al-Malik al-Mu'aẓẓam verkauft. Daher leite sich seine Nisba al-Mu'aẓẓamī her, unter der er bekannt wurde (vgl. Jahr 619). Wir erfahren weiter, daß Sultan aṣ-Ṣāliḥ Naǧm ad-Dīn Ayyūb gegen 'Izz ad-Dīn Aibak konspiriert und ihm heimlich Gift gegeben habe, um sich seiner zu entledigen und sein Geld und seinen Besitz an sich zu reißen. Als Aibak die Wirkung des Giftes an sich spürte und den Anschlag aṣ-Ṣāliḥs erkannte, konspirierte er seinerseits gegen den Sultan und sorgte dafür, daß er selbst vergiftet wurde. Unter den Sklavinnen des Emirs Aibak, deren sich Sultan aṣ-Ṣāliḥ bemächtigte, war die Mutter 'Abdallāhs, des Vaters unseres Autors; sie war zentralasiatischer *(ḫiṭā'īya)* Abstammung. Aṣ-Ṣāliḥ verkaufte sie, als sie von Aibak schwanger war, an einen bedeutenden Mann in Ṣarḫad, in dessen Haus sie dann auch das Kind, 'Abdallāh, den Vater des Verfassers, gebar. Er wuchs bei jenem Mann bis zu seinem siebzehnten Lebensjahr auf; dann gelangte er unter Umständen, auf die wir hier nicht näher einzugehen brauchen, zu Sultan aẓ-Ẓāhir Baibars; dieser gewährte ihm ein Lehen im Wert von 2400 Dinar und übergab ihn dem Emir Saif ad-Dīn Balbān ar-Rūmī ad-Dawādār, zu dem er sagte: „Bring ihm etwas bei und behalte ihn ständig in deiner Nähe!" Auf diesen Dawādār geht 'Abdallāhs Nisba „ad-Dawādārī" zurück.

mals strömten viele Völker, vor allem Kurden, Türken und Turkmenen in das arabische Ägypten und Syrien ein; sie hinterließen deutliche Spuren in der sozialen, ethnischen und kulturellen Struktur des Landes, vornehmlich auf dem Gebiete der Institutionen, der Sprache, der Sitten und Gebräuche. Es genügt zur Kennzeichnung dieser Zeit zu bemerken, daß sich damals das System des Militärlehens und die Praxis, Mamluken genannte weiße Sklaven in Dienst zu nehmen, in Ägypten und Syrien ausbreiteten. In dieser Zeit tauchen auch viele später weit verbreitete Worte und Begriffe nichtarabischen Ursprungs auf, und zwar nicht etwa nur im Volk, sondern auch in der Oberschicht, also bei den Gelehrten, den Sekretären und den Schriftstellern, ganz abgesehen von den Machthabern selbst. Alle diese Erscheinungen verstärkten sich während der Ayyubidenzeit und setzten sich mit der Herausbildung des Mamlukenstaates endgültig durch, der die Ayyubiden in der Herrschaft über Ägypten und Syrien ablöste.

II

Im Rahmen dieser vereinfachten Darstellung zeichnet sich die große Bedeutung der im vorliegenden Band behandelten Periode ab, die noch dadurch verstärkt wird, daß Ibn ad-Dawādārī kein gewöhnlicher Chronist war, der sich in seinem Buch auf das bloße Sammeln, Resümieren und Wiedergeben dessen beschränkte, was Chronisten vor ihm geschrieben hatten. Vielmehr gehörte er einer Familie an, die maßgeblich am politischen Leben ihrer Zeit mitwirkte. Wenn wir den Jahren, die der Verfasser dieses Buches selbst miterlebte, diejenigen hinzurechnen, in denen sein Vater und sein Großvater lebten — beide spielten eine wichtige Rolle in ihrer Zeit —, dann ergibt sich für uns eine Zeitspanne, die grosso modo vom Anfang des siebten bis zur Mitte des achten Jahrhunderts der Hiğra reicht. Es war dies eine Periode von erstrangiger historischer Bedeutung: Damals fand der Wechsel von den Ayyubiden zu den Mamluken statt, oder — anders ausgedrückt — der Wechsel von der Epoche, in der der Aufbau des ayyubidischen Staates abgeschlossen war und ihn innere und äußere Kräfte zu zersetzen begannen, die schließlich zu seinem Sturz führten, hin zu der Zeit, in der sich die charakteristischen Züge und die Grundlagen des Staates der Mamlukensultane herausbildeten, der sich zu einer einflußreichen Kraft entwickelte. Dieser war einer der seltsamsten Staaten, die die Geschichte je gekannt hat, und zwar auf Grund sowohl seiner Entstehung als auch seiner Institutionen und der militärischen, politischen und kulturellen Rolle, die er auf der Bühne des Vorderen Orients im Spätmittelalter spielen sollte.

Den Verfasser dieses Buches, der die bewegte und ereignisreiche Epoche zu Beginn der Mamlukenherrschaft selbst erlebt hat, verbanden enge Beziehungen mit

EINLEITUNG

I

Der hier vorliegende Band ist der siebte der Chronik *Kanz ad-durar wa-ǧāmiʿ al-ġurar* von Abū Bakr b. ʿAbdallāh b. Aibak ad-Dawādārī; der Verfasser hat ihm den Namen *ad-Durr al-maṭlūb fī aḫbār mulūk banī Ayyūb* gegeben, getreu seiner Praxis, jedem Einzelband dieser Chronik einen Untertitel beizufügen, der die darin behandelte Zeit und Dynastie näher bezeichnet.

Wer sich mit der Geschichte des Vorderen Orients im Mittelalter näher befaßt, kennt die Bedeutung gerade des Zeitalters der Ayyubiden, handelt es sich doch dabei um eine Zeit, in die eine der entscheidenden Phasen der Kreuzzugsbewegung fiel. Damals begann sich der Islam unter Aufbietung aller Kräfte in einem Heiligen Krieg gegen die Anwesenheit der europäischen Kreuzfahrer in Syrien zu wenden. Zu deren schließlich erfolgreicher Abwehr trug die Vereinigung Ägyptens und Syriens unter den Ayyubiden maßgeblich bei; wurden doch unter den Ayyubiden die Kreuzfahrer erstmals in die Defensive gedrängt: die Muslime vor allem Syriens gingen zum Angriff über. Jetzt erkannten die Anhänger und Organisatoren der Kreuzzüge im Westen, was auch den ersten Kreuzfahrern nicht vollständig verborgen geblieben war, nämlich daß Ägypten auf Grund seiner Lage, seiner Mittel und Möglichkeiten für die syrischen Kreuzfahrer eine Quelle großer Gefahr war und sich die Kreuzfahrer, wollten sie sich in Syrien sicher fühlen, zuerst um den Schutz ihrer Südflanke von Ägypten her kümmern mußten. So war denn Ägypten gegen Ende der Ayyubidenzeit in der ersten Hälfte des 13. Jhs. zwei großen Angriffen von seiten der Kreuzfahrer ausgesetzt, mit denen ein großer Teil der Ereignisse zusammenhängt, die die Geschichte des Vorderen Orients zur Zeit der Ayyubiden prägten.

Die Bedeutung des Zeitalters der Ayyubiden in der Geschichte dieses Raumes rührt aber auch von auswärtigen Entwicklungen her, wie z. B. dem Zerfall des ḫwārazmischen Staates, dem Auftauchen der Mongolen- bzw. Tatarengefahr im Osten und all dem, was beide Vorgänge an weitreichenden kulturellen und politischen Rückwirkungen vor allem in Ägypten und Syrien mit sich brachten. Da-

DRUCKEREI ISSA ËL-BABY EL-HALABY, KAIRO

Deutsches Archäologisches Institut Kairo

Quellen zur Geschichte des Islamischen Ägyptens

BAND 19

DIE CHRONIK
DES IBN AD-DAWĀDĀRI

SIEBTER TEIL

DER BERICHT ÜBER DIE AYYUBIDEN

HERAUSGEGEBEN VON

SAʿĪD ʿABD AL-FATTĀḤ ʿĀŠŪR

IN KOMMISSION BEI SCHWARZ FREIBURG/BR.

1972